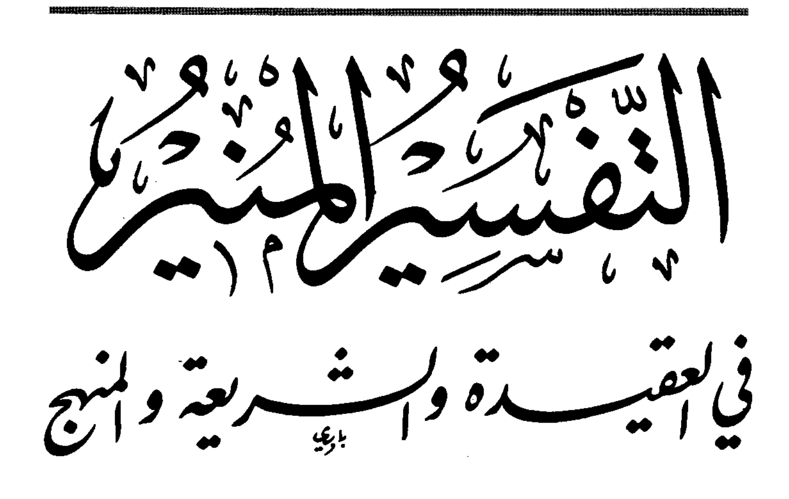
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾

(الأنفال ٨ / ٢٤)



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الحادي عشر

الجزءان ٢١ ـ ٢٢





 دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الحادي عشر

الرقم الاصطلاحي: ١١- ١١٠,١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

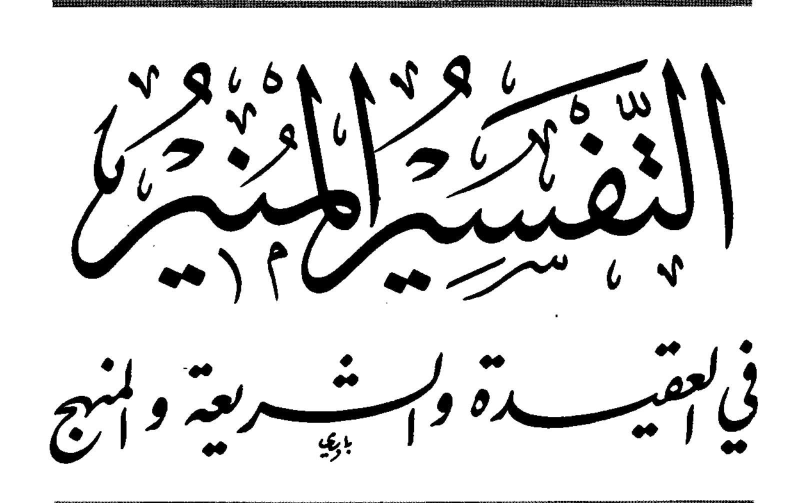
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٦٠ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الحادي عشر

الجزءان ٢١ ـ ٢٢

طريقة إرشاد أهل الكتاب

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾
بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿ءَايَٰتٌ﴾: قرئ:

١- (آية) وهي قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي.

ووقف ابن كثير، والكسائي بالهاء. ووقف حمزة بالتاء.

٢- (آيات) وهي قراءة باقي السبعة.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ المجادلة والجدل: الحجاج والمناظرة والمناقشة ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، يؤمنون بوجود الله واليوم الآخر وبالتوراة والإنجيل ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين، والغضب بالكظم وضبط النفس، والمشاغبة بالنصح، والتنبيه إلى آيات الله وحججه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي لكن الظالمون منهم بالإفراط في الاعتداء والعناد والمحاربة،

فجادلوهم وعاملوهم بالمثل ﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لمن سالمكم وأذعن للحق أو قبل المعاهدة السلمية معكم إذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي صدّقنا بما أنزله الله إلينا وهو القرآن، وما أنزله إليكم في أصوله الصحيحة من التوراة والإنجيل، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم في ذلك، فهذا من المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ فيما يأتي تخريجه: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وملائكته وبكتبه ورسله، فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم، وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم».

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ خاضعون مطيعون له خاصة، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ أي القرآن، كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها، وكان القرآن وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ بالقرآن ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهل مكة أو العرب أو الكتابيون الموجودون في عهد الرسول ﷺ ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها، والجحد: إنكار الشيء بعد معرفته والعلم به ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ المتوغلون في الكفر، وهم المشركون وغير المسلمين الذين لا يؤمنون بالإسلام والقرآن والنبي محمد ﷺ، بعد أن ظهر لهم أن القرآن حق، ومحمد ﷺ حق، ثم جحدوا ذلك.

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ أي إنك أُمِّي لم تكن تعرف القراءة والكتابة قبل نزول القرآن، فإن هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الذي نزل على أمي لم يعرف القراءة والتعلم أمر خارق للعادة ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي لو كنت قارئاً كاتباً لشكّ أهل الباطل كاليهود فيك. وإنما سماهم مبطلين لكفرهم وكونهم غير محقين فيما ذهبوا إليه من التنكر لرسالة الإسلام.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن الذي جئت به ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي هو آيات واضحات الدلالة على الحق في قلوب أهل العلم وهم المؤمنون فيحفظونه من كل تحريف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي وما ينكر آيات الله إلا الظالمو أنفسهم الذين جحدوا وجه الحق، بعد وضوح دلائل إعجاز تلك الآيات.

المناسبة:

بعد بيان الله تعالى طريقة إرشاد المشركين عبدة الأصنام أو غيرها، أبان الله تعالى طريقة إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى المنكري نبوة محمد ﷺ، والقائلين ببقاء شريعتهم وأنها لم تنسخ بشريعة أخرى، مبتدئاً بأمر الرسول ﷺ والمؤمنين به أن يعلنوا إيمانهم بالقرآن وبما تقدمه من التوراة والإنجيل، وبإطاعة الإله الواحد، ثم مبيناً إيمان بعض أهل الكتاب وبعض المشركين من أهل مكة بالقرآن، ثم موضحاً دليل الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ، وهو كونه أمياً لم يقرأ ولم يكتب، وكون القرآن مشتملاً على علوم نافعة فريدة.

التفسير والبيان:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي ولا تحاججوا، ولا تناقشوا اليهود والنصارى إلا بالطريقة الحسنة وبالأسلوب الهادئ اللطيف، إلا الذين ظلموا أنفسهم، وحادوا عن سبيل الحق، وعَمُوا عن واضح الحجة، وعاندوا وكابروا، ولم ينفع معهم أسلوب المنطق والإقناع العقلي، فهؤلاء يعاملون بالمثل، ويرد على عدوانهم ومكابرتهم بطريقتهم نفسها، فيقاتلون ويردعون بالحرب، وهؤلاء - كما قال مجاهد وسعيد بن جبير - هم الذين نصبوا للمؤمنين الحرب، فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية. وهذا هو العلاج الحاسم كما قال الشاعر:

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

أما القسم الأول من الآية، فقال قتادة وآخرون: هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. واحتجوا بأن الآية مكية. والحق كما قال مجاهد وآخرون إن هذه الآية باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم - من أهل الكتاب - في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ويدعى إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، وينبه على حججه وآياته، رجاء إجابته إلى الإيمان، بغير إغلاظ ولا مخاشنة، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٢٠/٤٤]. واختار هذا القول ابن جرير الطبري.

وأما القسم الثاني من الآية فلا خوف في محاربته لعدوانه، فيقاتل بما يمنعه ويردعه، قال الله عز وجل: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٥٧/٢٥].

أسلوب الجدال:

أ- ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي إذا دعوتم أيها الرسول وأتباعه أهل الكتاب إلى الإيمان برسالة الإسلام، وأخبروكم عما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فلا تصدقوهم؛ لأنه قد يكون كذباً أو باطلاً، ولا تكذبوهم لأنه قد يكون حقاً أو صحيحاً، وإنما قولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وإليكم وإلى البشر كافة، وآمنا بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم أي نؤمن بالمنزَّل فعلاً على موسى وعيسى عليهما السلام، غير المبدَّل ولا المؤول، ومعبودنا ومعبودكم الحق واحد لا شريك له، ونحن له خاضعون مطيعون أمره ونهيه.

أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا، وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون».

وأخرج الإمام أحمد أن أبا نملة الأنصاري(١) أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: الله أعلم، قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم».

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم يَهْدُوكم وقد ضَلُّوا، إما أن تُكذِّبوا بحق، وإما أن تصدقوا بباطل».

وأخرج البخاري عن حُمَيد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذَكَر كعب الأحبار، فقال: «إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك، لَنَبْلُو عليه الكذب».

٢ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي كما أنزلنا الكتب على من قبلك من الرسل أيها الرسول، أنزلنا إليك هذا الكتاب (القرآن) فالذين آتيناهم الكتاب السابق من اليهود والنصارى، إذا أخذوا هذا

(١) أبو نملة: هو عمارة، أو عمار، أو عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصاري رضي الله عنه.

القرآن، فتلوه حق تلاوته، كعبد الله بن سَلام وسلمان الفارسي وأشباههما آمنوا وصدقوا بنزوله من عند الله، وكذلك بعض كفار قريش وغيرهم يؤمنون به؛ لأنه - كما عرفوا من لغة البيان - ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله الموحى به إلى نبيه.

وما يكذّب بآياتنا ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويطمس معالم الهداية والنور، ويعاند في كفره ويستكبر، فلا يؤمن بالله وحده، ولا يشكر نعمة الله عليه. وهذا تنفير عما هم عليه من الشرك والباطل.

٣ - ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وما كنت أيها الرسول في تاريخك مع قومك تقرأ من قبل نزول القرآن من كتاب آخر، ولا تعرف الكتابة ولا تستطيع أن تخط شيئاً من الكتاب؛ إذ لو كنت قارئاً وكاتباً لشك المشركون الجهلة فيما نزل إليك، وقالوا: لعلّ ذلك مأخوذ من كتب سابقة، ولما لم يكن كاتباً ولا قارئاً فلا وجه لارتيابهم. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخطّ ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية. وقال النحاس: الدليل على نبوة محمد ﷺ لقريش أنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتأكيد النفي، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضاً، وذكر اليمين خرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨].

والخلاصة: إن صفة النبي محمد ﷺ في الكتب المتقدمة وتاريخه المعروف بين قومه: أنه رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

فلا وجه أصلاً للشك في أن هذا القرآن نزل من عند الله، لا بإيحاء بشر ولا مَلَك ولا جانّ، وبالرغم من نصاعة هذه الحقيقة، ومع علم قريش بأن محمداً ﷺ أُمّي لا يحسن الكتابة، اتهموه بأخذه عن الكتب المتقدمة، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٢٥/٥].

وتأكيداً لما سبق أن القرآن منزل من عند الله، قال تعالى:

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾ أي بل إن هذا القرآن آيات واضحة الدلالة على الحق، وذلك أمر مستقر في قلوب العلماء من أهل الكتاب وغيرهم، ولكن ما ينكر وما يكذب بآيات الله النيِّرة ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ١٠/٩٦-٩٧].

والخلاصة: إن هذا القرآن العظيم ليس من مخترعات البشر، بل هو آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهياً وخبراً، يفهمه العلماء ويحفظونه، وقد يسّر الله عليهم حفظه وتلاوته وتفسيره، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: ٥٤/١٧]. وروى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أُعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - فضيلة الجدال والنقاش بالأسلوب الحسن وبالحكمة والموعظة الحسنة، فذلك أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة، والوصول إلى الإيمان، وتحقيق الهدف المقصود.

٢ً - إن المعاملة بالمثل واللجوء إلى القتال والعنف واستخدام القوة هو السبيل المتعين في الرد على أهل العصبية والعناد والإصرار على الكفر.

٣ً - إن هذه الآية الآمرة بالجدال بالتي هي أحسن والدعوة إلى الله عز وجل بالحجة والمنطق والبرهان آية محكمة، كما قرر أثبات العلماء والمفسرين مثل مجاهد التابعي وغيره، قال القرطبي: وقول مجاهد حسن؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها: إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول[(١)]. وهذا اختيار ابن جرير الطبري وابن العربي. قال ابن العربي: الآية ليست منسوخة، وإنما هي مخصوصة؛ لأن النبي ﷺ بُعث باللسان يقاتل به في الله، ثم أمره الله بالسيف واللسان، فمن قاتل قتل، ومن سالم بقي الجدال في حقه، ولكن بما يَحْسُن من الأدلة، ويَجْمُل من الكلام، ولين الخطاب[(٢)].

٤ً - بعض أهل الكتاب معتدلون في آرائهم ومعتقداتهم، بعيدون عن الشرك وإثبات الولد والتثليث، وهؤلاء ينفع معهم الجدال والنقاش، فهم يؤمنون بالله وبكتابهم وباليوم الآخر، ولم يبق إلا الإيمان بمحمد ﷺ، كالإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام.

وبعض أهل الكتاب متعصبون حاقدون خلطوا بين التوحيد والتثليث، وحرفوا في الكتاب وغيروا، ونسبوا لله ولداً أو شريكاً، ثم صيروه هو الإله، وهؤلاء يصعب معهم الجدال وقد لا ينفع معهم النقاش، ومع ذلك ندعوهم

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٥٠

(٢) أحكام القرآن: ٣/ ١٤٧٥ بتصرف

إلى الإيمان بالتي هي أحسن؛ لأنه لا إكراه في الدين، والإسلام يقرّ بحرية الرأي والتعبير والاعتقاد، بعد التبليغ والإنذار، والترغيب والترهيب.

وأما المشركون عبدة الأوثان ففي جزيرة العرب لا مجال لإقرارهم على وثنيتهم، وأما في غير جزيرة العرب، فكذلك ندعوهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٥ً - النبي محمد ﷺ قبل نزول القرآن كان أُمِّياً لا يقرأ ولا يكتب بشهادة الكتب السماوية المتقدمة، وبمعرفة قومه الذين عايشوه في مكة مدة أربعين عاماً.

وأُمِّية النبي ﷺ دليل قاطع واضح على أن القرآن كلام الله العزيز الحكيم.

ثم ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: ما مات النبي ﷺ حتى كتب، وقرأ. وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي في صلح الحديبية كتب بيده: محمد بن عبد الله، ومحا كلمة رسول الله، حينما أصرّ المشركون على عدم كتابتها.

قال القرطبي: الصحيح أنه ﷺ ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجّى. وقال: «إنّا أُمة أُمِّية لا نكتب ولا نحسُب» رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عمر.

٦ً - آيات القرآن آيات بيِّنات واضحات، وليس هذا القرآن كما يقول المبطلون: إنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه. وتلك الآيات يحفظها علماء الأمة ويقرؤونها، وقد وصف الله المؤمنين بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين، قال كعب الأحبار في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء، وهم في الفقه أنبياء.

٧ً - لا ينكر كون القرآن منزلاً حقاً من عند الله إلا القوم المبطلون الجاهلون وهم المشركون، وإلا الكفار الظالمون الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وما جاء به.

٨ً - ليس القرآن من مخترعات أحد من الملائكة أو الإنس أو الجن؛ إذ لا يستطيع الكل على الإتيان بمثله أو بمثل عشر آيات أو بمثل سورة من أقصر سوره. وهذا الإعجاز المتحدى به دليل قاطع على كونه كلام الله الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى ﷺ.

بعض مطالب المشركين التعجيزية

الإتيان بمعجزات حسية واستعجال بالعذاب

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَيَقُولُ﴾: قرئ:

١- (ويقول) وهي قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (ونقول) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تحضيض.

﴿ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ طباق.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لإفادة القصر عليهم لا غيرهم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إطناب بذكر العذاب مرات بقصد الإرهاب والتشنيع على المشركين.

﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي بهم، بوضع الظاهر موضع المضمر.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي قال كفار مكة: هلا أنزل على محمد ﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى. ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد لهم: إنما الآيات ينزلها الله كيف يشاء، ولست أملكها، فآتيكم بما تقترحونه. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ليس من شأني إلا إنذار أهل المعصية بالنار بما أُعطيت من الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية لما طلبوا أو اقترحوا. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن. ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم، فهو آية ثابتة مستمرة لا انقضاء لها، يتحداهم، بخلاف سائر الآيات. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة. ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عظة وتذكرة. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن همهم الإيمان دون التعنت.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ يشهد بصدقي. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ويعلم حالي وحالكم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو ما يعبد من دون الله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢]. ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معلوم محدد لكل عذاب أو قوم. ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فجأة، في الدنيا كوقعة بدر، وفي الآخرة عند نزول الموت بهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾بوقت إتيانه. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ في الدنيا. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب. ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ﴾ ظرف لكلمة (محيطة) و﴿يَغْشَاهُمُ﴾ يصيبهم. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ الله أو المَلَك الموكل بالعذاب. ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه، فلا تفوتونا.

سبب النزول:

نزول الآية (٥١):

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده وأبو داود عن يحيى بن جَعْدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب كتبوها، فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم حُمْقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم»، فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وأخرج البخاري عند تفسير الآية قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» أي يستغني به عن غيره.

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ

وقال: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم».

المناسبة:

بعد بيان كون القرآن منزلاً من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ، ذكر الله تعالى شبهة للمشركين وهي أنهم قالوا للنبي ﷺ: إنك تقول: إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى، أفلا تأتينا بآية أو معجزة مادية محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى؟ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ليس من شرط الرسالة الآية المعجزة، والله إن أراد ينزلها، وإن لم يرد لا ينزلها، وكفى بالقرآن آية فهو معجزة ظاهرة باقية، والله شهيد عليم يحكم بين عباده.

وبعد بيان الطريقين في إرشاد الفريقين: المشركين وأهل الكتاب، أعلن الله تعالى الإنذار الشامل العام بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ولما أنذروا بالخسران أوضح تعالى أن العذاب لا يأتيهم بسؤالهم أو استعجالهم، وإنما له أجل مسمى اقتضته حكمته وارتضته رحمته.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي وقال المشركون تعنتاً وتعجيزاً وعناداً: هلا أنزل على محمد آية حسية مادية، مثل الآيات التي أنزلت على الأنبياء المتقدمين، كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى، تكون دليلاً على صدقه، ومعجزة تثبت أنه رسول من عند الله!!

فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قل يا محمد لهم:

إنما أمر إنزال الآيات وإرسال المعجزات إلى الله تعالى، فلو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه سبحانه يعلم أنكم قصدتم بطلبكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى مطلبكم، كما قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٩].

وإنما بعثت نذيراً لكم بَيِّن الإنذار من عذاب شديد إذا بقيتم على كفركم، لا الإتيان بما تقترحون، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى، وليس علي هداكم، إنما الهدى على الله الذي قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٧] وقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢].

ثم أبان الله تعالى كثرة جهلهم وسخافة عقولهم، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، مع إنزال القرآن عليه، فقال:

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي أما يكفيهم دليلاً على صدقك أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحَكَمُ ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، وقد جئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، وأبنت الصواب فيما اختلفوا فيه، كما قال: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٣].

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ أي قل يا محمد لهم: كفى الله

عالماً وحَكَماً عدلاً بيني وبينكم، فهو أعلم بما صدر منكم من التكذيب، وبما أقول لكم وأبلغكم به من أوامر وإنذارات وبما أرسلني به إليكم، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٧] وإنما أنا صادق فيما أخبرتكم به، ولهذا أيّدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، يعلم جميع ما هو كائن ويكون في السماوات والأرض، ومن جملة علمه: أنه يعلم حالي وحالكم، من صدقي وتكذيبكم وإنكاركم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي والذين صدقوا بما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام ونحوها، وجحدوا بوجود الله أو توحيده، مع توافر الأدلة على الإيمان به، أولئك هم الخاسرون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، وسيجزيهم الله يوم القيامة على ما فعلوا، ويعاقبهم على ما صنعوا من تكذيب برسل الله، مع قيام الأدلة على صدقهم، وإنكار للحق، واتباع للباطل من الإيمان بالطواغيت والأوثان بلا دليل.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يقتضي الحصر، أي من أتى بالإيمان الباطل والكفر بالله، فهو خاسر، وكل من آمن بالباطل، فقد كفر بالله.

ثم أخبر الله تعالى عن جهل المشركين وحماقتهم في استعجالهم إيقاع عذاب الله بهم، فقال:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي ويتعجل كفار قريش نزول العذاب بهم، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢].

ولولا كون العذاب محدداً بوقت معلوم، ولولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة، لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة، وهم لا يحسون بمجيئه، بل يكونون في غفلة عنه.

ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله:

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب.

ثم وصف تعالى كيفية إحاطة العذاب بقوله:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي يوم يعمهم العذاب من كل الجوانب، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من كفر ومعاصٍ، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤١] وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٦] وقال عز وجل: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٩] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - طلب المشركون من النبي ﷺ معجزة مادية محسوسة، مثل عصا موسى وناقة صالح ومائدة عيسى، على سبيل العناد والمكابرة، لا على سبيل التوصل بحسن نية إلى الإيمان بالله عز وجل وتوحيده.

٢ً - كان الرد القرآني المفحم عليهم أنه: ألا يكفيهم هذا الكتاب المعجز الذي قد تحداهم الله بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه، فعجزوا. ولو أتاهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر؛ والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة. وليس من شرط الرسالة وجود المعجزة، فقد علمنا وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب، ولم تعلم لهم معجزة.

٣ً - والقرآن رحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة، وفي الآخرة بصرفهم عن النار، وهو أيضاً ذكرى في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق، ومعجزة باقية يتذكر بها كل إنسان على مرّ الزمان. فيكون القرآن أتم من كل معجزة؛ لأنه باقي الأثر، والمعجزات المادية لم يبق لها أثر، ولأنه بلغ خبره المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، والمعجزات المادية محصورة في مكان واحد.

٤ً - يقال للمكذبين: كفى بالله شهيداً يشهد للنبي ﷺ بالصدق في ادعائه أنه رسول، وأن هذا القرآن كتابه. وهذا إنذار وتهديد يفيد تقريراً وتأكيداً.

٥ً - قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء: احتجاج على المكذبين في صحة شهادة النبي ﷺ عليهم؛ لأنهم أقروا بعلم الله الشامل، فلزمهم أن يقرّوا بشهادته.

٦ً - إن المشركين أو الكفار الذين يؤمنون بالباطل وهو إبليس أو بعبادة الأوثان والأصنام، ويكفرون بالله لتكذيبهم برسله، وجحدهم لكتابه، وإشراكهم به الأوثان، وإضافة الأولاد والأضداد إليه، هم الخاسرون أنفسهم وأعمالهم في الآخرة. وهذا يشمل أهل الكتاب؛ لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ولا بأن القرآن منزل من عند الله تعالى، فدلّ ذلك على أن الآية إنذار عام شامل.

٧ً - قال المشركون لفرط الإنكار والإمعان في الكفر: عجل لنا هذا

العذاب الذي توعدنا به، كما قال النضر بن الحارث وأبو جهل فيما أخبر القرآن: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] وقالا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ١٦].

٨ً - اقتضت الحكمة الإلهية رحمةً بالناس ولإعطائهم فرصة كافية للإصلاح والتوبة تأخير العذاب إلى أجل محدد ووقت معين وهو يوم القيامة، فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر، بدليل قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٧]. وسيأتي العذاب الذي استعجلوه حتماً فجأة، وهم لا يعلمون بنزوله.

٩ً - إن كفار قريش وأمثالهم يستعجلون نزول العذاب، وقد أعدّ الله لهم جهنم، وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال؟ وإن ذلك العذاب يصيبهم يوم القيامة من جميع جوانبهم؛ فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم، ويقال لهم من قبل المَلَك بأمر الله: ذوقوا ما كنتم تعملون.

الأمر بالهجرة عند تعذر إقامة الشعائر الدينية

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾: قرئ:

١- (ياعباديَ الذين) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم.

٢- (ياعباديْ الذين) وهي قراءة الباقين.

﴿أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾:

وقرأ ابن عامر (أرضيَ واسعة).

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (لَنُثْوِيَنَّهم).

﴿وَكَأَيِّن﴾:

وقرأ ابن كثير (وكائن).

الإعراب:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: ﴿غُرَفًا﴾ مفعول به ثانٍ لـ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لأنه يتعدى إلى مفعولين، أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٢/٢٦] فاللام زائدة في ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ و﴿ٱلْبَيْتِ﴾: مفعول ثان.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الهاء والميم في﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾: ﴿وَكَأَيِّن﴾: في موضع رفع مبتدأ، بمنزلة (كم) و﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾: تبيين له. و﴿لَّا تَحْمِلُ﴾: في موضع جر؛ لأنها صفة ﴿دَآبَّةٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَرْزُقُهَا﴾ خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع؛ لأنه خبر ﴿وَكَأَيِّن﴾.

البلاغة:

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتيسر لكم العبادة في بلدة أو إقامة شعائر الدين، فهاجروا إلى أي أرض أخرى تتيسر فيها العبادة؛ قال ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض، ولو كان شبراً، استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام». والفاء في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ في جواب شرط محذوف، إذ المعنى: إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض، فأخلصوها في غيرها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي تناله لا محالة. ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد لذلك الجزاء. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لننزلنهم، وقرئ: (لنثوينهم) أي لنقيمنهم؛ من الثواء، أي الإقامة، وتعدية هذا الفعل إلى كلمة ﴿غُرَفًا﴾: بحذف ﴿مِّنَ﴾ أي تكون منصوبة بنزع الخافض، أو لأنه أجري مجرى (لننزلنهم).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها على الدوام. ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقرئ: «فنعم» والمخصوص بالمدح محذوف دلّ عليه ما قبله، أي نعم هذا الأجر. ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي هم الصابرون على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين وغير ذلك من المحن والمشاق. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي ولا يتوكلون إلا على الله، فيرزقهم من حيث لا يحتسبون، لأن الرازق هو الله الذي يهيئ الأسباب للرزق وحده، فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي كم. ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تطيق حمله لضعفها. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائركم.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٦):

﴿يَٰعِبَادِيَ﴾: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها. قال مقاتل والكلبي: هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، أي في قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا: نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة.

نزول الآية (٦٠):

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾: عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: اخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوروا الظلمة، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا، ولا من يسقينا، فنزلت الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ليس معها رزقها مدخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة.

المناسبة:

بعد إنذار المشركين وأهل الكتاب بالخسران وجعلهم من أهل النار، اشتد عنادهم وزاد فسادهم، وكثر أذاهم للمؤمنين، ومنعوهم من العبادة، فأمرهم الله تعالى بالهجرة إلى بلاد أخرى، إن تعذرت عليهم العبادة في بلادهم، مما يدل على أن المقام في دار الحرب حرام، والخروج منها واجب. وأبان تعالى أن توقع المكروه لا يمنع من الهجرة، فالمكروه إن لم يحدث بالهجرة، وقع بالموت في أي مكان، كما أبان أنه سبحانه تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته حيثما كانوا.

التفسير والبيان:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي أيها العباد

المصدقون بي وبرسولي محمد ﷺ، إن أرضي واسعة غير ضيقة، يمكنكم المقام فيها في أي موضع، فإذا تعذرت عليكم العبادة وإقامة شعائر الدين بسبب منع الكفار وأذاهم، فهاجروا إلى المكان الذي تتمكنون فيه من إقامة الشعائر الدينية. وبالرغم من أن كلمة ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ لا تتناول إلا المؤمنين، فقد أتبعت بوصف﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لا للتمييز، بل لمجرد بيان اشتمالهم على هذا الوصف.

فهذا أمر للمؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، وهو حثّ على إخلاص العبادة لله تعالى.

والمقصود من الهجرة: إعداد المؤمن الكامل المخلص الذي يبيع نفسه وماله ووطنه في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وكانت الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة قبل الفتح، ثم زال وجوبها.

أخرجَ الإمام أحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم».

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مُقامهم فيها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين لدى أَصْحَمَة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم بنصره، ثم هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة المنورة.

وبعد أن أمر الله تعالى عباده بالحرص على العبادة والإخلاص فيها وصدق الاهتمام بها، أبان أن الدنيا ليست بدار بقاء، وأمر بالاستعداد إلى دار الجزاء، فقال:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي إن الموت كائن لا محالة بكل نفس، وأينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وحيث

أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بدّ منه ولا محيد عنه، سواء في الوطن أو خارجه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب.

والخلاصة: إن المكروه لا بدّ من وقوعه، فلا يصح أن يصعب على المؤمنين ترك الأوطان ومفارقة الإخوان.

ثم بيَّن الله تعالى نوع جزاء المؤمن المهاجر بدينه، فراراً من الشرك والمعاصي فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا صالح الأعمال من التزام أوامر الله واجتناب نواهيه، لننزلنهم أو لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحت أشجارها الأنهار، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، ماكثين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولاً، جزاء لهم على أعمالهم، نعم الجزاء، ونعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين.

وهذا الجزاء في مقابل جزاء الكافرين السابق ذكره: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فكما أن للكافرين النيران، يكون للمؤمنين الجنان أجر عملهم.

ومن صفات هؤلاء العاملين:

الصبر والتوكل:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي إن أولئك المؤمنين الذين صبروا على القيام بواجبات دينهم من صلاة وصيام وهجرة في سبيل الله، وجهاد الأعداء، ومفارقة الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله، وتحمل أذى المشركين، وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليه أمورهم في أحوالهم كلها في دينهم

ودنياهم، فقاموا بما يجب عليهم، ثم تركوا أمر تحقيق النتائج إلى ربهم، من نصر ونجاح ورزق وعزة وغير ذلك.

وذكر صفتي الصبر والتوكل هنا مناسب للمقام، فإن الهجرة والجهاد وترك الأوطان ومفارقة الإخوان تتطلب الصبر على تحمل الأذى، والمواظبة على عبادة الله تعالى والتوكل عليه.

ثم ذكر الله تعالى ما يعين على التوكل وهو معرفة أن الله هو الكافي في رزق مخلوقاته فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي إن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين وجدوا، فكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها، ولا تستطيع جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد، الله يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره لها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ويكفيه، سواء كان في باطن الأرض، أو طيراً في الهواء، أو حوتاً في الماء، والله هو السميع لأقوال عباده، العليم بضمائرهم وأسرارهم وما في قلوبهم.

وقد أنجز الله وعده، فكانت أرزاق المهاجرين في المدينة أكثر وأوسع وأطيب، وصاروا بعد زمن قصير حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦/١١].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مطلوبة واجبة حال وجود أذى الكفار وتعذر إقامة شعائر الدين، فعلى المسلم أن يتلمس عبادة الله في أرضه

مع صالحي عباده، فإن كان في حال مضايقة من إظهار الإيمان في أرض، فهاجر إلى أرض أخرى، فإن أرض الله واسعة، لإظهار التوحيد بها. وهذا كان مناسباً للمؤمنين في صدر الإسلام حيث هاجروا من مكة مهد الشرك والوثنية إلى المدينة الطيبة المطهرة، ثم ارتفع الوجوب ولم تعد الهجرة واجبة بعد فتح مكة، وإنما بقيت الهجرة بمعنى هجر السوء وترك ما نهى الله عنه.

والآية نزلت في الهجرة قبل الفتح، لا في الهجرة مطلقاً في كل زمان ومن أي بلد، ولكن بعمومها تعدّ مستنداً للقول بوجوب الهجرة على الدوام عند الإمكان إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.

٢ - رغَّب الله في الهجرة السابقة من مكة إلى المدينة بتحقير أمر الدنيا ومخاوفها وبيان أن البشر كلهم ميتون ومحشورون إلى الله، وما عليهم إلا المبادرة إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل.

٣ - وعد الله المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه وهو دخول الجنان التي تجري من تحتها الأنهار وإسكانهم المنازل العالية.

روى مسلم في صحيحه عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراؤون أهلَ الغرف من فوقهم، كما تتراؤون الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين».

وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغُرَفاً يُرى ظهورُها من بطونها وبطونها من ظهورها، فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: هي لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعامَ، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام».

٤ً - من أهم صفات المؤمنين الذين يستحقون الجنان: الصبر على الأذى وعلى مشاق التكاليف الشرعية، والتوكل على الله، فهما صفتان تدلان على العلم بالله تعالى، وهما صفتان مناسبتان أيضاً للهجرة والجهاد موضوع الآيات.

٥ً - بدّد الله سبحانه مخاوف المهاجرين ومخاطر المغتربين، فأبان أن الموت حتمي في أجل مسمى، فلا يزيد العمر ولا ينقص، سواء أكان الشخص مقيماً في موطنه، أم مسافراً مغترباً بعيداً عن بلده، كما قال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٤/٧٨].

وأبان أيضاً أن الرزق مكفول ومقسوم منه تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٢٢] ومن رحمته سبحانه أنه ييسر الرزق رغداً لكل دابة كل يوم، رغم ضعفها، وأنها لا تدخر شيئاً لغد، سواء أكانت الدابة في جوف الأرض أم في ظاهرها أم في أعماق المياه، أم في أعالي الفضاء.

والله تعالى سميع لعباده إذا طلبوا منه الرزق، يسمع ويجيب، عليم إن سكتوا، لا تخفى عليه حاجتهم ولا مقدار حاجتهم.

اعتراف المشركين بالإله الخالق الرازق المحيي

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

البلاغة:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ اللام: لام القسم، والسؤال للكفار من أهل مكة وأمثالهم. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك. ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسع لمن يشاء امتحاناً. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق لمن يشاء ابتلاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم، ومنها محل البسط والتضييق.

﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذا اعتراف منهم بأن الله الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها، فكيف يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك من هذه الضلالة، وعلى تصديقك وإظهار حجتك عليهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تناقضهم في ذلك، إنهم يتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه، ثم يشركون به الصنم.

المناسبة:

بعد بيان أمر المشركين ومطالبهم التعجيزية وسوء أعمالهم، ثم مخاطبة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ذكر تعالى ما يكون إرشاداً للمشرك إذا فكر وتأمل، بأسلوب أدبي رفيع تضمن نصح المفسد أولاً، ثم مخاطبة الرشيد، ليسمع المفسد، على طريقة: (إياك أعني واسمعي يا جارة)، وكأن المتكلم يقول: إن هذا لا يستحق الخطاب، فاسمع أنت، ولا تكن مثل هذا المفسد، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح، وزجر المفسد، ودعوته إلى سبيل الرشاد، وهو الإقرار بوحدانية مبدع العالم، وخالق السماء والأرض وما فيهما، ورازق المخلوقات، ومحيي الأرض بعد موتها.

التفسير والبيان:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي والله لئن سألتَ يا محمد المشركين بالله: من الذي أوجد وأبدع السماوات وما فيها من الكواكب النيِّرات، والأرض وما حوته من كنوز ومعادن، وذلَّل الشمس والقمر يجريان لمصالح الْخَلْق، وأدى ذلك إلى تعاقب الليل والنهار، لو سألتهم لأجابوا بأن المستقل بالخلق والإيجاد هو الله عز وجل.

وإذ أقروا بذلك واعترفوا، فكيف يصرفون عن توحيد الله وإخلاص العبادة له؟! فإن الاعتراف بأن الله هو الخالق يمنع المشركين من عبادة إله آخر سواه، أو اتخاذ شريك معه، والاعتراف بتوحيد الربوبية الصادر من المشركين بقولهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَك» يقتضي الإقرار بتوحيد الألوهية، وكثيراً ما يذكر الله تعالى توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية.

وبعد الاعتراف بالخلق، ذكر تعالى ما هو سبب لدوام الحياة، وبقاء المخلوقات وهو الرزق، فقال:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾
أي إن الله يوسع الرزق لمن يريد من عباده امتحاناً له، ويضيق أو يقتِّر على من يريد ابتلاء واختباراً، فالله هو الخالق الرازق لعباده، يقسم وحده الأرزاق على وفق الحكمة ومقتضى المصلحة؛ لأن الله عليم بكل شيء من المفاسد والمصالح، ومقتضيات سعة الرزق وتضييقه، فيمنح ويمنع، بما هو الأصلح وما هو خير لعباده في الحالين، ويحصل التفاوت بين الناس في الأرزاق، ويكون هناك الغني والفقير، والله هو العليم بما يصلح كلّاً منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨] وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٤٢/٢٧]

ثم ذكر تعالى سبب الرزق وهو إنزال الماء، فقال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ أي ومن الحقائق الثابتة أنك لو سألتهم أيضاً عمن ينزل المطر من السحاب، فيحيي به الأرض الجدباء الهامدة التي لا حركة فيها بالنبات الأخضر، لأجابوك بأنه هو الله المبدع الموجد لكل المخلوقات، ثم يتعجب الإنسان من إشراكهم بعد ذلك بعض مخلوقاته.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل يا محمد: الحمد لله على ثبوت الحجة عليهم، واعترافهم بأن الله مصدر جميع النعم، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون هذا التناقض الحاصل منهم، فتراهم يقولون بأن الخالق الموجد المحيي الرازق هو الله، ثم يقولون بألوهية غير الله، فيخالف فعلُهم أقوالَهم وإقراراتهم، ويعبدون مع الله إلهاً آخر سواه ليست له مقومات الألوهية، ولا يدركون ما فيه الخير والمصلحة ودفع الضرّ عنهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - يقرّ المشركون بأمرين أساسيين:

أولهما - أن الله هو الخالق المبدع المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار.

وثانيهما - أن الله هو الخالق الرازق لعباده، المحيي الأرض بالماء النازل من السحاب، فتصبح الأرض مخضرة بعد جدبها وقحط أهلها.

٢ - ثم في مجال الأفعال ترى المشركين متناقضين مع أنفسهم، فهم يقرون بوجود الله، ثم يشركون معه إلهاً آخر من مخلوقاته.

٣ً - وإذا اعترفتم بأن الله خالق كل الأشياء في السماء والأرض، فكيف تشكُّون في الرزق؟ فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العباد، وكيف تكفرون بتوحيد الله، وتتحولون عن إخلاص العبادة لله؟

وإذا أقررتم بأن الله يحيي الأرض الجدبة، فلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة؟ ومن قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين.

٤ً - لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير من الله، فلا تعيير بالفقر، فكل شيء بقضاء وقدر، والله عليم بكل شيء من أحوال العباد وأمورهم، وبما يصلحهم من إقتار أو توسيع.

٥ً - يستحق الله الحمد على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته وعلى إقرار المشركين بوجود الله، ولكن أكثر المشركين لا يتدبرون هذه الحجج، ولا يعُون ما فيه النفع والمصلحة الحقيقية.

بيان حال الدنيا واضطراب أوضاع الكفار فيها

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ﴾: قرئ:

١- (ولْيَتَمتَّعوا) وهي قراءة قالون، وابن كثير، وحمزة، والكسائي.

٢- (ولِيَتَمَتَّعُوا) وهي قراءة الباقين.

﴿سُبُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (سُبْلَنا).

الإعراب:

﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يجوز في هاء ﴿لَهِىَ﴾ الكسر والتسكين، فمن كسر أتى به على الأصل، ومن سكَّن حذف الكسرة تخفيفاً، كما قالوا في كتِف وكتْف. والحيوان: أصله «الحييان» بياءين، إلا أنه لما اجتمعت ياءان متحركتان، استثقلوا اجتماعهما، فأبدلوا من الياء الثانية واواً كراهية لاجتماع ياءين متحركتين، وكان قلب الثانية أولى من الأولى؛ لأن الثانية هي التي حصل التكرار بها.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ قرئ بكسر اللام وسكونها، وهي لام الأمر ومعناه التهديد، فمن قرأ بالكسر فعلى الأصل، ومن سكَّن فعلى التخفيف، كما قالوا في «كتِف وكتْف».

البلاغة:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تشبيه بليغ أي كاللهو واللعب، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مجاز عقلي، أي آمناً أهله.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ إيجاز بحذف جواب الشرط، أي لو علموا لما آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فيها مراعاة الفواصل، ذات الإيقاع والتأثير على السمع.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارة تهوين وتحقير؛ لأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. ﴿لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي كلهو الصبيان ولعبهم، يبتهجون ساعة ثم يتفرقون متعبين، وأما الطاعات والقُرَب فمن أمور الآخرة، لظهور ثمرتها فيها. واللهو: الاستمتاع بالملذات، واللعب: هو العبث وما لا فائدة فيها. ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية التامة التي لا فناء فيها. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ تلك الحقيقة ما آثروا الدنيا عليها.

﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة السائرة في البحر. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الدعاء، أي لا يدعون معه غيره؛ لأنهم في شدة لا يكشفها إلا الله، فيظهرون في صورة من أخلص دينه من المؤمنين، فلا يذكرون إلا الله، ولا يدعون سواه. ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجؤوا المعاودة إلى الشرك.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام فيه لام «كي» أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة وكذلك اللام في: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها، أي قاصدين التمتع بها والتلذذ، لا غير، أي إن هذه اللام لام التعليل في تقدير الله، ولام العاقبة بالنسبة إليهم. ويصح أن تكون اللام في الفعلين المذكورين لام الأمر، وهو أمر تهديد ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعلموا، يعني أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي جعلنا بلدهم مكة مصوناً من النهب والتعدي، آمناً أهله من القتل والسبي. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يُختلسون قتلاً وسبياً، وهم في أمان. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بعد هذه النعمة الواضحة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله

يؤمنون بالصنم أو الشيطان. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره. وتقديم الجار والمجرور في قوله ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ و﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد. ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي كذب بالنبي الرسول ﷺ أو القرآن. وقوله ﴿لَمَّا﴾ فيه تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا، ولم يتأملوا قط حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مأوى، والاستفهام تقرير لثوائهم، أي ألا يستوجبون الثواء في جهنم، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق!! ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي في حقنا، والجهاد يعم أنواع الجهاد الظاهرة والباطنة لكل الأعداء. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ طريق السير إلينا أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المؤمنين بالنصر والعون.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٧):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أخرج جويبر عن ابن عباس أنهم قالوا: يا محمد، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا، والأعراب أكثر منا، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا، فكنا أكلة رأس، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾.

المناسبة:

بعد بيان كون المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي، وهم مع ذلك يتركون عبادته، ويعبدون من دونه الشركاء حرصاً على زينة الحياة الدنيا ومكاسبها المادية، أوضح الله تعالى أن ما يميلون إليه وهو

الدنيا ليس بشيء، وأن الحياة الآخرة هي الحياة الحقة التامة التي تستحق الحرص عليها والعمل من أجلها، فلو كان عندهم شيء من العلم ما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

ثم أبان الله تعالى أحوال تخبطهم وتناقضهم، فهم مع شركهم بربهم في الدعاء والعبادة إذا تعرضوا لمحنة أو شدة، رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد، ولجؤوا إلى الله وحده، وأخلصوا له النية والدعاء لتخليصهم من الشدة، وتلك نعمة عظمى.

ثم ذكَّرهم تعالى بنعمة أخرى تتناسب مع حال الخوف الشديد، وهي حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة بلدهم ومولدهم ومسكنهم البلد الآمن الحرام، بتحصين الله أمنها، ودفع الشرور عن سكانها، لكنهم نفعيون متناقضون جاحدون النعمة في الحالتين: نعمة النجاة ونعمة الأمن في بلدهم، فاستحقوا اللوم والتعنيف، إذ إنهم في أخوف ما كانوا، يدعون الله، وفي آمن ما حصلوا عليه من الأمن السكني، يكفرون بالله، فكيف يكفرون بالله حين الأمن. ويؤمنون به حال الخوف؟!

التفسير والبيان:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يقارن الله تعالى بين الدنيا والآخرة، ويخبر بأن الحياة الدنيا حقيرة زائلة لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو يتلهى به، ولعب يتسلى به، وأما الآخرة فهي دار الحياة الدائمة التي لا تزول ولا تنقضي، بل هي مستمرة أبد الآباد، فلو علموا ذلك لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

والفرق بين اللهو واللعب: أن اللعب إقبال على الباطل، واللهو: إعراض عن الحق. وليس المراد بالحيوان: الشيء النامي المدرك، وإنما الحيوان مصدر حي كالحياة، لكن فيها مبالغة ليست في الحياة.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المشركين حين الترفع عن الدنيا ووقت التعرض للمحنة والشدة، فيقول:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي إن المشركين عند الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً؟! فتراهم إذا ركبوا في السفينة، وأحدق بهم الغَرَق، دعوا الله وحده، مفردين إياه بالطاعة، مخلصين له النية، صادقين في اتجاههم إلى الله، فإذا تحقق لهم الأمن والنجاة من الهلاك، عادوا إلى شركهم، ودعوا الآلهة المزعومة كافرين بنعمة النجاة.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٦٧] وهذا دليل على أن معرفة الله في فطرة كل إنسان.

ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ذَهَبَ فارّاً منها، فلما ركبَ في البحر، ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي هاهنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبنَّ، فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنّه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ اللام لام العاقبة أو الصيرورة، أي يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفر بنعمة النجاة، والتمتع بالاجتماع على عبادة الأصنام، وعقد الروابط بسببها، ولكنهم سوف يعلمون عاقبة فعلهم هذا، وسيجازون الجزاء الوفاق على أعمالهم. وهذا وصف لسوء ما يترتب على شركهم، وتهديد ووعيد على بقائهم على كفرهم.

ويصح أن تكون اللام لام الأمر، ويكون المعنى التهديد أي: ليكفروا،

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠] وقال: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٩] فساد ما تعملون.

ثم وصف الله تعالى تناقض المشركين إذ يلجؤون إلى الله وحده مخلصين له الدعاء وقت الشدة، ويكفرون بالله ويشركون به حين الأمن في بلدهم مكة، فقال:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ؟! أي أو لم يعلم هؤلاء المشركون ما أنعمنا به عليهم من إسكانهم في بلد حرام آمن وهو مكة، لا يتعرضون فيه لقتل وسبي وخطف، فيشكروا الله على هذه النعمة، وهذا امتنان على قريش بما أحلهم من حرم الله الآمن، كما قال سبحانه: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١٠٦/٤].

ولكن عجباً لهم أنهم قابلوا الشكر بالكفر، أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، وبدلوا نعمة الله كفراً، فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله؟! فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وأن يصدّقوا برسوله، ويعظموه ويوقروه.

وبعد بيان حالهم العجيبة وتناقضهم، أبان الله تعالى أنهم قوم أظلم من يكون، فقال:

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾؟ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله بالشرك وتكذيب كتابه ورسوله وقوله: إن الله أوحى إليه، ولم يُوح إليه شيء، أو قوله إذا فعل فاحشة: إن الله أمر بها، والله لا يأمر بالفحشاء، ألا يستوجب هؤلاء المشركون من أهل مكة وأمثالهم المقام في جهنم؟

وهذا تسفيه آرائهم وتقريع لهم، وتبيين سوء مصيرهم، بطريق الاستفهام التقريري الذي هو أبلغ في إثبات العقاب المنتظر لهم.

وبعد بيان عاقبة الكافرين، أبان الله تعالى عاقبة المؤمنين فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي من جاهد بالطاعة، ونصر دين الله، وقاتل أعداء الله المكذبين بكتابه ورسوله، هداه الله ووفقه إلى طريق الجنة وطريق السعادة والخير في الدنيا والآخرة، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧/٤٧] وجاء في الحديث الثابت: «من عمِل بما علِم، ورَّثه الله عِلْم ما لم يَعْلَم».

والله مع المحسنين أعمالهم بالنصرة والإعانة، والتأييد والحفظ والرعاية والتوفيق، روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: «إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك».

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - الحياة الدنيا بما فيها من المال والجاه والملبس ملهاة وملعب، أو شيء يُلهى به ويُلعب، وليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول، كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات.

٢ً - ما يعمل في الدنيا لله من القرب والطاعات هو من الآخرة، وهو الذي يبقى، كما قال تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧] أي يبقى ما ابتغي به ثواب الله ورضاه.

٣ً - إن الدار الآخرة هي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها،

وهي الحياة الصحيحة، فلا حياة إلا حياة الآخرة، وعبَّر عنها بالحيوان: وهو الحياة؛ لأن فيها مبالغة ليست في الحياة.

٤ً - المشركون قوم متناقضون، فتراهم في وقت الشدة المستعصية، كما إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق، يدعون الله صادقين في نياتهم، ويتركون دعاء الأصنام وعبادتها، فإذا وصلوا إلى برّ الأمان دعوا معه غيره، مما لم ينزِّل به سلطاناً أو حجة، وما لا حقيقة لألوهيته أصلاً، فهم يشركون في البر، ولا يشركون في البحر.

٥ً - إن عاقبة الشرك أو ثمرته أن يجحد المشركون نعم الله ويتمتعوا بالدنيا، والله يهددهم ويوعدهم ويقول لهم: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا.

٦ً - جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمناً: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧] وتلك نعمة تستحق الشكر والحمد لله والإذعان له بالطاعة، ولا سيما إذا قورنت مكة بما عليه أحوال أهل البلاد الأخرى المجاورة، حيث يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض.

ولكن المشركين كما تقدم تتناقض أحوالهم، فهم بالشرك أو بإبليس يؤمنون وبنعمة الله وعطائه وإحسانه يكفرون ويجحدون.

٧ً - لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٨] وكذَّب بالقرآن أو بتوحيد الله، وأنكر رسالة محمد ﷺ، وعاقبتهم الثَّواء في نار جهنم.

٨ً - إن المجاهدين جهاداً عاماً في دين الله وطلب مرضاته يوفقهم ربهم إلى سبل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما

علمنا، لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا» قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢].

قال ابن عطية في آية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾: هي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأعظمه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

٩ - إن الله لمع المحسنين بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع جميع الناس بالإحاطة والقدرة. فتكون فائدة المجاهدين في طاعة الله أمرين: التوفيق للخير والإيمان والسعادة، والعون والتأييد والحفظ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

مكية، وهي ستون آية

تسميتها:

سميت سورة الروم لافتتاحها بخبر غلبة الروم، والإخبار عن نصرهم بعدئذ في بضع سنين، وتلك إحدى معجزات القرآن العظيم بالإخبار عن المغيبات في المستقبل ووقوع الشيء كما أخبر به.

موضوعها:

هو موضوع سائر السور المكية التي تبحث في أصول العقيدة الإسلامية وهي التوحيد وصفات الله تعالى، والإيمان بالرسالة النبوية، وبالبعث والجزاء في الآخرة.

مناسبتها لما قبلها:

تتشابه سورة الروم وسورة العنكبوت التي قبلها في المطلع، فإن كلاً منهما افتتح بـ ﴿الٓمٓ ۝١﴾ غير مقرون بذكر التنزيل والكتاب والقرآن، على خلاف القاعدة الخاصة في المفتتح بالحروف المقطعة، فإنها كلها قرنت بذلك إلا هاتين السورتين وسورة القلم. وقد ذكر في أول هذه السورة ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت هذه الحروف الهجائية لتنبيه السامع والإقبال بقلبه وعقله وروحه على الاستماع.

وهناك تشابه آخر بين السورتين من وجوه ثلاثة:

الأول - إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وبدئت هذه السورة بوعد المؤمنين بالغلبة والنصر، وهم يجاهدون في سبيل الله تعالى.

الثاني - إن الاستدلال في هذه السورة على أصول الاعتقاد وأهمها التوحيد جاء مفصلاً للمجمل في السورة السابقة مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)﴾ [العنكبوت: ١٩/٢٩] ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠/٢٩].

الثالث - ترتب على التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب في السورة المتقدمة أن أبغض المشركون أهل الكتاب، وتركوا مراجعتهم في الأمور، وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور، وسبب البغضاء أن المشركين في جدالهم نسبوا إلى عدم العقل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣/٢٩] وطُلب مجادلة أهل الكتاب بالحسنى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦/٢٩] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦/٢٩].

فلما غُلب أهل الكتاب حين قاتلهم الفرس المجوس، فرح المشركون بذلك، فأنزل الله تعالى أوائل سورة الروم لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق، وإنما قد يريد الله تعالى مزيد ثواب في المحب، فيبتليه ويسلط عليه الأعادي، وقد يختار للمعادي تعجيل العذاب الأدنى، دون العذاب الأكبر يوم القيامة.

مشتملات السورة:

افتتحت السورة بإثبات النبوة بالإخبار بالغيب، وهو انتصار الروم على الفرس في حرب تقع بينهما في غضون بضع سنوات (من ٣-٩ سنوات) ووقع

الخبر كما أخبر القرآن، وتلك معجزة القرآن تثبت صدق النبي ﷺ، وتتضمن البشارة نصر جند الرحمن على حزب الشيطان.

ثم ذكرت أدلة الوحدانية وعظمة القدرة الإلهية بالتأمل في صفحة الكون والنظر في خلق السماوات والأرض، والاعتبار بمأساة المكذبين الغابرين وعاقبتهم السيئة، وأردف بعدها أدلة البعث، والأمر بعبادة الله وحده، وذلك مقتضى الفطرة التي فطر الناس عليها.

ونوقش فيها المشركون وضربت لهم الأمثال في أن الشركاء ضعفاء عاجزون لا يملكون لأنفسهم يوم القيامة نفعاً، ولا يتمكنون دفع الضر عن أحد، ولا يستطيعون خلق شيء وإيجاده ولا إمداد أحد بالرزق. وكشف القرآن حقيقة حال المشركين كما ذكر في السورة المتقدمة وهي لجوءهم إلى الله وقت الضر، وإشراكهم به وقت الرخاء، وأميط اللثام عن طبيعة الإنسان وهي الفرح بالنعمة، والقنوط حين الشدة إلا من آمن وعمل صالحاً.

ونهى الله تعالى عن اتباع المشركين وغيرهم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ثم أمر تعالى بالتصدق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، واجتناب أكل الربا، وتنمية المال بوجوه الحلال وتطهيره بالزكاة.

ثم قارنت السورة بين مصير المؤمنين في روضات الجنان فضلاً من الله تعالى، ومصير الكافرين في نيران الجحيم جزاء أعمالهم وكفرهم، وحينئذ تظهر فائدة الإيمان والخير، وظلام الكفر والشر.

وأعقب ذلك إيراد بعض الأدلة الكونية الناطقة بقدرة الله والدالة على وحدانيته من إرسال الرياح مبشرات بالرحمة، وتسيير السفن في البحار، وتمكين المسافرين من التجارة وابتغاء فضل الله في أقطار الأرض، والدلائل الملحوظة في الأنفس من خَلْق ثم رزق، ثم إماتة، ثم إحياء.

وختمت السورة بتسلية الرسول ﷺ عن إعراض قومه عن الإيمان برسالته بأنهم أغلقوا منافذ الهداية، وعطلوا طاقات الفكر والعقل عن النظر في وسائل الوصول إلى الإيمان بالله، فهم صُمّ عُمْيٌ لا يسمعون ولا يبصرون، وأنهم مهما رأوا من الآيات، وشاهدوا من البراهين والمعجزات، لن يؤمنوا بسبب العناد، والتشبث بمواقع الكفر، والحفاظ على مراكز الزعامة والنفوذ بين العرب.

وهذا يقتضي الصبر على أذى المشركين حتى يأتي النصر، ومتابعة القيام بواجب تبليغ الرسالة، فإنه قد يهتدي بعضهم أو غيرهم، وسيكون النصر في جانب الرسول ﷺ، والخذلان لمن كذب به، ولن يؤثر في مسيرة دعوته كفر الذين لا يوقنون بالبعث بعد الممات.

الإخبار بالغيب في المستقبل

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا
يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

الإعراب:

﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ غَلَب: مصدر مضاف إلى المفعول، وتقديره: وهم من بعد أن غُلبوا سيغلبون.

﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ظرف مبني على الضم؛ لأنه مقطوع عن الإضافة: لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة، فلما اقتطع عن الإضافة، نُزِّل

منزلة بعض الكلمة، وبعض الكلمة مبني. والبناء على الضم تعويضاً عن المحذوف؛ لأنه أشرف الحركات، ولئلا تلتبس حركة الإعراب بحركة البناء، فلو بني على الفتح أو الكسر، لالتبست حركة الإعراب بحركة البناء.

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾ في موضع نصب، متعلق بـ ﴿يَفْرَحُ﴾.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ﴾ منصوب على المصدر المؤكد لما قبله، والمصدر مضاف إلى الفاعل.

البلاغة:

﴿غُلِبَتِ﴾ و﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُۚ﴾.

﴿لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صيغة مبالغة، أي البالغ نهاية العزة وغاية الرحمة.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ تكرار الضمير لإفادة الحصر، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على استمرار الغفلة.

المفردات اللغوية:

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ الروم: أمة ذات مدنية وحضارة وقوة، من ولد روم ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، كانوا نصارى، غلبتهم فارس الذين كانوا يعبدون الأوثان، ففرح كفار مكة بذلك، وقالوا للمسلمين: نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم ﴿فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة، وأقرب مكان إلى أرض العرب من جهة الشام، فيها التقى الجيشان، وكان الفرس هم البادئين بالغزو﴿وَهُمْ﴾ الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أضيف المصدر إلى المفعول، أي غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى العشر، وقد تمّ لقاء الجيشين فعلاً في السنة السابعة من اللقاء الأول، وغلبت الروم فارس ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي من قبل غلب الروم ومن بعده، والمعنى أن غلبة الفرس أولاً وغلبة الروم ثانياً تمّ بأمر الله، أي إرادته ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم تغلب الروم.

﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أي نصر أهل الكتاب على من لا كتاب له ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ الواسع الرحمة بالمؤمنين ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد للفعل، أي وعدهم الله النصر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده تعالى بنصرهم لجهلهم وعدم تفكيرهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما يشاهدونه منها من المعايش في التجارة والزراعة والبناء والغرس وغير ذلك. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي إنهم غافلون عن الغاية والمقصود من الحياة، لا تخطر ببالهم، وإعادة ﴿هُمْ﴾ تأكيد.

سبب النزول:

أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب الزهري قال: بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين، وهم بمكة، قبل أن يخرج رسول الله ﷺ، فيقولون: الروم يشهدون أنهم أهل كتاب، وقد غلبتهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم، فكيف غلب المجوس الروم، وهم أهل كتاب؟! فسنغلبكم كما غلب فارس الروم، فأنزل الله: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾.

وأخرج الترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي: أن فارس غَزَوا الروم، فوافَوْهم بأذْرِعات وبُصرى من أرض الشام، فغلبوا عليهم،

وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه وهو بمكة، فشق ذلك عليهم، من قِبَل أن الفرس مجوس، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون بمكة وشَمِتوا، ولَقُوا أصحاب النبي ﷺ وهم فرحون، وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنَّ عليكم، فأنزل الله هذه الآيات.

فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى المشركين، فقال: أفرِحْتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا، ولا يَقَرَّنَّ الله أعينكم[١]، فوالله لَتَظْهَرَنَّ الروم على فارس، كما أخبرَنا بذلك نبينا ﷺ، فقام إليه أبيّ بن خلَف؛ فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، اجعل بيننا أجلاً أناحِبك عليه[٢] على عشر قلائص مني[٣] وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرِمتَ، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين، فناحبه، ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «زايده في الخَطَر[٤] وماده في الأجل» فخرج أبو بكر، فلقي أبياً، فقال: لعلك ندمت، فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادّك في الأجل، فاجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت، فلما أراد أبو بكر الهجرة، طلب منه أُبَي كفيلاً بالخطر إن غُلب، فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد أُبَيّ الخروج إلى أُحُد، طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً، ومات أُبَيّ من جرح جرحه إياه النبي ﷺ في الموقعة، وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبيّ، وجاء به إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «تصدّقْ به». وقد كان هذا قبل تحريم القمار؛

(١) لا يسرَّنَّكم.

(٢) أراهنك.

(٣) جمع قلوص وهي الناقة الشابة الفتية.

(٤) الخَطَر: السَّبَق الذي يتراهن عليه أي الرهن الذي يخاطر عليه.

لأن السورة مكية، وتحريم الخمر والميسر بالمدينة. واستدل به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب.

والآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب.

التفسير والبيان:

﴿الٓمٓ ۝١﴾ هذه الحروف المقطعة التي تقرأ هكذا: «ألف، لام، ميم» للتنبيه على إعجاز القرآن، كما تقدم في أمثالها، وتنبيه السامع على الاستماع بقلبه لما يلقى إليه بعدها.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ أي غلبت فارس قوم الروم في أقرب أرض الروم إلى بلاد العرب في مشارف الشام، بين الأردن وفلسطين: في قول مقاتل، أو في الجزيرة في قول مجاهد وهو أولى، وستغلب الروم فارس في بضع سنين (ما بين الثلاث إلى العشر من السنين) من تاريخ الوقعة الأولى، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وهذا إخبار بالغيب عن أمر في المستقبل، أيده الواقع، وقد نزلت الآيات كما بينا حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل. فبعد نزول سورة الروم سنة ٦٢٢ م ببضع سنين في سنة ٦٢٧ م أحرز هرقل أول نصر حاسم للروم على الفرس في نينوى على نهر دجلة، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم للقسطنطينية، ولقي كسرى أبرويز مصرعه سنة ٦٢٨ م على يد ولده (شيرويه).

ولقد كانت هاتان الدولتان مسيطرتين على العالم القديم: فارس في الشرق، والروم في الغرب، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وغيرها.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي الأمر كله من قبل الغلبة ومن بعدها، فتغلب إحدى الدولتين على الأخرى بقضاء الله وقدره، فهو يقضي في خلقه بما يشاء: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠] فليس الانتصار دائماً عن قوة مادية ذاتية، وإنما القوة إحدى وسائل النصر، والمعول في النهاية إرادة الله وقدرته، فقد يتغلب الضعيف على القوي، والقليل على الكثير: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ أي ويوم ينتصر الروم النصارى أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى الوثنيين المجوس، يفرح المؤمنون بنصر الله أهل الدين والكتاب على من لا دين له ولا كتاب.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ينصر الله من يريد على الأعداء، فهو الفعال لما يريد، وهو القوي الذي لا يغلب، المنتقم من أعدائه، المعِزُّ أولياءه بقوته وقدرته، الرحيم بعباده المؤمنين، فلا يدع القوي يتحكم بالضعيف، ولا يعاجل بالانتقام على الذنوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥].

روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين، ففرحوا به، وأنزل الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

وقال جماعة آخرون: بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية. والمهم أنه لما انتصرت الروم على الفرس، فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب

في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد حق من الله، وخبر صدق، والله لا يخلف الميعاد، ولا بدّ من وقوعه، لأن سنة الله أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحكم الله وأفعاله القائمة على العدل، لجهلهم بالسنن القائمة في الكون.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي أكثر الناس لهم علم ظاهري بالدنيا وعلومها المادية كتدبير شؤون المعيشة، وتحصيل الأموال والمكاسب من تجارة وزراعة وصناعة وغيرها، ولكنهم غافلون عن أمور الدين والآخرة، كأنهم عديمو الفكر والنظر، لا ينظرون إلى المستقبل وما ينتظرهم من نعيم مقيم إن آمنوا وعملوا الصالحات، أو عذاب مهين إن كفروا وعصوا أوامر ربهم، فلا يعملون أبداً لما ينفعهم في الآخرة، وعلمهم منحصر في الدنيا، بل لا يعلمون الدنيا على حقيقتها، وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها، فهم عن الآخرة غافلون.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إثبات صدق النبي ﷺ في دعواه النبوة والرسالة، وإعلام قاطع بأن القرآن كلام الله الذي يعلم وحده الغيب في السماوات والأرض. وتلك معجزة واضحة بالإخبار عن مغيبات المستقبل، وقد وقع الأمر كما أخبر القرآن الكريم.

٢ً - الله تعالى متفرد بالقدرة الشاملة النافذة، فكل ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه، وبإرادته وقدرته، فلله الأمر، أي إنفاذ الأحكام سواء قبل هذه الغلبة وبعدها، والله دائماً هو القوي العزيز في نِقمته، الرحيم لأهل طاعته.

٣ً - يبشر الله تعالى المؤمنين بنصر أهل الكتاب المتعاطفين مع المسلمين، لاجتماعهم على الإيمان بالإله والإيمان باليوم الآخر، على الفرس المجوس الوثنيين الذين لا يؤمنون بشيء من الكتب السماوية، ولا بالله تعالى ولا بالآخرة.

٤ً - وعد الله لا يُخلف؛ لأن كلامه حق وصدق، ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون وعده، ولا أنه لا خلف في وعده.

٥ً - إن أكثر الناس ولا سيما الكفار عالمون بظواهر الأمور الدنيوية من اكتساب الأموال والمعايش ومعرفة شؤون الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم المادية، ولكنهم غافلون عن العلم بالآخرة وعن العمل بها.

قال الزمخشري: أفاد قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها؛ وباطنها وحقيقتها: أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة[1].

---

(١) الكشاف: ٢/٥٠٣

الحث على التفكر في المخلوقات الدالة على وجود الله ووحدانيته

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ثم كان عاقبةُ الذين).

الإعراب:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَّا﴾ : حرف نفي، و﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾ قد عُدّي إلى ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ كما عُدِّي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٥].

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟﴾ ﴿عَٰقِبَةَ﴾ خبر﴿كَانَ﴾ ، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ اسمها، ومن قرأ (عقبةُ) بالرفع، فهي اسم

﴿كَانَ﴾، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبر كان. و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ على وزن «فُعلى» تأنيث للاستواء، كالحسنى تأنيث الأحسن. و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ مفعول لأجله، أي لأن كذبوا، ويجوز كونه في موضع رفع؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو أن كذبوا، أو بدل من ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ رفعاً ونصباً. ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ منصوب بأساؤوا انتصاب المصادر، لأنه مصدر.

البلاغة:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ إنكار وتوبيخ.

﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي أو لم يحدثوا التفكر فيها، أو: أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم، فإنها أقرب إليهم من غيرها، فبالتفكر يرجعون عن غفلتهم ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ﴿مَّا خَلَقَ﴾ متعلق بقول محذوف معناه: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول، وقيل: معناه: فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلاً عليه. ومعنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح وحكمة بالغة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بدّ لها من الانتهاء إليه، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مثل كفار مكة ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، أي جاحدون يحسبون أن الدنيا بداية وأن الآخرة لا تكون.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حضّ على السير في أقطار الأرض، والنظر في آثار المدمرين من قبلهم من الأمم،

وهي إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ كعاد وثمود ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزرع والغرس ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي عمروا الأرض أكثر من عمارة أهل مكة إياها، فإنهم أهل واد غير ذي زرع. وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزات، والآيات الواضحات، والحجج الظاهرات ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ ليفعل بهم ما يفعل بالظلمة، فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث عملوا ما أدّى إلى تدميرهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي ثم كان عاقبتهم العقوبة السوأى، والمراد بها جهنم، والسوأى: تأنيث الأسوأ أي الأقبح، أو مصدر كبشرى ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي كانت إساءتهم بأن كذبوا بالقرآن.

المناسبة:

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها، تتضمن تهديد المشركين وحثهم على التفكر والنظر في المخلوقات الدالة على وجود الله وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره، ولا ربّ سواه، بعد بيان ما صدر منهم من إنكار الإله بإنكار وعده، وإنكار البعث، كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

التفسير والبيان:

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ أي أو لم يحدثوا التفكر في عقولهم، أو يفكروا في أمر أنفسهم بأن يجيلوا فيه الفكر، فيقولوا: إن الله لم يخلق الكون من السماء والأرض وما فيهما من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات الكثيرة المتنوعة والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا عبثاً ولا باطلاً، بل كان

خلقها مقروناً بالحق، مصحوباً بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لا بدّ لها من أن تنتهي إليه، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب، فإذا حلّ الأجل بدلت الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لحساب الله الواحد القهار.

وهذا حثّ لهم على إعمال الفكر السليم الموصل إلى معرفة الله ووحدانيته بالنظر في أنفسهم وما حولهم من مشاهد الكون، والمراد أن أسباب العلم الصحيح ومفاتيح الهداية تعتمد على العقل وأنه متوافر لديهم، لكنهم عطلوه ولم يُعملوه فيما يجب إعماله.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾ أي وإن أكثر الناس ولا سيما الكفار الجاحدون منكرون وجود البعث والحساب؛ لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم، ولو تفكروا لأيقنوا بمعادهم إلى ربّهم بعد الموت.

ثم نبَّه الله تعالى على صدق رسله فيما جاؤوا به عن ربهم بما أيَّدهم به من المعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات المحسوسات من إهلاك من كفر برسالتهم، ونجاة من صدَّقهم فقال:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ أي أو لم يتنقل هؤلاء المنكرون للنبوات، المكذبون بالآخرة في بلاد الأرض، فينظروا بعقولهم وأفهامهم، ويبحثوا في آثار الله، ويسمعوا أخبار الماضين ويتأملوا بمصير المكذبين رسلهم من الأمم الماضية، علماً بأنهم كانوا أشدّ قوة من أهل مكة وأمثالهم، وأكثر أموالاً وأولاداً، وحرثوا الأرض وقلبوها للزراعة والغرس أكثر مما فعل المكيون وسائر العرب لقحط بلادهم، واستغلوا الأرض أكثر من استغلال هؤلاء.

ثم أهلكهم الله بذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم رسلهم الذين جاؤوهم بالمعجزات والأدلة المحسوسة والشواهد الناطقة بقدرة الله وتوحيده، فما كان عقابهم ظلماً، وما كان من شأن الله أن يظلمهم وغيرهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها وذنوبهم السالفة.

فالعاقل من اتَّعظ بغيره، وعرف أن زخارف الدنيا ومتاعها من أموال وأولاد لا تغني عنه شيئاً يوم القيامة، وقد أكد الله تعالى ذلك بقوله:

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي ثم كان مصير المسيئين العذاب ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم، بسبب تكذيبهم بآيات الله ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، واستهزائهم بها وسخريتهم منها. فقوله ﴿أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ معناه: كانت السوأى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون. والإساءة: التكذيب والاستهزاء، وعبر عن العقاب بالجريمة الصادرة من الكفار، على سبيل المشاكلة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - الحثّ على التفكر في الكون وإيجابه، فإن التأمل في خلق السماوات والأرض والأنفس البشرية المخلوقة لحكمة ومصلحة وعدل، والمؤقتة بأجل مسمى تنتهي إليه، دليل على وجود الخالق وتوحيده وقدرته وعلى حدوث الحشر، فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يدل على الوحدانية لأن إحكام الخلق والتنزه عن الفساد يمنع من تعدد الآلهة، ففي وجود آلهة فساد وخلل وتعثر، وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ دليل على الحشر؛ لأنه يدل على فناء العالم وتخريب الكون، وبما أن الله تعالى قادر على كل شيء فهو قادر على الإعادة؛ ولأن الخلق بالحق

يوجب أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية؛ لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهواً، كما أخبر القرآن.

٢ً - دلّ قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ وهو يوم القيامة على حدوث الفناء في نهاية عمر الدنيا، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء.

٣ً - كثير من الناس كافرون بالبعث بعد الموت، وهذا نقص في التفكير، وقلة في العقل، فالعاقل من فكر بالمستقبل، وعمل لما بعد الموت، ولم تغره الحياة الدنيا.

٤ً - التبصر بعبر الماضي درس وعظة، فمن سمع بأخبار الأمم الماضية المكذبة رسلها، وأدرك مصيرهم، وعرف سبب هلاكهم وتدميرهم، بادر إلى الإيمان بالله عزّ وجلّ، وصدَّق رسله الذين جاؤوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم.

٥ً - الاعتماد على قوة الجسد وسعة المال، ووفرة الثروة والأولاد خطأ محض، فإن كل الأموال والمدنيات وتقدم الحضارات لا تغني أصحابها شيئاً يوم القيامة.

٦ً - لقد كان إهلاك الأمم الماضية الجاحدة بربها ورسله وأنبيائه حقاً وعدلاً، ولم يكن الهلاك بغير ذنب ولا بغير سابق إنذار بالرسل والحجج، وإنما كان بظلمهم أنفسهم بالشرك والعصيان، والتكذيب بآيات الله الدالة على وجوده وتفرده بالألوهية، وتكذيب القرآن والرسول ومعجزاته، واستهزائهم بها.

إثبات الإعادة والحشر وبيان ما يكون وقت الرجوع إلى الله

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ
كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يُرْجَعون).

البلاغة:

﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾ بينهما طباق.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المقصود.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ بين الجملتين مقابلة بين حال السعداء والأشقياء.

﴿تُرۡجَعُونَ﴾ ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير، وذلك له وقع وتأثير على السمع.

المفردات اللغوية:

﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ ينشئ خَلْق الناس ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يبعث الناس ويخلقهم مرة

أخرى بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يسكت المشركون متحيرين آيسين لانقطاع حجتهم، يقال: أبلس الرجل: إذا سكت وانقطعت حجته، والمبلس: الساكت المنقطع الحجة، اليائس من الاهتداء إليها ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي لا يكون ممن أشركوهم بالله وهم الأصنام شفعاء يجيرونهم من عذاب الله. وجاء التعبير بمعنى الماضي لتحققه ﴿وَكَانُواْ﴾ أي يكونون ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي متبرئين منهم، يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾. ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي يتفرق المؤمنون والكافرون. ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾ بستان أو أرض ذات أزهار وأنهار ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرّون سروراً تهللت له وجوههم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿وَلِقَآئِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مُدْخَلون فيه لا يغيبون عنه.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن عاقبة المجرمين إلى الجحيم، وذلك إشارة إلى الإعادة والحشر، أقام الأدلة عليه بأن من بدأ خلق الناس بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة. ثم بيَّن ما يكون وقت الرجوع إليه، وأخبر أن الناس حينئذ فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير.

التفسير والبيان:

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ أي إن الله كما هو قادر على بداءته وإنشائه، فهو قادر على إعادته، فالله هو الذي بدأ إنشاء الخلق بقدرته وإرادته، فلا يعجز عن رجعته، ثم إليه يعودون يوم القيامة ويحشرون للقضاء بينهم، فيجازي كل عامل بعمله، ثم وصف حال الأشقياء بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي ويوم تقوم القيامة للفصل بين

الناس والحساب، يسكت المجرمون الذين أشركوا بالله وتنقطع عنهم الحجة من شدة الأهوال، وييأسون ولا يجدون طريقاً للخلاص، ولا أملاً في النجاة من طريق غيرهم، كما قال:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي ولن يجدوا لهم شفعاء من الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، ينقذونهم من عذاب الله، وكانوا بشركائهم وآلهتهم المزعومة جاحدين، متبرئين منهم، إذ خانوهم في أحوج ما كانوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦-١٦٧].

وهذا دليل على تبين إفلاسهم وإعلان خسرانهم.

ثم يتميز أهل المحشر إلى فريقين، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي ويوم تقوم القيامة يتفرق الناس فرقة لا اجتماع بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٩] فيؤخذ أهل الإيمان والسعادة إلى الجنان، ويؤخذ أهل الكفر والشقاوة إلى النيران. قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، لهذا قال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي فأما المؤمنون المصدّقون بالله ورسوله واليوم الآخر، والعاملون بما أمر الله به، والمنتهون عما نهى الله عنه، فهم يتنعمون ويسرّون سروراً يملأ القلب والنفس ويظهر البشاشة بما حظوا به من روضات الجنان ذات البهجة والخضرة والأنهار الجارية، أي فهم في جنة يسرون بكل مسرة، كما قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٧] ، وقال ﷺ فيما

رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأما الكافرون الجاحدون بوجود الله ووحدانيته، المكذبون رسله وآياته، المنكرون وقوع البعث بعد الموت، فهم مخلدون في عذاب جهنم، لا غيبة لهم عنه أبداً، ولا فتور له عنهم إطلاقاً، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢/٢٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٤-٧٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - الله هو منشئ الخلق، ومعيده بقدرته، وإليه المرجع والمآب.

٢ - لا يجد المشركون والكفار يوم القيامة حجة لهم يدافعون بها عن شركهم وكفرهم، فتنقطع حجتهم، وييأسون من الاهتداء إليها، كذلك لا يجدون لهم من غيرهم ناصراً ينصرهم ولا شفيعاً ينقذهم من عذاب الله، وحينئذ يقولون عن آلهتهم: إنهم ليسوا بآلهة، فيتبرؤون منها، وتتبرأ منهم.

٣ - يحدث انفصال يوم القيامة بين المؤمنين وبين الكافرين، فيتميز الطيبون من الخبيثين، ويقيم المؤمنون في جنان الخلد ذات الرياض الغناوات والأنهار الجارية، فيغمرهم الحبور والسرور، وينعّمون ويكرمون، ويقيم الكافرون في عذاب جهنم إقامة دائمة أبدية، فلا يفارقونها، ولا يخفف عنهم فيها شيء من العذاب.

٤ - لا بدّ مع الإيمان من العمل الصالح، وهو الائتمار بأمر الله، واجتناب

ما نهى عنه؛ لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات، ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح. وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره. وهذا هو السبب في ذكر العمل الصالح مع الإيمان، وعدم ذكر العمل السيئ مع الكفر.

تنزيه اللَّه تعالى وحمده في جميع الأحوال

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمَيِّتِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المَيْت).

﴿تُخْرَجُونَ﴾: قرئ:

١- (تَخْرُجُون) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف، وابن ذكوان.

٢- (تُخْرَجُون) وهي قراءة باقي السبعة.

البلاغة:

﴿تُمْسُونَ﴾ و﴿تُصْبِحُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ استعارة، استعار الحي للمؤمن، والميت للكافر.

المفردات اللغوية:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سبحان: هو التسبيح، أي التنزيه، وهو إخبار في معنى

الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه، أي سبحوا الله بمعنى صلوا في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته، وتتجدد فيها نعمته ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ تدخلون في المساء، وفيه صلاتان: المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح؛ لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أوضح وأبين.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراض، ومعناه: يحمده أهلها ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وفيه صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة، وفيه صلاة الظهر. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس: ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر ﴿تُظْهِرُونَ﴾صلاة الظهر.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ قال أكثر المفسرين: يخرج الدجاجة من البيضة، والإنسان من النطفة، والطائر من البيضة، ويخرج البيضة من الطائر، والنطفة من الإنسان، وقال بعضهم: يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يحييها بالنبات بعد يبسها﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون. والمعنى أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة القادر على إخراج الأشياء من أضدادها بإخراج الميت من الحي، وإخراج الحي من الميت، وإحياء الميت، وإماتة الحي. وقرئ: تَخْرُجون.

المناسبة:

بعد بيان عظمة الله تعالى وقدرته في خلق السماوات والأرض حين ابتداء العالم، وعظمته حين قيام الساعة (القيامة) حال انتهاء العالم، وافتراق الناس فريقين: فريق الجنة وفريق النار، أمر الله تعالى بتنزيهه عن كل سوء وعما لا يليق به، وبحمده على كل حال؛ لأنه المتفرد بإحياء الميت وإماتة الحي، وإحياء

الأرض بعد موتها، كإحياء الناس من قبورهم للبعث، وهذا في وقت الصباح يشبه حال انتقال الإنسان من النوم الذي هو الموتة الصغرى إلى اليقظة التي هي الحياة.

التفسير والبيان:

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي سبحوا الله تعالى ونزهوه وصلّوا له في جميع أوقات النهار والليل، حين ابتداء المساء، وحين طلوع الصباح. هذا إرشاد من الله تعالى لعباده بتسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء: وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح: وهو إسفار النهار بضيائه، وفي المساء صلاتا المغرب والعشاء، وفي وقت الصباح صلاة الفجر. وقدّم الإمساء على الإصباح هنا؛ لأن الليل يتقدم النهار.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي والله تعالى هو المحمود من جميع أهل السماوات والأرض من ملائكة وجن وإنس. وهذا اعتراض بحمده مناسب للتسبيح وهو التحميد.

﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي وسبحوه ونزهوه أيضاً وقت العشي أو العشاء: وهو شدة الظلام، وفي وسط النهار وقت الظهيرة.

قال الماوردي: الفرق بين المساء والعِشاء: أن المساء: بُدُوّ الظلام بعد المغيب، والعشاء: آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب.

ويلاحظ أن تخصيص هذه الأوقات بالتسبيح إنما هو بسبب وجود معالم الانتقال المحسوس من حال إلى حال، ومن زمن إلى زمن، يشمل جميع أجزاء اليوم، بدءاً من الصبح أو النهار وقوة الضياء، إلى الظهر حين تتحول الشمس من جهة المشرق إلى المغرب، إلى العصر حين يبدأ أفول النهار وقدوم العشي،

إلى المغرب بدء الظلام، إلى العشاء في شدة الظلام. والمعنى: نزهوا الله عن صفات النقص، وصفوه بصفات الكمال في جميع هذه الأوقات المتعاقبة؛ لأن أفضل الأعمال أدومها.

وفي هذا إشارة إلى أصول الإيمان الموجبة للظفر بروضات الجنان، فبعد أن أبان الله تعالى أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل صالحاً في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أعلمنا أن الإيمان تنزيه بالجَنَان، وتوحيد باللسان، وأن العمل الصالح القيام بجميع الأركان، وكل ذلك تسبيح (تنزيه) وتحميد، يوصل إلى الحبور (السرور والتنعم) في رياض الجنان.

وقد تكرر في القرآن لفت النظر إلى الإضاءة والإظلام، وأن الله فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، كما قال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ٩١/ ٣-٤] ، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ١-٢] ، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ١-٢].

ثم ذكر الله تعالى بعض مظاهر قدرته وعظمته الموجبة للتنزيه والتحميد، فقال:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي إن الله تعالى هو القادر على خلق الأشياء المتقابلة، فهو يخرج أولاً الإنسان الحي من التراب الميت، ثم من النطفة، والطائر من البيضة، كما يفعل ضدّ هذا، فيخرج النطفة من الإنسان، والبيضة من الطائر، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، واليقظان من النائم، والنائم من اليقظان.

وأما كون النطفة كائناً حيّاً فلا تعرفه العرب، ولم يكن التقدم العلمي واضح المعالم في هذا لديهم.

وهذا دليل على كمال القدرة الإلهية وبديع الصنع وعظمة الإله.

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي والله تعالى يحيي الأرض بالمطر، فيخرج النبات من الحب، والحب من النبات، كما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٦/٣٣-٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور أحياء بعد أن كنتم أمواتاً، وذلك على الله يسير.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - وجوب تنزيه الله تعالى عن جميع صفات النقص، ووصفه بجميع صفات الكمال، في جميع الأوقات المتعاقبة، وقرن التسبيح بالتحميد على نعم الله وآلائه، والصلوات المفروضة الخمس بعض مظاهر التسبيح والتحميد لاشتمالها على ذلك. وقد استدل ابن عباس كما تقدم بهذه الآيات على بيان عدد الصلوات الخمس في القرآن.

وذلك دليل على الإيمان، وعلى فضل التسبيح والتحميد، قال ﷺ: «من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ الآية، أدرك ما فاته في ليلته، ومن قال حين يمسي، أدرك ما فاته في يومه». وقال ﷺ: «من سرَّه أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ الآية».

٢ً - يتجلى كمال قدرة الله عزّ وجلّ ويثبت وجوده بتفرده بالْخَلْق والإيجاد،

والإعدام، والإحياء والإماتة، فهو سبحانه يخلق الأشياء المتقابلة أو المتضادة بعضها من بعض، فهو يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها أو يبسها، وكما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يحيي الناس بالبعث.

قال القرطبي: وفي هذا دليل على صحة القياس. أي إنه قاس إحياء الموتى من القبور على إحياء الأرض الميتة بالمطر الذي ينبت النبات الأخضر الزاهي.

بعض أدلة الوحدانية والقدرة والحشر

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ
ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً
وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ
ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾: قرئ:

١- (للعَالِمِين) وهي قراءة حفص.

٢- (للعَالَمين) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ويُنْزِل).

الإعراب:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم﴾ ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾: في موضع رفع على الابتداء، والجار والمجرور قبلها خبرها، وتقديره: وخَلْقكم من تراب من آياته.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ فيه محذوف مقدر تقديره: ومن آياته آية يريكم البرق فيها، فحذف الموصوف وأقيم الصفة مقامه. ومن النحويين من يجعل تقديره: ومن آياته أن يريكم البرق، كالآيتين المتقدمتين: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾.

﴿دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف، إما صفة للنكرة أي دعاكم دعوة كائنة من الأرض، أو في موضع الحال من الكاف والميم في ﴿دَعَاكُمْ﴾. ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿تَخْرُجُونَ﴾ لأن ما بعد ﴿إِذَآ﴾ لا يعمل فيما قبلها.

البلاغة:

﴿خَوْفًا﴾ و﴿وَطَمَعًا﴾ ﴿يَبْدَؤُا۟﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾ بين كلٍّ منهما طباق.

﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ آيات الله تعالى الدالة على قدرته. ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلكم آدم من تراب. ﴿ثُمَّ إِذَآ﴾ هي للمفاجأة. ﴿أَنتُم بَشَرٌ

تَنتَشِرُونَ﴾ ﴿بَشَرٌ﴾ من دم ولحم تنتشرون في الأرض، تبتغون من فضل الله. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ بأن خلق حواء من ضلع آدم، وسائر النساء من نطف الرجال والنساء، أو المعنى: أنهن خلقن من جنس الرجال، لا من جنس آخر. ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوها، فإن اتحاد الجنس علة للضم والاجتماع، والاختلاف سبب للتنافر. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بين الرجال والنساء أو بين أفراد الجنس مودة ورحمة بواسطة الزواج، بخلاف سائر الحيوانات، تنظيماً لأمر المعيشة، قال السُّدّي: (المودة): المحبة، و(الرحمة) الشفقة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور لآيات دالة على قدرة الله، لقوم يتفكرون في صنع الله تعالى، فيعلمون ما في ذلك من الحِكَم.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم من عربية وغير عربية. ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ من بياض وسواد وغيرهما، وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة، أو اختلاف في تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وجمالها، بحيث وقع التمايز والتعارف. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى لذوي العقول وأولي العلم، لا تكاد تخفى على عاقل من ملَك أو إنس أو جن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٣].

﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منامكم في زماني الليل والنهار، لاستراحة الجسد والنفس والفكر. ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي طلبكم المعاش في الليل والنهار. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم وتدبر واستبصار واعتبار. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ أي إراءتكم بتقدير. (أن) كقول الشاعر:

ألا أيُّهذا الزاجري أحْضُرَ الوغى وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنت مُخْلِدي

أو الفعل فيه منزل منزلة المصدر، مثل: «تسمع بالْمُعَيدِيّ خير من أن تراه» أو صفة لمحذوف تقديره: آية يريكم بها البرق.

﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ شرارة كهربائية تظهر في الجو نتيجة احتكاك السحب، وينشأ عنها الرعد .﴿خَوۡفٗا﴾ للمسافر من الصواعق .﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغيث للمقيم. ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ بعد يبسها، وإحياؤها يكون بالإنبات .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور .﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لدلالات على قدرته تعالى لقوم يتدبرون، يستعملون عقولهم في كيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته.

﴿بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ أي بإقامته لهما وإرادته قيامهما في موقعهما المعين من غير مقيم محسوس وجعل السماء من غير عمد ترونها .﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة واحدة، فيقول: أيها الموتى اخرجوا، أو بأن ينفخ إسرافيل في الصور للبعث من القبور .﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ أي تخرجون من القبور أحياء .﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً .﴿قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون منقادون لفعله فيهما، لا يمتنعون عليه. ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ خلق الناس .﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد هلاكهم .﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي الإعادة أسهل عليه من البدء، بالنظر إلى مفهوم المخاطبين أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه، وإلا فهما عند الله تعالى سواء في السهولة .﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي الصفة العليا، وهي أنه لا إله إلا الله، أي الوصف بالوحدانية، الأعلى الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه في السماوات والأرض، يتصف به دلالةً ونطقاً. أو له الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة .﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القادر في ملكه الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته .﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال في خلقه على مقتضى حكمته.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: تعجب

الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾

المناسبة:

بعد بيان الأمر بتنزيه الله تعالى عن جميع النقائص، واستحقاقه الحمد على خلق جميع الأشياء، وبيان قدرته على الإماتة والإحياء، ذكر هنا أدلة التوحيد والوجود والعظمة وكمال القدرة، والحجج المثبتة للبعث والإعادة، مبتدئاً بدليل خلق الإنسان من تراب ثم بقاء النوع الإنساني بالتوالد، ثم خلق السماوات والأرض ومشاهد الكون، واختلاف ألوان البشر ولغاتهم، ومنامهم بالليل واكتسابهم بالنهار، وتلك أوصاف تعرض للنفوس، ثم عوارض الكون من البرق والمطر والإنبات، ثم خضوع السماء والأرض لإرادته وإذعان الأموات لدعوته بالخروج أحياءً من القبور، وأعقب كل ذلك بما هو كالنتيجة لما سبق، من تقرير كمال القدرة على بدء الخلق وإعادته واتصافه بالصفة العليا وهي الوحدانية وجميع الصفات الباهرة كالقدرة التامة والحكمة الشاملة.

التفسير والبيان:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي ومن آياته تعالى الدالة على عظمته وكمال قدرته على الخلق والإيجاد والإعدام والإفناء بدء خلق الإنسان، فخلق أباكم في الأصل من تراب، وجعل مصدر غذائكم من لحوم الحيوان والنبات من التراب، ثم بعد إنشائكم تعمرون الأرض وتتوزعون فيها لأغراض مختلفة من بناء المدائن والحصون، وزراعة الحقول، والاتِّجار بالسفر في البلاد المختلفة لتحصيل الأرزاق، وكسب المعايش، وجمع الأموال، مع اختلاف المواهب والعقول والأفكار، والغنى والفقر، والسعادة والتعاسة.

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحَزْن، وبين ذلك».

ثم ذكر الله تعالى طريق بقاء النوع الإنساني فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي ومن آياته الدالة على قدرته ورحمته أن خلق النساء لكم من جنس الرجال، وجعل بدء خلق المرأة من جسد الرجل، ليتحقق الوفاق ويكتمل الأنس، وجعل بين الجنسين المودة أي المحبة، والرحمة أي الشفقة ليتعاون الجنسان على أعباء الحياة، وتدوم الأسرة على أقوى أساس وأتم نظام، ويتم السكن والاطمئنان والراحة والهدوء، فإن الرجل يمسك المرأة ويتعلق بها إما لمحبته لها، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما وغير ذلك.

إن في ذلك الخلق والإيجاد الأصلي من التراب، وجعل الأزواج من أَنْفُس الرجال، وتقوية الروابط بينهما بالمودة والمحبة والرحمة والرأفة لدلالة على الخالق الموجد والمنعم المتفضل لمن تأمل وفكر في أسباب الحياة، وتحقيق النتائج، وبناء الروابط على وفق الحكمة والمصلحة، والنظام البديع.

فأبونا من تراب، وذريته من ماء، والماء من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من النبات وخواص الأرض وكنوزها، ثم جعل الرابطة الزوجية بين الجنسين من تكوين واحد، وطباع واحدة، وغرائز متحدة، ليتحقق السكن إلى المرأة، ويتوافر الميل إليها، ويحدث الهدوء النفسي معها؛ فإن النفس ميالة إلى ما يلائمها، وينسجم معها في الأغراض، نافرة مما يناقضها ويعاكسها في الجملة.

وقوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ يفسره قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٩].

ثم ذكر الله تعالى أدلة أخرى على وجوده وربوبيته وتوحيده وقدرته من الكون العظيم وعظمة تكوين الإنسان، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي ومن آياته تعالى الدالة على قدرته العظيمة ووجوده: خلقه السماوات المرتفعة بدون عمد، المزينة بالكواكب والنجوم الثوابت والسيارات، وخلق الأرض بطبقاتها المترعة بالكنوز والمعادن والخيرات، المثبّتة بالجبال، المشتملة على الوديان والقفار، والبحار، والحيوان، والأشجار.

ولم يكن ذلك الكون فارغاً من المخلوقات، وإنما أوجد فيه الأنس بالناس ذوي الجنسيات المتعددة، واللغات المختلفة، والألوان المتنوعة، والأصوات المتميزة، والسمات والهيئات والتقاطيع المتفاوتة كاختلاف البصمات وغير ذلك من حسن وجمال، وقبح وتفاوت بالرغم من كونهم من أصل واحد وأب واحد وأم واحدة. قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٤].

إن في ذلك المذكور لآيات دالة على تمام القدرة الإلهية لقوم ذوي عقول نافذة، وأفكار مبصرة، وعلوم نافعة تهديهم إلى الحق، وترشدهم إلى التفكير في المخلوقات، وتبين لهم أنها خلقت لحكمة بالغة، ومصلحة راقية، لا عبثاً ولا فساداً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي ومن علامات قدرته ورحمته تعالى التمكين من الراحة من التعب، والهدوء والاستقرار بالليل، والحركة والسعي للرزق

والنشاط المتتابع في النهار، إن في ذلك المذكور لدلالات وعبراً لقوم يسمعون سماع اتعاظ وتدبر، ووعي وتفهم للحجج، يؤدي بهم إلى القناعة والاعتقاد الجازم بأن الله قادر على بعث العالم وإعادته.

ثم ذكر الله تعالى أدلة من عوارض الأكوان وتقلبات الحياة، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي ومن آياته الدالة أيضاً على عظمة قدرته إراءتكم البرق، خوفاً للمسافر وغيره من الصواعق المتلفة، وطمعاً فيما تحبون من المطر المحتاج إليه لحياة الإنسان والحيوان والنبات، كما قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٤] ، أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥].

إن في ذلك المذكور من الإحياء بعد الموت لبرهاناً ساطعاً دالاً على البعث والمعاد وقيام الساعة، فإن الذي أحيا الأرض قادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي ومن أدلة قدرته ووجوده تعالى قيام السماء بلا عمد، والأرض الكروية الدائرية القائمة في الفضاء بلا وتد، بل بإقامته وتدبيره وإحكامه وتصرفه، كما قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ١٣/ ٢] ، وقال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥] ، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤١].

ثم إنه تعالى يحفظ نظام هذا العالم حتى ينتهي أجل الدنيا، فإذا دعاكم الداعي حينئذ للخروج من قبوركم أحياء خرجتم، كما قال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٧٠/٤٣] ، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٥٢] ، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤] ، وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٣٦/٥٣].

والنتيجة الحتمية هي:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي ولله جميع من في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصريفاً، وهم جميعاً خاضعون خاشعون لما يريد الله من موت أو حياة، وحركة أو سكون، طوعاً أو كرهاً. روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «كلّ قنوت في القرآن فهو الطاعة».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ أي والله تعالى هو الذي بدأ خلق الإنسان من غير أصل سابق له، ثم يميته ويفنيه، ثم يعيده كما بدأه، وذلك أيسر وأسهل عليه، بحسب تصور البشر المخاطبين وإدراكهم أن الإعادة أسهل من البدء، وكل ما ذكر كان تقريباً لعقول الكفرة الجهلة منكري البعث، وإلا فالبدء والإعادة سواء في قدرة الله تعالى، فأهون بمعنى: هيّن؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: كذّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخَلْق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ٢/١١٦] ومواضع أخرى، وأنا الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١١٢/٣-٤] ».

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وله الصفة العليا الكاملة وهي تفرده بالوحدانية، أي إنه لا إله إلا الله، ولا ربَّ غيره، واتصافه بكل صفات الكمال، وتنزهه عن جميع صفات النقصان، وليس كمثله شيء، فلا ندّ ولا شبيه ولا نظير له، وهو القوي في ملكه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه، خلَق فسوَّى، وقدَّر فهدى، يجري كل شيء في الوجود على وفق علمه وإرادته، ومقتضى حكمته، ونطق كل موجود بأنه الخالق الواحد القادر القاهر فوق عباده، لا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه.

فقه الحياة أو الأحكام:

في الآيات ستة أدلة على ربوبية الله تعالى ووحدانيته ونتيجة مقررة لها وهي:

أ - الدليل الأول:

خَلْق أصل الإنسان من تراب، والفرع كالأصل. وقد خلق الله تعالى الإنسان أولاً، لا أنه خلقه حيواناً ثم جعله إنساناً، ثم زوده بعد الخلق بطاقات الإدراك والمعرفة والعلم والعقل، فأصبح هناك عقلاء ناطقون يتصرفون في قِوام معايشهم، لم يخلقهم عبثاً، وإنما لحكمة ورسالة معينة، ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح.

والتعبير بقوله: ﴿بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ إشارة بقوله ﴿بَشَرٌ﴾ إلى القوة المدركة المغايرة للحيوان، وبقوله﴿تَنتَشِرُونَ﴾ إشارة إلى القوة المحركة، وكلاهما من التراب عجيب. وقد خصّ الله تعالى بالذكر عنصري التراب والماء، مع أن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار؛ لأن الحاجة إلى الهواء والنار تكون بعد امتزاج الماء بالتراب، ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء[١].

---

(١) تفسير الرازي: ١٠٨/٢٥-١١٠

٢ - الدليل الثاني:

بقاء النوع الإنساني بالتوالد: دلّ قوله تعالى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ على أن الله خلق حواء من جسم آدم كما قال بعضهم، والصحيح كما قال الرازي: أن المراد منه من جنسكم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩] ، ويدلّ عليه قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي إن السكن والألفة والاطمئنان لا تتحقق إلا بين متحدي الجنس[١]. وأحاط الله تعالى رباط الزوجية بما يكفل دوامه واستمراره، فجعل النساء موضع سكون قلبي واطمئنان للرجال، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة أي محبة وشفقة، كما قال السُّدِّي، وروي معناه عن ابن عباس قال: المودّة: حبُّ الرجل امرأته، والرحمة: رحمته إياها أن يصيبها بسوء.

والخلاصة: إن الله تعالى حافظ على النوع الإنساني بأمرين: كون الزوج من جنس الرجل، وما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه، فالجنسية توجب السكون، وأحاط السكون بأمرين: المودة والرحمة، والمودة تكون أولاً ثم إنها تفضي إلى الرحمة؛ لأن الإنسان يجد بين القرينين الزوجين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي وتزول أو يعصف بها الغضب الكثير الوقوع، وتبقى الرحمة التي هي من الله تعالى، وبها يدفع الإنسان المكاره عن حرمه.

٣ - الدليل الثالث:

دلائل الآفاق والأنفس: وأهمها خلق السماوات والأرض، ثم اختلاف الكلام واللغات العديدة في العالم من عربية وغيرها، واختلاف الألوان من البياض والسواد والحمرة، واختلاف الأصوات والصور، ومقاطع الجلد

---

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ١١٠

وتقاسيم الوجه وغير ذلك، فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرّق بينه وبين الآخر، وليست هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بدّ من فاعل، ولا فاعل إلا الله تعالى. وهذا من أدلّ الأدلة على وجود المدبر البارئ.

٤ - الدليلان الرابع والخامس:

العرضيات الطارئة للإنسان: وهي النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار، وإظهار البرق والرعد تخويفاً من الصواعق، وطمعاً في إنزال الغيث النافع، وإنزال المطر فعلاً من السحاب لإحياء الزرع والشجر وإنبات النبات وتغذية منابع الماء ومصادر الثروة المائية.

٥ - الدليل السادس:

إقامة السماء والأرض وإمساكهما بقدرته وتدبيره وحكمته، فيمسك تعالى السماء بغير عمد لمنافع الخلق، كيلا تسقط على الناس، ويحفظ الأرض الدائرة المتحركة بأهلها من غير وتد، وفي حال من التوازن، دون تعارض ولا تصادم بينها وبين بقية الكواكب الثابتة والسيارة، حتى ينتهي أجل الدنيا، وحينئذ يحدث البعث، فإن الذي خلق هذه الأشياء قادر على أن يبعث المخلوقات من قبورهم، والمراد من قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا انتظار، كما يجيب الداعيَ المُطاعَ مَدْعوُّه.

٦ - النتيجة المقررة لما سبق من إثبات الوحدانية التي هي الأصل الأول، وإثبات القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر: أن لله جميع من في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً وتصرفاً، كلّ له طائعون طاعة انقياد، وأن الله تعالى هو مبدئ الخلق وهو معيده مرة أخرى، كما قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٣] ، والإعادة أمر هيِّن على الله، والبدء والإعادة سواء في قدرة الله تعالى.

وإذ ثبتت القدرة العظمى لله في كل شيء، وثبتت الوحدانية، فلله الصفة العليا في السماوات والأرض: وهي أنه لا إله إلا هو ولا ربَّ غيره، وتلك صفة الوحدانية، وأنه متصف بكل كمال، منزّه عن كل نقصان، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، القوي الغالب الذي لا يعجزه شيء، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه، وما أراده جلّ وعزّ كان.

دعاء الأرق:

إن النوم بفضل الله وتيسيره كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وقد روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أصابني أرَقٌ من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل: اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حيٌّ قيوم، يا حيُّ يا قيومُ أنم عيني، وأهدئ ليلي». فالحمد لله الذي جعل راحة الإنسان بفضله وقدرته، لا بالطبيعة والعادة، فلولا إلقاء النوم على الإنسان ليلاً أو نهاراً، لما تمكن من متابعة جهده وعمله في النهار.

إثبات الوحدانية من واقع البشر

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ جعل لكم أيها المشركون مثلاً كائناً منتزعاً من أحوال أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم. والمثل: الصفة الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة .﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم

وعبيدكم .﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لكم .﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيرها. ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي فتكونون أنتم وهم فيه سواء في إمكان التصرف فيه، يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم.

ومن الأولى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للابتداء، والثانية: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ للتبعيض، والثالثة: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ مزيدة لتأكيد الاستفهام المقصود به النفي.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي تخافون أن يستقلوا بالتصرف فيه .﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. والمعنى: ليس مماليككم شركاء لكم في أموالكم، فكيف تجعلون بعض مماليك الله شركاء له؟!

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي مثل ذلك التفصيل نبين الآيات بالتمثيل الموضح للمعاني .﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون، يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال .﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ بالإشراك .﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلين لا يردعهم شيء. ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي فمن يقدر على هدايته؟ والمعنى: لا أحد يهديهم .﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم من آفاتها، أي: وليس لهم منقذ من قدرة الله.

سبب النزول:

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك: لَبَّيْكَ اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملَك، فأنزل الله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾

التفسير والبيان:

من أسلوب القرآن المتميز تصوير المعنويات بصور المحسوسات، وضرب الأمثال الواقعية تقريباً للأذهان، وإمعاناً في الإقناع، وهذا مثل ضربه الله

تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

والقصد من هذا المثل إثبات الوحدانية، وهدم الشرك والوثنية، فقال تعالى:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي جعل الله لكم مثلاً تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ومنتزع من أحوالكم ومشاعركم التي تسيطر عليكم، وقريبة منكم قرباً ملازماً، لإثبات وحدانية الله تعالى، والإقلاع عما أنتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام.

ذلك المثل: هو هل ترضون أن يكون لكم أيها المشركون شركاء في أموالكم؟ وهؤلاء الشركاء هم عبيدكم يساوونكم في التصرف فيها، وأنتم وهم في المال سواء، تخافون أن يقاسموكم الأموال؟!

وإذا كنتم تأنفون من ذلك، ولا ترضونه لأنفسكم، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه، وتجعلون عبيده شركاء له؟!

والمعنى المقصود: أن أحدكم يأنف من ذلك أي بأن يساويه عبده في التصرف في أمواله، فكيف تجعلون لله الأنداد الأشباه من خلقه؟!

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٢] أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات لله، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى، ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك التفصيل والتبيان في إلزام الخصم الحجة القوية، نفصل الآيات ونوضحها لقوم يستعملون عقولهم ويتأملون فيما يقال لهم ويذكر من الأدلة المنطقية والحجج الإقناعية.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ أي ولكن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم اتبعوا أهواءهم جهلاً منهم، ولم يحكّموا عقولهم، في عبادتهم الأنداد بغير مستند من عقل أو نقل، وساروا على غير هدى ولا علم ولا بصيرة.

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي إذا كان أمر هؤلاء الناس المشركين كذلك، فلا أحد يهديهم ويوفقهم إلى الحق، بعد أن اختاروا الكفر، وفقدوا الاستعداد للإيمان، وصار الشرك طبعاً لهم، وخلقوا ميالين بالفطرة إليه، والله عالم بهم وبشأنهم قبل خلقهم، فصاروا معتمدين على أنفسهم، ولا ناصر لهم ينقذهم من بأس الله ولا مجير لهم من عذابه وشديد انتقامه إذا أحدق بهم؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - الشركة بين المتفاوتين في الدرجة أو الطبقة مرفوضة في واقع الأمر وعادة الناس، وهي باطلة غير قائمة فعلاً بين العبيد والسادة فيما يملكه السادة، وإذا كان الخلق كلهم عبيداً متساوين لله تعالى، فيبطل أن يكون شيء من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله.

وهذه الآية تنفي جميع محاسن العبادة عن غير الله تعالى، إذ لا ملك لهم فلم يصلحوا للشركة، ولا عظمة لهم حتى يُعبدوا لعظمتهم، ولا يرتجى منهم

منفعة حتى يعبدوا لنفع، وليس لهم قوة وقدرة؛ لأنهم عبيد، والعبد المملوك لا يقدر على شيء.

٢ - إذا ثبت أنه لا يجوز ولا يعقل أن يشارك المملوك مالكه، فلا يجوز أن يكون المخلوقون المملوكون لربهم شركاء له، ولكن الذين أشركوا تجاوزوا هذا المنطق، واتبعوا بعبادتهم الأصنام أهواءهم من غير دليل علمي، وقلدوا فقط الأسلاف في ذلك.

٣ - هؤلاء المشركون الذين اختاروا الشرك والكفر أضلهم الله، فلا هادي لهم، كما لا هادي لكل من أضله الله تعالى، وهم أيضاً مخذولون فاقدو النصرة من أحد، ولا منقذ لهم من قدرة الله، ولا مجير، ولا حيلة لهم بالهرب من عذاب الله ولا محيد لهم عنه.

الأمر باتباع الإسلام دين الفطرة والتوحيد

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ
ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿فِطْرَتَ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿فَرَّقُوا۟﴾:

وقرأ حمزة والكسائي (فارقوا).

الإعراب:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بتقدير فعل، أي اتبع فطرة الله، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي اتبع الدين، أو منصوب على المصدر، تقديره: فطر الله الخلق فطرة، أو منصوب على الإغراء.

﴿إِلَيْهِ﴾ منصوب على الحال من ضمير ﴿فَأَقِمْ﴾. وإنما جمع حملاً على المعنى؛ لأن الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ٦٥/١].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾ بدل بإعادة الجار، أي بدل من المشركين.

البلاغة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أي توجه إلى الله بكليتك.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي اتبع الدين وأخلص فيه وأقبل على الإسلام واثبت عليه يا محمد ومن تبعك. ﴿حَنِيفًاۚ﴾ مائلاً إلى الاستقامة، تاركاً طرق الضلالة. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ خلقة الله التي خلق الناس عليها من الشعور بالعبودية لله تعالى، وقبول الحق وإدراكه. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ لا ينبغي لأحد أن يغير فطرة الله وخلقه، وليس لكم أن تبدلوا دينه بأن تشركوا. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي ذلك الدين المأمور باتباعه أو الفطرة بمعنى الملة هو الدين المستقيم أو المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وهو توحيد الله. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أغلب الناس، مثل

كفار مكة حين نزول الوحي لا يعلمون توحيد الله تعالى واستقامة الدين، لعدم تدبرهم وتفكرهم.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل، والتزام ما أمر به واجتناب ما نهى عنه .﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي أقيموا الدين واتبعوه وخافوا الله؛ لأن الخطاب للرسول ﷺ والأمة معه، غير أن الآية صدرت بخطاب رسول الله ﷺ تعظيماً له .﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي اختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، وقرئ: فارقوا، أي تركوا دينهم الذي أمروا به.

﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً، تشايع كل فرقة إمامها الذي قرر لها دينها وأصّله، أي وضع أصوله .﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل حزب منهم بما عندهم مسرورون.

المناسبة:

بعد بيان أدلة الوحدانية والقدرة الإلهية على كل شيء ومنه الحشر والبعث، وبعد توطين عزيمة الرسول ﷺ على الاعتزاز بدعوته وعدم الاهتمام بموقف المشركين منها، وترك الالتفات إليهم، أمر الله تعالى بمتابعة دين الإسلام، والثبات عليه، والإخلاص في العمل الذي اشتمل عليه؛ لأنه فطرة الله التي أودع النفوس والعقول عليها، والاعتراف بمضمونها، والشعور الصافي بمدلولها.

التفسير والبيان:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي إذا تبين الحق في الاعتقاد والدين بدلائله السابقة، وبطل الشرك ومعالمه، فاتبع الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، التي هداك الله لها، وأكملها لك، وهو دين الفطرة السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه خلقهم

على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره، وكن بذلك مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق. وهذا أمر للنبي ﷺ وأمر لأمته أيضاً. وتلك الفطرة كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢] وكما قال النبي ﷺ في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد: «إني خلقتُ عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» وفي حديث آخر رواه البخاري ومسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنْتَج البهيمة جمعاء[١]، هل تُحسُّون فيها من جَدْعاء[٢]».

فكل من الآيتين والحديثين دليل على نقاوة أصل الخلق، وأن الله تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وعلى الإسلام الصافي، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله. وقدر فعل الخطاب للجماعة لقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يبدّل أو يغير فطرة الله أي الخلقة الأصلية والملة السليمة، وهو خبر في معنى النهي أو الطلب، أي لا تبدلوا خَلْق الله ودينه بالشرك، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. وهذا دليل على سلامة الخلقة العقدية، ونقاوة العقل البشري في أصل التكوين والوجود، ثم يحدث التغيير بتأثيرات البيئة من أهواء وعلوم ومعارف زائغة، وموروثات باطلة وتقليد مستمر للأسلاف، دون إعمال الفكر وتكوين الاعتقاد بالنظرة المستقلة الصائبة، ولو ترك الإنسان وشأنه لما اختار غير الإسلام ديناً؛ لأنه دين الفطرة والعقل.

---

(١) مستوية كاملة لا نقص في شيء من بدنها.

(٢) مقطوعة الأذن أو الأنف.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك المأمور به من اتباع ملة التوحيد والتمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين المستقيم الذي لا عِوَج فيه ولا انحراف.

غير أن أكثر الناس لا يعرفون ذلك حق المعرفة، فهم ناكبون عنه، لعدم إعمال فكرهم والإفادة من العلم الصحيح والبراهين الواضحة الدالة عليه، ولو فكروا وعقلوا وعلموا حق العلم، لما عدلوا عن ملة التوحيد وشريعة الإسلام وهديه.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي اتبعوا دين الله، مقبلين عليه، راجعين إليه، وإذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا، فلا تأمنوا فتتركوا عبادته، بل خافوه وداوموا على العبادة، وراقبوه فلا تفرطوا في طاعة، ولا ترتكبوا معصية، وأقيموا الصلاة، أي داوموا على إقامتها كاملة الأركان مستوفية الشروط، قائمة على الخشوع وتعظيم الله عز وجل، ولا تكونوا بعد الإيمان من المشركين به غيره، فلا تقصدوا بذلك غير الله، أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه، والعبادة الخالصة هي كما جاء في الحديث الصحيح عند الشيخين عن عمر: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال: مرَّ عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل، فقال عمر: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت.

وأوصاف المشركين هي:

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي من المشركين الذين فرقوا دينهم أي اختلفوا فيما يعبدونه على

حسب اختلاف أهوائهم، وبدلوا دين الفطرة وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وصاروا فرقاً مختلفة كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة، كل فرقة منهم تفرح بما عندها وتسرّ وتعجب، وتزعم أن الصواب في جانبها، مع أنهم على الباطل الذي يناقض الحق الذي أراده الله واختاره ديناً لعباده.

وهذا يشمل أيضاً اختلاف الأمة الإسلامية، اختلفوا بينهم على مذاهب شتى في الاعتقاد والعمل، كلها ضلالة، إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، كما روى الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - الإسلام دين الفطرة والتوحيد، فهو دين يلائم أصل الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

وفطرة الله هي التوحيد، فإن الله خلق الناس موحدين مقرّين بوجود ربهم وبوحدانيته، حيث أخذهم من ظهر آدم في عالم الذر، وسألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢].

٢ - أمر الله تعالى باتباع دين الفطرة النقية؛ لأنه دين التوحيد، والدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وهو دين الإسلام، وحذر من تبديله وتغييره، فلا يصح تبديل دين الله، قال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لدين الله، خلق الأولين، دين الأولين، الدين والفطرة: الإسلام.

كما حذر الله تعالى من الميل لأي دين آخر غير ملة الإسلام، بقوله: ﴿حَنِيفًاۚ﴾ معناه معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة.

٣ً - إن أكثر الناس لا يتفكرون، فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذ حكمه، وأن الإسلام هو الدين المستقيم.

٤ً - أمر الله تعالى بالإنابة إليه، أي بالرجوع إليه بالتوبة والإخلاص، والإقبال عليه، وإطاعته، والتوبة إليه من الذنوب.

وأمر أيضاً بالتقوى، أي بالخوف من الله وامتثال ما أمر به، وبإقامة الصلاة تامة كاملة مشتملة على الخشوع ومحبة الإله المعبود، وحذر من اقتران العبادة بالشرك، فأبان أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والمراد إخراج العبد عن الشرك الخفي، أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله.

٥ً - لقد غيَّر الناس دين الفطرة، وجعلوا أدياناً وآراء متناقضة، وذلك يشمل المشركين: عبدة الأوثان، واليهود والنصارى، والمسلمين أهل القبلة أصحاب الأهواء والبدع، كل حزب بما عندهم مسرورون معجبون؛ لأنهم لم يتبينوا الحق، وعليهم أن يتبينوه.

سوء حال بعض الناس بالرجوع إلى اللَّه أحياناً ثم الشرك والنكول

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا
فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿يَقْنَطُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (يَقْنِطون).

الإعراب:

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ ﴿سُلْطَٰنًا﴾: قيل: هو جمع (سليط) كرغيف ورُغفان، وقفيز وقُفْزان، ويجوز فيه التذكير والتأنيث، فمن ذكّر فعلى معنى الجمع، ومن أنثه فعلى معنى الجماعة. والأصح أن السلطان: الحجة، وتكلُّمه مجاز كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه الدلالة.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿وَإِن﴾: شرطية، وجوابها قوله: ﴿إِذَا﴾ بمنزلة الفاء، وصارت ﴿إِذَا﴾ بمنزلة الفاء؛ لأنها لا يُبتدأ بها، كما لا يبتدأ بالفاء، بسبب أنها للمفاجأة. وإنما يبتدأ بـ (إذا) إذا كان فيها معنى الشرط. و﴿هُمْ﴾: مبتدأ، و﴿يَقْنَطُونَ﴾: خبره. و﴿إِذَا﴾ خبر آخر، تقديره: وبالحضرة هم قانطون.

البلاغة:

﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ أي المشركين كفار مكة وأمثالهم. ﴿ضُرٌّ﴾ شدة وبلاء. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه دون غيره. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإشراك بربهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه لام العاقبة أو الصيرورة، مثل آية﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨] وقيل: للأمر بمعنى التهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتعكم.

﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار. ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وكتاباً. ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة، فهو مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، ومعناه الدلالة والشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته. ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي يأمرهم بالإشراك.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ فئة من الكفار. ﴿رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وسعة. ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ فرح بطر، أي بطروا بسببها. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ شدة. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بشؤم معاصيهم. ﴿يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من الرحمة. ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أو لم يعلموا. ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسع. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ امتحاناً. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق لمن يشاء ابتلاء. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بربهم، فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة.

المناسبة:

بعد بيان التوحيد والاستدلال عليه عقلاً وبالمثال، أبان الله تعالى حال فئتين من الناس: الأولى - بعض المشركين الذين يتضرعون إلى الله وقت الشدة، ويشركون به الأوثان والأصنام وقت الرخاء. والثانية - بعض الكفار أو المشركين غير المذكورين سابقاً الذين تكون عبادتهم الله للدنيا، إن أوتوا منها رضوا، وإن مُنِعوا منها سَخِطوا وقَنِطوا.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي إذا أصاب الناسَ عادة شدة أو بلاء من مرض أو قحط أو تعرض للخطر في جو أو بحر أو بر ونحو ذلك من حالات الاضطرار، لجؤوا إلى الله يدعونه وحده لا شريك له، وتضرعوا إليه واستغاثوا به مقبلين عليه، راجعين إليه، حتى إذا كشف عنهم البلاء وأسبغ عليهم النعمة، فاجأ فريق منهم في حالة الاختيار، يُشركون بالله، ويعبدون معه غيره من الأوثان والأصنام.

فهم انتهازيون نفعيون يؤمنون بالله، ويدعونه دون سواه وقت المصلحة أو الحاجة الشديدة، ثم يتنكرون لربهم، ويعرضون عنه حال السراء والرخاء، بل ويشركون به سواه، وهذا مبعث العجب والاستغراب.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام لام العاقبة، أي ليؤول أمرهم إلى الكفر بنعمة الله، وجحود فضله وإحسانه. ورأى بعضهم أن الفعل فعل أمر للتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩] وكالأمر بعده:

﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأمر للتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟

مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠] أي استمتعوا أيها المشركون بمتع الدنيا ورخائها، فمتاعها قصير زائل، فسوف تعلمون عقابي وشدة عذابي في الآخرة على كفركم في الدنيا. قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب، لخفت منه، فكيف والمتوعِّد هاهنا هو الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ؟!

ثم أنكر الله تعالى على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة، فقال:

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي أأنزلنا عليهم في عبادة الأوثان حجة وكتاباً فيه تقرير ما يفعلون، وينطق أو يدل ويشهد بشركهم؟! وهذا استفهام إنكاري معناه أنه لم يكن شيء من ذلك، فلم ينزل الله عليهم كتاباً بما يقولون، ولا أرسل رسولاً، وإنما هو شيء اخترعوه، وفي ضلالتهم يترددون.

وبعد أن بيَّن الله تعالى حال المشرك الظاهر شركه، بيَّن حال المشرك الذي دونه، وهو من تكون عبادته الله للدنيا، فإذا آتاه منها رضي، وإذا منعه سخِط وقنط، فقال:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي إذا أنعم الله على بعض الناس نعمة بطر بها، كما قال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١١/ ١٠] أي يفرح في نفسه، ويفخر على غيره؛ وإذا أصابته شدة أو شر قنِط وأيس من رحمة الله وسخِط؛ لأن إصابته بالسيئة كان بسبب شؤم معصيته.

ويلاحظ أنه تعالى لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها، وذكر عند العذاب سبباً تحقيقاً للعدل.

وهذا إنكار على الإنسان وطبيعته، لكن في آية أخرى عقب آية هود المتقدمة

استثنى تعالى المؤمنين الصابرين فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١/١١] أي الذين صبروا في الضراء وعملوا الصالحات، كما ثبت في الصحيح عند أحمد ومسلم عن صهيب: «عَجَباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له».

ثم نبههم تعالى إلى ما يطرد اليأس والقنوط، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي ألم يعلموا ويشاهدوا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً، بغض النظر عن وجود صفة الكفر، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء، ولو مع وجود الإيمان وصالح الأعمال، فالله هو المتصرف الفاعل للأمرين بحكمته وعدله، يوسع على قوم، ويضيق على آخرين، دون نظر إلى صفتي الإيمان والكفر؛ لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، والمؤمن: هو الراضي بقضاء الله وقدره، ولا ييأس من رحمة الله، فإنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور من سعة الرزق وإقتاره لدلالة واضحة على الإيمان الصادق، وحجة للمؤمن المصدق بوحدانية الله وقدرته تجعله يفوض الأمر إلى الله وحده.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

١ - إن حال فريق من المشركين أو الكفار مَدْعاة للعجب، فهم يتركون الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم، وتراهم لا يثبتون على وتيرة واحدة، فإذا مسَّهم ضرّ من مرض أو شدة، دعوا ربهم، أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم، وأقبلوا عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها، وإذا أنعم الله عليهم بنعمة أو عافية أشركوا به في العبادة.

٢ً - إن مصير هؤلاء هو ملازمة الكفر، وقد هددهم الله وأوعدهم على تمتعهم بمتع الدنيا، ثم يجدون جزاءهم العادل في عالم الآخرة.

٣ً - لا حجة ولا برهان للكافرين على كفرهم، فالله لم ينزل عليهم في شأن إقرار كفرهم كتاباً ولا أرسل رسولاً، ولم يسوغ ذلك في أي وثيقة يعتمدون عليها.

٤ً - أنكر الله تعالى على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه ووفقه، حيث إنه يفرح ويبطر حال الخصب والسعة والعافية وغيرها من النعم، وييأس ويقنط من الرحمة والفرج حال البلاء والعقوبة، بما عمل من المعاصي. أما المؤمن فيشكر عند الرخاء، ويصبر عند البلاء.

٥ً - الله تعالى وحده هو المتصرف في أرزاق العباد، فيوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق، على وفق الحكمة والعدل، فلا يصح أن يكون الفقر سبباً للقنوط، ولا ينبغي أن يكون الغنى سبباً للبطر، فكل من الغنى والفقر من الله تعالى، وعلى المؤمن الموحد تفويض أمر الرزق إلى الله سبحانه.

الترغيب بالنفقة وأنواع العطاء وضمان الرزق وإثبات الحشر والتوحيد

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾:

وقرأ ابن كثير (وما أتيتم من رباً).

﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾:

وقرأ نافع (لِتُرْبُوا).

﴿يُشْرِكُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (تشركون).

البلاغة:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ سجع مرصّع.

المفردات اللغوية:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أعط القريب حقه من صلة الرحم والبرّ به، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ هو المحتاج وهو المُعْدِم الذي لا مال له. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المحتاج إلى المال، وإيتاؤهما: إعطاؤهما ما وُظِّف لهما من الزكاة. والخطاب للنبي ﷺ، وأمته تبع له في ذلك. ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ثوابه بما يعملون أو ذاته أو جهته قاصدين إياه بمعروفهم خالصاً. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ أي ما فعلتم من ربا، وهو الزيادة، والمراد بها الهبة أو الهدية التي يقصد بها الوصول إلى أكثر منها. ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ المعطين أي يزيد. ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يزكو عنده، ولا يبارك فيه، ولا ثواب فيه للمعطين.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي صدقة. ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم بما أرادوه، أي يضاعف الله لهم الثواب، مأخوذ من (أضعف) إذا صار ذا ضِعْف.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى أنه هو الباسط الرازق لمن يشاء والقابض له، وجعل في ذلك آية للمؤمن، أردفه بأنه لا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان لذوي الحاجة، فإن الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق، وإذا قَدَر وقتَّر لا يزداد بالإمساك، ولأن من الإيمان الشفقة على خَلْق الله من قريب أو مسكين وابن سبيل.

التفسير والبيان:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يأمر الله تعالى بإعطاء هؤلاء، فيقول: فأعط أيها الرسول ومن تبعك من أمتك المؤمنين ذوي القرابة حقهم من صلة الرحم والبرّ بهم والإحسان إليهم؛ لأنهم جزء من رابطة الدم والنسب، فكانوا أحق الناس بالتواصل والتزاور والشفقة، وأعط الحق أيضاً للمسكين الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، ومثله المسافر البعيد عن ماله المحتاج إلى نفقة وحوائج السفر. وسرعة المواصلات لا تستأصل حاجة هذا المسافر، وإنما تقلل من المبلغ المالي الذي يحتاج إليه.

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. والظاهر أن الحق ليس الزكاة، وإنما يصير حقاً بالإحسان والمواساة. وقدم ذا القربى على المسكين وابن السبيل للاهتمام به؛ لأن برّه صدقة وصلة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي إن الإيتاء أو الإعطاء لمن ذكر خير في ذاته لمن يقصدون بعملهم وجه الله خالصاً، أي يطلبون ذاته أو جهته أو ثوابه ورضوانه يوم القيامة، دون أن يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة وشهرة، وأولئك هم المفلحون الفائزون في الدنيا والآخرة.

وكون هذا الإعطاء خيراً؛ لأنه سبب لتكافل الأسرة وتعاون المسلمين فيما بينهم، وفي التكافل والتعاون قوة وتوادد وتراحم وتآزر، وتخلص من أمراض الفقر والتمزق والحقد والحسد.

ثم ذكر نوعين من أنواع العطاء: أحدهما حسن مقبول عند الله والآخر قبيح مبغوض عند الله، أما القبيح فهو الربا، وأما الحسن فهو الزكاة، والقبيح هو المذكور في قوله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فلا ثواب له عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٦] أي لا تعط عطاء تريد أكثر منه، وهذا حرام على النبي ﷺ على الخصوص، حلال على غيره، لكن لا ثواب فيه.

قال ابن عباس: الربا نوعان: ربا لا يصح، وهو ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾

وروي مثل ذلك عن عكرمة والضحاك ومجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي.

وأما العطاء الحسن الذي يثاب عليه صاحبه فهو الزكاة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي ومن أعطى صدقة يقصد بها وجه الله وحده خالصاً، فله الثواب المضاعف والجزاء الأفضل عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥] وقال سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ٥٧/١١] وجاء في الحديث الصحيح: «وما تصدّق أحد بعِدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها

الرحمن بيمينه، فيُربيها لصاحبها، كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد»[١] الجبل المعروف في المدينة.

ثم أكد الله تعالى ما سبق بأن الزيادة والنماء داخل في رزق الله المحدّد لكل إنسان، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي الله هو الخالق الرازق الذي يرزق الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، ثم هو المميت بعد هذه الحياة، ثم هو المحيي يوم القيامة للحشر والبعث.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي هل من آلهتكم الذين تعبدونهم من دون الله من يفعل من ذلكم شيئاً، أي من الخلق أو الرزق أو الإماتة أو الإحياء؟! لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، لهذا قال:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس وتعاظم عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد. وأضاف الشركاء إلى عبدة الأصنام لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

ويلاحظ أنه تعالى جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين: الحشر والتوحيد، أما الحشر فبقوله: ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ بدليل قدرته على الخلق في ابتداء الخليقة، وأما التوحيد فبقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه عن أبي هريرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - يأمر الله تعالى بصلة الأقارب ذوي الأرحام، وبمساعدة المسكين وابن السبيل، وقد فضّل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة، وقد أعتقت وليدة (أَمَة رقيقة): «أما إنك لو أعطيتها أخوالَك كان أعظمَ لأجرك».

والأصح أن الآية ليست منسوخة بآية المواريث، فللقريب حق لازم في البرِّ على كل حال، ومعاونة المحتاجين من الفقراء والمنقطعين في الأسفار عن الوصول لبلادهم من مظاهر البرّ والخير في الإسلام. وفسّر ابن عباس ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ فقال: أي أطعم السائل الطوّاف، و﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ بأنه الضيف، فجعل الضيافة فرضاً. واستدل أبو حنيفة كما بينا بالآية على وجوب النفقة للمحارم المحتاجين.

٢ً - إن إعطاء الحق المقرر شرعاً لمن ذكر أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه، وفاعلوه هم المفلحون الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة.

٣ً - إذا كان العطاء بقصد التوصل إلى الزيادة والأفضل فهو حرام على النبي ﷺ خاصة، مباح لأمته، وإن كان لا ثواب فيه. وهذا هو الربا الحلال أو هبة الثواب. أما الربا الحرام شرعاً الذي يمحقه الله، وإثمه كبير فهو ربا البيع وربا القرض، وهو إعطاء الشيء وأخذ بدل عنه بشرط في العقد، أو عمل بالعرف السائد.

٤ً - إذا كان العطاء صدقة أو زكاة بقصد إرضاء الله وابتغاء الثواب من عنده، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته. والعطاء لحق القرابة وصلة الرحم

يكون لوجه الله. أما إذا كان العطاء رياء وسمعة ليحمده الناس ويُثْنوا عليه من أجله، فلا ثواب فيه في الدنيا، ولا أجر في الآخرة؛ قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤].

٥ً - «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» فلا يبارك الله في المأخوذ من الآخرين مقابل الهدية أو الهبة ولا ينمو ولا ثواب فيه عند الله تعالى، وأما المعطَى بقصد رضوان الله، فذلك الذي يقبله الله، ويضاعف ثوابه عشرة أضعافه إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فإن فضل الله لا يحد ولا ينحصر ويمنح من يشاء.

٦ً - الله تعالى هو القادر على البعث والحشر، كما خلَقَنا أول مرة، وهو الإله الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له، الخالق الرازق المميت المحيي، المنزه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والولد. ولن تستطيع الآلهة المزعومة سواه شيئاً من أفعاله السابقة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة.

جزاء المفسدين والكافرين وجزاء المؤمنين

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى
عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ
لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿لِيُذِيقَهُم﴾

وقرأ قنبل (لِنُذيقَهُم).

البلاغة

﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بينهما طباق.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ مجاز مرسل بإطلاق الجزء وهو الأيدي وإرادة الكل.

﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ استعارة، شبه القائم بالأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويعدّه للنوم عليه، توفيراً للراحة والسلامة.

المفردات اللغوية:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الفساد: الخلل في الأشياء، كالجدب والقحط وقلة النبات، وكثرة الحرق والغرق وأخذ المال ظلماً وكثرة المضار وقلة المنافع. والبر: الجزء اليابس من الأرض. والبحر: الجزء المائي، والمراد: في أهل البر سكان القرى والمدن والفيافي، وأهل البحر سكان السواحل، وركاب البحار. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي إن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ليذيقهم وبال بعض أعمالهم وعقوبته في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه ويتوبون. واللام: للتعليل أو للعاقبة.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي قل يا محمد لكفار قريش وأمثالهم، تأملوا فيما حدث في الأرض، لتشاهدوا مصداق ذلك، وتتحققوا صدقه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفشوّ الشرك فيهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي وجّه نفسك للعمل بالدين المستقيم،

البليغ الاستقامة وهو دين الإسلام. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي قبل يوم القيامة الذي لا يقدر أن يرده واحد فلا رادّ له ولا مانع منه. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بفعل ﴿يَأْتِيَ﴾ ويجوز تعلقه بقوله ﴿مَرَدَّ﴾ على معنى: لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون، أي يتفرقون بعد الحساب، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي فعليه وبال كفره وهو النار المؤبّدة. ﴿يَمْهَدُونَ﴾ يوطئون منزلهم ويسوونه في الجنة. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ علة ليمهدون، أو ليصدعون، متعلق به. والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات. ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي يثيبهم من فضله، وهذا دليل على أن الإثابة تفضُّل محض. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يعاقبهم.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى سوء حال المشركين، والشرك سبب الفساد، بدليل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٢] ذكر أن الفساد قد ظهر بين الناس، فأحلوا الحرام، وحرموا الحلال، وفشا الظلم، وكثرت الحروب، ثم نبّههم وأمرهم بالمسير في الأرض، فينظرون كيف أهلك الأمم بسبب معاصيهم وإشراكهم، فإن الله تعالى أهلك قوماً بسبب الشرك، وقوماً بسبب المعاصي، والإهلاك قد يكون بالشرك، وقد يكون بالمعاصي، ثم أمر تعالى رسوله بالثبات في الدين الحق قبل مجيء الحساب الذي يتفرق فيه الناس: فريق في الجنة، وفريق في السعير، فمن كفر فعليه وبال كفره، ومن آمن وعمل صالحاً فقد أعدّ لنفسه المهاد الذي يستريح عليه.

التفسير والبيان:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي عمَّ العالم ظهور الخلل والانحراف، وكثرة المضار وقلة المنافع ونقص الزروع والأنفس والثمرات، وقلة المطر وكثرة الجدب والقحط والتصحر، بسبب شؤم معاصي الناس وذنوبهم، من الكفر والظلم، وانتهاك الحرمات، ومعاداة الدين الحق، وعدم مراقبة الله عز وجلّ في السرّ والعلن. والاعتداء على الحقوق وأكل مال الغير بغير حق، ليذيقهم الله جزاء بعض عملهم وسوء صنيعهم من المعاصي والآثام، وحينئذ ربما يرجعون عن غيهم ومعاصيهم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨/٧].

ثم هدّد الله تعالى على ظهور الفساد بالعقاب كعقاب الأمم السابقة، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي قل أيها الرسول للمفسدين والمشركين: سيروا في البلاد، وتأملوا بمصير من قبلكم، وكيف أهلك الله الأمم المتقدمة، وأذاقهم سوء العذاب بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وانظروا ما حلّ بهم من تكذيب الرسل وكفران النعم، وأن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر، وكان أيضاً بغير الشرك كالإهلاك بالفسق والمخالفة، كما فعل بأصحاب السبت (اليهود).

قال في الكشاف: دلّ بقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم، وأن ما دونه من المعاصي يكون سبباً لذلك[١].

فسبب عذابهم في الغالب هو كفرهم بآيات ربهم وتكذيبهم رسله، وهو تعليل لما سبق، فهو دليل على تعليل الأحكام، وعلى التزام ظاهرة العدل في العقاب الإلهي.

وبعد بيان ظاهرة الشرك والانحراف والفساد وبيان عاقبتها، وبعد نهي

---

(١) الكشاف ٥١١/٢

الكافر عما هو عليه، ذكر تعالى ما يقابلها من حال الاستقامة، وأمر المؤمن بما هو عليه، فقال:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي بادر أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين إلى الاستقامة في طاعة الله، وبادر إلى الخيرات، ووجه نفسك كلها وبإخلاص للعمل بالدين المستقيم، البليغ الاستقامة، وهو دين الإسلام من قبل مجيء يوم القيامة الذي لا رادَّ له ولا مانع منه، فلا بدّ من وقوعه؛ لأن الله كتب مجيئه وقدَّره، وما قدَّره وأراد حدوثه فلا رادّ له ولا بدّ أن يكون.

ذلك اليوم الذي يتفرق فيه الناس بحسب أعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

ثم بين الله تعالى أن جزاء كل فريق بحسب عمله ونتيجة فعله، فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي من كفر بالله وكتبه ورسله، وكذب باليوم الآخر، فعليه وبال كفره ووزره وإثمه وعاقبته، ومن آمن بالله وكتبه ورسله وبالبعث، وعمل الأعمال الصالحة، فأطاع الله فيما أمر، وانتهى عما نهى عنه، فقد أعدّ لنفسه الفراش الوطيء الوثير المريح، والمسكن الفسيح، والقرار الدائم.

وإنما قال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ ولم يقل: ومن آمن؛ لأن العمل الصالح المقبول لا يكون إلا بعد الإيمان، ولأن بالعمل الصالح يكمل الإيمان، فذكره تحريضاً للمكلف عليه، وأما الكفر إذا حدث فلا زنة للعمل معه.

وسبب التفرقة في الجزاء هو ما قال:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي أنا المجازي فكيف يكون الجزاء؟ وأنهم يتفرقون فريقين فكيف يجازون؟

إنني أجازي المؤمنين الذين يعملون الصالحات بفضلي وإحساني، فالمجازاة مجازاة الفضل، فأكافئ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله، وأما الكافرون فإن الله يبغضهم ويعاقبهم، ولكنه عقاب عادل لا يجور فيه، وهذا تهديد ووعيد.

ودلّ قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ على أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، لقلته وحقارته، ولكن بمحض فضل الله تعالى.

ويلاحظ أنه عندما أسند الله تعالى الكفر والإيمان إلى العبد المخلوق، قدَّم الكافر، فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وعندما أسند الجزاء إلى نفسه، قدّم المؤمن، إظهاراً للكرم والرحمة، فقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنه تهديد ووعيد.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يلي:

١ - انتشار ظاهرة الفساد والانحراف في العالم، من الشرك أعظم الفساد، والقحط وقلة النبات وذهاب البركة، والمعاصي وقطع السبيل والظلم وغير ذلك من الآثام والذنوب.

والعالم هو البر والبحر المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض المفسرين: البَر: الفيافي، والبحر: القرى، والعرب تسمي الأمصار البحار.

٢ - إن ظهور الفساد سبب للدمار والهلاك في الدنيا، والعقاب في الآخرة، وعقاب الدنيا على المعاصي التي عملها بعض الناس في البر والبحر، كحبس الغيث وغلاء الأسعار، وكثرة الحروب، والفتن والقلاقل، قد يكون باعثاً على التوبة، وحافزاً على الرجوع إلى الله والاستقامة على الطاعة، واجتناب الذنوب والمنكرات.

٣ً - على الناس قديماً وحديثاً أن يعتبروا بمن قبلهم من الأمم السابقة، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل، وقد كان أكثرهم مشركين أي كافرين فأهلكوا.

٤ً - النبي والمؤمنون مخاطبون بتوجيه القصد والعزيمة إلى اتباع الدين القيم، يعني الإسلام، في دار التكليف دار الدنيا، قبل مجيء يوم القيامة الذي لا يردّه الله عنهم ولا عن غيرهم، وليس لأحد دفعه أو منعه، لعجزه عن ذلك أمام قدرة الله وقدره وقضائه السابق.

وخاطب الله النبي ﷺ ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به، فإنه أمر به أشرف الأنبياء، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: «إن الله أمر المؤمنين، بما أمر به المرسلين».

٥ً - يتفرق الناس يوم القيامة فريقين بحسب أعمالهم: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

٦ً - للكافر جزاء كفره وهو النار، وللمؤمن الذي عمل صالحاً الجنة، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوطّئون أو يقدمون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح.

٧ً - اقتضت رحمة الله أن يجزي الله من فضله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين يمهّدون لأنفسهم، ليتميز المسلم من الكافر، وكل إنسان يدخل الجنة بفضل الله ورحمته، لا بعمله، حتى الأنبياء.

كذلك كان مقتضى العدل أن يجازى الكافرون ويعاقبوا على كفرهم ومعاصيهم؛ إذ لا يعقل التسوية بين المسلمين والكافرين كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٥-٣٨].

الاستدلال بالرياح والأمطار على قدرة الله وتوحيده

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرِّيَاحَ﴾: قرئ:

١- (الريح) وهي قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي.

٢- (الرياح) وهي قراءة الباقين.

﴿كِسَفًا﴾:

وقرأ ابن ذكوان (كِسْفاً).

﴿يُنَزَّلَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُنْزِل).

﴿ءَاثَٰرِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أَثَر).

﴿رَحْمَتِ﴾

رسمت بالتاء، فوقف بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكرار ﴿قَبْلِ﴾ إما للتأكيد، وإما مع اختلاف التقدير والضمير، أي: وإن كانوا من قبل أن ينزل الغيث عليهم من جهة السحاب لمبلسين، والضمير يعود إلى السحاب في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ والسحاب يجوز تذكيره وتأنيثه.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾، الهاء يعود إلى الزرع الذي دلّ عليه. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ او إلى السحاب، وإذا أريد به الزرع فسبب تذكير الضمير: أن تأنيث الرحمة غير حقيقي.

﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ في موضع نصب على الحال، حملاً على المعنى؛ لأن اللفظ لفظ الاستفهام، والحال خبر، والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها.

البلاغة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بأسلوب الإطناب، فإنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم الكثيرة، وكان يكفي الجملة الأخيرة.

﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ فيهما جناس الاشتقاق.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا﴾ فيه إيجاز بالحذف، حذف منه: فكذبوهم واستهزؤوا بهم.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ أي رياح الخير والرحمة وهي الشمال والصبا والجنوب، وأما الدَّبور فريح العذاب، قال ﷺ: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً». ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ تبشر بالخير وهو المطر. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي ليذيقكم بها المطر والخصب أي المنافع التابعة لها. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ السفن بها بإذنه. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا الرزق من فضل الله بالتجارة في البحر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعمة الله فيها، فتوحدوه.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الواضحات على صدقهم في رسالتهم إليهم، فكذبوهم. ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أهلكنا الذين كذبوا، ودمرنا الذين فعلوا جُرماً. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين. وهو إشعار بأن الانتقام لصالح المؤمنين وإظهار كرامتهم، حيث جعلهم الله مستحقين لديه أن ينصرهم، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني وغيره عن أبي الدرداء: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عِرْض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم» ثم تلا الآية.

﴿فَتُثِيرُ﴾ أي تحرك وتهيج. ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ينشره متصلاً بعضه ببعض. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من قلة وكثرة، ﴿كِسَفًا﴾ قطعاً متفرقة، وقرئ بسكون السين، تخفيفاً. ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وسطه. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أصاب بالودق بلادهم وأراضيهم. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بالمطر أمارة الخصب.

﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر. (من قبله) كرره للتأكيد والدلالة على طول زمن تأخر المطر. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من إنزاله. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ آثار الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار، وقرئ: إلى أثر. ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها، بأن يجعلها تنبت، وقرئ: تحيي

بإسناده إلى ضمير الرحمة. ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادر على إحيائهم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن قدرته على جميع الممكنات سواء. ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام لام القسم. ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مضرة على نبات. ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثر أو الزرع، وقد صار جواب القسم. ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد اصفراره. ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون النعمة بالمطر، وقوله: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ جواب سدّ مسد جزاء الشرط، وحرف الشرط هو (إن) في قوله ﴿وَلَئِنْ﴾

المناسبة:

بعد وصف ظاهرة الفساد في العالم بسبب الشرك والمعاصي، أقام الله تعالى الأدلة القاطعة على وحدانيته بإرسال الرياح والأمطار، وعلى البعث والنشور وعلى قدرته ورحمته بإحياء الأرض بعد موتها، وتخلل ذلك التسرية عن الرسول ﷺ بأنه ليس أول من كذبه الناس، فقد تقدمه رسل كثيرون جاؤوا أقوامهم بالبينات فكذبوهم، فانتقم الله منهم بالتدمير والهلاك، فلا يجزع ولا يحزن، والنصر دائماً في جانب المؤمنين.

التفسير والبيان:

يذكر الله تعالى نعمه وفضله على خلقه بإرساله الرياح مبشرات بمجيء الغيث، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي ومن أدلة وحدانيته تعالى وقدرته ونعمته وآياته الكونية أنه المهيمن على كل شيء في الوجود، فيرسل الرياح مبشرة بالخير والبركة ونزول المطر الذي يحيي الأرض بعد يبسها، وينبت الزرع ويخرج الثمر، وليذيق الناس من آثار رحمته بالمطر الذي ينزله، فيحيي به العباد والبلاد، ولتسيير السفن في البحار بالريح، وللتمكين من ممارسة

التجارة والتنقل في البلاد والأقطار للكسب والمعيشة ولشكر الله تعالى على ما أنعم به من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى، كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٤].

ثم آنس الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي إن كذبك كثير من قومك أيها الرسول، فلست أول من كُذِّب، فلقد كُذّبت الرسل المتقدمون بالرغم مما جاؤوا به أممهم من الدلائل الواضحات على أنهم رسل من عند الله، فكذبوهم كما كذبك قومك، فانتقم الله ممن كذبهم وخالفهم، ونجّى المؤمنين الذين صدقوا بالله ورسله، وما جرى على النظير يجري على نظيره قياساً عقلياً وشرعياً، فسيكون الانتقام من كفرة قومك كالانتقام ممن تقدمهم. والخلاصة: إن الله تعالى بعد إثبات الأصلين: الوحدانية والبعث، ذكر الأصل الثالث وهو النبوة.

ثم أخبر الله تعالى عن مبدأ عام وهو تأييد المؤمنين بالنصر، وأنه حق أوجبه الله على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤]. وفي هذا وعيد للكفار بالهزيمة ووعد وبشارة بالظفر للمؤمنين.

روى ابن أبي حاتم والطبراني والترمذي وابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

ثم أبان تعالى كيفية خلقه السحاب الذي ينزل منه الماء، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي الله هو الذي يسير الرياح على وفق الحكمة ومقتضى الإرادة إلى الجهة المرادة، فتحرك السحاب وتهيجه بعد سكونه، فينشره في السماء ويجمعه ويكثره، فيجعل من القليل كثيراً، ثم يجعله قطعاً متفرقة ذات أحجام متنوعة، فتارة يكون السحاب خفيفاً، وتارة يأتي السحاب من جهة البحر مشبعاً بالرطوبة، ثقيلاً مملوءاً بذرات الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٧].

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي فتنظر المطر أو القطر يخرج من وسط ذلك السحاب، فإذا أصاب به الله بمشيئته بعض العباد والبلاد، فرحوا بنزوله عليهم ووصوله إليهم، لحاجتهم إليه. فقوله: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ﴾ الضمير عائد في الظاهر على السحاب؛ إذ هو المحدَّث عنه.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي ينزل عليهم هذا المطر بعد أن كانوا قبل نزوله قانطين يائسين من نزوله قبل ذلك، فكانت الفرحة شديدة التأثير في نفوسهم، لمفاجأتهم بالغيث الذي كادوا ييأسون من نزوله. وتكرار كلمة ﴿قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل الإنزال للتأكيد.

ومجمل معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، وكانوا قبل ذلك بفترات متفاوتة متقطعة يترقبونه فيها، فتأخر، ثم انتظروه مرة أخرى فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فصارت أرضهم الهامدة منتعشة بالنبات من كل زوج بهيج.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ أي فانظر

أيها الرسول ومن تبعك نظرة تأمل واستبصار واستدلال إلى المطر الذي هو أثر من آثار رحمة الله، كيف يكون سبباً لإحياء النبات والزرع والأشجار والثمار، مما يدل على واسع رحمة الله وعظيم قدرته.

ثم نبَّه الله تعالى بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، أو من يقدر على إحياء الأرض بعد يبسها بالخضرة والنبات قادر على إحياء الموتى، والله وحده بالغ القدرة على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سواء في الابتداء أو في الإعادة، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٣٦/٧٨-٧٩].

ثم بيَّن تعالى سوء حال الكافرين، وتنكرهم للمعروف والجميل، وعدم ثباتهم على منهج واحد، فتراهم يفرحون بالخير، ثم ييأسون وينقطع رجاؤهم من الخير إن تعرضوا لسوء، فقال:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ أي وتالله لئن بعثنا ريحاً ضارة، أو سامة، حارة أو باردة على نبات أو زرع أو ثمر، فرأوا ذلك الزرع قد اصفر، ومال إلى الفساد بعد خضرته، لظلوا من بعد ذلك الفرح والبِشْر، يجحدون نعم الله التي أنعم بها عليهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآياتِ على ما يأتي:

أ - من دلائل كمال قدرة الله إرسال الرياح مبشرات بالمطر؛ لأنها تتقدمه، والغيث والخصب أثر من آثار رحمة الله، ومن خواص الرياح أيضاً عند هبوبها

تسيير السفن في البحر، وبالسفن ينتقل الركاب والتجار، وتحمل البضائع من قطر إلى آخر، فتكون وسيلة الرزق بالتجارة، وكل ذلك من نعم الله وأفضاله التي تستوجب الشكر بالتوحيد والطاعة.

٢ً - النبوة والرسالة من نعم الله أيضاً التي تتطلب التصديق والتأييد، ولكن استبداد الكافرين وعنادهم يدفعهم إلى التكذب برسالات الرسل قديماً وحديثاً، فقد أرسل الله رسلاً كثيرين إلى مختلف الأمم والأقوام والشعوب، مؤيدين بالمعجزات والحجج النيرات، فكذبوهم وآذوهم وسخروا منهم، وكفروا برسالاتهم، فانتقم الله ممن كفر، ونجّى المؤمنين ونصرهم على أعدائهم، وسنة الله الثابتة أنه ينصر عباده المؤمنين، وهذا خبر صدق، والله لا يخلف الميعاد، ولا خُلْف في خبره.

٣ً - أخبر الله تعالى أيضاً عن كيفية تكون السحاب، وهو أن الله يرسل الرياح، فتحرك الغيوم وتنقلها من مكان إلى آخر، ثم ينشرها ويجمعها في الجو على وفق مشيئته وإرادته وحكمته، ويجعلها قطعاً متفاوتة الأحجام والأوزان والنوعية، تارة تكون خفافاً، وتارة تصبح ثقالاً مملوءة بالماء، فإذا أنزل المطر على بعض العباد فرحوا بنزول المطر عليهم.

وكانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين حزينين لاحتباس المطر عنهم، وأكد تعالى وجود ظاهرة اليأس والاكتئاب قبل إنزال المطر، ليدل على شدة حال الناس، ثم تغيرها إلى حال البشر والفرح، فكلمة ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ للتأكيد عند أكثر النحويين، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ [الحشر: ١٧/٥٩]. وقال الرازي: والأولى أن يقال: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل إرسال الرياح، وذلك لأنه بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فيها مطر، فقبل المطر إذا هبت الريح، لا يكون مبلساً، وإنما قد يكون راجياً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب

الرياح، فقال: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الرياح وبسط السحاب، لبيان حال حدوث الإبلاس أي اليأس(١).

٤ - إن النتيجة الطبيعية لإنزال المطر هي الدلالة بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ نوع من القياس يقال له: قياس الغائب على الشاهد، أو استدلال بالشاهد على الغائب، أي إثبات البعث بناء على ثبوت ظاهرة مشابهة هي إحياء النبات.

٥ - المشركون مضطربون قلقون في عقيدتهم، فتراهم عند إقبال الخير فرحين به، وعند ظهور السوء يائسين مكتئبين، ومثال ذلك: أنهم إن أحرقت الريح زرعهم، فاصفر ثم يبس، كفروا وجحدوا وجود الخالق، وتنكروا لمن أنعم عليهم في أحيان أخرى، حيث أغرقهم بسيل متلاحق من النعم، فهم متقلّبون غير ثابتين، لا يدومون على حالة واحدة، وذوو نظر قاصر على الحال دون المآل أو الماضي.

إيناس النبي ﷺ عما يلقاه من الإعراض عن دعوته

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

---

(١) تفسير الرازي: ٢٥/١٣٣، وكذلك قال أبو حيان في البحر المحيط (٧/١٧٩): ما ذكره ابن عطية والزمخشري من فائدة التأكيد في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِ﴾ غير ظاهر.

وقرأ ابن كثير (ولا يَسمعُ الصُّمُّ).

﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾:

وقرأ حمزة (تهدي العميَ).

البلاغة:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استعارة تصريحية، شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم سماعهم سماع تدبر ووعي العظات والعبر والأدلة على صدق الرسالة النبوية.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي سماع تدبر واتعاظ؛ لأنهم سدّوا عن الحق مشاعرهم. ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ قيّد عدم السماع به ليكون أشد استحالة، فإن الأصم إذا أقبل على السماع، وإن لم يسمع الكلام، استفاد منه بواسطة الحركات على اللسان بعض الأشياء.

﴿ٱلْعُمْيِ﴾ سمى الكفار عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار. ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع سماع إفهام وقبول إلا المؤمنين؛ لأن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن. ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون منقادون لما تأمرهم به.

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد والبعث، ومهام الرسل، والوعد والوعيد، والإعراض عن دعوة النبي ﷺ، سلاّه ربه عما يراه من تمادٍ في الإعراض وعناد، فهم أشبه بالموتى والصمّ والعمي، لعدم استعدادهم لسماع أدلة الهداية سماع تدبر واتعاظ، وقد رتب المشبّه بهم على حسب مدى الإعراض،

فإرشاد الميت محال، ثم إرشاد الأصم الذي لا يفهم الكلام إلا بالإشارة أصعب، ثم الأعمى الذي يفهم ويعي الشيء الكثير، لكن إرشاده صعب أيضاً.

التفسير والبيان:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي لا تحزن ولا تجزع أيها الرسول على إعراض هؤلاء المشركين عن دعوتك، بعد بيان أدلة التوحيد والقدرة على البعث، وتهديدهم ووعيدهم، فإنك لا تستطيع أن تفهم الموتى أو تسمعهم سماع تدبر واتعاظ، ولا تقدر أن تسمع دعوتك الصم الذين لا يسمعون، وهم أيضاً مع ذلك مدبرون عنك غير مقبلين على كلامك وهدايتك، وهم مع سماعهم في الظاهر أشبه بالموتى في أجداثهم، والصم الذين فقدوا حاسة السمع، لسدهم منافذ الهداية، وإدبارهم عن سماع كلمة الحق، وعدم استعدادهم لوعي شيء وفهمه عنك، وهم أيضاً كالعمي كما قال:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي وليس في مقدورك هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل الهداية إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى:

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي لا تسمع أيها الرسول سماعاً يؤدي إلى الانتفاع إلا المؤمن المصدق بالقرآن وما اشتمل عليه من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية على كل شيء، فهذا المؤمن إذا سمع آيات الله تتلى عليه، تدبره وتفهمه، وأقبل عليه يعمل بما جاء فيه، وينتهي عما نهى عنه، وهؤلاء المؤمنون هم المسلمون، أي الخاضعون المستجيبون المطيعون لله فيما أمر ونهى، وأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لا فائدة ولا جدوى في هداية المشركين المكابرين المعاندين الذين ألفوا تقليد الأسلاف في الكفر، فماتت عقولهم، وعميت بصائرهم.

٢ - إنما الفائدة تظهر في إسماع مواعظ الله المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد، ويستعدون لقبول الهداية إن ظهرت لهم دلائلها.

٣ - المقصود من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سماع التدبر والفهم والاتعاظ، وهذا لا يعارض الثابت في السنة النبوية من إمكان سماع الأموات كلام الأحياء. روى عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا في قليب (بئر) بدر، بعد ثلاثة أيام، وعاتبهم وقرعهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جَيَّفوا؟ - أي أنتنوا - فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون». وهذا هو الصحيح المؤيد بالشواهد الكثيرة، منها ما رواه ابن عبد البر، مصحِّحاً له عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمرُّ بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه إلا رَدَّ الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام». وثبت عنه ﷺ في تعريفه أمته كيفية السلام على أهل القبور أن يقولوا كما يخاطب الأحياء: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد. وروى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلا استأنس به، ورد عليه حتى يقوم».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا مرّ الرجل بقبر يعرفه، فسلَّم عليه، ردّ عليه السلام.

وأجمع السلف على هذا، وشرع السلام على الموتى، مما يدل على شعورهم وعلمهم بالمُسَلِّم، وعلّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا فيما رواه مسلم عن بُرَيدة: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية». وكل ذلك دال على أن السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويُخاطَب ويعقل، ويرد، وإن لم يسمع المُسَلِّم الرد[1].

أطوار حياة الإنسان

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

القراءات:

﴿ضَعْفٍ﴾، ﴿ضَعْفًا﴾: قرئ:

١- (ضَعف، ضَعفاً) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٢- (ضُعف، ضُعفاً) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿ضَعْفٍ﴾ و﴿قُوَّةً﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل، معناه التام العلم والقدرة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٤٣٨ - ٤٣٩

المفردات اللغوية:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة، أو ابتدأكم ضعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، كقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٤/٢٨] والضعف: ما قابل القوة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي بعد ضعف الطفولة قوة الشباب بعد بلوغ الحلم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي جعل بعد قوة الرجولة ضعف الكبر وشيب الهرم. والشيب: بياض الشعر. والضعف: بفتح الضاد وضمه. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيبة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ أي إن تلك الأطوار والأحوال التي يمرّ بها الإنسان بمشيئة الله دليل العلم والقدرة، فهو العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء.

المناسبة:

بعد بيان أدلة الآفاق من إرسال الرياح وإنزال المطر على الوحدانية، ذكر تعالى دليلاً آخر عليها من الأنفس، وهو خلق الآدمي ومروره بأدوار مختلفة تحتاج إلى العلم والقدرة الشاملة، وذلك لا يتصف بهما غير الله عز وجل.

التفسير والبيان:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي إن الله تعالى هو الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالاً بعد حال، فجعل أصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم كوّن عظامه، ثم كسا العظام لحماً، ونفخ فيه الروح، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، فقوله: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأه ضعيفاً.

ثم يشبّ قليلاً قليلاً فيكون صغيراً، ثم شاباً بالغاً، وهذا دور القوة بعد

الضعف، ثم يأتي دور الضعف من ابتداء الكهولة إلى الهرم والشيخوخة، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة.

هذا الانتقال والتدرج والتحول من حال إلى حال دليل على القدرة الإلهية الخالقة، وبرهان على البعث الذي ينكره المشركون، فإن القادر على هذا التغيير والتبديل قادر على الإعادة مرة أخرى إلى الحياة الأولى كما كانت؛ لأن من كانت قدرته تامة شاملة لا يصح مقارنتها بقدرة الإنسان النسبية، ولا يعجزه شيء، سواء في بدء الخلق أم حال إعادته.

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ أي يفعل الله ما يشاء، ويوجد ويبدع ما يشاء من ضعف وقوة، وبدء وإعادة، ويتصرف في عبيده بما يريد، وهو العليم التام العلم بتدبير خلقه، القدير الشامل القدرة على ما يشاء، ومن آثار قدرته إحياء الناس وإماتتهم ثم بعثهم أحياء عندما يريد.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآية تتضمن استدلالاً آخر على قدرة الله في نفس الإنسان، ليعتبر ويبادر إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، فإن الآلة الجامدة تظل على وتيرة واحدة؛ لأن صانعها وهو الإنسان محدود القدرة، أما الإنسان الذي يمرّ بمراحل ثلاث، متفاوتة هبوطاً وصعوداً، ضعفاً وقوة، لا يبقى على حال واحدة، وإنما يتغير.

والتغير والتدرج ليس مجرد طبيعة دون مدبر ولا مغير، وإنما يحتاج كل طور من مراحل التغير إلى خالق مبدع، وقادر عظيم، ولا يستطيع ذلك أحد غير الله صاحب التكوين والإرادة، والأمر والنفوذ الشامل، فهو وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف، وهو العليم بتدبيره، القدير على إرادته، وهو الفعال لما يريد، المتصرف في مخلوقاته كيف يشاء.

أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟
يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍۢ لَّا يَنفَعُ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

القراءات:

﴿لَّا يَنفَعُ﴾: قرئ:

١- (لا ينفع) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (لا تنفع) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرئ ﴿يَنفَعُ﴾ بالياء وبالتاء، أما قراءة التاء فعلى الأصل من التطابق بين الفعل والفاعل، وأما قراءة الياء فبسبب وجود الفاصل بينهما.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف، تقديره: إن كنتم منكرين البعث، فهذا يومه، أي فقد تبين بطلان إنكاركم.

البلاغة:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۢ﴾ جناس تام بين قوله ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي القيامة، وقوله ﴿سَاعَةٍۢ﴾ التي هي المدة الزمنية المعروفة.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، سميت بها؛ لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تحدث بغتة، وصارت علماً للقيامة بالتغليب كالكوكب للزهرة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ﴾ يحلف الكافرون ما أقاموا في الدنيا أو في القبور ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ مدة زمنية قليلة ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن الواقع في مدة اللبث كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق الذي هو البعث وغيره من قول الحق والنطق بالصدق. يقال: أفك الرجل: إذا صرف عن الصدق والحق والخير.

﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ الملائكة أو الإنس المؤمنون ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيما كتبه في سابق علمه أو قضائه ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق واقع؛ لتفريطهم في النظر ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم في إنكارهم له ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبى، أي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى، يقال: استعتبني فلان فأعتبته، أي استرضاني فأرضيته.

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد في خلق الإنسان في النشأة الأولى، ودلائل البعث والإعادة مرة أخرى إلى الحياة، ذكر الله تعالى أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا، وما يحدث يوم القيامة من مناقشات بين أهل الإيمان وبين المجرمين، واكتشاف جهل الكفار في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فعكوفهم على عبادة الأوثان، وأما في الآخرة فإقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا.

التفسير والبيان:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي حين تقوم

القيامة ويبعث الله الناس من قبورهم، وما يتعرضون له من أهوال جسام طويلة الأمد، يحلف الكفار الآثمون أنهم ما أقاموا في الدنيا أو في القبور غير ساعة واحدة، أي مدة قليلة من الزمان، قاصدين بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنْظَروا مدة معقولة، حتى يعذَروا فيما هم عليه من تقصير.

وهذا دليل واضح على قصر مدة الدنيا مهما طالت، إذا قورنت بالآخرة، وأن الذي يوعد بالشر يستقل المدة التي عاشها، أما الموعود بالخير فيستكثر المدة مهما قلّت: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦].

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن تقدير الحقيقة والواقع في مدة اللبث، كانوا يصرفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب، والمراد أنهم كاذبون في قولهم: ما لبثنا غير ساعة، وفي حلفهم على الكذب، وأنهم مغترون بزينة الدنيا ومتاعها وزخرفها، فإذا عرفوا ذلك ربما حملهم على ترك العناد، وسلوك طريق الرشاد.

وفي هذا دلالة على أن إصرارهم على الكفر، صرفهم عن التفكير فيما هو حق وعن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر.

ثم ذكر جواب المؤمنين لهم في موقف القيامة، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي فردّ المؤمنون العالمون بالآخرة على منكري البعث القائلين الحالفين بأنهم لم يلبثوا غير ساعة: لقد لبثتم في علم الله وقضائه مدة طويلة في الدنيا من يوم خلقتم إلى أن بعثتم.

وفي هذا إشارة إلى أن المؤمن العالم يستكثر مدة المكث في الدنيا؛ لأنه متطلع مشتاق إلى نعيم الجنة وخلودها، وهو يعلم أن مصيره إلى الجنة، فيستكثر المدة، ولا يريد التأخير.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم منكرين للبعث فهذا يومه الواقع الذي لا سبيل لإنكاره، وبه يتبين بطلان إنكاركم إياه، غير أنكم تجهلون أنه حق واقع، لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن أدلة ثبوته.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ففي يوم القيامة لا ينفع هؤلاء الظالمين الكافرين عذرهم أو اعتذارهم عما فعلوا، ولا تقبل منهم توبتهم؛ لأن وقت التوبة في دار الدنيا، وهي دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء، لا وقت العمل.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ معناه أنه لا يطلب منهم الإعتاب، وهو إزالة العتب بالتوبة والطاعة التي تزيل آثار الجريمة؛ لأنها لا تقبل منهم، ولا يعاتبون على ذنوبهم، وإنما يعاقبون عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٤] فليست حالهم حال من يستعتب ويرجع عما هو عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

١ - إن عمر الدنيا قصير جداً إذا قورن بالآخرة.

٢ - قوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ لا يعني إنكار عذاب القبر أو التهوين من شأنه، فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه تعوذ منه، وأمر أن يتعوذ منه، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال: سمع النبي ﷺ أم حَبيبَة وهي تقول: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها النبي ﷺ: «لقد سألتِ الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة، ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر».

٣ً - دلّ قوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ على أن الكفار كانوا يكذبون في الدنيا، وينصرفون من الحق إلى الباطل، وأنهم كما صُرفوا عن الحق في قَسَمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يُصرفون عن الحق في الدنيا، كما وصفهم القرآن: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨/٥٨] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣-٢٤].

٤ً - العلماء بالآخرة المؤمنون بها وبالله تعالى من الملائكة والناس يستكثرون مدة الدنيا شوقاً إلى الآخرة والجنة، أما الكافرون فيستقلُّون مدة اللبث في الدنيا، ويختارون تأخير الحشر، والإبقاء في القبر، تحاشياً من عذاب الآخرة، لذا يقول المؤمنون للكفار رداً عليهم: لقد لبثتم في الدنيا أو في قبوركم إلى يوم البعث.

٥ً - الواقع خير شاهد ودليل، لذا يقول المؤمنون للكفار: إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه.

٦ً - إذا جاء الموت أو يوم القيامة لا ينفع العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ، ولا يطلب من الكفار العتبى، أي إزالة العتب بالتوبة التي تسقط الذنب، ولا تقبل التوبة حينئذ؛ لأن وقتها ووقت التكليف وهو دار الدنيا قد فات، ولم يبق أمامهم إلا دار الجزاء والعقاب، فيعاقبون على أعمالهم التي عملوها.

مهمة القرآن في بيان أدلة العقيدة وأمر النبي بالصبر على الأذى والدعوة

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

القراءات:

﴿الْقُرْآنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿جِئْتَهُم﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتهم).

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا لهم في القرآن أدلة التوحيد والبعث وصدق الرسول ﷺ مقرونة بالأمثلة، تنبيهاً لهم، والمَثَل: الصفة التي هي في الغرابة كالأمثال ﴿وَلَئِن﴾ اللام لام القسم ﴿جِئْتَهُم﴾ يا محمد ﴿بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١] منهم، من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ما أنتم أي الرسول والمؤمنون إلا مزورون أصحاب أباطيل متبعون الباطل.

(١) ليقولن: حذفت منه نون الرفع لتوالي النونات، وحذفت واو الجماعة لالتقاء الساكنين.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي مثل ذلك الطبع يطبع على قلوب هؤلاء الجهلة الذين لا يطلبون العلم، ويصرّون على خرافات اعتقدوها؛ فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ أيها النبي على أذى قومك وعلى دعوتك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرك عليهم وإظهار دينك على الدين كله ﴿حَقٌّ﴾ لا بدّ من إنجازه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي ولا يحملنك على الخفة والطيش والقلق بترك الصبر أي لا تتركه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، فإنهم ضالون.

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد والبعث وصدق الرسول ﷺ، ختم الله السورة بوصف إجمالي للقرآن وهو أنه كتاب العبر والأمثال لإزالة الأعذار، والكتاب المخلص غاية الإخلاص للبشرية بتقديم الإنذارات الكافية، ثم أردفه ببيان تحقيق جميع أهدافه على يد الرسول ﷺ الذي بلغ الغاية القصوى في تبليغ دعوته، وأنه لم يبق منه تقصير.

فإن طلب الكفار شيئاً آخر غير القرآن وهذا النبي، فذلك عناد، لم يفدهم بعده أي بيان؛ إذ من هان عليه تكذيب دليل، سهل عليه تكذيب الأدلة كلها.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينا لهم الحق ووضحناه، وضربنا لهم فيه الأمثال الدالة على وحدانية الخالق وعلى البعث وصدق الرسول ﷺ، ليستبينوا الحق ويتبعوه، ولم يحصل تقصير من جانب الرسول ﷺ في تبليغ الدعوة إلى الله، فإن طلب الناس شيئاً بعد ذلك، فهو عناد، ومن هان عليه تكذيب دليل، لم يصعب عليه تكذيب الدلائل كلها كفراً وعناداً، لذا قال:

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي وتالله لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، وما أنتم أيها الرسول والمؤمنون إلا جماعة مبطلون تأتون بالباطل وتتبعونه؟!.

وذلك كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٩٦-٩٧].

وترتب على إعراضهم عن الإيمان عناداً واستكباراً الطبع على القلوب كما قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي مثل ذلك الختم وحجب الخير والحق يختم الله على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن المجيد، لسوء استعدادهم، وإصرارهم على تقليد الأسلاف، واعتقاد الخرافات.

ثم أمر الله رسوله بالصبر على مخالفتهم وأذاهم وعنادهم، فقال:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر أيها الرسول على أذى المشركين وتابع في تبليغ رسالتك، فإن وعد الله الذي وعدك به من نصره إياك عليهم وظفرك بهم، وجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، حق ثابت لا شكّ فيه، ولا بدّ من إنجازه والوفاء به.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقول الذين لا يوقنون بالله واليوم الآخر، فإنهم قوم ضالون، واثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا محيد عنه، بل الحق كله منحصر فيه. وهذا إشارة إلى وجوب مداومة النبي ﷺ على الدعوة إلى الإيمان.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم والبيهقي أن رجلاً من الخوارج نادى علياً رضي الله عنه، وهو في صلاة الغداة (الفجر) فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٥] فأنْصتَ له عليّ حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن القرآن المجيد هو النعمة العظمى على الإنسانية وعلى المسلمين؛ لأنه يرشد ببيانه العجيب وأمثلته التوضيحية إلى ما يحتاجون إليه، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل.

٢ - إن أتى النبي ﷺ بآية قرآنية أو بمعجزة مثل المعجزات المادية المحسوسة للأنبياء السابقين كفلق البحر والعصا وغيرهما، لقال الكفار: ما أنتم يا معشر المؤمنين إلا قوم مبطلون، أي تتبعون الباطل والسحر.

٣ - كما طبع أو ختم على قلوب صناديد الكفر وزعماء الشرك، حتى لا يفهموا الآيات عن الله، فكذلك يطبع على قلوب الذين لا يعلمون التوحيد وأصول الاعتقاد، وحقيقة العبر والعظات، وآيات الله البينات، فيصبحون عديمي الفهم لكل ما يتلى عليهم من القرآن، بسبب عنادهم وإعراضهم، وسوء استعدادهم لقبول دعوة الحق والخير والتوحيد.

٤ - على المؤمن أن يثبت على الحق الذي لا مرية فيه، وهو دين الإسلام، ولا يتأثر بسفاهات المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا بالبعث. والخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ للنبي ﷺ، والمراد أمته. فإن قصر الخطاب على النبي ﷺ فالمراد به وجوب المداومة على الدعوة إلى الإيمان، فإنه لو سكت لقال الكافر: إنه متقلب الرأي، لا ثبات له على مبدئه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة لقمان

مكية، وهي أربع وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة (لقمان الحكيم) الذي أدرك جوهر الحكمة، بمعرفة وحدانية الله وعبادته، والأمر بفضائل الأخلاق والآداب، والنهي عن القبائح والمنكرات.

موضوعها:

تضمنت الكلام على موضوعات السور المكية وهي إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله ووحدانيته، وتصديق النبوة، والإقرار بالبعث واليوم الآخر. وسبب نزولها أن قريشاً سألت النبي ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه وعن برّه والديه، فنزلت.

صلتها بما قبلها أو مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بسورة الروم قبلها من وجوه:

أ - قال تعالى في آخر السورة السابقة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ إشارة إلى كون القرآن معجزة، وقال في مطلع هذه السورة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾

٢ً - كذلك قال سبحانه في آخر السورة المتقدمة: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ إشارة إلى أن المشركين يكفرون بالآيات، وقال في هذه السورة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٣١/ ٧].

٣ً - وصف الله تعالى قدرته على بدء الخلق والبعث في كلتا السورتين، فقال في السورة السالفة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] وقال هنا: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٨].

٤ً - أثبت الله تعالى في كلتا السورتين إيمان المؤمنين بالبعث، فقال في السورة السابقة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٦] وهذا عين إيقانهم بالآخرة المذكور في مطلع هذه السورة: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

٥ً - حكى الله تعالى في السورتين ما عليه حال المشركين من القلق والاضطراب، إذ يضرعون إلى الله في وقت الشدة، ويكفرون به وقت الرخاء، فقال في السورة المتقدمة: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٣] وقال في هذه السورة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٢].

٦ً - ذكر في سورة الروم: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ١٥] وقد فسر بالسماع، وفي لقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٦] وقد فسر بالغناء وآلات الملاهي.

٧ً - قابل تعالى بين السورتين، فذكر في سورة الروم مدى اعتزاز المشركين بأموالهم ورفضهم إشراك غيرهم فيها، وذكر هنا قصة لقمان الحكيم العبد الصالح الذي أوصى ابنه بالتواضع وترك التكبر، كما ذكر في الأولى محاربة الروم والفرس في معركتين عظيمتين، وذكر في السورة الثانية في قصة لقمان الأمر بالصبر والمسالمة وترك المحاربة.

مشتملات السورة:

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية: فبدأت ببيان معجزة النبي الخالدة وهي القرآن دستور الهداية الربانية، وموقف الناس منه، ففريق المؤمنين يصدِّقون بكل ما جاء فيه، فيظفرون بالجنان، وفريق الكافرين الساخرين الهازئين الذين يعرضون عما فيه من الآيات، ويضلون عن سبيل الله جهلاً وسفهاً، فيتلقون العذاب الأليم.

ثم تحدثت عن أدلة الوحدانية والقدرة الباهرة لله ربِّ العالمين من خلق العالم والكون، وتلا ذلك بيان قصة لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة لابنه، تعليماً للناس وإرشاداً لهم، وعلى رأسها نبذ الشرك، وبرّ الوالدين، ورقابة الله على كل صغيرة وكبيرة، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواضع واجتناب الكبر، ومشي الهوينى، وإخفاض الصوت.

وأردف ذلك توبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك مع مشاهدتهم أدلة التوحيد، والنعي عليهم في تقليدهم الآباء، وجحودهم نعم الله الكثيرة التي لا حصر لها، وإعلامهم أن طريق النجاة هو إسلام النفس لله والإحسان بالعمل الصالح، وبيان تناقضهم حين يُقرُّون بأن الله هو خالق كل شيء ثم يعبدون معه غيره، مع أن الله هو مالك السماوات والأرض والمنعم بجلائل النعم، وعلمه محيط بكل شيء، وأن خلق جميع البشر وبعثهم كخلق نفس واحدة وبعثها، فهو المدبر والمصرف الذي لا يعجزه شيء، وأنهم يتضرعون إليه وقت الشدة ويشركون به وقت الرخاء.

ثم أضافت السورة أدلة أخرى على القدرة الإلهية من إيلاج الليل في النهار وبالعكس، وتسخير الشمس والقمر، وتسيير السفن في البحار وغير ذلك.

وختمت السورة ببيان الأمر بالتقوى والخوف من عذاب يوم القيامة الذي لا بدّ من إتيانه، ولا أمل فيه بنصرة أحد، وعدم الاغترار بمتع الدنيا

وزخارفها، والتنبيه على مفاتيح الغيب الخمسة التي اختص الله بعلمها، وأن الله محيط علمه بالكائنات جميعها، خبير بكل ما يجري فيها.

خصائص القرآن وأوصاف المؤمنين به

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَرَحْمَةً﴾:

وقرأ حمزة (ورحمةٌ).

الإعراب:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ مبتدأ وخبر والإضافة بمعنى «من» و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب والرفع، فالنصب على الحال من ﴿ءَايَٰتُ﴾ والعامل فيهما معنى الإشارة، ولا يجوز أن يكون منصوباً على الحال من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾. لأنه مضاف إليه، ولا عامل يعمل في الحال، وفيه خلاف. والرفع: إما خبر ﴿تِلْكَ﴾ و﴿ءَايَٰتُ﴾: بدلاً من ﴿تِلْكَ﴾ وإما خبر بعد خبر، كقولهم: هذا حلو حامض، وإما خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو هدى.

البلاغة:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ عبر بالمصدر عن اسم الفاعل للمبالغة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ إشارة بالبعيد عن القريب لبيان علو الرتبة وسمو القدر.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ إطناب بتكرار الضمير ﴿هُمُ﴾ واسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لزيادة الثناء عليهم وتكريمهم. وقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يفيد الحصر، أي هم المفلحون لا غيرهم.

المفردات اللغوية:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ يشبه افتتاح سورة البقرة المدنية، وجاء على وفق المعروف غالباً في السور المكية التي تبدأ بأحرف هجائية، للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذه الأحرف «ألف، لام، ميم» ينطق بها العرب قاطبة، ولكنهم عاجزون عن معارضتها بالإتيان بمثل سورة أو عشر سور من القرآن، مما يدل على أنه تنزيل من حكيم حميد .﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي هذه الآيات آيات القرآن المتصف بالحكمة.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي الآيات هادية راحمة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بيان للمحسنين ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هم الثانية للتأكيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون، لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح.

التفسير والبيان:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي إن هذا القرآن مكوّن من الحروف ذاتها التي تنطقون بها، فهل تأتون بمثل آياته؟ فهذه آيات القرآن ذي الحكمة، الذي لا خلل فيه ولا عوج، ولا تناقض فيه ولا اختلاف، بل هو آيات بينات واضحات.

ثم ذكر تعالى الغاية من تنزيله فقال:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أي هذه الآيات القرآنية هدى وشفاء من الضلال، ورحمة تنقذ المؤمنين بها من العقاب، وهم الذين أحسنوا العمل،

واتبعوا الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وفي أوقاتها، مع نوافلها، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، وصدقوا وأيقنوا بوجود الآخرة وبالجزاء العادل فيها، ورغبواإلى الله في الثواب، دون مراءاة ولا جزاء ولا شكور من الناس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ أي هؤلاء الموصوفون بما ذكر هم في قمة الهداية والفلاح، فهم المهديون أي على بصيرة ونور ومنهج واضح من الله، وهم الفائزون وحدهم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى علو المرتبة والتعظيم الذي يستحقونه، إذ لا فلاح إلا بإحسان العمل، ولا خير إلا في الإيمان.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما هو آت:

١ - إن آيات القرآن العظيم محكمة لا خلل فيها ولا تناقض، ولا عيب فيها ولا تعارض، وهي دستور الهداية الربانية، وسبيل استحقاق الرحمة الإلهية، التي لا يستحقها إلا المحسنون. والمحسن: الذي يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه، أو هو الآتي بالإيمان، المتقي الشرك والعناد.

٢ - إن من أخص صفات المحسنين إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان باليوم الآخر.

٣ - هؤلاء المحسنون استنارت قلوبهم وعقولهم بمنهج الله تعالى، فالتزموا أوامره، واجتنبوا نواهيه، ففازوا وحدهم بسعادة الدنيا والآخرة.

٤ - إن وصف القرآن بالحكمة في قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مناسب لموضوع السورة في بيان الحكمة في قصة لقمان وما يؤيدها من آي السورة في تقرير التوحيد، وهدم الشرك وإثبات البعث والنبوة، والدعوة إلى مكارم

الأخلاق، والإيمان بعالم الغيب والشهادة، المنعم على عباده بالنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة.

إعراض الكافرين عن القرآن وإقبال المؤمنين عليه

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا
كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾

القراءات:

﴿لِيُضِلَّ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لَيَضِلّ).

﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾: قرئ:

١- (وَيَتَّخِذُها) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (ويَتَّخِذَها) وهي قراءة الباقين.

﴿هُزُوًاۚ﴾: قرئ:

١- (هُزُواً) وهي قراءة حفص.

٢- (هُزءاً) وهي قراءة حمزة وصلاً، وخلف وصلاً ووقفاً.

٣- (هُزؤاً) وهي قراءة الباقين.

﴿أُذُنَيۡهِ﴾:

وقرأ نافع (أُذْنَيْه).

الإعراب:

﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾ وبالرفع عطفاً على ﴿يَشۡتَرِي﴾ أو على الاستئناف. وهاء ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يعود على (السبيل) لأنها مؤنثة كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨/١٢] وتذكّر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦/٧]. وباء ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ للحال، تقديره: ليضل عن سبيل الله جاهلاً.

﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ حال من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾ وكاف ﴿كَأَن لَّمۡ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: ولّى مستكبراً مُشْبهاً من في أذنيه وقر، وقوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ﴾ حال أخرى أو بيان للحال الأولى.

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ﴾ مرفوع بالجار والمجرور؛ لوقوعه خبراً عن المبتدأ و﴿خَٰلِدِينَ﴾ منصوب على الحال من هاء وميم ﴿لَهُمۡ﴾.

البلاغة:

﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ استعارة تصريحية، شبه حاله بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها، واستعار لفظ ﴿يَشۡتَرِي﴾ لمعنى «يستبدل» بطريق الاستعارة.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ تشبيه مرسل مجمل، حذف منه وجه الشبه، وذكر فيه أداة التشبيه.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكم؛ لأن البشارة المستعملة في الخير استعملت في الشر تهكماً وسخرية.

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير، وهو السجع الحسن غير المتكلف.

المفردات اللغوية:

﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ما يلهي منه عما يغني ويفيد من الحكايات والأساطير والمضاحك وفضول الكلام، وكتب الأعاجم، والجواري المغنيات. واللهو: كل باطل ألهى عن الحق والخير. وقد اشتريت تلك الملاهي بالفعل، والإضافة بيانية بمعنى «من» إن أراد بالحديث المنكر، وتبعيضية إن أراد به الأعم منه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليصرف الناس عن دين الله وهو طريق الإسلام، أو قراءة كتابه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ غير عالم بحال ما يشتريه، أو بالتجارة، حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيل سخرية مهزوءاً بها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ عذاب فيه غاية الإهانة؛ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً لا يعبأ بها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مشابهاً حاله حال من لم يسمعها ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ مشابهاً من في أذنيه صمم أو ثقل يمنع من السماع﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعلمه بوقوعه في عذاب مؤلم لا محالة، وذكر البشارة تهكم به ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيم جنات، فعكس للمبالغة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدراً خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان: الأول لنفسه، والثاني لغيره، أي وعدهم الله ذلك وحقه حقاً؛ لأن قوله ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾ وعد، وليس كل وعد حقاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء، فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يضع شيئاً إلا في محله، ولا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت في النضر بن الحارث اشترى قَيْنة (مغنية) وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام، إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه مُحمَّد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه، فنزلت.

وقال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم، فيرويها ويحدِّث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً ﷺ يحدثكم حديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم حديث رُسْتُم واسفِنْديار، وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون سماع القرآن.

المناسبة:

بعد بيان أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة، وبعد بيان حال السعداء المهتدين بهديه، المنتفعين بسماعه، بيَّن الله تعالى حال الكفار الأشقياء التاركين له المشتغلين بغيره، وأعقبه بوعيدهم بالعذاب المهين المؤلم، وعطف عليه وعِد المؤمنين به المقبلين على تلاوته، الملتزمين حدوده من أوامر ونواهٍ.

التفسير والبيان:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ أي وهناك فريق من الناس يستبدل بالنافع الضار، وبالقرآن الشافي ما يتلهى به من الحكايات والأساطير وفضول الكلام، والمضاحك، والاستماع إلى غناء الجواري، كالنضر بن

الحارث الذي كان يشتري كتب الفرس ويحدّث بها الناس، ويقتني المغنيات لاجتذاب الشبان، وإغراء من أسلم حديثاً، لحمله على ترك الإسلام، وإضلاله عن دين الله وهو دين الإسلام، والصدّ عنه، واتخاذه هزواً وسخرية، جهلاً بخطورة ما يفعل من استبدال اللهو بقراءة القرآن، وأولئك وهم الموغلون في الكفر والضلال يحيق بهم عذاب بالغ الإهانة. وقوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ للتفرقة بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن، فإن عذاب المؤمن للتطهير، فهو غير مهين، وأما عذاب الكافر فهو في غاية الإهانة، فكما استهان بآيات الله وسبيله أهين يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بضم الياء معناه لمخالفة الإسلام وأهله ومعاداتهم، واللام لام التعليل، أي ارتكب هذا الفعل من أجل الإضلال والصدّ عن سبيل الله. وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة، أي لتكون عاقبة أمره الإضلال، واتخاذ آيات الله هزواً وسخرية.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المضلين بالإمعان في الضلال والكفر، وازدياد الإعراض والنفور عن دين الله، فقال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أي إن من يشتري الحديث الباطل إذا تليت عليه آيات القرآن أدبر وأعرض عنها متكبراً، وتصامم عن سماعها، وإن لم يكن به صمم، كأنه ما سمعها، وكأن في أذنيه صمماً وثقلاً؛ لأنه يتأذى بها، ولا ينتفع منها، ولا أرب له فيها، فبشر هذا المعْرِض بعذاب يؤلمه يوم القيامة، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

وبعد بيان حال هؤلاء الأشقياء، ذكر الله تعالى مآل الأبرار السعداء في الدار الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ

﴿ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي إن الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة من الائتمار بالأوامر الشرعية، واجتناب المحظورات والمناهي، لهم جنات يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب وغير ذلك من المتع مما لم يخطر لأحدهم ببال، وهم فيها مقيمون دائماً لا يظعنون، ولا يبغون عنها حولاً.

وهذا كائن لا محالة؛ لأنه وعد الله الذي لا يخلف وعده؛ لأنه الكريم المنّان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء.

وهو العزيز القوي الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، فلا ينجو منه مشرك ولا غيره، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين. ونحو موضوع الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤] وقوله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٨٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

١ً - إن من أعظم الجرائم الإعراض عن سماع القرآن كلام الله، وشغل الناس بسماع غيره من أنواع الكلام غير المفيد من القصص والأساطير والمضاحيك ونحو ذلك من ألوان اللهو والعبث، بقصد الإضلال والصدّ عن دين الله تعالى، ويستحق المعرض المتولي تكبراً عن القرآن عذاباً أليماً.

٢ً - استدل ابن مسعود وابن عباس وغيرهما بقوله: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ على منع استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب.

وهذه الآية إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء

والمنع منه. والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٦١] قال ابن عباس: هو الغناء، بالحِمْيَرِيَّة؛ اسمدي لنا، أي غنّي لنا. والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٤] قال مجاهد: الغناء والمزامير.

روى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «صوتان ملعونان فاجران أَنْهَى عنهما: صوت مزمار، ورنّة شيطان عند نغمة ومَرَح، ورَنَّة عند مصيبة لطم خدود، وشق جيوب» وأخرج أبو طالب الغيلاني عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثت بكسر المزامير» وأخرج ابن بِشْران عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «بُعثت بهدم المزامير والطبل» وروى ابن المبارك عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من جلس إلى قَيْنة يسمع منها، صُبَّ في أذنه الآنك[1] يوم القيامة». وبناء عليه، قال العلماء بتحريم الغناء.

حكم الغناء عند الفقهاء:

للفقهاء، ومنهم علماء المذاهب الأربعة على المعتمد لديهم تفصيل في حكم الغناء هو ما يأتي[2]:

أ - الغناء الحرام: هو الذي يحرّك النفوس، ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمجون، بكلام يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرَّمات؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. وإذا لم يجز فأخذ الأجرة عليه لا يجوز.

ب - الغناء المباح: هو ما سلم مما ذكر، فيجوز القليل منه في أوقات

(١) الآنك: الرصاص. إلا أن الحديث ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ٥٤

الفرح؛ كالعرس والعيد، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق حول المدينة، وحَدْو أَنْجَشَة[١]

ج - أما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات[٢] والطار والمعازف والأوتار فحرام. وفي اليراعة[٣] تردد، والدف مباح.

د - وأما طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يهيج النفوس، ويُرهب العدو، فقد ضُرب بين يدي النبي ﷺ يوم دخل المدينة، فهمَّ أبو بكر بالزجر، فقال رسول الله ﷺ: «دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح» فكنّ يضرِبن ويقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار يا حبَّذا محمد من جار

هـ - لا بأس من استعمال الدُّفّ في حفلات الزفاف، وكذا الآلات المشهرة بالزواج والغناء بحسن الكلام الذي لا فحش فيه.

و- سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحْرَم لا يجوز. والاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَد به الشهادة، فإن لم يدم لم تُردّ.

ونقل عن أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل القول بكراهة الغناء. وقال الطبري: أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه.

٣ً - عادة القرآن مقابلة الأشياء بأضدادها لبيان الفرق والترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين، وهو أن للمؤمنين

---

(١) أنجشة: هو عبد أسود كان يسوق إبل نساء النبي ﷺ عام حجة الوداع، وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحدائه.

(٢) قصبة الزمر.

(٣) اليراعة: مزمار الراعي.

الذين يعملون صالح الأعمال المأمور بها شرعاً نعيم الجنان، دائمين فيها، ووعدهم الله هذا وعداً حقاً لا خُلْف فيه، وهو وعد العزيز الذي لا يغلب ولا يعجزه شيء، الحكيم في صنعه وفعله.

الاستدلال بخلق السماوات والأرض على وحدانية الله وإبطال الشرك

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

الإعراب:

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ الباء في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. و﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ جملة فعلية في موضع جر على الصفة لـ ﴿عَمَدٖ﴾ أي بغير عمد مرئية، فالضمير راجع إلى العمد، والعمد: قدرة الله وإرادته، أو أن الضمير راجع إلى السماوات، أي ليست هي بعمد، وأنتم ترونها كذلك بغير عمد، وحينئذ تكون الجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ﴾ الياء في ﴿فَأَرُونِي﴾ المفعول الأول، و﴿فَأَرُونِي﴾ معلق عن العمل و﴿مَاذَا خَلَقَ﴾: سدّ مسد المفعول الثاني. و﴿مَاذَا﴾: ما: استفهام إنكار: مبتدأ، وذا بمعنى الذي مع صلته: خبره.

البلاغة:

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، تعظيماً لشأن الرحمن، بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾ ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ ﴿وَبَثَّ﴾.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أي مخلوقه، من قبيل إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة.

﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت.

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الأصل أن يقال: بل هم، فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ.

المفردات اللغوية:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استئناف كلام جديد ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ العمد: جمع عماد: وهو الأسطوانة التي يُعْمَدُ بها أي يُسْنَد به، و﴿تَرَوْنَهَا﴾ إما صفة العمد أي بغير عمد مرئية، أو يعود الضمير إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي لا عمد لها أصلاً، وأنتم ترونها بلا عمد، فهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت مرتفعة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد، أي تتحرك وتضطرب بكم ﴿وَبَثَّ﴾ نشر وفرق ﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صنف حسن، كثير المنافع. والآية دليل على عزة الله التي هي كمال القدرة، والحكمة التي هي كمال العلم، لتقرير أصل التوحيد.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ هذا الذي ذكر مخلوق الله ﴿فَأَرُونِى﴾ أخبروني يا أهل مكة وأمثالكم الكفار ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ماذا خلق الذين من غيره وهم آلهتكم التي أشركتموها بالله تعالى ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بل: للانتقال والإضراب عن تبكيتهم إلى تسجيل الضلال عليهم، فهم في ضلال بيِّن لا يخفى على ناظر، بإشراكهم. ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

المناسبة:

بعد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الدال على عزته وحكمته وكمال

قدرته وعلمه وإتقان صنعه، ذكر الله تعالى الأدلة على قدرته العظيمة من خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، لتقرير وحدانيته، وإبطال الشرك، والتنبيه إلى وجوب اتباع الحق الذي جاءت به الرسل.

التفسير والبيان:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ﴾ أي من أدلة قدرته تعالى العظيمة، وحكمته السديدة أنه خلق السماوات بغير أعمدة، لا مرئية ولا غير مرئية، والسماوات كالأرض في الظاهر مبسوطة، وفي الحقيقة مستديرة، لقوله تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٣] والفلك: اسم لشيء مستدير، وهي على أي حال مخلوقة بقدرة الله، لا بالطبيعة، وهي فضاء والفضاء لا نهاية له، ولا تزول إلا بقدرة الله تعالى.

وليس لها عمد أصلاً، بدليل رؤية الناس لها غير معمودة. وقيل: إن لها عمداً غير مرئية، والله عمدها بعمد لا ترى، وهي إمساكها بقدرته.

والخلاصة: إنه تعالى خلق السماوات بغير أعمدة تستند إليها، بل هي قائمة بقدرة الله تعالى.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي وجعل في الأرض جبالاً شوامخ ثوابت أرست الأرض وثقلتها؛ لئلا تضطرب بأهلها، وتغمرها مياه البحار والمحيطات المحيطة بها، والتي تكوّن أكثر الكرة الأرضية.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ﴾ أي وذرأ فيها ونشر ووزع من أصناف الحيوان التي لا يحصي عددها، ولا يعلم أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي وأنزلنا من السحاب مطراً يكون سبباً لإنبات كل صنف كريم، أي حسن المنظر، كثير المنفعة.

ثم وبخ الله تعالى أولئك المشركين الذين يتركون عبادة الخالق ويشتغلون بعبادة المخلوق، فقال:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ أي هذا الذي ذكر من المخلوقات هو من خلق الله وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك، والخلق بمعنى المخلوق، فأخبروني أيها الكفرة ماذا خلق الذين تعبدونهم من غيره من الأصنام والأنداد. وقوله: ﴿خَلَقَ﴾ واقع على هاء محذوفة، تقديره: فأروني أي شيء خلق الذين من دونه، أو أروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه.

وبعد توبيخهم على شركهم، وصفهم تعالى بما يترتب عليه وهو الضلال، فهم في شركهم وعبادتهم مع الله غيره في ضلال واضح، فقال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بل هؤلاء المشركون بالله العابدون معه غيره في جهل وعمى وانحراف وكفر بيّن واضح ظاهر، لا خفاء به، ولا اشتباه فيه لمن تأمله، جعلهم في غاية الضلال الذي ليس بعده ضلال.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

أ - الدليل على وجود الله وقدرته العظمى وحكمته البالغة: هو خلق السماوات بغير أعمدة تستند إليها، وإنما أمسكها الله بقدرته وإرادته؛ وخلق الأرض ذات الجبال الشوامخ الثوابت لئلا تضطرب بأهلها؛ وجعلها ذات أنس بما وزَّع فيها من أصناف الحيوان في البر والبحر والجو، ذوات الأشكال المختلفة، والمناظر البديعة، والأصوات المختلفة؛ وإنزال الأمطار عليها لإنبات النباتات البهية المنظر، البديعة التكوين، الكثيرة المنافع، سواء بثمرها إن كانت مثمرة، أو بظلها المريح وخضرتها الممتعة للنظر والمفرحة للنفس، أو بجعلها أسباباً لزيادة المطر.

٢ً - أكد تعالى قدرته الخلاقة بأن هذا المذكور المعاين هو مخلوق الله من غير شريك، ثم تحدى ووبخ قائلاً: أخبروني معاشر المشركين عما خلقت الآلهة المزعومة من الأصنام والأنداد، ثم وصفهم بالوصف الملازم لهم: وهو أن المشركين في خسران ظاهر.

قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾: قرئ:

١- (أنِ اشكر) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (أنُ اشكر) وهي قراءة الباقين.

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ﴾: قرئ:

١- (يا بُنَيَّ) وهي قراءة حفص.

٢- (يا بُنَيْ) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (يا بُنَيِّ) وهي قراءة الباقين.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾: قرئ:

١- (يا بُنَيَّ) وهي قراءة حفص.

٢- (يا بُنَيِّ) وهي قراءة الباقين.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ﴾: قرئ:

١- (يا بُنَيَّ) وهي قراءة حفص، والبزي.

٢- (يا بُنَيْ) وهي قراءة قنبل.

٣- (يا بُنَيِّ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ﴾: قرئ:

١- (ولا تُصَعِّرْ) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، وعاصم.

٢- (ولا تُصَاعر) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ﴾ ﴿وَإِذۡ﴾: ظرف متعلق بفعل مقدر، أي اذكر إذ قال لقمان. و﴿لُقۡمَٰنَ﴾: ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والألف والنون الزائدتين، كعثمان وعمران.

﴿وَهْنًا﴾ منصوب بحرف جر محذوف، تقديره: حملته أمه بوهن، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به فنصبه. أو حال من فاعل ﴿حَمَلَتْهُ﴾ على التأويل بالمشتق، أي حملته أمه حال كونها ذات وهن وعلى وهن أي ذات ضعف على ضعف متتابع.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ منصوب بحرف جر محذوف، أي بأن اشكر، وقيل. أن: مفسرة بمعنى أي، كقوله تعالى: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ [ص: ٣٨/٦] ولا موضع لها من الإعراب.

﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ ﴿مِثْقَالَ﴾ خبر تكون الناقصة، أي إن تكن الخصلة الموزونة مثقالَ حبة. وعلى قراءة الرفع فاعل تكون التامة، وأنث ﴿فَتَكُن﴾ وإن كان المثقال مذكراً، لاكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه، كقولهم: ذهبتْ بعضُ أصابعه، وكقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٢/١٠].

﴿مَرَحًا﴾ مصدر منصوب في موضع الحال، كقولهم: جاء زيد ركضاً.

البلاغة:

﴿يَشْكُرْ﴾ و﴿كَفَرَ﴾ بينهما طباق.

﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿فَخُورٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل وفعول، أي كثير الغنى والحمد والفخر.

﴿بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بالأم.

﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر، أي إليّ لا إلى غيري.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ من باب التمثيل، مثل بذلك لبيان سعة علم الله ودقته وشموله جميع الأشياء حقيرها وجليلها.

﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ من باب التتميم، تمم خفاء الأشياء في نفسها بخفاء مكانها.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مقابلة بين اللفظين.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ استعارة تمثيلية، شبه الرافعين أصواتهم برفع الحمير أصواتهم، ولم يذكر أداة التشبيه، وإنما أورده بطريق الاستعارة للمبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت.

المفردات اللغوية:

﴿لُقْمَٰنَ﴾ هو كما ذكر البيضاوي لقمان بن باعورا من أولاد آزر، ابن أخت أيوب أو ابن خالته، أسود من سودان مصر من النوبة، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم، آتاه الله الحكمة، أي العقل والفطنة والعلم والإصابة في القول، والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً. من أقواله: «الصمت حكم وقليل فاعله» وقيل له: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئاً.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ هي في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة، على قدر طاقتها ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي بأن اشكر، أو أي اشكر ما أعطاك من الحكمة، والشكر: الثناء على الله تعالى وطاعته فيما أمر به، واستعمال الأعضاء فيما خلقت له من الخير ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه وثواب شكره عائد له وهو دوام النعمة واستحقاق المزيد منها .﴿غَنِىٌّ﴾ عن خلقه، لا يحتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمد، ومحمود في صنعه، نطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أي واذكر، واسم ابنه: أنعم، أو أشكم، أو ماتان أو ثاران في قول السهيلي ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ العظة: تذكير بالخير بأسلوب رقيق يَرِقّ له القلب ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ التصغير للإشفاق والتحبب﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وكون الشرك ظلماً؛ لأنه تسوية بين المنعم وحده وغير المنعم ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي أمرناه وألزمناه ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي بأن يبرهما ﴿وَهْنًا﴾ أي بوهن، أي ضعف ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي تضعُف ضَعْفاً فوق ضَعْف، من الحمل، فالطَّلْق، فالولادة ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فِطامه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ في انقضاء عامين، وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير لوصَّينا ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع، فأحاسبك على الشكر أو الكفر.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾مطابق للواقع ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك ﴿مَعْرُوفًا﴾ أي بالمعروف وهو البر والصلة، أو صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي اتبع في الدين طريق من رجع إلي بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. و﴿أَنَابَ﴾ رجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أخبركم بأعمالكم، وأجازيكم على الإيمان والكفر. والآيتان: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ معترضتان ضمن وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ أي إن الخصلة السيئة أو الحسنة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ وزن أصغر شيء﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ وزن حبة خردل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أخفى مكان فيهما ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فيحاسب عليها ﴿لَطِيفٌ﴾ باستخراجها، يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بمكانها، عالم بكنه الأشياء وحقائقها

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ من الشدائد، وبسبب الأمر والنهي ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من كل ما أمر به ونهى عنه ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها، أو من الأمور المعزومة التي قطعها الله قطع إيجاب ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلْه عنهم ولا تُولّهم صفحة وجهك، كما يفعل المتكبرون، والأصعر: المعرض بوجهه كبراً، مأخوذ من الصَّعَر: وهو داء يعتري البعير فيلوي منه عنقه ﴿مَرَحًاۖ﴾ خيلاء وبطراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي يعاقب كل متبختر في مشيه، فخور على الناس. وهو علة للنهي. والمختال: فاعل الخيلاء، وهي التبختر في المشي كبراً، والفخور من الفخر: وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ توسط فيه غير مختال ولا مستضعف، وغير مسرع ولا مبطئ وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وهو ضعيف: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» والمقصود بقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: «كان إذا مشى أسرع» أنه يسير ما فوق دبيب المتماوت ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ أي أنقص منه وأقصر أو اخفض ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أي أقبحها وأزعجها وأصعبها على السامع ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أوله زفير وآخره شهيق.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى فساد اعتقاد المشركين وأن المشرك ظالم ضال، ذكر ما يدل على ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة والعلم المرشد إلى الإقرار بوحدانيته، وإن لم يكن هناك نبوة، فإن لقمان توصل إلى إثبات التوحيد وإطاعة الله والتزام مكارم الأخلاق دون نبي ولا رسول.

وهذا إشارة إلى أن اتباع النبي ﷺ لازم فيما لا يعقل معناه، إظهاراً للتعبد، ولازم من باب أولى فيما يدرك بالعقل معناه.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ أي وتالله لقد أعطينا لقمان[1] الحكمة وهي التوفيق إلى العمل بالعلم والفهم، وشكر الله وحمده على نعمه وأفضاله، وحب الخير للناس، واستعمال الأعضاء فيما خلقت له من الخير والنفع.

وهذا دليل على أن لقمان الحكيم هداه الله إلى المعرفة الصحيحة، من غير طريق النبوة.

ومن يشكر الله على ما منحه وأعطاه ربه، فيطيعه ويؤدي فرضه، فإنما يحقق النفع والثواب لنفسه، وينقذها من العذاب، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٤٤].

ومن جحد نعمة الله عليه، فأشرك به غيره، وعصى أوامره، فإنه يسيء إلى نفسه، ولا يضر ربّه، فإن الله غني عن العباد وشكرهم، لا يتضرر بذلك، فلا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وهو المحمود في السماء والأرض بلسان الحال أو المقال، وإن لم يحمده أحد من الناس.

ثم ذكر تعالى وصية لقمان (وهو كما ذكر ابن كثير لقمان بن عنقاء بن سدون) لابنه (وهو ثاران في قول السهيلي والطبري والقُتَبي) فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ واذكر حين أوصى لقمان ابنه بوصية أو موعظة، حرصاً عليه؛

(١) روى أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن» قال الطبراني: أراد الحبش (تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٤٧).

لأن الأب يحب ابنه وهو أشفق الناس عليه، فقال له: يا ولدي، اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، فإن الشرك أعظم الظلم، أمّا إنه ظلم فلكونه وضع الشيء في غير موضعه، وأمّا كونه أعظم الظلم فلتعلقه بأصل الاعتقاد وتسويته بين الخالق والمخلوق، وبين المنعم وحده وبين غير المنعم أصلاً، وهي الأصنام والأوثان.

والآية عطف على معنى ما سبق، وتقديره: ولقد آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت آية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يَلْبِسْ إيمانَه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

ثم أمر الله تعالى ببرّ الوالدين، جرياً على عادة القرآن، فإنه كثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين الأمر بعبادة الله واجتناب الشرك وبين الأمر ببرّ الوالدين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣]، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي وأمرنا الإنسان وألزمناه برّ والديه وطاعتهما، وأداء حقوقهما، ولا سيما برّ الأم التي حملته في ضعف فوق ضعف، من الحمل إلى الطلق إلى الولادة والنفاس، ثم الرضاع والفطام في مدة عامين والتربية ليلاً ونهاراً، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٣] وقد بيَّن الحديث النبوي أحقية الأم بالبرّ، فأوصى بها ثلاث مرات، ثم أوصى بالأب في المرة الرابعة، فجعل له ربع المبرة.

لقد وصيناه، أي أمرناه وعهدنا إليه بالشكر لي أي لله على نعمتي عليك، وبالشكر للوالدين؛ لأنهما سبب وجودك، ومصدر الإحسان إليك بعد الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ لبيان علة الوصية أو وجوب امتثالها، و﴿أَن﴾ هنا في رأي الزمخشري تفسيرية، والجملة بيان لفعل التوصية، إذ هو متضمن معنى القول، أي قلنا له: ﴿ٱشْكُرْ لِي﴾.

وكذا علة الأمر بطاعة الله وطاعة الأبوين أو السبب فيه: هو أن المصير أو المرجع إلي، فسأجزيك على ذلك أوفر الجزاء في الآخرة. وهذا تهديد وتخويف من عاقبة المخالفة والعقوق والعصيان، كما هو وعد بالجزاء الحسن على امتثال أمر الله وطاعته وبرّ الوالدين وصلتهما.

وهذه الآية وما بعدها من كلام لقمان الذي وصى به ابنه، أخبر الله عنه بذلك، فلما بيَّن لقمان لابنه أن الشرك ظلم ونهاه عنه، كان ذلك حثّاً على طاعة الله، ثم بيَّن أن الطاعة تكون للأبوين، وبيَّن السبب في ذلك.

وقيل: هو من كلام الله قاله للقمان، أي قلنا له: ﴿ٱشْكُرْ﴾، وقلنا له: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، وقيل: هذه الآية اعتراض بين وصية لقمان تؤكد النهي عن الشرك، قال القرطبي: والصحيح أن هذه الآية وآية العنكبوت السابقة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٨] نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص وأمه حَمْنة بنت أبي سفيان بن أمية التي حلفت ألا تأكل حتى يرتد سعد، وعليه جماعة من المفسرين[(١)]. والمختار عند المفسرين أن هذه الآية إلى آخر الآيتين بعدها كلام مستأنف من الله تعالى، جاء معترضاً بين وصايا لقمان لابنه، تأكيداً للنهي عن الشرك.

ثم قيَّد الله طاعة الأبوين مستثنياً حقوقه تعالى، فقال:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/٦٣، البحر المحيط: ٧/١٨٦ وما بعدها.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي وإن ألحّ والداك في الطلب، وحرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما في دينهما، وتشرك بي في عبادتي غيري مما لا تعلم أنه شريك لي، فلا تقبل منهما ذلك، ولا تطعهما فيما أمراك به من الشرك أو المعصية، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والمراد بنفي العلم نفي الشريك، أي لتشرك بي ما ليس بشيء وهي الأصنام.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يمنعك عدم طاعتك لأبويك في الشرك والمعصية من أن تصاحبهما في الدنيا بالمعروف، بأن تحسن إليهما، فتمدهما بالمال عند الحاجة، وتطعمهما وتكسوهما، وتعالجهما عند المرض، وتواريهما عند الموت في القبور، وتبرّ صديقهما، وتفي بعهدهما. وقوله: ﴿مَعْرُوفًا﴾ أي اصطحاباً معروفاً على مقتضى الكرم والمروءة، أو مصاحباً حسناً بخلق جميل، وحلم واحتمال، وبرّ وصلة.

وقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ تهوين شأن الصحبة، فهي لأيام محدودة، وسنوات معدودة، سريعة الزوال والانقضاء. والمعروف هنا: ما يعرفه الشرع ويرتضيه، وما يقتضي به الكرم والمروءة في إطعامهما وكسوتهما والإحسان إليهما في القول والفعل.

وإياك والمحاباة في شأن الدين، فالزم سبيل المؤمنين التائبين في دينك، ولا تتبع في كفرهما سبيلهما فيه، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا.

ثم إليّ مرجعك ومرجعهما، فأجازيك على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما، وأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر. والجملة مقررة لما قبلها ومؤكدة لوجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما وطاعتهما في غير معصية.

ثم أخبر تعالى عن بقية وصايا لقمان الحكيم النافعة، ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال:

١ - ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾﴾ أي يا ولدي، إن الحسنة والسيئة أو المظلمة والخطيئة، لو كانت تساوي وزن أو مثقال حبة خردل، ولو كانت في أخفى مكان كجوف صخرة، أو في أعلى مكان كالسماوات، أو في أسفل موضع كباطن الأرض، لأحضرها الله يوم القيامة حين الحساب، ووزن الأعمال، والمجازاة عليها خيراً أو شراً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٧] وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨]. وقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ يراد به المبالغة والانتهاء في التفهيم.

إن الله لطيف العلم، يصل علمه إلى كل شيء خفي، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقت ولطفت وتضاءلت، خبير عالم بكنه الأشياء، يعلم ظواهر الأمور وبواطنها.

والمقصود من الآية بيان سعة علم الله، فهو يعلم الغيب والشهادة، ويطلع على جميع أعمال عباده، لموافاتهم بجزائها يوم القيامة.

٢ - ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ أي بعد أن منعه من الشرك، وخوفه بعلم الله وقدرته، أمره بصالح الأعمال اللازمة للتوحيد وهي الصلاة أي العبادة لوجه الله مخلصاً، وإقامتها أي أداؤها كاملة بحدودها وفروضها وأوقاتها، وهي عماد الدين، ودليل الإيمان واليقين، ووسيلة القربى إلى الله وتحقيق رضوانه، كما أنها تساعد على اجتناب الفحشاء والمنكر، وصفاء النفس.

والأمر بالمعروف أي أمر النفس والغير بما هو معروف شرعاً وعقلاً،

كمكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، مما يهذب النفس ويدعو إلى التحضر والتمدن، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩١/ ٩-١٠].

والنهي عن المنكر، أي منع النفس والآخرين من المعاصي والمنكرات المحرَّمة شرعاً والقبيحة عقلاً، والتي تغضب الله، وتوجب عذاب جهنم.

والصبر على الأذى والشدائد والأوامر الإلهية، فإن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر يؤذى عادة، فطلب منه الصبر. وقد بدئت الوصايا بالصلاة؛ لأنها عماد الدين وختمت بالصبر؛ لأنه أساس المداومة على الطاعات، وعماد رضوان الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك المذكور مما أمر الله به ونهى عنه، ومنه الصبر على أذى الناس، لمن الأمور الواجبة المعزومة، أي المقطوعة قطع إيجاب وإلزام(١)، ويكون المصدر «عَزْم» بمعنى المفعول.

وبعد أمره بما يكمل نفسه وغيره، نهى عن أشياء وحذر من أشياء، فقال:

أ - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُعْرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلموك تكبراً واحتقاراً، والمعنى: لا تتكبر فتحتقر عباد الله، ولا تتكلم وأنت معرض، بل كن متواضعاً سهلاً هيناً ليناً منبسط الوجه، مستهل البشر، كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري: «لا تَحْقِرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله».

(١) ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يَعْزم الصيام من الليل» أي لم يقطعه بالنية، ومنه الحديث الآخر: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه».

٢ - ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا تسر في الأرض مختالاً بَطِراً متبختراً، جباراً عنيداً، فإن تلك المِشْية يبغضها الله، والله يكره كل مختال معجَب في نفسه، فخور على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٣٧]. وقال ﷺ فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن ابن عمر: «من جَرَّ ثوبَه خُيَلاءَ، لا ينظر الله إليه يوم القيامة». والفخور: هو الذي يعدد ما أُعطِي، ولا يشكر الله تعالى. وروى ابن أبي الدنيا عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة» وروى أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ربّ ذي طِمْرين لا يُؤْبه له، لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة، لأعطاه الله الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً».

وروى يحيى بن جابر الطائي عن غُضَيف بن الحارث قال: جلست إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه، فيقول: يا ابن آدم، ما غَرَّك بي! ألم تعلم أني بيتُ الوَحْدة! ألم تعلم أني بيت الظلمة! ألم تعلم أني بيت الحق! يا ابن آدم ما غَرَّك بي! لقد كنت تمشي حولي فَدَّاداً (مختالاً متكبراً).

٣ - ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي امش مشياً متوسطاً عدلاً، ليس بالبطيء المتثبِّط المتماوت الذي يظهر الضعف تزهداً، ولا بالسريع المفرط، الذي يثب وثب الشيطان، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة، وهو ضعيف: «سرعة المشي تُذهب بهاء المؤمن»، وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنهما: «كان إذا مشى أسرع في مِشْيته» فالمراد السرعة التي تتجاوز دبيب المتماوتين. وقد رأى عمر رجلاً متماوتاً، فقال له: «لا تُمِتْ علينا ديننا، أماتك الله» ورأى رجلاً مطأطئاً رأسه، فقال له: «ارفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض».

٤- ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي لا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، واخفضه، فإن شدة الصوت تؤذي آلة السمع، وتدل على الغرور والاعتداد بالنفس وعدم الاكتراث بالغير، واعتدال الصوت أوقر للمتكلم، وأقرب لاستيعاب الكلام ووعيه وفهمه، وقد علّل النهي عن رفع الصوت بأنه يشبه صوت الحمير في علوّه ورفعه، وإن أقبح الأصوات لصوت الحمير، وهو بغيض إلى الله تعالى، والسبب أن أوله زفير وآخره شهيق.

وفيه دلالة على ذمّ رفع الصوت من غير حاجة؛ لأن التشبيه بصوت الحمار يقتضي غاية الذمّ، وقد ورد في السّنة أيضاً ما يدل على التنفير منه، روى الجماعة إلا ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن الشرك بالله أو اتخاذ عبد من عباده أو صنم من الأصنام شريكاً في العبادة مع الله ظلم عظيم، بل هو أعظم الظلم، لما فيه من الافتئات على الخالق الرازق، وسخف هذا الاعتقاد، وخلوه من أي فائدة للمشرك. وقد حققت وصية لقمان لابنه هدفها، فقد ورد في التفسير أن ابنه كان مشركاً، فوعظه وكرّر الوعظ عليه حتى أسلم.

٢ - برّ الوالدين وطاعتهما في معروف غير معصية فرض واجب على الإنسان، مقابلة للمعروف بمثله، ووفاء للإحسان، وتقدير الفضل، واحترام نظام الأسرة. وأمر الله بالإحسان إلى الوالدين عام في الوالدين المسلمين والكافرين، وأن طاعة الوالدين على أي دين كانا واجبة.

غير أن طاعة الأبوين غير مطلوبة، بل هي حرام في ارتكاب معصية كبيرة كالإشراك بالله، وترك فريضة عينية؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتندب الطاعة في ترك المندوبات ومنها الجهاد الكفائي، وإجابة الأم في الصلاة النافلة إذا شقّ عليها الانتظار أو خيف هلاكها.

وتختصّ الأم بزيادة البرّ والطاعة لمعاناتها في سبيل تربية أولادها، وبما أنها كما ذكرت الآية تعرضت لمراتب ثلاث من المشاق: الحمل، والرضاع، والوضع، جعل لها ثلاثة أرباع المَبَرَّة، وللأب الربع، قال ﷺ لرجل سأله فيما رواه البخاري وغيره: «من أبرُّ؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أبوك».

٣ً - أقصى مدة الرضاع في أحكام النفقات والتحريم بالرضاع عامان، وقصر مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم على عامين هو رأي العلماء غير أبي حنيفة. ورأى أبو حنيفة أن مدة الرضاع المحرم ثلاثون شهراً لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

واستنبط العلماء أيضاً أن أقل مدة الحمل ستة أشهر من مجموع آيتين، قال تعالى في آية: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] ، وقال في آية أخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥].

٤ً - الشكر لله على نعمة الإيمان وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى، وللوالدين على نعمة التربية، قال سفيان بن عُيَيْنة: من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

٥ً - آية ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ دليل على جواز صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعوة إلى

الإسلام برفق. ويؤيده أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت للنبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم - وقد قَدِمت عليها أمها من الرضاعة، أو خالتها -: «يا رسول الله، إن أمي قدِمت علي، وهي راغبة، أفأصِلُها؟ قال: نعم» قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتقْدُم على أسماء لولا حاجتها.

ووالدة أسماء: هي قُتيلة بنت عبد العُزّى بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

ودلّ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على أن الولد لا يستحق القصاص على أحد والديه، وأنه لا يحدّ له إذا قذفه، ولا يحبس له بدين عليه، وأن على الولد نفقة والديه عند الحاجة.

٦ً - قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ المراد به العموم، كما هو ظاهر اسم الموصول، فهو وصية لجميع العالم، والمأمور الإنسان، وهي سبيل الأنبياء والمؤمنين الصالحين. وأناب معناه: مال ورجع إلى الشيء، والمراد هنا: تاب من الشرك، ورجع إلى الإسلام، واتبع النبي ﷺ، ورجع إلى الله بالتوحيد والإخلاص بالطاعة، لا سبيل الوالدين اللذين يأمران بالشرك. وهذا الأمر باتباع السبيل دليل على صحة إجماع المسلمين، وأنه حجة لأمر الله تعالى إيانا باتباعهم، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٤/ ١١٥].

٧ً - قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ توعد من الله عزّ وجلّ ببعث من في القبور، والرجوع إليه للجزاء والإعلام بصغير الأعمال وكبيرها.

٨ً - قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ قصد به إعلام قدرة الله تعالى، وتخويف منه ورجاء، فمهما تكن الحسنة أو الخطيئة أو الطاعات والمعاصي مثقال حبة خَرْدَل يأْتِ بها الله؛ لأن الحِسّ لا يدرك ثقلاً للخردلة، إذ لا ترجّح ميزاناً.

وفسّر القرطبي الآية بأنه لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خَرْدَل في أي مكان في العالم العلوي (السماوات) والسفلي (الأرض) جاء الله بها، حتى يسوقها إلى من هي رزقه؛ أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتِّباع سبيل من أناب إلي. ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود فيما رواه البيهقي في القدر، وهو ضعيف: «لا تكثر همَّك، ما قُدِّر يكن، وما تُرزَق يأتك». وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً؛ سبحانه لا شريك له.

٩ - في الآية تعظيم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يشمل جميع الطاعات والفضائل، والحضّ على تغيير المنكر والصبر، وإن نال الإنسانَ ضرر، وفيه إشعار بأن المغيِّر يؤذى أحياناً.

كما أن الصبر مندوب إليه عند التعرض لشدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وعلى الإنسان ألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عزّ وجلّ، فإن من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره.

وإن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به، وجعله من الأمور الواجبة.

١٠- دلّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ على تحريم التكبر، ومعنى الآية: ولا تُمِلْ خدك للناس تكبراً عليهم، وإعجاباً بالنفس، واحتقاراً لهم، وأقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدّثك أصغر الناس، فأصغ إليه حتى يكمل حديثه، كما كان يفعل النبي ﷺ.

والخلاصة: لا تدبر عن المتكلم، كما روى مالك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغَضُوا ولا تَدابَروا ولا تَحاسَدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يَحِلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» فالتدابر والإعراض وترك الكلام والسلام من المحظورات.

١١ً - يحرم على الإنسان أن يمشي في الأرض متبختراً متكبراً، بل يحرم التكبر في كل الحالات.

١٢ً - يندب للإنسان القصد أي التوسط في المشي، وهو ما بين الإسراع والبطء، فلا تَدِبّ دبيب الْمُتماوتين، ولا تَثِبُ وَثْبَ الشيطان.

١٣ً - كما يندب إليه عدم التكلف في رفع الصوت، والتكلم حسب الحاجة والمعتاد، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي، والمراد بذلك كله التواضع.

وقد شُبِّه رفع الصوت الزائد عن الحاجة بصوت الحمير، والحمار ونُهاقه مَثَل في الذمّ البليغ والشتيمة.

وفي الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية.

والآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جملة، وقد نهى الله عنه؛ لأنه من أخلاق الجاهلية وعاداتها، فقد كانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الْجَهير وغير ذلك.

وتلك إشارة إلى التوسط في جميع الأفعال والأقوال.

والخلاصة: جمعت وصية لقمان بين فضائل الدين والآخرةومكارم الأخلاق في الدنيا، واشتملت تسعة أوامر، وثلاثة نواهٍ، وسبع علل أو أسباب:

أما الأوامر: فهي الأمر ببرّ الوالدين، والشكر لله وللوالدين، ومصاحبة الوالدين في الدنيا بالمعروف، واتباع سبيل الأنبياء والصالحين، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والاعتدال في المشي، وإخفاض الصوت.

وأما النواهي: فهي النهي عن الشرك، والنهي عن تصعير الخد (الإعراض عمن تكلم تكبراً) والنهي عن المشي مرحاً (اختيالاً وتبختراً).

والتعليلات أو الأسباب هي:

١ - ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٢ - ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٣ - ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

٥ - ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

٦ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

٧ - ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

توبيخ المشركين على الشرك
مع مشاهدة دلائل التوحيد

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ
ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ
مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ
أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

القراءات:

﴿نِعَمَهُۥ﴾: قرئ:

١- (نِعَمَه) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (نِعْمةً) وهي قراءة الباقين.

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي. وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ أراد: نعم الله، جمع نعمة، و﴿ظَٰهِرَةً﴾ حال. وقرئ: نعمةً، ونعمته.

البلاغة:

﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ بينهما طباق.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ إنكار وتوبيخ، مع الحذف، أي: أيتبعونهم ولو كان الشيطان. إلخ...

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ألم تعلموا أيها المخاطبون أن الله ذلّل لكم جميع ما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك، بأن جعله أسباباً محصلة لمنافعكم .﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن مكنكم من الانتفاع به، كالثمار والأنهار والدواب والمعادن وما لا يحصى .﴿وَأَسْبَغَ﴾ أكمل وأوسع وأتّم .﴿نِعَمَهُۥ﴾ جمع نعمة: وهي كل نفع قصد به الإحسان. ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة، ما تعرفونه وما لا تعرفونه، فالظاهرة: كل ما يعلم بالمشاهدة كحسن الصورة وتسوية الأعضاء، والباطنة: ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها، ولا يهتدي إلى العلم بها!!

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعض الناس كأهل مكة في صدر الإسلام. ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ مستفاد من دليل أو بغير حجة. ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي ولا هداية من رسول. ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنزله، بل بالتقليد. ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ أي ما سار عليه الأسلاف، وهو منع صريح من التقليد في الأصول كالاعتقاد. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي أيتبعونهم، ولو دعاهم الشيطان إلى موجبات عذاب جهنم، وهو الإشراك أو التقليد، وجواب (لو) محذوف، أي لاتبعوه، والاستفهام للإنكار والتعجيب.

المناسبة:

بعد أن استدل الله تعالى بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ على الوحدانية وذكر أن لقمان عرف ذلك بالحكمة، لا بالنبوة، عاد إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك، مع مشاهدتهم دلائل التوحيد عياناً في عالم السماوات والأرض، وتسخير ما فيها لمنافعهم، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة، المعروفة لهم وغير المعروفة.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس دلائل التوحيد الناطقة بوحدانية الله سبحانه في كل شيء، وإنعامه عليكم، فهو الذي ذلل لكم جميع ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم، تستضيئون بها في الليل والنهار، وما خلق فيها من سحاب ينزل منه المطر، لسقي الإنسان والحيوان والنبات، ويسر لكم جميع ما في الأرض من قرار ومعادن، وأنهار وبحار، وأشجار وزروع، وثمار، ونحو ذلك من المنافع الغذائية، وأكمل وأتم عليكم نعمه الظاهرة والباطنة أي المحسوسة والمعقولة، المعروفة وغير المعروفة، ومنها إنزال الكتب وإرسال الرسل، وإزالة الشُّبَه والعلل والأعذار.

وقيل: الظاهرة: الإسلام، والباطنة: الستر؛ قال النبي ﷺ لابن عباس - وقد سأله عن هذه الآية -: «الظاهرة: الإسلام وما حَسُنَ من خَلْقك، والباطنة: ما ستر عليك من سيّئ عملك».

وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس، وتوفيق الطاعات؛ والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يُدْفع عن العبد من الآفات.

ومع هذا كله، ما آمن الناس كلهم، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي وبالرغم من ثبوت الألوهية بالخلق والإنعام، فهناك فريق من الناس يجادل في توحيد الله وصفاته وإرساله الرسل، كزعماء الوثنية في مكة وغيرها، بغير دليل معقول، ولا مستند أو حجة صحيحة على يد رسول، ولا كتاب مأثور صحيح ينير الطريق الحق.

فقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ معناه: لا من علم واضح، ولا من هدىً أتاه من هادٍ، ولا من كتاب مبين واضح.

وإنما حجتهم الوحيدة هو التقليد الأعمى، واتباع الهوى والشيطان، لذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع المطهرة، لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين فيما اعتقدوه من دين. وهذا في غاية القبح، فإن النبي ﷺ يدعوهم إلى كلام الله الهادي إلى الحق والخير، وهم يأخذون بكلام آبائهم.

وهذا منع صريح من التقليد في أصول العقيدة، لذا وبخهم الله على سوء مقالتهم فقال:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي أيتبعونهم بلا دليل، ولو كان اعتقادهم قائماً على الهوى وتزيين الشيطان الذي يدعوهم إلى عذاب جهنم، والله يدعو إلى النجاة والثواب والسعادة؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠] أي ولو كان آباؤهم المحتجون بصنيعهم على ضلالة، فلا عقل عندهم ولا هداية معهم؟! وهم خَلَف فيما كانوا فيه.

وهذا استفهام على سبيل التعجب والإنكار، يتضمن التهكم عليهم، وتسفيه عقولهم، والسخرية من آرائهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - الدليل على وحدانية الله الخلق والإنعام، فإنه خلق السماوات بما فيها من شمس وقمر ونجوم وملائكة، وذللها للناس، جالبة لهم المنافع، وخلق الأرض وما فيها من جبال وأشجار وثمار ومعادن وماء وهواء وبحار وذرة وما لا يحصى، وكلها لنفع الإنسان. وأكمل النعم وأتمها على بني آدم، سواء كانت ظاهرة مشاهدة محسوسة، كالصحة وكمال الخلقة والمال والجاه والجمال، وشرائع الإسلام، أو معقولة مجردة كالمعرفة والعقل وحسن اليقين بالله تعالى، وسواء كانت معروفة أو ستعرف علمياً مع تطور الاكتشافات العلمية المتجددة في كل عصر.

٢ً - بالرغم من كثرة الأدلة الدالة على توحيد الله من الخلق والإنعام، فإن فريقاً من الناس كالنَّضْر من الحارث وأُبَيّ بن خَلَف يجادلون أو يخاصمون في التوحيد بغير حجة عقلية أو نقلية من سنة رسول أو بيان كتاب مضيء نيِّر، وإنما الحجة هي الشيطان فيما يلقي إليهم، وإلا تقليد الأسلاف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢١].

٣ً - إذا أُمر المشركون باتباع ما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات والشرائع المطهرة، لم يجدوا جواباً إلا التمسك بتقليد الآباء والأجداد، وبما يزين لهم الشيطان من الوساوس والأهواء، فإنهم يتبعونه على ضلال.

سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾:

وقرأ نافع (فلايُحْزِنك).

البلاغة:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ مجاز مرسل في ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تشبيه تمثيلي، شبّه من تمسك بالإسلام بمن أراد الصعود إلى قمة جبل، فتمسك بأوثق حبل، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر.

﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارة الغلظ للشدة؛ لأنه إنما يكون للمادة الكثيفة، فاستعير للمعنى.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يفوض أمره إليه، ويقبل على طاعته، ويخلص عبادته إليه. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ متقن عمله. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تعلق بأوثق وأمتن ما يتعلق به، وهو الطرف الأوثق الذي يؤمن انقطاعه، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى شاهق جبل، فتمسك بأوثق عُرا الحبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ مرجعها؛ إذ الكل صائر إليه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي فلا يضرك في الدنيا والآخرة، ولا تهتم بكفره. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي مصيرهم إلى الله في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ نجازيهم بأعمالهم بالإهلاك والتعذيب. ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بحديث النفس الكائن في الصدور كما أنه عليم بما في غيرها، فمجازٍ عليه. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ نمتعهم في الدنيا أيام حياتهم تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ نلزمهم في الآخرة. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ثقيل عليهم، وهو عذاب النار، لا يجدون عنه محيصاً.

المناسبة:

بعد بيان حال الكافر المجادل في الله جهلاً وعناداً، أبان الله تعالى حال المسلم، وأخبر بأن منتهى الأمور صائرة إليه، ثم أردفه بإيناس الرسول ﷺ على ما يلقاه من إعراض المشركين عن دعوته عناداً، وهددهم بالعقاب الشديد في الدنيا والآخرة، مع التنبيه بأن عذاب الآخرة أشد وأثقل.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ أي من يخلص العبادة والعمل إلى الله، وينقاد لأمره، ويتبع شرعه، مع إتقان عمله باتباع ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه وزجر، فقد تمسك بالحبال الواثقة، أي تعلق بأوثق الوسائل الموصلة إلى رضوان الله، وسيلقى الجزاء الحسن على عمله؛ لأن مصير المخلوقات كلهم إلى الله، فيجازي المتوكل عليه، المخلص عبادته إليه أحسن الجزاء، كما يعاقب المسيء بأشد العذاب.

ثم نصح الله رسوله بألا يهتم بكفر الكافرين، فقال:

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ أي لا تغتم ولا تجزع على كفر الكافرين الذين كفروا بالله ورسوله، ولا تهتم بهم، ولا تحزن عليهم، فإن مصيرهم إلينا يوم القيامة وفي الدنيا، فنجازيهم بالإهلاك والعذاب، ولا تخفى عليه خافية منهم، ولا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم، فنخبرهم بما أضمرته صدورهم. وكلمة(من) تصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ ثم قال: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ وما بعده على المعنى.

ثم بيّن مدى مقامهم في الدنيا، فقال:

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي نجعلهم يتمتعون في الدنيا بزخارفها تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً، ثم نلجئهم ونلزمهم بعذاب شاق ثقيل شديد عليهم. والغلظ يكون في الماديات، واستعير للمعنى، والمراد الشدة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أن الناس في الآخرة فريقان: فريق في الجنة، وفريق في

السعير، فمن أخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى، وأتقن عمله، بأن عَبَد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن ربَّه يراه، فهو من الناجين الذين أخذوا موثقاً متيناً من الله أنه لا يعذبهم، ومنتهى الأمور كلها ومصيرها إلى الله تعالى.

ومن أنكر وجود الله أو أنكر وحدانيته فأشرك به غيره، فإن الله يجازيه، والله عليم بكل ما أسرَّ العبد وأعلن.

وإن بقاء العالم في الدنيا قليل، فهم يتمتعون فيها مدة قليلة، ثم يساقون ويلجؤون ويلزمون إلى عذاب شديد، هو عذاب جهنم.

إثبات وجود اللّه وسعة علمه وشمول قدرته على البعث وكل شيء

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾:

وقرأ أبو عمرو (والبحرَ).

﴿يَدْعُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (تدعون).

﴿بِنِعْمَتِ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بالهاء.

ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿لَيَقُولُنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي الأمثال، وحذف واو الضمير لالتقاء الساكنين.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ الواو واو الحال، و﴿وَٱلْبَحْرُ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والجملة حالية، وعامل الحال ما في ﴿أَقْلَٰمٌ﴾ من معنى الفعل؛ لأن (أقلاماً) قام مقام (كاتبات) فكأنه قال: كاتبات والبحر يمده. ومن قرأ بالنصب، فهو معطوف على (ما) أو منصوب بتقدير فعل يفسره ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ وتقديره: يمد البحر يمده، مثل: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٦/٣٩] أي قدرنا القمر قدرناه.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ﴿خَلْقُكُمْ﴾ مبتدأ، وكاف ﴿كَنَفْسٍ﴾ في موضع رفع خبر المبتدأ، وتقديره: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كبعث نفس واحدة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ولا يجوز أن تعمل ﴿ما﴾ بسبب ﴿إِلَّا﴾ لأنها تشبه (ليس) في نفي الحال، و﴿إِلَّا﴾ تبطل منها معنى النفي، وهو وجه الشبه الموجب للعمل، وإذا زال وجه الشبه الموجب للعمل بطل العمل.

البلاغة:

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ ﴿خَبِيرٌ﴾ ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ صيغ مبالغة، وفيها ما يسمى توافق الفواصل أو السجع.

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف، والمعنى: فمنهم مقتصد ومنهم كافر، دلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَئِن﴾ اللام لام القسم. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غير الله، بحيث اضطروا إلى الإقرار بوجوده. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليهم بثبوت التوحيد، وإلجائهم إلى الاعتراف بما يبطل اعتقادهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يجهلون إلزامهم بتلك الحجة. ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، فلا يستحق العبادة فيهما غيره. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد، المحمود في صنعه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾ أي ولو صارت جميع الأشجار أقلاماً. وإنما قال ﴿شَجَرَةٍ﴾ بالإفراد دون اسم الجنس الذي هو شجر، ليشمل كل شجرة على حدة، حتى لا يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة، إلا قد بريت أقلاماً. ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي والبحر المحيط يمده بسعته مداداً، فاكتفى بذكر ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ عن ذكر المداد؛ لأنه من مدَّ الدواة وأمدّها. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي معلوماته، بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد ولا بأكثر من ذلك؛ لأن معلوماته تعالى غير متناهية. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج شيء عن علمه وحكمته.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ خلقاً وبعثاً، أي كبعث

نفس واحدة وخلقها، إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولأنه يتم بكلمة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يسمع كل مسموع. ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر، لا يشغله إدراك شيء عن شيء. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم أيها المخاطب. ﴿يُولِجُ﴾ يدخل الليل في زمن النهار وبالعكس، أي يضيف أحدهما إلى الآخر، فالله يزيد في كل من الليل والنهار بما نقص من الآخر. ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ﴾ كل من الشمس والقمر النيرين يجري في فلكه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم مقدر، إلى نهاية دورة الشمس السنوية، ودورة القمر الشهرية، أو إلى يوم القيامة. ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته، الواجب من جميع جهاته، أو الثابت الألوهية. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي وأن ما يعبدون من غيره هو المعدوم في حدّ ذاته الذي لا يوجد، والزائل، أو الباطل الألوهية. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ المترفع على خلقه وعلى كل شيء بالقهر، والمتسلط عليه، وهو العظيم.

﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفن. ﴿تَجْرِى﴾ تسرع. ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه وأنها تحمل الطعام والمتاع ونحوهما، وهو استدلال آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه. ﴿لِيُرِيَكُم﴾ أيها المخاطبون بذلك. ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائله. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ علامات وعبراً. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على المشاق وعن معاصي الله، فيتعب نفسه في التفكر في الآفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمته، يعرف النعم، ويتعرف مانحها، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

﴿غَشِيَهُم﴾ علاهم وغطاهم. ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ كالظلال التي تظل من تحتها، من جبال وسحاب وغيرها. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الدعاء بأن ينجيهم، أي لا

يدعون معه غيره بسبب ما دهاهم من الخوف الشديد .﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ متوسط بين الكفر والإيمان، أو مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره، ومنهم باق على كفره .﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ينكرها، ومنها الإنجاء من الموج .﴿خَتَّارٖ﴾ غدار، فإنه نقض للعهد الفطري .﴿كَفُورٖ﴾ شديد الجحود للنعم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥] فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩] ، فنزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فلما هاجر إلى المدينة أتاه أحبار يهود، فقالوا: ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إيانا تريد أم قومك؟ فقال: كلاً عَنيتُ، قالوا: فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليل، فأنزل الله: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾.

وأخرج أبو الشيخ بن حيان الأنصاري في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فنزل: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية.

نزول الآية (٢٨):

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾: نزلت الآية في أبيّ بن خلَف وأبي بن الأسدين، ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج ابن السباق، قالوا للنبي ﷺ: إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً، نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

المناسبة:

بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق السماوات بغير عمد، وبإمداد خلقه بنعمه الظاهرة والباطنة، أبان الله تعالى أن المشركين معترفون بوجود الله، وأنهم يتضرعون إليه وحده وقت الشدة، ثم يعودون إلى كفرهم بعد النجاة. ثم أثبت تعالى وحدانيته بملكه ما في السماوات وما في الأرض، ثم أقام الدليل على سعة علمه، وشمول قدرته على كل شيء، ومنه خلق الناس وبعثهم، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر في دورة محددة، وتسيير السفن في البحار بتيسيره وتهيئة أسبابه، علماً بأن المشركين يعترفون بتلك الآيات.

التفسير والبيان:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي وتالله لئن سألت هؤلاء المشركين بالله من قومك: من الذي خلق السماوات والأرض؟ لأجابوا: هو الله الخالق، فهم معترفون بأن الله خالق السماوات والأرض، غير منكرين له، لوضوح الأمر، وعدم وجود البديل، بحيث اضطروا إلى إعلان هذا الاعتراف بالله، ومع هذا فهم يعبدون معه شركاء، يعترفون أنها مخلوقة لله، ومملوكة له.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي قل أيها الرسول: الحمد لله على اعترافكم، إذ قامت الحجة عليكم بإلجائكم إليه، وأن دلائل التوحيد واضحة، لا يكاد ينكرها أحد، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنه ينبغي ألا يعبد مع الله غيره، وأن هذه الحجة تلزمهم، وتبين تناقضهم، وأنهم لم ينتبهوا مع وجود هذا التنبيه.

وبعد انتزاع هذا الاعتراف الصريح بوجود الله وتوحيده، استدل الله تعالى على ذلك بقوله:

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ أي لله جميع ما في السماوات وما في الأرض مِلْكاً وخلقاً وعبيداً وتصرفاً، وليس ذلك لأحد سواه، فلا يستحق العبادة غيره، لأنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، وهم مملوكون له، محتاجون إليه، وهو المحمود في الأمور كلها، وعلى نعمه التي أنعم بها، وعلى ما خلق وشرع.

ومنعاً لإيهام قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تناهي ملكه بحصره في الموجود في السماوات والأرض، أبان تعالى أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً (حِبْراً) وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، إن الله قوي لا يعجزه شيء، حكيم في صنعه، لا يخرج عن علمه وحكمته شيء، كامل القدرة، فيكون له مقدورات لا نهاية لها.

وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، كما لم يرد أن هناك

سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم، والعرب تذكر السبعة والسبعين وسبع المئة، وتريد بذلك الكثرة.

والخلاصة: إن الآية تخبر عن عظمة الله وكبريائه وجلاله وكلماته التامة ومعلوماته وأسراره التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال النبي ﷺ: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» فمعلوماته تعالى لا نهاية لها. ويكون المراد بكلمات الله: معلوماته، وقيل: هي ما في المعدوم، دون ما خرج من العدم إلى الوجود[١].

ونظير الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩/١٨] وليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخر مثل فقط، بل بأمثاله؛ لأنه مفرد مضاف فيعم، كما أن ﴿كَلِمَٰتُ﴾ وإن كانت جمع قلة، تفيد هنا الكثرة؛ لأن جموع القلة إذا تعرفت بالألف واللام غير العهدية، أو أضيفت، عَمَّت، وصارت لا تخص القليل، والعام مستغرق جميع أفراده.

ولما بيَّن الله تعالى كمال قدرته وعلمه وأن كلماته ومعلوماته لا يحيط بها أحد، أوضح أن هذا الخلق غير المنحصر قد أحاط به علماً، وأنه قادر على البعث والمحشر كما قدر على الخلق أول مرة، فقال:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي ما خَلْق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هيِّن عليه، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢/٣٦] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠/٥٤] أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة،

(١) البحر المحيط: ١٩٢/٧

فيكون ذلك الشيء، لا يحتاج إلى تكرار الأمر وتوكيده، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤] فمن لا نفاد لكلماته يقول للموتى: كونوا، فيكونوا.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي كما أن الله سميع لأقوال عباده، بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

وبعد بيان تسخيره تعالى ما في السماوات وما في الأرض، ذكر هنا بعض ما فيهما على وجه الخصوص، بقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ثم ذكر بعض ما في السماوات بقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم أردفه ببعض ما في الأرض بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ألم تشاهد أن الله في شأن تعاقب الليل والنهار، يزيد في زمن الليل على حساب النهار في الشتاء، ويزيد في ساعات النهار على حساب الليل في الصيف، فيأخذ من هذا ويضيفه إلى ذلك، فيطول أحدهما ويقصر الآخر.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي ذلّل النيرين لمصالح خلقه ومنافعهم، كل منهما يسير بسرعة إلى غاية محدودة، أو إلى يوم القيامة، وأن الله مطلع بدقة على جميع أعمالكم من خير وشر، ويجازيكم عليها، فهو الخالق العالم بجميع الأشياء.

ثم ذكر الله تعالى الهدف من بيان آياته فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ أي إنما يظهر الله لكم آياته، ويبين عجائب قدرته وحكمته، لتستدلوا بها على أنه الحق، أي الموجود الثابت المستحق للعبادة، وأن كل ما

سواه باطل زائل، فهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن جميع ما في السماوات والأرض خلقه وعبيده، ولا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه وقدرته ومشيئته، وأن الله تعالى هو العلي الذي لا أعلى منه، المرتفع على كل شيء، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، العظيم السلطان، فكل شيء خاضع له.

وبعد ذكر الآيات السماوية الدالة على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته، ذكر آية أرضية، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أيضاً أن الله سخر البحر لتجري فيه السفن بأمره، أي بلطفه وإحسانه وتهيئة الأسباب، ليرشدكم إلى معرفته، ويظهر لكم شيئاً أو بعضاً من قدرته، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن، لما جرت.

إن فيما ذكر من الأدلة السماوية والأرضية لأدلة واضحة وعلامات نيِّرة لكل صبَّار (كثير الصبر) في الضراء، شكور في الرخاء؛ لأن المؤمن متذكر ربه، فيصبر إذا أصابته نقمة، ويشكر إذا أتته نعمة، قال ﷺ فيما رواه البيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «الإيمان نصفان: فنصف في الصبر، ونصف في الشكر».

ثم ذكر الله تعالى تناقض المشركين واضطرابهم من اللجوء إليه حين الضراء، ونسيانه حال السراء، فقال:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي وإذا أحدقت بهم مخاطر الأمواج العالية التي تشبه الجبال والغمام، رجعوا إلى الفطرة، ودعوا الله دعاء حارّاً، مخلصين له الطاعة، لا يشركون به غيره،

مستغيثين به وحده، فلما رحمهم ونجوا بفضله من الأهوال المحدقة، ووصلوا إلى شاطئ البر والسلامة، فمنهم مقتصد في الكفر، منزجر بعض الانزجار، متجه إلى توحيد الله، ومنهم غدّار ناقض للعهد، كافر بأنعم الله، وما يكفر بآياتنا الكونية والقرآنية إلا كل كثير الغدر، كفور بما أنعم الله عليه.

ونظير الآية: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ - لا يجد المشركون بداً عند سؤالهم عن خالق السماوات والأرض من الإجابة بأنه هو الله تعالى، فهم يعترفون بأن الله خالقهن، فلِمَ يعبدون غيره؟!

فالحمد لله على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا ينظرون ولا يتدبرون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى، ودلت الآية الثانية التي تلتها على أن جميع ما في السماوات والأرض لله ملكاً وخلقاً، وأن الله هو الغني عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرهم بالعبادة لينفعهم، والله هو المحمود في صنعه.

٢ - دلت الآية الأخيرة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ على اعتراف آخر من المشركين بوجود الله ووحدانيته، فإنهم إذا تعرضوا لمخاطر الغرق بسبب اضطراب البحر، وارتفاع الأمواج، لم يجدوا بديلاً غير الله للجوء إليه، فيدعونه موحدين له، لا يدعون لخلاصهم سواه، فإذا ما نجوا من البحر، ووصلوا إلى البر والأمان، فمنهم مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة، موفّ بما عاهد عليه الله في البحر، ومنهم كافر، وقد دلّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي لا ينكر دلائل الآيات على توحيد الله إلا

كل غدّار مغرق في الكفر، جحود للنعم، لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

٣ً - إن معاني كلام الله سبحانه لا تنفد، وإنها لا نهاية لها، ولا يمكن حصرها ولا عدها، وقد دلنا على ذلك هذا البيان القرآني: وهو لو كانت الأشجار أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب؛ لأنه تعالى القديم الذي لا نهاية له ابتداء وانتهاء، أما المخلوق فلا بدّ له من بداية ومن نهاية، والمقصود من الكلمات: الكلام القديم، والمراد بالآية الإعلام بكثرة معاني كلمات الله، وهي غير متناهية في نفسها، وإنما قرّب الأمر بهذا المثال لأفهام البشر بما يتناهى؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور.

وإذا كانت معاني كلام الله لا نهاية لها، فعلم الله بحقائق الأشياء لا يمكن حصره، وإنما هو واسع شامل.

والخلاصة: إن كلمات الله هي مقدوراته وعجائبه، أو معلوماته.

٤ً - ما ابتداء خلق جميع البشر إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثهم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخَلْقه للعالم كخلقه لنفس واحدة، وإن الله سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون.

٥ً - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ آية سماوية دالة على قدرة الله تعالى، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال، وإتماماً للمنافع، وجعل الطلوع والغروب في وقت محدد لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، وينتهي وجودهما بانتهاء السماوات والأرض يوم القيامة.

ومن قدر على هذه الأشياء، فلا بدّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالم بأعمالكم. وقد فعل الله تعالى ذلك (الزيادة والنقص في الليل والنهار وتسخير النيرين) لتعلموا وتقرّوا بأن الله هو الإله الحق، وأن ما عداه باطل زائل لا وجود له ولا حقيقة له، وأن الله هو العلي في مكانته، الكبير في سلطانه.

٦ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ آية أرضية دالة على قدرة الله تعالى، فهو الذي جعل الماء قادراً على حمل السفن، وسيّرها إما بالهواء، وإما بتعليم الإنسان وإلهامه الاستفادة من الطاقة البخارية أو النفطية أو الذرية أو الكهربائية لجريها السريع.

كل ذلك ليرينا الله تعالى بعض آياته، ويجعلنا نشاهد بعض مظاهر قدرته في البحار، وفي ذلك علامات وعبر وعظات لكل صبّار على قضاء الله، شكور على نعمائه، قال ﷺ في الحديث المتقدم تخريجه: «الإيمان نصفان: فنصف في الصبر، ونصف في الشكر». وقال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الأمر بتقوى الله وبيان مفاتح الغيب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَيُنَزِّلُ﴾: وقرئ:

١- (ويُنَزِّل) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم.

٢- (ويُنْزِل) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ ﴿يَوْمًا﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿وَٱخْشَوْا۟﴾ ولا يجوز أن يكون ظرفاً؛ لأنه يصير الأمر بالخشية في يوم القيامة، ويوم القيامة ليس بيوم تكليف، وإنما هو يوم الجزاء.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ مرفوع معطوف على ﴿وَالِدِهِۦ﴾ المرفوع الذي هو فاعل ﴿يَجْزِى﴾ و﴿هُوَ﴾ تأكيد لما في ﴿مَوْلُودٌ﴾ من الضمير، ولا يجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل؛ لأن الفصل لا يدخل بين النكرتين.

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ﴿مَّاذَا﴾ منصوب بـ ﴿تَكْسِبُ﴾ لا بـ﴿تَدْرِى﴾ لأن الاستفهام ينتصب بما بعده لا بما قبله، هذا إذا جعل (ما وذا) بمنزلة شيء واحد؛ فإن جعلا بمنزلة كلمتين، وجعلا بمنزلة (الذي) وجعل موضع ﴿مَّاذَا﴾ مرفوعاً، لم يجز نصبه بـ ﴿تَدْرِى﴾ لما ذكر، وإنما نحكم على موضع الجملة بالنصب بدخوله عليها.

المفردات اللغوية:

﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ خافوا عقابه. ﴿لَّا يَجْزِى﴾ لا يقضي فيه، أو لا يغني. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ إن تغيير النظم بين ﴿يَجْزِى﴾ و﴿جَازٍ﴾ للدلالة على أن المولود أولى بألا يجزي، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالبعث وبالثواب والعقاب صدق لا يمكن إخلافه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ فلا تخدعنكم. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله. ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان وكل ما غرّ الإنسان من مال وجاه، والشيطان يرجّي بالتوبة والمغفرة، فيجسّر على المعاصي.

﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علم وقت قيام القيامة .﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بوقت يعلمه. ﴿مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ من الذكورة والأنوثة، والتمام والنقص، والحياة والموت، وغير ذلك من خواص الجنين وأحواله وأعراضه .﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وتنفيذ العزم على شيء وخلافه .﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي كما لا تدري في أي وقت تموت، والله يعلمه وحده .﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء، يعلم الأشياء كلها .﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم الباطن والظاهر.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٤):

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية هو الحارث بن عمرو[١]، فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني بما تلد، وبلادنا مُجْدِبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد ذكر دلائل التوحيد من أول السورة إلى آخرها، أمر الله تعالى بتقوى الله والخوف منه، والخشية من يوم القيامة؛ لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة، وأنذر الناس يوم المعاد، وأخبر بأنه حق كائن، ثم أردفه ختاماً للسورة ببيان ما استأثر الله بعلمه، وهي مفاتح الغيب الخمسة؛ لأنه بعد هذا الإنذار كأن قائلاً قال: فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب بأن العلم بهذه الأمور لا يحصل لغير الله، ولكن يوم المعاد كائن لا بدّ منه، وإن لم يعلم الناس وقته، والله قادر عليه.

---

(١) في رواية قتادة: اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي يا أيها البشر من كفار ومؤمنين خافوا الله الذي خلقكم ورزقكم، وسخر لكم هذا الكون، واحذروا عقابه، واخشوا يوماً شديد الهول هو يوم القيامة الذي لا يغني فيه والد عن ولده، فلو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، ولا مولود هو مغن عن والده أو نافع والده شيئاً، فلو أراد فداء والده بنفسه، لم يقبل منه، إذ لا يستطيع أحد أن يشفع بأحد إلا بإذن الله، ولا جدوى عند الله إلا بالعمل الصالح الحاصل في الحياة الدنيا.

ثم أخبر الله تعالى عن حدوث هذا اليوم حتماً، فقال:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعد الله بالبعث وبالثواب والعقاب أمر ثابت مؤكد حصوله، ولا شك فيه، ولا خُلْف لوعده.

ومقتضى التخويف الإعداد لهذا اليوم وترك التعلق بالدنيا، فقال تعالى:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي لا تخدعنكم زينة الدنيا، فتطمئنوا فيها، وتميلوا إليها، تاركين الاستعداد للآخرة، ولا يخدعنكم الشيطان بحلم الله وإمهاله، فيعدكم بالمغفرة، ويحملكم على المعصية بتزيينها لكم، وينسيكم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٠].

وفي الآية دلالة واضحة على أن الدنيا غرّارة بزخارفها ومتاعها، وأن الشيطان بوساوسه يقوي هذا الغرور بالدنيا، لصرف الناس عن الآخرة والتزود لها بصالح الأعمال.

وقيل: الغَرور: الدنيا، وقيل: تمني المغفرة في المعصية، والأماني الباطلة برحمة الله واعتماده على شفاعة شافع أو كونه مسلماً محباً الله ورسوله بقلبه دون

عمل، قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: الغرة بالله: أن يتمادى الرجل في المعصية، ويتمنى على الله المغفرة. وقد ردّ القرآن على هذه التمنيات بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣].

ثم ذكر الله تعالى مفاتح الغيب الخمسة التي استأثر الله بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلام بها، فقال:

١ً - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إن علم وقت الساعة (أي القيامة) مختص بالله سبحانه، فلا يعلم أحد بوقته سواه، لا مَلَك مقرَّب، ولا نبي مرسل، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧].

٢ً - ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي ويختص تعالى أيضاً بمعرفة وقت إنزال المطر ومكانه المعين، لا يعلمه إلا الله، فإن أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه.

وأما نشرة الأرصاد الجوية في أيامنا فتعتمد على بعض الحسابات والأمارات، وما ترصده بعض الأجهزة المخصصة لمعرفة نسبة الرطوبة وسرعة الرياح، فليس ذلك غيباً، وإنما هو تخمين وظن، قد يحدث نقيضه، كما أن معرفته تكون قبل مدة قريبة، يلاحظ فيها اتجاهات الرياح والمنخفضات الآتية من الشمال أو من الغرب مثلاً.

٣ً - ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي لا يعلم أحد إلا الله ما في الأرحام من خواص الجنين وأحواله العارضة له من طبائع وصفات وذكورة وأنوثة، وتمام خِلقة ونقصها، فإن توصل العلماء بسبب التحليل الكيميائي كون الجنين ذكراً أو أنثى، فلا يعني ذلك غيباً، وإنما بواسطة التجربة، وتظل أحوال أخرى

كثيرة مجهولة للعلماء، لا تعلم إلا بعد الولادة. قال القرطبي: وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك[1].

٤ - ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي لا تعلم نفس ماذا تكسب في الغد من خير أو شر في دنياها وأخراها.

٥ - ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي وما تعلم نفس موضع موتها، في بلدها أو غيرها من بلاد الله، لا علم لأحد بذلك.

روي أن مَلَك الموت مَرَّ على سليمان، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: مَلَك الموت، فقال: كأنه يريدني، وسأل سليمان أن يحمله على الريح، ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه؛ لأني أُمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أي إن علم الله غير مختص بهذه الأمور الخمسة، بل هو عليم مطلقاً بكل شيء، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب، بل خبير علمه، يعلم بواطن الأمور وظواهرها.

ويلاحظ أنه جعل العلم لله في قوله: ﴿عِلْمُ﴾ ﴿وَيَعْلَمُ﴾ والدراية للعبد في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ لما في الدراية من معنى الختل والحيلة؛ والمعنى: أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها.

ونظير الآية: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٥٩].

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٨٢

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾».

ويلاحظ أن هذه الأمور الخمسة تشتمل على الدليلين المكررين في القرآن لإثبات البعث:

أحدهما - إحياء الأرض بعد موتها، حيث قال تعالى هنا: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ١٩].

والثاني - الخَلْق ابتداء، حيث قال هنا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - وجوب الخوف من الله تعالى وتوحيده، وخشية يوم المعاد الذي لا بدّ من حصوله.

٢ - البعد عن الاغترار بزينة الحياة وزخارفها، والاتكال عليها والركون إليها، وترك العمل للآخرة.

٣ - إن الدنيا غرارة، وإن الشيطان يغرُّ الناس ويمنِّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة، فيصبح الإنسان مغروراً يعمل بالمعصية ويتمنى بالمغفرة!!

٤ - لا يعلم أحد إلا الله تعالى بأمور خمسة: هي وقت الساعة، ووقت إنزال الغيث ومكانه، وعلم ما في الأرحام من أحوال الجنين وأوصافه العارضة له، وأعمال المستقبل القريب والبعيد، ومكان وفاة الإنسان.

قال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسَل؛ فمن ادّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه.

أما الأنبياء فيعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. وبذلك يبطل كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء[1] عالمين بالغيبيات.

---

(١) الأنواء: جمع نوء: وهو سقوط نجم في المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر من المشرق يقابله في ساعته، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة السجدة

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها وفضلها:

سميت سورة السجدة لما فيها من وصف المؤمنين الذين يسجدون لله تعالى ويسبحونه عند سماع آيات القرآن العظيم: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٥].

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١].

وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها وهي سورة لقمان من ناحية اشتمال كل منهما على أدلة التوحيد وهو الأصل الأول للعقيدة، وبعد أن ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة الأصل الثاني وهو الحشر أو المعاد، وختم تلك السورة بهذين

الأصلين، بدأ هذه السورة ببيان الأصل الثالث وهو الرسالة أو النبوة، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

كذلك تعد بعض آيات هذه السورة شرحاً وتفصيلاً للسورة السالفة، فقوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥] توضيح لقوله تعالى في بيان مفاتح الغيب هناك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

وقوله سبحانه هنا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٧] تفصيل لقوله هناك: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

وقوله هنا: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٧] شرح لقوله هناك: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

وقوله هنا: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥] شرح لقوله هناك: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

وقوله هنا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٠-١١] إيضاح لقوله: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

موضوعها:

موضوع هذه السورة كموضوع سائر السور المكية وهو إثبات أصول الاعتقاد: «الإيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل والبعث والجزاء» ومحور الكلام إثبات (البعث) بعد الموت الذي أنكره المشركون والماديون، واتخذوه سبباً لتكذيب النبي ﷺ.

مشتملاتها:

افتتحت السورة بتقرير كون القرآن العظيم بلا أدنى شك هو كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ، وإثبات رسالة النبي ﷺ، وإبطال مزاعم المشركين بأن الرسول افترى هذا القرآن، وبيان أنه لم يأتهم رسول مثله قبله.

ثم أوردت السورة أدلة وحدانية الله وقدرته من تدبيره الكون، وخلقه الإنسان ورعايته له في أطواره التي يمر بها، ثم بعثه الخلق مرة أخرى ليوم مقداره ألف سنة مما تعدّون، بأسلوب يرد على إنكار المشركين البعث والنشور، لظنهم بسبب عجزهم أن التفتت إلى ذرّات مبعثرة مشتتة يحيل بعدئذ تجمعها وإعادتها إلى خَلْق جديد.

ثم وصفت السورة حال المجرمين الكافرين وحال المؤمنين الطائعين لله، فالأولون تلبسهم الذلة والمهانة، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، ويذوقون العذاب الأليم. والمؤمنون لا تفارقهم في الدنيا الطاعة في الليل والنهار، ويدعون ربهم خوفاً وطمعاً، وينفقون أموالهم في مرضاة الله، ولهم في الآخرة جزاء عملهم الثواب الجزيل، والفضل العظيم الذي تقرُّ به أعينُهم، وجنات المأوى والاستقرار والخلود.

وعقّبت السورة على حال هذين الفريقين باستبعاد التسوية بينهما؛ إذ لا يعقل مكافأة العصاة كمكافأة الطائعين.

ثم ختمت السورة بتقرير ما بدأت به، فذكرت الرسالة، وأبانت الهدف من إنزال التوراة على موسى عليه السلام، وهو هداية بني إسرائيل، تنبيهاً على وجه الشبه بين رسالة محمد ورسالة موسى عليهما الصلاة والسلام.

ثم ذكرت التوحيد والقدرة وأقامت البرهان عليهما بإهلاك الأمم الظالمة في الماضي، وأخيراً أكدت حدوث الحشر الذي استبعد الكفار حصوله.

فصار مطلع السورة ومضمونها وخاتمتها إثبات أصول العقيدة وهي كما ذكرت: التوحيد، والرسالة، والبعث.

إثبات النبوة (الرسالة)

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾﴾

الإعراب:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ ﴿تَنزِيلُ﴾: مبتدأ، و﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: خبره. ويجوز جعل ﴿تَنزِيلُ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل الكتاب، ويجوز أن يكون ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ و﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خبر المبتدأ، و﴿مِن﴾: متعلقة بالخبر المحذوف. وإذا جعلت ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ خبر المبتدأ كانت ﴿مِن﴾ متعلقة بـ ﴿تَنزِيلُ﴾ و﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خبراً ثانياً.

المفردات اللغوية:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ هذه الحروف الهجائية المقطعة سيقت كما بان سابقاً للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن. ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي إنزال القرآن، أو المنزَّل. ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه. ﴿أَمۡ﴾ بل. ﴿يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ أي يقول المشركون اختلقه محمد ﷺ من عند نفسه، منكرين كونه من رب العالمين. ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي إن القرآن هو الحق الثابت المنزل من الله. ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ ﴿مَّآ﴾ نافية. ﴿نَّذِيرٖ﴾ منذر. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ بإنذارك.

قال في الكشاف وأوجز البيضاوي كلامه: إنه تعالى أشار أولاً إلى إعجاز

القرآن، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجباً منه، فإن ﴿أَمْ﴾ منقطعة[1]، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله، وبيَّن المقصود من تنزيله، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذ كانوا أهل الفترة، لعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

التفسير والبيان:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ افتتحت هذه السورة بهذه الأحرف كغالب السور المكية لبيان إعجاز القرآن وعظمته، والرد على المشركين المنكرين نزوله من عند الله، والمكذبين برسالة النبي ﷺ. هذا القرآن العظيم لا شك في أنه منزل من عند الله على قلب محمد ﷺ، فليس بسحر ولا شعر ولا سجع كاهن، وإنما هو كلام رب العوالم جميعهم من إنس وجنّ، وذلك ردّ على قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ أي بل إنهم يقولون زوراً وبهتاناً: اختلقه وافتعله محمد من عنده، فردّ الله عليهم: بل هو الحق الثابت أي هو حق من الله ربه، أنزله إليك لتخوف وتنذر به قوماً - أي قريشاً ونحوهم - بأس الله وعذابه إن كفروا وعصوا، علماً بأنه لم يأتهم نذير قبلك، فتُبين لهم طريق الرشاد، ولعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

وهذا إثبات لرسالة محمد ﷺ وبرهان واضح على صدقه، وردّ لقول

---

(١) هذه ﴿أَمْ﴾ المنقطعة التي تقدّر بمعنى: بل وألف الاستفهام، أي بل أيقولون؟! وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث.

المشركين: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات أن القرآن الكريم كلام الله الذي لا شك فيه أنه من عند الله، فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين، كما يزعم المشركون الأفاكون الوثنيون، والكفار المتعصبون لدين سابق.

وبعد أن أثبت الله تعالى أنه تنزيل من رب العالمين، وأن ذلك مما لا ريب فيه، أضرب عن ذلك (أي انتقل) إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ثم كذبهم في دعوى الافتراء.

ثم بيَّن الله تعالى مهمة القرآن والنبي ﷺ وهي إنذار الكافرين عذاب الله، ومنهم قريش، قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿قَوْمًا﴾ يعني قريشاً، كانوا أمَّة أمّية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ.

دلائل التوحيد والقدرة الإلهية

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿خَلَقَهُۥ﴾: قرئ:

١- (خَلَقَه) وهي قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (خَلْقَه) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خلق: فعل ماض، وموضع الجملة إما النصب صفة لكل، وإما الجر صفة لشيء، ومعناه: أحسن كلَّ شيء مخلوق له. ومن قرأ بسكون اللام جعله بدل اشتمال أي بدلاً من قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ أو مفعولاً ثانياً لـ ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى أفهم فيتعدى إلى مفعولين.

﴿مِن وَلِيٍّ﴾ من زائدة لتأكيد النفي، أي ليس لكم ناصر مطلقاً.

البلاغة:

﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بينهما طباق.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وكان الأصل أن يقال: وجعل له فعدل إلى ضمير الجماعة، مراعاة لخطاب الإنسان الذي صار حَيّاً بنفخ الروح فيه مع ذريته.

المفردات اللغوية:

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأحد إلى الجمعة، والأيام: جمع يوم، وهو عند العرب جزء من اليوم، ويراد به لغة: الوقت. ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرش: أعظم المخلوقات، وهو لغة: سرير الملك، والاستواء عليه: هو شيء يليق بالله عز وجل دون حصر ولا كيف ولا تحديد بجهة معينة. ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الكفار وغيركم. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من غيره. ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ أي ناصر. ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع بكم ليدفع العذاب عنكم. والمعنى: ليس لكم غير الله ناصر ولا شفيع، بل هو الذي يتولى مصالحكم، وينصركم في مواطن النصر، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله فتؤمنوا؟!

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الدنيا مدة بقائها، وينظم شؤونها وأحوالها الواقعة فيها تدبيراً وتنظيماً شاملاً مبتدئاً من السماء ومنتهياً إلى الأرض .﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعد إليه ويرجع الأمر والتدبير ويثبت في علمه .﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا، أي يصعد إليه في برهة من الزمان متطاولة وهو يوم القيامة، وتقديره بألف سنة لشدة أهواله بالنسبة إلى الكافر، وأما المؤمن فيكون أخف عليه من صلاة مكتوبة، يصليها في الدنيا، كما جاء في الحديث الثابت .﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ذلك الخالق المدبر يدبر الكون على وفق الحكمة، وعلى وفق علمه الشامل الذي يعلم ما غاب عن الخلق وما حضر، المنيع في ملكه، الغالب على أمره، الرحيم بأهل طاعته وتدبيره أمر العباد. قال البيضاوي: وفيه إيماء إلى أنه تعالى يراعي مصالح الناس تفضلاً وإحساناً.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أتقن ما خلقه، موفراً له كل ما يحتاجه على وفق الحكمة والمصلحة .﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم ﴿نَسْلَهُۥ﴾ ذريته، سميت به؛ لأنها تنسل منه أي تنفصل .﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ نطفة .﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ممتهن ضعيف، وهو النطفة .﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي وأتمّه .﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً، وإشعاراً بأنه خلق عجيب، وأن له شأناً، والمعنى: جعله حياً حساساً بعد أن كان جماداً. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ لذريته .﴿ٱلسَّمْعَ﴾ أي الأسماع .﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصص هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا .﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكراً قليلاً، و﴿مَّا﴾ زائدة مؤكدة للقلة.

المناسبة:

بعد ما أثبت الله تعالى صحة الرسالة، ذكر ما يجب على الرسول من الدعوة إلى توحيد الله، وزوده بما يحتاجه من إقامة الأدلة والبراهين على ذلك، لإنجاح مهمته.

التفسير والبيان:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن الله تعالى هو خالق الأشياء، فخلق السماوات والأرض وأبدعهما وفطرهما وما بينهما لا على مثال سابق، في مدة ستة أيام، أي في أجزاء ستة من الوقت، ليست هي الأيام المعروفة؛ لأنه قبل خلقها لم يكن ليل ولا نهار. وقال الحسن البصري: «من أيام الدنيا» ولو شاء لخلقها بلمح البصر، ولكن أراد أن يعلّم عباده التأني في الأمور.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي استولى على ملكه يدبر أمره ويحكم شأنه، أو استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته على العرش الذي هو أعظم المخلوقات، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا يحدّه زمان ومكان، ولا تدركه الأبصار إدراك إحاطة وشمول، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ليس لكم أيها الناس، ولا سيما الكفار من غير الله ناصر يدفع عنكم عذابه ويلي أموركم، ولا شافع يشفع لكم عنده إلا بإذنه، بل هو المالك المطلق لكل شيء، فيتولى ما فيه المصلحة، ويدبر الأمور، دون تدخل من أحد، ولا حاجة لأحد؛ لأنه وحده القادر على كل شيء، والمهيمن على جميع الأشياء.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتدبرون وتتعظون، فتؤمنوا بالله وحده لا شريك له. ولا نظير ولا وزير، ولاعديل له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

والمراد: حمل الناس على الإيمان بالله إلهاً ورباً، يعبد وحده، ويطاع لذاته، فهو المستعان على كل أمر، وهو المانع من السوء، والجالب للخير والنفع، والمحقق للمصلحة، دون حاجة لأحد ولا لشيء، لذا قال مبيناً الأمر بعد بيان الخلق: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٤].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يدبر أمر الكون كله في العالم العلوي والسفلي، ثم يصعد إليه أثر الأمر وتنفيذه بواسطة الملائكة، وهذا تمثيل لعظمة الله وامتثال المخلوقات جميعاً لمراده وتدبيره، كالحاكم المطلق الذي يُصدر أوامره، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي ترفع الأمور الحاصلة في الدنيا صغيرها وكبيرها إلى الله تعالى يوم القيامة ليفصل فيها ويحكم في شأنها، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي نعدّها في هذه الحياة.

والمراد بالألف: الزمن المتطاول الذي هو في لغة العرب أقصى نهاية العدد.

وفي موضع آخر وصف الله تعالى مقدار هذا اليوم بخمسين ألف سنة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤] قال القرطبي: المعنى أن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة، قاله ابن عباس، والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر.

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام؛ فمنه ما مقداره ألف سنة، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة[١].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ أي المدبر لهذه الأمور هو العالم بجميع الأشياء، يعلم ما يغيب عن الأبصار، مما يجول في خلجات النفس، وما لا تدركه العين المجردة، ويعلم ما هو مشاهد تعاينه الأبصار، وهو العزيز الذي قد عزَّ كل شيء، فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، القوي الشديد في انتقامه ممن كفر به وأشرك معه غيره، وكذب رسله، وهو الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين القانتين التائبين الذين يعملون الصالحات، يرحمهم في تدبير شؤونهم في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٨٨

وبعد إثبات الوحدانية بالآفاق من خلق السماوات والأرض، ذكر تعالى الدليل الدال عليها من الأنفس، فقال:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ أي إن ذلك المدبر للأمور العليم الخبير القوي الرحيم هو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وبدأ خلق أبي البشر آدم من طين، والطين مكوَّن من ماء وتراب.

وكذلك يعتمد الإنسان في تكوينه وبقاء حياته على الطين؛ لأن المني ناشئ من الغذاء، والغذاء إما من الحيوان وإما من النبات، وكلاهما يعتمد على ما تخرجه الأرض الترابية.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ أي ثم جعل ذرية الإنسان يتناسلون من امتزاج نطفة الرجل بماء المرأة الذي فيه البويضة التي تتلقح بنطفة الرجل، فيتم التوالد والتناسل وبقاء النوع الإنساني من خلاصة من ماء ضعيف ممتهن عادة وهو المني.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ﴾ أي ثم بعد خلقه من تراب جعله سوياً مستقيماً، فقوَّم أعضاءه، وعَدَّلها، وأتمها، ونفخ فيه الروح التي هي من أمر الله والتي لا يعرف حقيقتها إنسان، فبدأ يتحرك وينمو، وأنعم عليكم بالحواس مفاتيح المعرفة وصمامات الأمان، فمنحكم السمع الذي تسمع به الأصوات، والأبصار التي تبصر بها المرئيات، والعقول التي تفكرون بها، وتميزون بين الخير والشر، والحق والباطل.

وهكذا يلاحظ التدرج في الخلقة وأطوار الإنسان، فهو ينشأ أولاً من مادة هي الطين اللازب، ثم تصبح هذه المادة ذات إفرازات حية، يتم بها تكوين الجنين، ثم تتحرك المادة بالروح التي هي من الحق تعالى، فيصبح خلقاً جديداً سوياً في أحسن تقويم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي إنكم أيها الناس لا تقابلون هذه النعم بالعرفان والوفاء، والشكر والامتنان، وإنما تشكرون ربكم قليلاً على هذه النعم التي رزقكم الله تعالى، باستعمال تلك الحواس في طاعة الله واتباع مرضاته.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - هناك دلائل كثيرة على توحيد الله وكمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه، منها إبداع السماوات والأرض وإيجادها بعد العدم، وبعد أن لم تكن شيئاً، في أجزاء من الزمن الله أعلم بمقدارها، وقد قرّبها لعقولنا وعبر عن طولها بقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الأيام الستة، فقال ابن عباس: إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض مقداره ألف سنة من سِنِيّ الدنيا.

وقال الضحاك: في ستة آلاف سنة؛ أي في مدة ستة أيام من أيام الآخرة.

٢ً - والاستواء على العرش استواء يليق بجلال الله وكماله دون تحديد ولا حصر، وهو الأصح أو التمكن والسلطة على الكون المخلوق حاصل مع خلق السماوات والأرض، فليست ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب، وإنما هي بمعنى الواو.

٣ً - إن الله عز وجل ولي المؤمنين الذي يتولى مصالحهم وناصرهم وشفيعهم، فإذا تجاوز الناس رضاه لم يجدوا لأنفسهم ولياً، أي ناصراً ينصرهم ولا شفيعاً يشفع لهم، وعليه، ليس للكافرين من ولي يمنع عنهم العذاب، ولا شفيع يتوسط لهم فيرفع عنهم العقاب.

فهل من متذكر معتبر في قدرة الله ومخلوقاته؟!

٤ً - ويأتي الأمر بعد الخَلْق، للدلالة على عظمة الله، فإن نفاذ أمر الله في الكون دليل على عظمته، لذا كان الأمر والتدبير في الكون وإنزال القضاء والقدر، ونفاذ هذا التدبير من مظاهر عظمة الله تعالى، ومجموع هذه الأوامر النافذة كلها عائد إلى الله يوم القيامة، فقوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ معناه يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هو يوم القيامة، وقد يكون لشدة أهواله وبحسب أحوال بعض الناس في مدة مقدارها خمسون ألف سنة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤].

ورأى الزمخشري في الكشاف أن المراد من الأمر: المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً من السماء إلى الأرض، ثم يصعد إليه المأمور خالصاً في مدة متطاولة لقلة عمال الله والخُلّص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة؛ لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص، ثم يثبت ذلك الأمر الصاعد ويصير إلى الله في كل وقت إلى أن تبلغ المدة آخرها في يوم القيامة الذي هو من أيام الله، ويوم الله كألف سنة، ثم يدبر الله أيضاً الأمر ليوم آخر، وهلم جراً إلى أن تقوم الساعة(١).

٥ً - الله تعالى في خلقه وتدبيره وحسمه أمر الدنيا بالقيامة يعلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم، فلا تفوته مصلحة، ولا تخفى عليه خافية من أعمال المخلوقات. وفي هذا الكلام معنى التهديد والوعيد، يراد به أن أخلصوا أفعالكم وأقوالكم، فإني أجازي عليها.

٦ً - لله القدرة البالغة التي لا توصف عظمتها وحدودها، فقد خلق أصل الإنسان من طين، ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من ماء ممتهن ضعيف، ثم أكمله وأتمه وعدّله ونفخ فيه الروح، وخلق فيه حواس السمع والبصر والعقل

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٢٢ - ٥٢٣

أدوات المعرفة ووسائل إدراك الحق والهدى، وتلك نعم عظمى تستحق الشكر والوفاء بالمعروف، لكن أكثر الناس كافرون لا يشكرون، وقليل من عباده الشكور.

ويلاحظ أن الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة؛ لأن الإنسان يسمع أولاً الأمور فيفهمها، ثم يبصر الأمور، ثم يحصل له بعد السمع والبصر الإدراك التام والذهن الكامل، فيستخرج الأشياء مما سمع ورأى.

وسبب ذكر السمع مصدراً، والأبصار والأفئدة اسماً، فجمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع: هو لحكمة هي أن الإنسان لا يسمع في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما، ولا اختيار لمحل السمع وهو الأذن، ويدرك في زمان واحد صورتين فأكثر بالعين ويعيهما ويستبينهما في القلب، ولمحل البصر وهو العين شبه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون غيره، وكذلك الفؤاد محل الإدراك له نوع اختيار، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة، وفي الأبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة.

إثبات البعث وحال الكفار يوم القيامة

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ
(١٠) ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (١١)
وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا
نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ
ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١٣) فَذُوقُواْ بِمَا
نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ (١٤)﴾

القراءات:

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا﴾: قرئ:

١- (أئذا ضللنا في الأرض إنَّا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٢- (إذا ضللنا في الأرض أئنا) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (أئذا ضللنا في الأرض أئِنَّا) وهي قراءة الباقين.

﴿شِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شينا).

الإعراب:

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ ﴿أَءِذَا﴾: ظرف متعلق بفعل مقدر، تقديره: أنبعث إذا ضللنا في الأرض، أي غبنا وبلينا.

﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿إِذِ﴾ تتعلق بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾ و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مبتدأ، وناكسو رؤوسهم: خبره، و﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ تقديره: يقولون: ربنا أبصرنا، فحذف القول، كما هو المعتاد الكثير في كلام العرب.

البلاغة:

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ استفهام إنكاري بقصد الاستهزاء.

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فيه إضمار تقديره: يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور للاختصاص، أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ حذف جواب «لو» للتهويل. أي لرأيت أمراً مهولاً.

﴿نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ بينهما مشاكلة: وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، فإن الله تعالى لا ينسى، وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي منكرو البعث. ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ غبنا فيها وبلينا وهلكنا، بأن صرنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض لا نتميز منه. ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي أنبعث أو يجدد خلقنا، والقائل أبي بن خَلَف، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. وهو استفهام إنكار غرضه الاستهزاء. ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي بل هم بالبعث جاحدون.

﴿قُلْ﴾ لهم. ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي يقبض أرواحكم مَلَك الموت، حتى لا يبقى أحد منكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعودون أحياء للحساب والجزاء، فيجازيكم ربكم بأعمالكم. ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون. ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ خافضوها ومطأطئوها حياء وخزياً. ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي يقولون: يا ربنا أبصرنا ما وعدتنا من البعث وسمعنا منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه. ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا لنعمل صالحاً فيها. ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن، ولم يبق لنا شك بما شاهدنا، ولكن لا ينفعهم ذلك، ولا يرجعون. وجواب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له والاختيار من النفس. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي ثبت قضائي وسبق ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ الجن. ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي

تقول لهم خزنة النار إذا دخلوها: ذوقوا العذاب بترككم الإيمان باليوم الآخر، فهذا سبب العذاب. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم في العذاب ترك المنسي. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي عذاب جهنم الدائم. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر وتكذيب الرسل. وقد كرّر الأمر للتأكيد. وفي التعليل بأمرين: وهما الأفعال السيئة من التكذيب والمعاصي، وترك التفكر في أمر الآخرة دلالة على أن كلاً منهما يقتضي ذلك.

المناسبة:

بعد بيان الوحدانية ودليلها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وبيان الرسالة وبرهانها في قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أخبر الله تعالى عن البعث وطريق إثباته للردّ على المشركين المنكرين له، وهذا على عادة القرآن كلما ذكر أصلين من أصول الاعتقاد الثلاثة ذكر الأصل الثالث، وهو هنا الحشر في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

التفسير والبيان:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ ؟ أي يخبر الله تعالى عن المشركين الذين استبعدوا المعاد حيث قالوا: أئذا صارت أجسامنا تراباً في الأرض، أيمكن أن نعود خلقاً جديداً بعد تلك الحال؟!

وهذا الاستبعاد إنما هو بتقديرهم وقياسهم حيث قاسوا قدرة الله على قدراتهم، فهم يرون أن البعث بعيد بالنسبة إلى قدراتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الإله الخالق الذي بدأهم وخلقهم من العدم، والذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ولهذا قال تعالى منكراً قياسهم وآراءهم:

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين لم ينكروا قدرة الله على

ما يشاء فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار البعث، فهم جاحدون لقاء ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

فردّ الله عليهم بقوله:

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي قل للمشركين يا محمد: إن ملك الموت الموكَّل بقبض الأرواح يقبض أرواحكم في الوقت المحدد لانتهاء الأجل، ثم في نهاية الدنيا بعد الموت ستعودون أحياء كما كنتم قبل الوفاة، وذلك يوم المعاد وبعد القيام من القبور، للحساب والجزاء، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وهذا إثبات للبعث مع التهديد والوعيد، وبيان أن القادر على خلق الناس أول مرة قادر على إحيائهم مرة أخرى.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المشركين حين معاينة البعث والحساب يوم القيامة فقال:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي ولو تشاهد أيها الرسول حين يقوم هؤلاء المشركون بين يدي ربهم خافضي رؤوسهم من الحياء منه والخزي والعار لرأيت عجباً وأمراً فظيعاً، فتراهم يقولون: ربَّنا نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، لقد أبصرنا الحشر وسمعنا تصديقك للرسل فيما كذبناهم فيه، فارجعنا إلى دار الدنيا نعمل ما يرضيك من صالح الاعتقاد والقول والعمل، فهم يلومون أنفسهم حين دخول النار، كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٠]. قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: المخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته.

وإنا الآن قد أيقنا بوحدانيتك، واستحقاقك العبادة دون غيرك، وتحققنا أن وعدك بالبعث حق ولقاءك حق، وأنك القادر على الإحياء والإماتة.

ولكن الله يعلم أنه لو أعادهم إلى الدنيا، لكانوا فيها كفاراً كما كانوا، يكذبون بآيات الله، ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧-٢٨].

وقال تعالى هنا:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي ولو أردنا أن نوفق كل نفس ونلهمها الهداية إلى الإيمان والعمل الصالح لفعلنا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

ولكن حكمتنا قضت ترك أمر الإيمان والعمل الصالح للاستعدادات والخيار، دون الإكراه والاضطرار، كما قال سبحانه:

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولكن ثبت قضائي، وسبق أنه لا بدّ من ملء جهنم من صنفي الجن والإنس الذين هم أهل لها بحسب استعدادهم وسوء اختيارهم، وفحش اعتقادهم وعملهم، فهم الظالمون أنفسهم، وقد علم الله مسبقاً قبل خلقهم أن مآلهم إلى النار، فحقَّ الوعيد، وحق الجزاء.

لذا استحقوا أيضاً التوبيخ، فقال تعالى:

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم بيوم القيامة، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، وعملكم عمل الناسي له، لذا فإنا سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً، ولا يضل عنه شيء، وهذا ما يسمى بأسلوب المقابلة

أو المشاكلة، مثل قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٤٥/٣٤] وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٤٠].

ويقال لهم أيضاً على سبيل التأكيد: وذوقوا عذاب النار الدائم الذي تخلدون فيه بسبب كفركم وتكذيبكم وسوء أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/٢٤-٣٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - أنكر المشركون البعث؛ لأنهم قاسوا قدرة الله الخالق على قدرة العبد المخلوق العاجز، فقالوا: أئذا هلكنا وصرنا تراباً نُخلق بعد ذلك خلقاً جديداً؟

٢ - الحقيقة أن المشركين لا يجحدون قدرة الله تعالى بالإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا ألا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى.

٣ - من مظاهر قدرة الله سبحانه أنه المميت الذي يتوفى الأنفس ويقبض الأرواح عند انتهاء آجالها، وأن مَلَك الموت واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله يتصرف كل تصرفه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه، فيخلق الله على يديه قبض الأرواح، ذكر ابن عطية حديثاً أن «البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون مَلَك الموت» كأنه يعدم حياتها، وكذلك الأمر في بني آدم، فالله هو الفاعل حقيقة، والملك واسطة ووكيل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٣٩/٤٢] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٦٧/٢] وقال عز وجل: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٦] فملك الموت يقبض، والأعوان

يعالجون، والله تعالى يُزْهق الروح، لكنه لما كان مَلَك الموت متولّي ذلك بالوساطة والمباشرة، أضيف التوفّي إليه، كما أضيف الخَلْق للمَلَك.

روي أن مَلَك الموت لما وكله الله تعالى بقبض الأرواح قال: «ربّ جعلتني أُذْكَر بسوء، ويشتمني بنو آدم، فقال الله تعالى له: إني أجعل للموت عللاً وأسباباً من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها، فلا يذكرك أحد إلا بخير».

٤ - استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بقبض الأرواح على جواز الوكالة.

٥ - إن حال المشركين يوم القيامة يدعو للعجب، فهم عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم خافضو الرؤوس من الحياء والندم، والخزي، والذل والغم والحزن، ويقولون: ربَّنا أبصرنا ما كنا نكذب، وسمعنا ما كنا ننكر، فارجعنا إلى الدنيا نعمل العمل الصالح الذي يرضيك، إنا مصدّقون بالبعث وبالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق.

قال سفيان الثوري: فأكذبهم الله تعالى، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨/٦].

وقال محمد بن كعب القُرَظيّ: لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ يقول: لو شئتُ لهديتُ الناس جميعاً، فلم يختلف منهم أحد ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي حق القول مني لأعذبنّ من عصاني بنار جهنم، وعلم الله تعالى أنه لو ردَّهم لعادوا.

وهذه الهداية: معناها خَلْق المعرفة في القلب. وتأويل المعتزلة: ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة، لكن لا يحسن منه فعله؛ لأنه

ينقض الغرض المجْرَى بالتكليف إليه، وهو الثواب الذي لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره.

وقالت الإمامية في تأويلها: إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها؛ قالوا: بل الواجب هداية المعصومين، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله. وفي جواز ذلك منع؛ لقطعهم بأن المراد: هداها إلى الإيمان.

وللإمامية جواب آخر: هو أن هداية الله سبحانه بالإلجاء والإجبار والإكراه ممنوعة، والمراد الهداية إلى الإيمان والطاعة بالاختيار، حتى يصح التكليف، فمن شاء الله آمن وأطاع اختياراً، لا جبراً، قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ٢٨] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢٩] ثم عقَّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣٠] فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم، ونفى أن يشاؤوا إلا أن يشاء الله.

وتوسط أهل السنة فلم يقولوا بالإجبار كالمجبرة، ولا بالاختيار المطلق كالقدرية، وخير الأمور أوساطها، وقالوا: نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه، كالتفرقة بين حركة الارتعاش غير الإرادية وحركة الاختيار، وسموا هذه المنزلة الوسطى كَسْباً، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦].

٦ - يقال للمجرمين يوم القيامة على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم رسل الله، وإنكاركم البعث، وترككم العمل له كالناسين، والله يعاملكم معاملة الناسي والمنسيين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وذوقوا

العذاب المخلَّد، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم بسبب أعمالكم في الدنيا من المعاصي.

صفة المؤمنين في الدنيا وجزاؤهم عند ربهم في الآخرة

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿أُخْفِىَ﴾:

وقرأ حمزة (أُخْفِيْ).

الإعراب:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿خَرُّوا۟﴾. وكذلك جملة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ منصوبة على الحال، وكذلك ﴿سُجَّدًا﴾ حال، وكذلك موضع ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكذلك موضع ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كلها منصوبات على الحال من ضمير ﴿خَرُّوا۟﴾ و﴿وَسَبَّحُوا۟﴾.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إما منصوبان على المفعول لأجله أو منصوبان على المصدر.

﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ ﴿مَّآ﴾: إما اسم موصول بمعنى الذي، وصلته ﴿أُخْفِىَ﴾

والعائد مقدر، أي لهم، وهو منصوب بـ ﴿تَعۡلَمُ﴾. وإما استفهامية في موضع رفع مبتدأ، و﴿أُخۡفِيَ﴾ خبره. هذا على قراءة (أخفي) فعل مضارع. وأما على قراءة ﴿أُخۡفِيَ﴾ المبني للمجهول، يكون ﴿مَّآ﴾ منصوباً بـ ﴿أُخۡفِيَ﴾ أي فلا تعلم نفس أي شيء أخفي لهم، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿تَعۡلَمُ﴾ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا ينصب بما قبله وإنما ينصب بما بعده.

البلاغة:

﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ بينهما طباق.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ كناية عن كثرة العبادة ليلاً.

المفردات اللغوية:

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿ذُكِّرُواْ﴾ وعظوا ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ سقطوا ساجدين، خوفاً من عذاب الله ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ نزّهوه عما لا يليق به، كالعجز عن البعث، حامدين له، خوفاً من عذاب الله، وشكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى، فقالوا: سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة، كما يفعل من يصرّ مستكبراً.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمۡ﴾ جمع جنب، وهو شق الإنسان ﴿عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ الفرش ومواضع النوم، جمع مضجع، وهو مكان النوم أو الاضطجاع ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾ داعين إياه ﴿خَوۡفٗا﴾ من سخطه وعقابه ﴿وَطَمَعٗا﴾ في رحمته، فسرها النبي ﷺ بقيام العبد من الليل ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون، أو ينفقون في وجوه الخير.

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ خبئ لهم ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ أي من شيء تقرّ به عيونهم وتُسَرُّ، يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة: «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين

رأت، ولا أذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذُخْراً، بَلْه[1] ما أطلعكم عليه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ».

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾: أخرج البزار عن بلال قال: كنا نجلس في المسجد، وناس من أصحاب النبي ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لكن في إسناده ضعيف. وذكره الواحدي النيسابوري عن مالك بن دينار قال: سألت أنس بن مالك عن هذه الآية فيمن نزلت، فقال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وهذا مروي عن قتادة وعكرمة. وأخرج الترمذي وصححه عن أنس: «أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العَتَمة» أي العشاء.

وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال: هي قيام العبد أول الليل.

وقال الحسن البصري ومجاهد ومالك والأوزاعي: نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل إلى الصلاة.

ويدلّ على صحة هذا السبب ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، وابن جرير والحاكم وابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: «كنت مع النبي ﷺ في سفر[2]، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي

(١) بله: اسم فعل مبني على الفتح مثل كيف، ومعناها: دع عنكم ما أطلعكم عليه، فالذي لم يطلعكم أعظم.

(٢) في غزوة تبوك.

الله، أخبرني عما يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت؛ ثم قال:

ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ - حتى بلغ - ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِرْوة سنامه؟ فقلت: بلى، يا رسول الله، فقال: رأس الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: ألا أخبرك بِملاك ذلك كله؟ فقلت: بلى، يا نبي الله، فأخذ بلسانه، ثم قال: كُفَّ عليك هذا، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمُّك يا مُعاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم».

المناسبة:

بعد بيان حال الكافرين في موقف الحساب يوم القيامة من ذلة وخزي وخجل، وما يتعرضون له من عذاب شديد مخلَّد، أبان الله تعالى حال أهل الإيمان في الدنيا من طاعة ربهم وتعظيمه وحمده والتقرب إليه بالنوافل، وما أعد لهم من نعيم وسرور، جزاء على أعمالهم.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ أي إنما يُصدِّق بآيات القرآن والآيات الكونية وبالرسل المرسلين الذين إذا وُعظوا بها واستمعوا لها بعد تلاوتها عليهم، سقطوا بأعضائهم وجباههم ساجدين لله، تذللاً وخضوعاً، وإقراراً

بالعبودية، ونزّهوه في سجودهم عما لا يليق به من أوضار الشرك كاتخاذ الصاحبة والولد والشريك، حامدين ربهم على آلائه ونعمه، أي جامعين بين التسبيح والتحميد بأن يقولوا: سبحان الله وبحمده، سبحان ربي الأعلى، وهم لأن قلوبهم عامرة بالإيمان لا يستكبرون عن طاعة ربهم، واتباع الآيات والانقياد لها، كما يفعل الكفرة الجهلة الفجرة الذين يتولون مستكبرين، فلهم عذاب أليم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠].

هذه أوصاف المؤمنين: العبادة، والتقديس مع الحمد، والطاعة والانقياد، ثم ذكر الله تعالى لهم أوصافاً أخرى: هي التهجد أو قيام الليل، والدعاء الخالص لله، والإنفاق في وجوه الخير: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي تترفع جوانبهم عن أماكن النوم والراحة، يبادرون إلى قيام الليل تهنأ نفوسهم بمناجاة ربهم، وتقرّ أعينهم وترتاح ضمائرهم بالعبادة، ويدعون ربهم دعاء خالصاً موقنين بالإجابة، خوفاً من العقاب، وطمعاً بالرحمة وجزيل الثواب، وينفقون بعض أموالهم في سبل الخير والبر ومرضاة الله، فيجمعون بين فعل القربات الشخصية والقربات الاجتماعية.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجلٍ ثار من وِطائه ولِحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي؛ ورجل غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفِرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهَريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي حتى أُهَريق دمه».

وذكر الثعلبي مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد قال النبي ﷺ: «إذا جمع الله

الأولين والآخرين، جاء منادٍ، فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلُّهم: سيعلمُ أهل الجمع اليوم من أوْلَى بالكرَم، ثم يرجع فينادي: ليَقُمِ الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع، فيقومون، وهم قليل، ثم يرجع، فينادي: لِيقُم الذين كانوا يحمدون الله على كل حال في السرَّاء والضَّرَّاء، فيقومون وهم قليل، فيسرَّحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس».

ثم ذكر الله تعالى جزاء أولئك المؤمنين الموصوفين بما تقدم فقال:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي فلا يعلم أحد على الإطلاق من الملائكة والرسل عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، جزاء عدلاً مقابلاً لصالح أعمالهم التي أخفوها فلم يراؤوا بها الناس، فأخفى الله ثوابهم.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

وروى الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: «إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعدَّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلم ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسل، وإنه في القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - من صفات المؤمنين أنهم يخرون سجداً لله تعالى على وجوههم، تعظيماً

لآياته، وخوفاً من سَطْوته وعذابه، وأنهم يقرنون التسبيح أي التنزيه بالتحميد، فيقولون في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربي الأعلى وبحمده؛ أي تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين.

وهم أيضاً ينقادون لأمر ربهم، فلا يستكبرون عن عبادته، كما استكبر أهل مكة وأمثالهم بعدهم عن السجود لله تعالى.

٢ً - ومن صفات المؤمنين أيضاً: ملازمة قيام الليل، أي صلاة التهجد في الثلث الأخير من الليل، وقيل عن قتادة وعكرمة: التنفل ما بين المغرب والعشاء. ومع تجافي جنوبهم عن المضاجع هم أيضاً في كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم، خوفاً من العذاب، وطمعاً في الثواب، ويتصدقون بفضول أموالهم وتلك هي النوافل بعد أداء الزكاة المفروضة.

وقد وردت أحاديث كثيرة ذكرت بعضها في فضل قيام الليل.

٣ً - إن جزاء أولئك المؤمنين مفتوح وعظيم جداً، لا يعلم حقيقته غير الله عز وجل، فلا يدري أحد ما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك. وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً، كما جاء مبيَّناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ، قال: «سأل موسى عليه السلام ربَّه فقال: يا ربّ، ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ قال: هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أيْ ربّ، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أَخَذَاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ، فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله معه، ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رَبّ، فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك، فيقول: رضيتُ رَبّ.

قال: فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ غرسْتُ كرامتهم بيدي،

وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر. قال: ومصداقُه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾».

جزاء المؤمنين وجزاء الفاسقين

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (الماوى، ماواهم).

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

البلاغة:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة، وذلك بين الوصفين والجزاءين.

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ بينهما طباق؛ لأن الأكبر هو الأقصى.

المفردات اللغوية:

﴿مُؤْمِنًا﴾ مصدقاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿فَاسِقًا﴾ كافراً خارجاً من الإيمان والطاعة وأحكام الشرع، فهو أعم من الكفر، وقد يرادفه كما في آية: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥] وأصل الفسق: الخروج، يقال: فسقتِ الثمرة: إذا خرجت من قشرها ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ المؤمنون والفاسقون في الشرف والمثوبة، وجمع الفعل بعد كلمتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ و ﴿فَاسِقًا﴾ للحمل على المعنى.

﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ جنات المسكن الحقيقي، أما مساكن الدنيا فمرتحل عنها ﴿نُزُلًا﴾ المراد هنا: ثواباً وجزاء، وأصل النزل: ما يعد للضيف من الطعام والشراب والمبيت، ثم أطلق على كل عطاء ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

﴿فَسَقُوا﴾ بالكفر وتكذيب الرسل ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ يراد به خلودهم فيها ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم ﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ أي الأقرب والأقل، وهو عذاب الدنيا الذي تعرضوا له بالجدب سبع سنين والقتل والأسر والأمراض ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي قبل عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّ من بقي منهم يتوبون عن الكفر، روي أن الوليد بن عقبة فاخر علياً يوم بدر، فنزلت هذه الآيات.

﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الآيات القرآنية والكونية ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتفكر فيها. و ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها، مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة، بعد التذكير بها عقلاً ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي من المشركين منتقمون.

سبب النزول:

نزول الآية (١٨):

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾

أخرج الواحدي وابن عساكر عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط لعلي بن أبي طالب: أنا أحَدُّ منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت، فإنما أنت فاسق، فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ قال: يعني بالمؤمن علياً، وبالفاسق الوليد بن عقبة.

المناسبة:

بعد بيان حال المجرم والمؤمن، سأل العقلاء: هل يستويان؟ وبعد الجواب أو البيان بأنهما لا يستويان، ذكر الله تعالى تفاوتهما في المنزلة والحكم يوم القيامة، عملاً بمقتضى عدله وكرمه.

التفسير والبيان:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي هل يستوي المؤمن بالله ورسوله، المطيع لأمره ونهيه، والكافر الخارج عن طاعة ربه، المكذب رسل الله إليه؟ والجواب: لا يستوي المؤمنون والفاسقون عند الله يوم القيامه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢١] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٨] وقوله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠].

ثم ذكر الله تعالى جزاء الفريقين في الآخرة فقال:

١ - ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي إن الذين صدقت قلوبهم بآيات الله ورسله، وعملوا صالح الأعمال، فلهم جنات المأوى التي فيها المساكن والدور والغرف العالية، ثواباً وجزاء وتكريماً لهم على أعمالهم الحسنة وأفعالهم الطيبة التي فعلوها في الدنيا. وقوله في حق المؤمنين ﴿فَلَهُمْ﴾ بلام التمليك زيادة إكرام.

٢ - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي وأما الذين فسقوا أي كفروا بالله، وخرجوا عن الطاعة، وعملوا السيئات، فمأواهم النار التي يأوون إليها ويستقرون فيها، ثم ذكر تعالى سوء حالهم فيها، فقال:

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي كلما عزموا على الخروج منها من شدة العذاب والأهوال، أعيدوا فيها، ودحروا إليها، أي إنهم مخلّدون فيها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢/٢٢].

قال الفُضَيل بن عِياض: والله إن الأيدي لموثَقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعُهم، والملائكة تقمَعُهم.

ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً وتهديداً:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تذوقوا وتحملوا عذاب النار الذي كذبتم به في الدنيا فإن الله أعدّه للمشركين به.

وهناك عذاب آخر سابق له:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي ولنذيقن الكفار والعصاة شيئاً من العذاب الأقرب والأقل وهو

عذاب الدنيا من المصائب والآفات كالجوع والقتل والسبي، قبل مجيء وحدوث العذاب الأشد الأعظم وهو عذاب القيامة، ليرجعوا عن ضلالهم إلى الهدى والرشد، ويثوبوا عن الكفر، ويؤمنوا بربهم، ويصدقوا برسولهم.

والترجي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ محال على الله تعالى، فيراد به تعليل ذلك الفعل بأمر الرجوع، كما يقال: فلان اتجر ليربح، أو يكون معناه: لنذيقنهم إذاقة الراجين، أو إذاقة يقول القائل: لعلهم يرجعون بسببه.

ثم ذكر الله تعالى سبباً عاماً للعقاب وهو ظلم الناس، فقال:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي لا أحد أظلم ممن ذكّره الله بآياته القرآنية ومعجزات رسله، وبيَّنها له ووضحها، ثم تركها بعد ذلك وجحدها، وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها، فإننا سننتقم أشدَّ الانتقام من الكفار الذين كفروا بالله واقترفوا المعاصي والمنكرات.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم: من عقد لواء في غير حق، أو عقَّ والديه، أو مشى مع ظالم ينصره، فقد أجرم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾»(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - ليس في حكم الله وعدله ولا في ميزان العقل السليم أن يسوّى بين المؤمن والفاسق في الثواب والجزاء في يوم القيامة.

(١) قال ابن كثير عن هذا الحديث: وهذا حديث غريب جداً.

٢ً - يترتب على نفي المساواة بين المؤمن والكافر منع القصاص - في رأي الجمهور غير الحنفية - بينهما؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول. ورأى أبو حنيفة قتل المسلم بالذمي، وقال: أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب، وفي الدنيا في العدالة.

وحمله الجمهور على عمومه، إذ لا دليل يخصه.

٣ً - مقر المؤمنين في الآخرة ثواباً وجزاء: جنات المأوى، أي يأوون إلى الجنات؛ فأضاف الجنات إلى المأوى؛ لأن ذلك الموضع يتضمن جنات.

ومقام الفاسقين الخارجين عن الإيمان إلى الكفر النار، وهم فيها خالدون، فكلما دفعهم لهب النار إلى أعلاها، ردّوا إلى موضعهم فيها؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها.

وتقول خزنة جهنم لهم، أو يقول الله لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، ذوقاً حسياً ومعنوياً.

ويلاحظ من قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر، أما الكفر إذا جاء فلا التفات بعده إلى الأعمال، لذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ ولم يقل: وعملوا السيئات؛ لأن المراد من ﴿فَسَقُواْ﴾ كفروا.

٤ً - للكافرين أيضاً عذاب آخر في الدنيا وهو مصائب الدنيا وأسقامها، مما يبتلى به العبيد حتى يتوبوا. وينتظرهم العذاب الأكبر وهو عذاب يوم القيامة. وذلك العذاب إنذار، لعله يرجع من بقي منهم إلى الرشاد والهداية؛ فإن عذاب الدنيا لا يقارن بعذاب الآخرة؛ لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ولا مديداً؛ لأنه يعقبه الموت، أما عذاب الآخرة فهو شديد ومديد.

٥ً - لا أحد أظلم لنفسه ممن ذكرت له آيات ربه أي حججه وعلاماته، ثم

أعرض عنها، وترك قبولها، فإن الله منتقم أشد الانتقام من المشركين؛ لتكذيبهم وإعراضهم.

عقد الصلة بين الرسالتين، إنزال التوراة على موسى عليه السلام وموقف اليهود منها

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (لِمَا صبروا).

الإعراب:

﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ الهاء عائدة إلى الكتاب، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، والفاعل مقدر، وتقديره: من لقاء موسى الكتاب، ويصح أن تكون عائدة إلى موسى، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، والمفعول به محذوف وهو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتقديره: فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب، وهو التوراة، ويصح أن تكون عائدة إلى «ما لاقى موسى» وتقديره: فلا تكن في مرية من لقاء ما لاقى موسى من التكذيب والإنكار من قومه.

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظرف زمان بمعنى «حين» في موضع نصب، والعامل فيه ﴿يَهْدُونَ﴾ ومن قرأ بالتخفيف وكسر اللام، كانت (ما) مصدرية، وتقديره: لصبرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ هو هنا: ضمير فصل؛ لأن ﴿يَفْصِلُ﴾ فعل مضارع، ولو كان فعلاً ماضياً لم يجز، فإنهم يجيزون: زيد هو يقوم، قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠] وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٤] ولا يجيزون: زيد هو قام. وإنما جاز لأن الفعل المضارع أشبه الأسماء شبهاً أوجب له الإعراب، بخلاف الفعل الماضي.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، كما آتيناك .﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ لا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦] فإنا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه، فليس ذلك ببدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه. ويحتمل: من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى، وقد التقيا ليلة الإسراء، قال ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى عليه السلام رجلاً آدم طوالاً جَعْداً، كأنه من رجال شنوءة».

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المنزل على موسى .﴿هُدًى﴾ هادياً .﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحِكَم والأحكام .﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم، أو بتوفيقنا لهم .﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي لصبرهم على طاعة دينهم وعلى البلاء في الدنيا .﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا .﴿يُوقِنُونَ﴾ يصدقون، لإمعانهم النظر فيها .﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي، فيميز الحق من الباطل والمحق من المبطل. ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

المناسبة:

بعد تقرير الأصول الثلاثة في أول السورة وهي التوحيد والبعث والرسالة، عاد في آخرها إلى الأصل الثالث مرة أخرى وهو الرسالة المذكورة أولاً في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾

واختار موسى لقربه من محمد ﷺ ووجود من كان على دينه، إلزاماً لهم، وإنما لم يختر ذِكْر عيسى عليه السلام؛ لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته. وأما النصارى، فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام، فذكر المجمع عليه.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ يخبر الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأنه آتى موسى عليه السلام التوراة، فلا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب، فإنا آتيناك القرآن كما آتينا موسى التوراة، فأنت لست ببدع من الرسل قط، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٩] والصلة قائمة بين الرسالتين والمهمة واحدة، فإن التوراة جعلت أيضاً هادياً ومرشداً لبني إسرائيل، كما أنك مرشد لأمتك، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢].

والمقصود بالآية حمل اليهود على الإيمان برسالة محمد ﷺ، وتحريض المشركين وغيرهم على التصديق بتلك الرسالة، فإن التشابه بين الرسالتين قائم والمهمة واحدة، وكذلك إيناس الرسول ﷺ عن حزنه الشديد بسبب إعراض قومه عن رسالته، فإن موسى عليه السلام لقي من قومه الأهوال وأنواع الأذى، فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ٤/ ١٥٣] ، وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٤] ، واتخذوا العجل إلهاً ونحو ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي وجعلنا من بني إسرائيل قادة يدعون الناس إلى الخير والإيمان، بإذننا وتوفيقنا وإعانتنا لهم؛ لأنهم صبروا على طاعة دينهم وتصديق رسلهم واتباعهم، وعلى البلاء الذي تعرضوا له في الدنيا، كإيذاء فرعون لهم

واستعباده إياهم، وكانوا بآياتنا الدالة على الوحدانية والقدرة مصدقين على وجه اليقين.

وهذا إيماء آخر إلى أن القرآن هادٍ للناس كالتوراة، وأن أتباعه هداة مخلصون، وهو أمر بالصبر والإيمان بأن وعد الله حق.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي إن ربك يقضي يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه من أمور الاعتقاد والدين والحساب والثواب والعقاب، والأعمال، فيثيب المطيع بالجنة، ويعاقب العاصي بالنار.

وهذا باعث آخر على الإيمان الصحيح والعمل الصالح، وتهديد ضمني لمن يعرض عن هداية الله التي صارت متمثلة بالقرآن بعد فقد التوراة وافتقاد الأصل الصحيح للإنجيل.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - لقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ كما أنزل التوراة على موسى عليه السلام، فالإيمان بهما والعمل بأحكامهما واجب، إلا أن فقد التوراة جعل العمل بالقرآن من الناحية الواقعية متعيناً، كما أن المنزل عليه القرآن خاتم النبيين، ونسخت رسالته بنص القرآن وتشريعه الرسالات السماوية السابقة، حتى لو فرض بقاء شيء ثابت صحيح منها.

٢ - إن أتباع محمد ﷺ هم الدعاة إلى دين الله وشرعه، كما أن أتباع موسى عليه السلام كانوا قادة يقتدى بهم في الدين، ويدعون الناس إلى الإيمان بالأصل الصحيح للتوراة والإنجيل، وإطاعة الله فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وذلك كله بإذن الله وتوفيقه. فحيث جعل الله كتاب موسى هدى،

وجعل منهم أئمة يهدون، كذلك يجعل القرآن المنزل على محمد ﷺ كتاب هدى، ويجعل من أمته صحابة يهدون.

٣ً - إن اتخاذ بعض الناس أئمة سببه الصبر على الطاعة للدين، والرضا بأمر الله، والعمل على إعلاء كلمة الله، والصبر على البلاء والمحن في سبيل الله تعالى، فإن جعل الأئمة هادين يحصل بالصبر، وهذا أمر بالصبر والإيمان بأن وعد الله حق.

٤ً - إن الله سبحانه هو القاضي العدل والحاكم المطلق بحق بين المؤمنين والكفار، فيجازي كلاً بما يستحق، ويفصل بين المختلفين من أمة واحدة، كما يفصل بين المختلفين من الأمم.

تأكيد ثبوت التوحيد والقدرة والحشر

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ
ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم
مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الإعراب:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ فاعل ﴿يَهْدِ﴾ مقدر وهو المصدر، أي أو لم يهد الهُدى لهم. وقيل: إن الفاعل هو الله تعالى، أي أو لم يهد الله لهم. وقرئ «نهدِ» وتقدير الفاعل: نهد نحن لهم. و «كم» في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْفَتْحُ﴾ صفته، و﴿مَتَىٰ﴾ خبره؛

لأن الفتح مصدر وهو حدث، و﴿مَتَىٰ﴾ ظرف زمان، وظروف الزمان يجوز أن تكون أخباراً عن الأحداث، لوجود الفائدة في الإخبار بها عنها.

البلاغة:

﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سجع لمراعاة الفواصل ورؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي أو لم يتبين لكفار مكة كثرة من أهلكناهم من القرون أي الأمم الماضية بكفرهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي يمرُّ أهل مكة في أسفارهم ومتاجرهم إلى الشام وغيرها على ديارهم، فيعتبروا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دلالات على قدرتنا ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ.

﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ اليابسة التي لا نبات فيها؛ لأنه جُرز نباتها، أي قطع وأزيل، لا التي لا تنبت ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتبن والورق ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا، فيستدلون به على كمال قدرته وفضله، فيعلموا أنا نقدر على إعادتهم؟

﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين ﴿الْفَتْحُ﴾ النصر أو الفصل بالحكم، أي متى هذا الحكم الحاسم بيننا وبينكم؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد به ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ بإنزال العذاب بهم يوم القيامة، فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم. وقيل: يوم بدر، أو يوم فتح مكة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تبال بتكذيبهم ﴿وَانتَظِرْ﴾ النصرة عليهم أو إنزال العذاب بهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليك، أو الموت أو القتل.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٩):

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾: أخرج ابن جرير عن قتادة: قال الصحابة: إن لنا يوماً يوشك أن نستريح فيه وننعم، فقال المشركون: متى هذا الفتح إن كنتم صادقين؟ فنزلت.

المناسبة:

في القسم الأخير من السورة عود على بدء في تقرير الأصول الثلاثة وهي الرسالة والتوحيد والبعث، فبعد أن ذكر تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ تقرير رسالة محمد ﷺ وإعادة بيان ما سبق في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد وبرهانه وإثبات القدرة الإلهية بالمشاهدات المحسوسة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ﴾ ثم أعاد ذكر الحشر وإثباته بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؟

التفسير والبيان:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين بالرسل كثرة من أهلكنا من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم، وهؤلاء المكذبون يمرون أثناء أسفارهم في مساكن وديار أولئك المكذبين، ويشاهدون آثار تدميرهم كعاد وثمود وقوم لوط، لم تبق منهم باقية ولا أثر، كقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ١٩/٩٨] وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ١١/٦٨] وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٢٧/٥٢] وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٥].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ؟ أي إن في تدمير أولئك القوم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم لدلائل على قدرتنا، وعبراً وعظاتٍ يعتبرون ويتعظون بها، فهلا يسمعون عظاتنا، ويتذكرون تذكيرنا لهم، سماع تدبر واتعاظ وتفكر؟ والخلاصة: إن مساكن المهلكين دالة على حالهم.

وبعد بيان القدرة على الإهلاك، بيَّن الله تعالى القدرة على الإحياء، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ أي أو لم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث أننا قادرون على الإحياء، فنسوق الماء من السماء أو السيول إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، فنخرج به زرعاً أخضر تأكل منه أنعامهم من التبن والشعير والحشيش، وتتغذى منه أجسامهم، وتتقوى به أبدانهم، أفلا يبصرون هذا بأعينهم، فيعلموا أننا قادرون على الإعادة بعد الموت، كإحياء الأرض بعد موتها؟

ثم ذكر تعالى تساؤل المشركين عن يوم البعث والحشر، فقال:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)﴾ أي ويتساءل هؤلاء الكفار عن ميعاد وقوع بأس الله وعذابه بهم استبعاداً وتكذيباً وعناداً، قائلين: متى تنتصر علينا يا محمد، ومتى ينتقم الله لك منا، وأنت وصحبك ما نراكم إلا مختفين خائفين ذليلين؟ إن كنتم صادقين في تهديدكم ووعيدكم على الكفر وعبادة الأوثان.

فأجابهم الله تعالى موبخاً لهم:

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين برسالتك: إن يوم الحكم الفاصل والقضاء والفصل النافذ هو يوم القيامة الذي لا ينفع فيه إيمان الكافر ولا توبته، ولا

هم يؤخرون فيه بالإعادة إلى الدنيا للتوبة والإيمان وإصلاح العمل؛ لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا، فلا تستعجلوه، فهو كائن حتماً.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي أعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين، ولا تبال بتكذيبهم، وتابع تبليغ ما أنزل إليك من ربك، وانتظر النصر من الله الذي وعدك به، فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.

إنك أنت منتظر نصر الله، وهم منتظرون الغلبة عليك والموت أو القتل، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٠] وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة ربك، وسيجدون سوء ما ينتظرونه فيك من عقاب الله بهم وتعذيبه إياهم في الدنيا والآخرة، وما علموا أن الله عاصمك منهم ومؤيدك بنصره.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - إن إهلاك الأمم الظالمة العاتية دليل على قدرة الله ووحدانيته، وفي ذلك عبرة للمعتبر، والمشركون الذين يشاهدون آثار الدمار والهلاك، لا يسمعون آيات الله وعظاته فيتعظون، إذ ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه، ولا قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم.

٢ - إن سوق الماء بقدرة الله إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لإحيائها بالنبات الأخضر والزرع النضر دليل آخر على قدرة الله على الإحياء وإعادة البشر لحياة البعث والنشور، ولكن الكفار لا يتأملون هذا بعين البصيرة ولا يبصرون هذا بحق، فيعلمون أن الله قادر على الحشر وعلى إعادتهم إلى الحياة يوم القيامة.

وفي هذين الدليلين من الإهلاك والإماتة، والإحياء والإعادة إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله تعالى.

٣ - إن حماقة المشركين دفعتهم إلى استعجال العذاب والعقاب يوم القيامة. ويروى أن المؤمنين قالوا: سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، فقال الكفار على سبيل الاستهزاء والسخرية: متى يوم الفتح، أي هذا الحكم؟

٤ - كان الرد الحاسم على هؤلاء الحمقى أن يوم الفتح والحكم والفصل بين المؤمنين والكفار كائن حتماً لا شك فيه ولا بدّ منه، ولكن لا ينفع فيه الإيمان حينئذ؛ لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا، وكذلك لا يؤخرون بالإعادة للدنيا، ولا يمهلون للتوبة.

٥ - النتيجة المطلوبة أن الإعراض عن المكذبين بالقرآن والرسول بعد البيانات المتكررة والبراهين المتلاحقة هو الواجب، ولينتظر نبي الله والمؤمنون يوم الفتح وحكم الله عليهم، وتحقيق النصر، ولن يفيد الكفار المكذبين انتظار حوادث الزمان بالنبي ﷺ وأتباعه، فإن الله عاصمه من الناس، وناصر جنده المؤمنين، والشعار حينئذ: انتظر عذابهم، إنهم منتظرون هلاكك؟! وهم هالكون لا محالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية

تسميتها:

سميت سورة الأحزاب لاشتمال الكلام فيها على وقعة الخندق أو الأحزاب الذين تجمعوا حول المدينة، من مشركي قريش وغطفان، بالتواطؤ مع المنافقين ويهود بني قريظة، لحرب المسلمين ومحاولة استئصالهم، كما سميت (الفاضحة) لأنها افتضحت المنافقين، وأبانت شدة إيذائهم لرسول الله ﷺ في أزواجه وتألبهم عليه في تلك الموقعة.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بسورة السجدة التي قبلها في وجوه التشابه بين مطلع هذه وخاتمة تلك، فإن السورة السابقة خُتمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم، وهذه بُدئت بأمره ﷺ بالتقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحي إليه من ربه، والتوكل عليه.

موضوعها:

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المدنية، التي تهتم بالجانب التشريعي للأمة، ولا سيما تنظيم الأسرة النبوية، وإبطال بعض عادات

الجاهلية كالتبني والظهار واعتقاد وجود قلبين للإنسان، وعدم إيجاب العِدّة على المطلقة قبل الدخول، وفرض الحجاب على نساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين، وبيان خطورة أمانة التكليف.

مشتملاتها:

اشتملت هذه السورة على بعض الآداب الاجتماعية، والأحكام التشريعية وأخبار في السيرة عن غزوتي الأحزاب وبني قريظة وعن المنافقين.

أما الآداب الاجتماعية: فأهمها آداب الدعوة إلى الولائم، والحجاب وعدم التبرج، وتعظيم النبي ﷺ في بيته ومع الناس، والقول السديد.

وأما الأحكام الشرعية فكثيرة: منها الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، ووجوب اتباع الوحي، وحكم الظهار، وإبطال عادة التبني وعادة التوريث بالحلف أو الهجرة، وجعل الرحم والقرابة أساس الميراث، وتعداد المحارم وعدد زوجات النبي ﷺ، والصلاة على النبي ﷺ، وفرض الحجاب الشرعي وتطهير المجتمع من مظاهر التبرج في الجاهلية، وعدم إلزام المطلقة قبل الدخول بالعدة، وتخيير نساء النبي ﷺ بين الفراق والبقاء معه، وتخصيص زوجاته بمضاعفة الأجر والثواب عند الطاعة، ومضاعفة العذاب عند المعصية، وتحريم إيذاء الله والرسول ﷺ والمؤمنين، وخطورة أمانة التكليف، وعقاب المسيء وإثابة المحسن.

وأما أخبار السيرة: ففي السورة بيان توضيحي عن (غزوة الأحزاب) أو (غزوة الخندق) وغزوة بني قريظة، ونقضهم العهد مع النبي ﷺ، وكشف فضائح المنافقين والتحذير من مكائدهم، وتهديدهم مع المرجفين في المدينة على جرائمهم بالطرد والتعذيب، وتذكير المؤمنين بنعم الله العظمى التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد اشتداد الخطب عليهم، ورد كيد أعدائهم بالملائكة والريح، حتى صار ذلك معجزة خارقة للعادة، وبيان قصة زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، وزينب بنت جحش زوج النبي ﷺ.

الأمر بتقوى الله واتباع الوحي والتوكل على الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (بما يعملون).

البلاغة:

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي دم على تقواه، وليتق الله المؤمنون، بأسلوب يقصد به تنبيه بالأعلى وهو النبي على الأدنى وهم المؤمنون، فإنه تعالى إذا أمر رسوله بالتقوى، كان المؤمنون مأمورين بها بطريق الأولى أو أنه أمر قصد به الثبات والاستدامة على التقوى. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ فيما يخالف شريعتك وأوامر ربك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إن الله كان وما يزال عالماً بكل شيء قبل وجوده، حكيماً فيما يخلقه. ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ أي القرآن. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وكِلْ أمرك إلى تدبيره. ﴿وَكَفَىٰ

﴿بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً لك، موكولاً إليه كل الأمور، والأمة تبع له في المذكور كله.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أهل مكة، ومنهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة دَعَوُا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله، على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه، فنزلت الآيات.

وذكر الواحدي في أسباب النزول: أن الآيات نزلت في أبي سفيان وعِكْرمة ابن أبي جهل وأبي الأعور السُّلَمي قَدِموا المدينة بعد قتال أُحُد، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ (زعيم المنافقين) وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطُعْمة بن أُبَيرق، فقالوا للنبي ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللات والعُزّى ومناة، وقل: إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها وندعك وربَّك، فشقّ على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: «إني قد أعطيتهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر رسول الله ﷺ أن يخرجهم من المدينة، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

التفسير والبيان:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ أي يا أيها الرسول محمد، داوم على تقوى الله وخف عقابه بإطاعة أوامره واجتناب محارمه، ولا تسمع من الكافرين والمنافقين ولا تستشرهم في شيء، واحترس منهم، ولا تستجب لمطالبهم بتخصيص بعض المجالس والأوقات لهم وطرد الضعفاء، إن الله عليم بعواقب الأمور، حكيم

في أقواله وأفعاله، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإن أولئك الكفار أعداؤك الذين يريدون هلاكك.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نهي مؤكد لمضمون الأمر السابق، أي اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم.

روي أنه لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، تابعه ناس من اليهود نفاقاً، وكان يُلين لهم جانبه، ويظهرون له النصح خداعاً؛ فحذره الله منهم، ونبهه إلى عداوتهم.

وقال طَلْق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله مخافة عذاب الله.

ثم أكد الله تعالى وجوب امتثال أوامر الله، فقال:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ أي اعمل بمقتضى الوحي المنزل إليك من ربك من قرآن وسنة، فإن الله لا تخفى عليه خافية، يعلم بدقة بواطن الأشياء وظواهرها، ثم يجازيكم عليها. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ علة للأمر باتباع الوحي، وإشارة إلى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم قلبك، لا تخفي في نفسك تقوى غير الله.

ثم أمر تعالى رسوله بعد التزام الأوامر بتفويض الأمور إلى الله وحده، فقال:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ أي فوض جميع أمورك وأحوالك إلى الله، وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه، وأناب إليه. والمقصود أن الله عاصمك وحسبك، فهو وحده جالب النفع لك، ودافع الضر عنك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إيجاب التقوى والمداومة عليها ومتابعة طاعة الله أمر عام مفروض على جميع البشر، سواء أكانوا أنبياء ورسلاً وملائكة أم غيرهم، إلا أن الأنبياء والملائكة المعصومين من المعصية يؤمرون بالتقوى تعليماً وإرشاداً لغيرهم، وتنبيهاً بالأعلى على الأدنى. ويلاحظ أن الله تعالى لم يخاطب نبيه محمداً ﷺ إلا بلفظ النبوة والرسالة: (يا أيها النبي) (يا أيها الرسول) ولم يخاطبه باسمه، تعظيماً لشأنه، وإشادة بمقامه، وتعليماً لنا للأدب معه، مع أنه تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم فقال: ﴿يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ١١/ ٤٨] ﴿يَإِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٤-١٠٥] ﴿يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَلَتِي وَبِكَلَمِي﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٤].

٢ - الأمر بالشيء نهي عن ضده، لذا منع الله سبحانه من طاعة الكافرين من أهل مكة ونحوهم والمنافقين من أهل المدينة وأمثالهم فيما نهى عنه، والتحذير من الميل إليهم، فإن الله عليم بكفرهم ونفاقهم، حكيم فيما يفعل بهم، والمقصود بذلك الاحتراس من مؤامراتهم ومكائدهم وخططهم المشبوهة.

والمراد بالكافرين من أهل مكة: أبو سفيان وأبو الأعور وعكرمة. والمراد بالمنافقين من أهل المدينة: عبد الله بن أبيّ، وطُعْمة بن أُبَيْرِق، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

٣ - ومن الواجب أيضاً اتباع الوحي من قرآن وسنة، وفي ذلك زَجْر عن اتباع مراسم الجاهلية. وأمر بجهادهم ومنابذتهم، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص، فلا مساغ للاجتهاد في مورد النص. والخطاب للنبي ﷺ ولأمته.

٤ - على المؤمن بعد اتخاذ الأسباب والوسائل أن يعتمد على الله في جميع أحواله، فهو الذي ينفع ويمنع، ولا يضر معه معارضة أحد من البشر أو مخالفته، وكفى بالله حافظاً لجميع الأمور والأحوال.

والخلاصة: إن الله تعالى أراد بهذه الآيات غرس العزة والكرامة في نفوس المسلمين، والثقة بالذات، وعدم الالتفات إلى الأعداء، ومن أجل تحقيق تلك الغايات، قررت الآيات هذه الأحكام وهي إن الله عليم بالمصلحة والصواب، حكيم لا يأمر ولا ينهى إلا على وفق الحكمة والصواب، فالواجب الأول: امتثال الأمر وتنفيذ النهي، والواجب الثاني: اتباع وحي الله، فإن الله خبير بما يصلح أمور العباد، والواجب الثالث: التوكل على الله حقاً، ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه، وكفى بالله وكيلاً.

تعدد القلب والظهار والتبني

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾: قرئ:

١- (اللائي) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (اللاء) قرأ البزي، وأبو عمرو، بتسهيل الهمزة مع المد والقصر.

وقرأ قالون، وقنبل بحذف الياء بعد الهمزة أيضاً، ولكن مع تحقيق الهمزة وصلاً ووقفاً.

وقرأ ورش بحذف الياء، وتسهيل الهمزة مع المد والقصر.

﴿تُظَٰهِرُونَ﴾: قرئ:

١- (تَظَّهَّرون) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (تَظّاهرون) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (تُظَاهرون) وهي قراءة عاصم.

٤- (تَظَاهرون) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَخْطَأْتُم﴾:

وقرأ السوسي، ووقفاً حمزة (أخطاتم).

الإعراب:

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى﴾ أزواج: جمع زوج، والزوج يطلق على الذكر والأنثى، يقال: هما زوجان، وقد يقال للمرأة: زوجة، واللغة الفصحى بغير تاء، وهي لغة القرآن، قال تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥] ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].

و ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾: فيه ثلاث قراءات، بإثبات الياء، وبحذفها، وبجعل الهمزة بين بين تسهيلاً بعد حذف الياء.

و ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾: يقرأ بتخفيف الظاء وتشديدها، وأصلهما: يتظاهرون.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ منصوب على أنه مفعول به لـ ﴿يَقُولُ﴾ أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أي يقول القول الحق.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ ﴿مَّا﴾: إما مجرور بالعطف على ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾ وإما مرفوع بالابتداء، أي ولكن ما تعمدت قلوبكم يؤاخذكم به.

البلاغة:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ تنكير رجل للاستغراق والشمول، وحرف الجر: لتأكيد الاستغراق، وذكر الجوف ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ لزيادة تصوير الإنكار.

﴿أَخْطَأْتُم﴾ ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ﴿جَعَلَ﴾ خلق، وهذا رد على من زعم من الكفار أن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ﷺ. ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ الظهار: أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، أو كظهر أحد محارمه، أي أنت في التحريم علي كتحريم الأم ونحوها من المحارم. ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي كالأمهات في التحريم، فقد كان الظهار في الجاهلية طلاقاً، أما في الإسلام فتجب فيه الكفارة قبل الجماع. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ جمع دَعِيّ: وهو الذي تُدّعى بنوته، فيدعى لغير أبيه ابناً له، وكان له أحكام الابن في الجاهلية وصدر الإسلام، وفي الواقع هو ابن غيره. ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي أبناء في الحقيقة. والمراد: ما جمع تعالى الزوجية والأمومة في امرأة، ولا الدعوة والبنوة في رجل، فكما لم يجعل الله قلبين في جوف لأدائه إلى تناقض: (وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل) لم يجعل الزوجة والدّعي اللذين لا ولادة بينهما وبينه أماً ولا ابناً اللذين بينهما وبينه ولادة.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى كلّ ما ذكر، و﴿قَوْلُكُم

﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي مجرد قول في الظاهر، لا حقيقة له في الواقع. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يقول ما له حقيقة مطابقة للواقع. ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيل الحق. والمراد: نفي وجود القلبين، ونفي الأمومة والبنوة عن المظاهر منها والمتبنى.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي لكن انسبوهم إليهم. ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل لما سبق، و﴿أَقْسَطُ﴾ أفعل تفضيل، قصد به الزيادة مطلقاً، أي أعدل، والمراد: البالغ في الصدق.

سبب النزول:

نزول الآية (٤):

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ﴾: أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين، قلباً معكم وقلباً معه، فأنزل الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة: قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين. قيل: إنه أبو معمر، وقيل: إنه جميل بن أسد الفهري. وكانت الزوجة المظاهر منها كالأم، ودَعِيُّ الرجل: ابنه.

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري مثل الذي أخرجه ابن أبي حاتم، وزاد: وكان يقول: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني. وأخرج عن مجاهد قال: نزلت في رجل من بني فِهْر قال: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له: جميل بن مَعْمَر الفِهْري، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع، فقالت

قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ فلما كان يوم بدر، وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن مَعْمَر، تلقاه أبو يوسف وهو معلِّق إحدى نعليه بيده، والأخرى في رِجْله، فقال له: يا أبا معمر، ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك، والأخرى في رجْلك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجلي، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده[١]

نزول الآية:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾: نزلت في زيد بن حارثة، كان عند الرسول ﷺ، فأعتقه وتبناه قبل الوحي، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد ﷺ امرأة ابنه، وهو ينهى الناس عنها، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢]

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزلت في القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فقال النبي ﷺ: أنت زيد بن حارثة بن شَراحيل.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بتقواه وطاعته والخوف منه، ونهى عن طاعة الكفار والخوف منهم، نفى تعدد القلب عند الإنسان، وأبطل الظهار والتبني، فإذا كان لا يجتمع في قلب إنسان الخوف من الله والخوف من غيره، فليس للإنسان

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٠١

(٢) المرجع والمكان السابق.

قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصي بالآخر، ولا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة، ولا البنوة الحقيقية والتبني في رجل، فجمع في الآيات بين أمر معروف حسي، وبين أمرين معنويين.

التفسير والبيان:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ أي إن الذات الإنسانية ووحدة التركيب العضوي واحدة في كل إنسان، وما خلق الله لأي أحد قلبين، فليس لأي رجل قلبان في صدره، وإنما هو قلب واحد؛ لأن القلب محل التوجيه والإرادة والعزم، فإذا كان الإنسان مؤمناً بالله ورسوله، فلن يكون كافراً أو منافقاً، أي إنه لا يجتمع في قلب واحد اعتقادان، ولا يجتمع اتجاهان متضادان، يأمر أحدهما أو ينهى بنقيض ما يطلبه الآخر.

والآية كما بان في سبيل النزول ردّ على ما كانت العرب تزعم أن اللبيب الأريب له قلبان، فقيل لأبي مَعْمر أو لجميل بن مَعْمر الفِهْري أو لجميل بن أسد الفِهْري: ذو القلبين. والظاهر أنه أبو معمر الفِهْري جميل بن معمر الذي اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين لقوة حفظه.

والقلب: المضغة الصنوبرية في داخل التجويف الصدري، وهو محل الخطرات والوساوس، ومكان الكفر والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة، ومحل الانزعاج والطمأنينة. والجعل: الخلق. وفائدة ذكر الجوف كفائدة ذكر الصدر في قوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦] ليحصل للسامع زيادة التصور، والإسراع في الإنكار.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي وما جعل الزوجات المظاهر منهن كالأمهات في الحرمة، بأن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فذلك كذب موجب العقوبة، كما قال تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٥٨/٢].

وكان حكم الظهار في الجاهلية طلاقاً يفيد التحريم المؤبد، فجعل الإسلام الحرمة مؤقتة، تزول بالكفارة (تحرير رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً قبل الجماع) كما جاء في أوائل سورة المجادلة، لتحريم ما أحلَّ الله تعالى.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي وما جعل الله المُدَّعى بنوتهم بالتبني أبناء في الحقيقة، فهم أبناء آبائهم الحقيقيين، والتبني حرام، وهذا أيضاً إبطال لما كان عليه العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من جعل الابن بالتبني كالابن النسبي. وقد كان النبي ﷺ بعد إعتاق زيد بن حارثة مولاه قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له: زيد بن محمد، وتبنى الخطَّاب عامر بن أبي ربيعة، وأبو حذيفة سالماً، وكثير من العرب تبنى ولد غيره.

والخلاصة: أجمع أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في زيد بن حارثة.

وقد أبطل الله هذا الإلحاق الوهمي وهذا النسب المزعوم بهذه الآية، وبقوله تعالى بعدئذ في هذه السورة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠].

وهذا هو المقصود بالنفي، قدَّم الله له نفي أمر حسي معروف وهو ازدواج القلب في الإنسان، ثم أردفه بنفي أمرين معنويين هما اجتماع الزوجية مع الظهار، والتبني مع النسب، فالثلاثة باطلة لا حقيقة لها، لذا قال تعالى مؤكداً النفي:

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي ذلكم المذكور كله في الجمل الثلاث من ادعاء وجود قلبين في صدر واحد، واجتماع الزوجية مع الظهار، والتبني مع النسب هو مجرد قول باللسان، لا صلة له بالحقيقة، فلا تصبح الزوجة بالظهار أماً، ولا المتبنى ابناً. وزيادة قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ للتنبيه على أنه قول صادر من الأفواه فقط، من غير أن يكون له حقيقة في الواقع، كما أن زيادة ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ لتأكيد الإنكار وزيادة تصويره للنفوس.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي والله هو الذي يقرر الصدق والعدل، ويقول الواقع، ويرشد إلى السبيل الأقوم الصحيح والطريق المستقيم، فدعوا قولكم، وخذوا بقوله عز وجل. ثم فصل تعالى هذا الحق المقصود أصالة بالآية فقال:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي انسبوا أولئك الذين تبنيتموهم وألحقتم نسبهم بكم إلى آبائهم الحقيقيين، فذلك أعدل في حكم الله وشرعه، وأصوب من نسبة الابن لغير أبيه. فقوله: ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعل التفضيل، وهو ليس على بابه، أي لا يراد به المفاضلة بين اثنين، بل قصد به الزيادة مطلقاً، ويجوز أن يكون على بابه على سبيل التهكم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي فإن جهل آباء هؤلاء الأدعياء، فهم إخوانكم في الدين إن كانوا قد أسلموا، وهم مواليكم في الدين أيضاً أي أنصاركم، إن كانوا عتقاء مُحَرَّرين، فينادى الواحد منهم: يا أخي أو يا مولاي، لذا قيل لسالم بعد نزول الآية: مولى حذيفة. جاء في الحديث الذي رواه أحمد والشيخان عن أبي ذر: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر» قال ابن كثير: هذا تشبيه وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم بنسبة بعضهم إلى غير أبيه خطأ قبل النهي، أو بعده نسياناً أو سبق لسان، أو بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: قد فعلت». وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد

فأخطأ فله أجر» وفي الحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه عن أبي ذر: «إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

لا إثم في الخطأ، ولكن الإثم على من تعمد الباطل، فنسب الابن أو البنت إلى غير الأب المعروف، فتلك معصية موجبة للعقاب. ولا إثم ولا تحريم فيما غلب عليه اسم التبني كالمقداد بن عمرو، فإنه غلب عليه نسب التبني، فيقال له: المقداد بن الأسود، والأسود: هو الأسود بن عبد يغوث، كان قد تبناه في الجاهلية، فلما نزلت الآية، قال المقداد: أنا ابن عمرو، ومع ذلك بقي الإطلاق عليه.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال في الآية: «لو دعوتَ رجلاً لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه، لم يكن عليك بأس، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه».

وأخرج الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم» وأن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطروني كما أطري عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبده ورسوله» وربما قال معمر: «كما أطرت النصارى ابن مريم».

وروى أحمد في حديث آخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي وكان الله وما يزال ساتراً لذنب المخطئ، والمتعمد إذا تاب، رحيماً بهما فلا يعاقبهما، فمن رحمته أنه رفع الإثم عن المخطئ، وقبل توبة المسيء عمداً.

قصة زيد بن حارثة في السيرة والسنة النبوية:

أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ فقال النبي ﷺ: أنت زيد بن حارثة بن شَراحيل. وقد سُبي من قبيلته «كَلْب» وهو صغير.

وكان من أمره ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان في أخواله بني مَعْن من بني ثعل من طَيّ، فأصيب في نَهْب من طيّ، فقدِم به سوق عكاظ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عُكاظ يتسوق بها، فأوصته عمته خديجة أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً إن قدر عليه، فلما قدم وجد زيداً يباع فيها، فأعجبه ظَرْفه، فابتاعه، فقدم به عليها، وقال لها: إني قد ابتعتُ لكِ غلاماً ظريفاً عربياً، فإن أعجبك فخذيه، وإلا فدعيه، فإنه قد أعجبني، فلما رأته خديجة أعجبها، فأخذته.

فتزوجها رسول الله ﷺ وهو عندها، فأعجبَ النبيَّ ﷺ ظَرْفه، فاستوهبه منها، فقالت: أهبه لك، فإن أردتَ عتقه، فالولاء لي، فأبى عليها عليه الصلاة والسلام، فوهبته له، إن شاء أعتق، وإن شاء أمسك.

قال: فشبَّ عند النبي ﷺ، ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب بأرض الشام، فمرّ بأرض قومه، فعرفه عمه، فقام إليه، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة، قال: من أنفسهم؟ قال: لا، قال: فحرٌّ أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك، قال: لمن؟ قال: لمحمد بن عبد المطلب، فقال له: أعربي أنت أم عجمي؟ قال: عربي، قال: ممن أصلك؟ قال: من كلب، قال: من أي كلب؟ قال: من بني عبد وُدّ، قال: ويحك، ابن من أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل. قال: وأين أُصبتَ؟ قال: في أخوالي، قال: ومن أخوالك؟ قال: طي، قال: ما اسم أمك؟ قال: سعدى، فالتزمه، وقال: ابن حارثة.

ودعا أباه، فقال: يا حارثة، هذا ابنك، فأتاه حارثة، فلما نظر إليه عرفه، قال: كيف صُنْع مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة، فلقوا رسول الله ﷺ، فقال له حارثة: يا محمد، أنتم أهل حَرَم الله وجيرانه وعند بيته، تفكّون العاني، وتطعمون الأسير، ابني عندك، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه، فإنك ابن سيد قومك، وإنا سنرفع إليك في الفداء ما أحببت، فقال رسول الله ﷺ: أعطيكم خيراً من ذلك، قالوا: وما هو؟ قال: أُخيِّره، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء، وإن اختارني فكفوا عنه.

فقالوا: جزاك الله خيراً، فقد أحسنت. فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «يا زيد، أتعرف هؤلاء» ؟ قال: نعم. هذا أبي وعمي وأخي، فقال ﷺ: «فهم من قد عرفتهم، فإن اخترتهم، فاذهب معهم، وإن اخترتني فأنا من تعلم». فقال زيد: ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً، أنت معي بمكان الوالد والعم، قال: أبوه وعمه: أيا زيد، أتختار العبودية؟ قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل، فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه، قال: «اشهدوا أنه حر، وأنه ابني يرثني وأرثه» فطابت نفس أبيه وعمه، لما رأوا من كرامة زيد عليه ﷺ، فلم يزل في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ فدُعي زيد ابن حارثة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - أعلم الله عز وجل أنه لا أحد بقلبين، وإنما هو قلب واحد، فإما فيه إيمان وإما فيه كفر، ولا يجتمع في القلب الكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار.

وفي هذا رد على بعض أهل مكة الذين كانوا يقولون: إن لي في جوفي قلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ.

وهو ردٌّ أيضاً على المنافقين الذين هم على درجة من النفاق، متوسطة بين الإيمان والكفر؛ إذ ليس هناك إلا قلب واحد فيه إيمان أو كفر.

٢ً - أبطل الله تعالى في هذه الآية حكم الظهار الجاهلي، وهو قول الرجل لامرأته: أنتِ علي كظهر أمي، فتصبح محرمة على التأبيد، أما في الإسلام فالحرمة مؤقتة تنتهي بالكفارة.

٣ً - التبني حرام في الإسلام؛ لأنه يصادم الحقيقة، والأولى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نَسَباً، ويحرم على الإنسان أن يتعمد دعوة الولد لغير أبيه، على النحو الذي كان في الجاهلية. فإن لم يكن كذلك، كما يقول الكبير للصغير تلطفاً أو تحنناً وشفقة: يا ابني أو يا بُنَيّ، فالظاهر عدم الحرمة، لكن أفتى بعض العلماء بكراهته سداً لباب التشبه بالكفار.

٤ً - نسبة الإنسان إلى أبيه من التبني خطأ، بأن يسبق اللسان إليه من غير قصد، لا إثم ولا مؤاخذة فيها، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

كذلك لا إثم في نسبة شخص كان في الأصل منسوباً إلى أبيه بالتبني، وجرى الإطلاق على سبيل الشهرة، كالحال في المِقْداد بن عمرو، فإنه غلب عليه نسب التبني، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنَّاه في الجاهلية وعرف به، فلما نزلت الآية، قال المقداد: أنا ابن عمرو؛ ومع ذلك فبقي الإطلاق عليه، ولم يحكم أحد بعصيان من ناداه بذلك، وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يدعى لأبي حذيفة، وغير هؤلاء.

وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه: زيد بن محمد؛ إذ لم يشتهر به بعد التحريم والنهي، فإن قاله أحد متعمداً عصى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

٥ً - وكما يحرم التبني، يحرم انتساب الشخص إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، بل هو من الكبائر إذا كان على النحو الجاهلي، فقد كان الرجل منهم ينتسب إلى غير أبيه وعشيرته، وجاء في السنة الوعيد الشديد عليه، أخرج الشيخان وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي ﷺ قال: «من ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام».

وأخرج الشيخان أيضاً: «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً» وأخرجا أيضاً عن أبي ذرّ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر». والكفر: إذا اعتقد إباحة ذلك، فإن لم يعتقد إباحته، فمعنى كفره: أنه أشبه فعله فعل الكفار أهل الجاهلية، أو أنه كافر نعمة الله والإسلام عليه.

٦ً - هناك فرق بين التبني المنهي عنه والاستلحاق الذي أباحه الإسلام، فالتبني: هو ادعاء الولد مع القطع بأنه ليس ابنه، وأما الاستلحاق الشرعي: فهو أن يعلم المستلحِق أن المستلحَق ابنه أو يظن ذلك ظناً قوياً، بسبب وجود زواج سابق غير معلَن. فإن كان من زنى فلا يجوز الاستلحاق.

٧ً - يباح أن يقال في دعاء من لم يعرف أبوه: يا أخي أو يا مولاي إذا قصد الأخوة في الدين والولاية فيه، وكان المدعو تقياً. فإن كان فاسقاً فلا يدعى بذلك، ويكون حراماً؛ لأننا نهينا عن تعظيم الفاسق.

٨ً - دلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ على أنه ينبغي أن يكون قول الإنسان إما عن حقيقة يقرها العقل السليم أو عن شرع ثابت، فمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولداً، وكانت الزوجة سابقاً زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه، فإنا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش أي رابطة الزوجية.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يدل على أنه سبحانه يغفر الذنوب للمستغفر، ويرحم المذنب التائب.

مكانة النبي ﷺ ومهمته وتشريع الميراث بقرابة الرحم

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى﴾:

وقرأ نافع (النبيء أولى) مع إبدال الهمزة الثانية واواً خالصة.

﴿النَّبِيِّينَ﴾:

وقرأ نافع (النبيئين).

الإعراب:

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، أي إنهن بمنزلة الأم في التحريم، فلا يجوز لأحد أن يتزوج بهن، احتراماً للنبي ﷺ.

﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا﴾ أن وصلتها: في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة:

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ تشبيه بليغ، حُذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، أي وأزواجه مثل أمهاتهم في الحرمة والتعظيم.

﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ مجاز بالحذف، أو أولى بميراث بعض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ عطف الخاص على العام للتشريف والتنويه بشأنهم، بالرغم من دخول محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام في جملة النبيين.

﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ استعارة، استعار الغلظ في الأجسام الحسية للشيء المعنوي، وهو بيان حرمة الميثاق وخطورته وعِظَمه، للوفاء به.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ التفات من التكلم للغيبة لتبكيت المشركين وتقبيح فعلهم.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلها في الدين والدنيا، فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، فهو أرأف بهم وأعطف عليهم فيما دعاهم إليه مما دعتهم أنفسهم إليه إذ هو يدعو إلى النجاة وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك. ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي مُنَزَّلات منزلة الأمهات في حرمة زواجهن واستحقاق التعظيم، وفيما عدا ذلك فكالأجنبيات، ولذلك قالت عائشة: لسنا أمهات النساء. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذوو القرابات. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الإرث بالحِلْف والمؤاخاة، وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فيما فرض الله تعالى وشرع أو في اللوح المحفوظ. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان لأولي الأرحام، أو صلة لأولي، أي أولو الأرحام

بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين، والمهاجرين بحق الهجرة، وبعبارة أخرى: الإرث بقرابة الرحم مقدم على الإرث بالإيمان والهجرة الذي كان أول الإسلام، فنسخ. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي كان المذكور في الآيتين ثابتاً في اللوح المحفوظ، أو في القرآن.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ أي واذكر. ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي عهودهم بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين القويم، والميثاق: العهد المؤكد. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي بأن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادته، وذكر هؤلاء الأنبياء الخمسة من عطف الخاص على العام؛ لأنهم مشاهير أصحاب الشرائع وأولو العزم من الرسل. وقدم نبينا تعظيماً له. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ ميثاقاً شديداً عظيم الشأن بالوفاء بواجب التبليغ لما أنزل إليهم من ربهم. وقيل: ميثاقاً مؤكداً باليمين.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة أولئك الأنبياء الصادقين الذين صدقوا عهدهم عن صدقهم في تبليغ الرسالة وعما قالوه لقومهم، تبكيتاً للكافرين برسالاتهم. ﴿وَأَعَدَّ﴾ تعالى، معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ والمعنى: أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه، لأجل إثابة المؤمنين، وتبكيت الكافرين، وأعد للكافرين بهم عذاباً مؤلماً.

المناسبة:

بعد أن أبطل الله تعالى حكم التبني الخاص وأن محمداً ﷺ ليس أباً لزيد بن حارثة، أبان تعالى أن أبوة محمد ﷺ عامة لكل الأمة، وأزواجه بالنسبة للرجال في حكم حرمة الأمهات، وهي أشرف من أبوة النسب؛ لأنها إنقاذ أبدي من الهلاك، قال مجاهد: كل نبي أبو أمته. ثم أردف ذلك بعلو منزلته وسمو مهمته وهو تبليغ دعوة الله، وفاء بالميثاق (العهد المؤكد) الذي أخذه الله عليه وعلى سائر الأنبياء من قبله.

التفسير والبيان:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي إن النبي محمداً ﷺ أرأف بجماعة المؤمنين من أمته وأعطف عليهم من أنفسهم؛ إذ هو يدعوهم إلى النجاة، وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، كما قال ﷺ: «أنا آخذٌ بحُجَزِكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها تَقَحُّم الفَراش»(١) ولأنه ينزَّل لهم منزلة الأب، فالنفس قد تأمر بالسوء، وأما محمد ﷺ فهو لا يأمر إلا بالخير ولا ينطق إلا بالوحي.

فإذا كان زيد يعتز بدعوته لمحمد ﷺ؛ لأنها تكسبه جاهاً كبيراً في الدنيا والآخرة، فإن المؤمنين أصبحوا جميعاً يعتزون بأبوة محمد ﷺ العامة لهم، وقد نزلت الآية تسلية لزيد، وبياناً للانتقال من الأبوة الخاصة لزيد إلى الأبوة العامة، والرأفة الشاملة التي تعم المسلمين جميعاً، لا فرق فيها بين الابن الصلبي وغيره فهو يرعاهم حق الرعاية ويهديهم الطريق المستقيم.

وجعلت الولاية مطلقة لتشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية.

وما دام محمد ﷺ أولى من النفس، فهو أولى من جميع الناس بطريق الأولى، وحكمه مقدَّم على اختيارهم لأنفسهم، ومحبته مقدمة أيضاً على حب النفس التي بين الجنبين، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٥].

وثبت في صحيح البخاري وغيره: «والذي نفسي بيده لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» وروى البخاري في صحيحه أيضاً عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا

(١) نص الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة: «إنما مَثَلي ومَثَل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، وأنا آخِذ بحُجَزكم وأنتم تَقَحَّمون فيه». قال العلماء: الحُجْزة للسراويل، والمَعْقِد للإزار.

وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فأيُّما مؤمن ترك مالاً، فلترثه عصبته من كانوا، ومن ترك دَيْناً أو ضَياعاً - عيالاً - فليأتني، فأنا مولاه».

وفي الصحيح أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، والله لأنت أحبُّ إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: لا، يا عمر، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك، فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: الآن يا عمر».

ومبعث هذا ما علم الله تعالى من توافر شفقة النبي ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجَعَله أولى بهم من أنفسهم.

﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ أي إن أزواج النبي ﷺ منزلات منزلة الأمهات في الحرمة والاحترام، أي في تحريم زواجهن بعد النبي ﷺ، واستحقاق التكريم والتعظيم والتوقير، وأما في غير ذلك فهن أجنبيات، فلا يقال لبناتهم أخوات المؤمنين، ولا يحرمن على المؤمنين، ولا يحل النظر إليهن ولا الخلوة بهن، ولا إرثهن ونحو ذلك.

وهذا بالنسبة إلى الرجال، فهم كأمهاتهم، وأما النساء فلا يقال لهن عند البعض: أمهات المؤمنات، لذا قالت عائشة رضي الله عنها لمن قالت لها: يا أمه: أنا أم رجالكم، لا أم نسائكم. وسيأتي بيان الخلاف.

ويثبت هذا الوصف لجميع أزواج النبي ﷺ، حتى المطلَّقة، لكن صحح إمام الحرمين وغيره قصر التحريم على المدخول بها فقط. واختار الرازي والغزالي القطع بحل المرأة التي اختارت الدنيا من أزواج النبي ﷺ بعد نزول آية التخيير الآتية.

ثم بيَّن الله تعالى بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ حكم الميراث، وبقوله: ﴿إِلَّآ أَن

﴿تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ حكم الوصية، ليبين الفرق بين ولاية النبي ﷺ للمؤمنين، وولاية المؤمنين لأقاربهم، فالنبي ﷺ لا يورث، فلا توارث بينه وبين أقاربه، لولايته العامة، والمؤمنون يرث بعضهم من بعض إذا كانوا ذوي قرابة، وهم أولى ببعضهم في النفع بميراث وغيره، إلا في حال برّ صديق أو محتاج بالوصية، فيصير أولى من قريبه، فتقطع الوصية الإرث، فقال:

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ أي وذوو القرابات مطلقاً، سواء أكانوا أصحاب فروض أم عصبات أم ذوي أرحام أولى بمنافع بعضهم بالتوارث وغيره من بقية المؤمنين المهاجرين والأنصار، أي بحق الدِّين وهو الإيمان، أو بحق الهجرة، وذلك في فرض الله وشرعه وما كتبه على عباده، أو في القرآن، أو في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ كما ذكر الزمخشري إما بيان راجع لأولي الأرحام (أي الأقرباء) والمعنى: وأولو القرابة من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بنفع بعض أو بميراثه من الأجانب. وإما لابتداء الغاية، والمعنى: وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدِّين، ومن المهاجرين بحق الهجرة[١] وعلى هذا المعنى الثاني وهو المشهور تكون الآية إبطالاً لما كان في بدء الإسلام من التوارث بالحِلْف والمؤاخاة بين المسلمين، فكان المهاجري يرث الأنصاري، دون قراباته وذوي رحمه، بسبب الأُخوَّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، فقد آخى بين أبي بكر رضي الله عنه وخارجة ابن زيد، وآخى بين عمر وشخص آخر، وآخى بين عثمان ورجل من بني زُرَيق، وآخى بين الزبير وكعب بن مالك[٢]

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان عن ابن عباس: «لا

(١) الكشاف: ٢/ ٥٣١

(٢) فسير ابن كثير: ٣/ ٤٦٨

هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» والمراد: بطل حكم الهجرة وزالت الأحكام المترتبة عليها كالتوارث بها.

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي ذهب الميراث بالتآخي، وبقي حكم الوصية والنصر والبر والصلة والإحسان، أي إلا أن توصوا إلى أصدقائكم الذين توالونهم وتودونهم من المؤمنين والمهاجرين وصية، والمعروف هنا: الوصية، ومن المعلوم أن الدَّين والوصية مقدّمان شرعاً على الميراث، كما قال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [النساء: ٤/ ١١]

ومعنى الآية: إن أوصيتم فغير الوارثين أولى، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي إن هذا الحكم (وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض) حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يُبدّل ولا يغير، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ما، لمصلحة مؤقتة، وحكمة بالغة، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي، وقضائه القدري التشريعي.

وبعد بيان مكانة النبي ﷺ بين المؤمنين، أبان الله تعالى سمو مهمته وعلو منزلته في تبليغ الشرائع، والدعوة إلى دين الله ورسالة ربه، ووفائه بتلك المهمة، عملاً بمقتضى ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله، وكأنه تعالى من بداية السورة إلى هنا قال لنبيه تعليماً للأمة، اتق الله، ولا تخف أحداً، واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون شرائع الله، ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع، فقال:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ أي واذكر أيها الرسول أننا أخذنا العهد المؤكد على جميع الأنبياء ولا سيما أولو العزم منهم وهم الخمسة

المذكورون في الآية في أنهم يبلغون رسالة الله إلى أقوامهم، ويقيمون دين الله تعالى، ويتناصرون ويتعاونون فيما بينهم بإكمال بعضهم رسالة من تقدمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١] أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمداً رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أن لا نبي بعده.

ثم أكد الله تعالى ذلك الميثاق بعينه، فوصفه بالشدة والغلظ مبالغة في حرمته وعظمته وثقل تبعته (مسؤوليته) والمعنى: وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً، فالميثاق الثاني هو الأول مؤكداً باليمين، أو مكرراً لبيان صفته، من طريق استعارة الغلظ من صفة الأجسام المادية إلى الأشياء المعنوية، مبالغة في بيان حرمته وعِظَمه وخطورته، كما بينت.

وقد خصَّ الله تعالى بالذكر خمسة رسل هم أولو العزم، تنويهاً بشأنهم، وتبيان أهمية رسالاتهم، من باب عطف الخاص على العام، كما في آية أخرى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٣].

ثم ذكر الله تعالى أنه سائل الأنبياء عن التبليغ والمؤمنين عن الإجابة والمكذبين عن التكذيب، فقال:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ اللام في﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ قيل: إنها لام الصيرورة، أي أخذ الميثاق على الأنبياء، ليصير الأمر إلى السؤال عما فعلوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٦]. قال الرازي: يعني أرسل الرسل، وعاقبة المكلفين إما حساب

وإما عذاب؛ لأن الصادق محاسب، والكافر معذب[١]. والظاهر - كما قال أبو حيان - أنها لام التعليل، لام كي، أي بعثنا الرسل، وأخذنا عليهم المواثيق في التبليغ، لكي يجعل الله خلقه فرقتين: فرقة يسألها عن صدقها، على معنى إقامة الحجة، فتجيب بأنها قد صدقت الله في إيمانها وجميع أفعالها، فيثيبها على ذلك؛ وفرقة كفرت، فينالها ما أعدَّ لها من العذاب، فالصادقون المسؤولون على هذا المعنى: هم المؤمنون، والهاء في ﴿صِدْقِهِمْ﴾ عائدة عليهم، ويجوز أن يراد: وليسأل الأنبياء، أو ليسأل عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم أو ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، وفي هذا تنبيه: أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف بمن سواهم؟[٢] أو ليسأل المبلَّغين الذين بلغتهم الرسل. وعلى هذا، يكون المعنى: وأخذنا من الأنبياء ميثاقهم في تبليغ الدعوة إلى دين الله، لكي نسأل المرسلين عن قيامهم بواجب التبليغ، ومعرفة ما أجابتهم به أممهم، ولأجل إثابة المؤمنين على إيمانهم وصِدقهم، وعقاب الكافرين من أممهم المكذبين رسلهم الذين أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً مؤلماً موجعاً هو عذاب جهنم. فقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - النبي ﷺ أرأف وأعطف وأشفق على المؤمنين من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

٢ - آية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت

(١) تفسير الرازي: ٢٥/١٩٧

(٢) البحر المحيط: ٧/٢١٣

في صدر الإسلام؛ منها: أنه ﷺ كان لا يُصلّي على مَيِّت عليه دَيْن، فلما فتح الله عليه الفتوح قال كما جاء في الصحيحين: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفِّي وعليه دين فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته». وفي الصحيحين أيضاً: «فأيكم ترك ديناً أو ضَياعاً فأنا مولاه» والضياع: مصدر ضاع، ثم جعل اسماً لكل ما يتعرض للضياع من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قيِّم له. وسميت الأرض ضَيْعة؛ لأنها معرضة للضياع، وتجمع ضِياعاً.

قال بعض العلماء: يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء اقتداءً بالنبي ﷺ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه، حيث قال: «فعلي قضاؤه».

٣ - جعلت أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين في وجوب التعظيم والبِرّ والإجلال، وحرمة النكاح على الرجال، وتحريم النظر إليهن، وحجبهن عن الرجال، بخلاف الأمهات. وهذه الأمومة لا توجب ميراثاً كأمومة التبني، وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس، ولا أخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، فقد تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهي أخت عائشة، ولم يقل: هي خالة المؤمنين. ولا يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين.

وهن في قول أمهات الرجال خاصة، لا أمهات الرجال والنساء، عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها: يا أمّه؛ فقالت لها: لست لك بأمّ، إنما أنا أمُّ رجالكم. قال ابن العربي: وهو الصحيح[1].

وقال القرطبي: لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقّهن على الرجال والنساء. يدل عليه صدر الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١٤٩٧

وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً؛ فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع[١]

٤ - قوله تعالى﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ناسخ للتوارث بالحِلْف والمؤاخاة في الدين، وللتوارث بالهجرة؛ لأن المراد بأولي الأرحام ذوي القرابة مطلقاً أياً كان نوعهم، والمراد بالمؤمنين الأنصار، وبالمهاجرين قريشاً، وقد فسَّر الإمام الشافعي رضي الله عنه الآية بذلك، وتبعه في هذا أبو بكر الرازي الجصاص من الحنفية. إلا أن الجصاص يرى فيها دليلاً للحنفية على توريث ذوي الأرحام، لا من حيث إن الآية قد أريد منها هذا النوع الخاص من الوارثين، بل من حيث إن الآية اقتضت أن ذا القرابة مطلقاً أولى من غيره، وأما تقديم بعض ذوي القرابة على بعض، فهذا له أدلته الخاصة.

ويقتضي ذلك أن يكون ذو الرحم (هو الصنف الذي يدلي إلى الميت بواسطة الأنثى) أولى من بيت المال، فتكون الآية حجة على من قدم بيت المال عليهم.

وظاهر الآية يدل على أن ذا الرحم أولى من مولى العتاقة، ويرى بعضهم أن مولى العتاقة مقدم على ذوي الأرحام، وهو أولى من الرد؛ لأنه من العصبات، والعصبات أولى بالميراث من غيرهم، وقد روي أن ابنة حمزة أعتقت عبداً، ومات وترك بنتاً، فجعل النبي ﷺ نصف ميراثه لابنته ونصفه لابنة حمزة. ونوقش هذا بأنه لم يقل لنا الرواة: هل كان للميت ذو رحم، حتى يتم الدليل. وقال النبي ﷺ فيما رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر: «الولاء لحمة كلحمة النسب» ونوقش هذا أيضاً بأن التشبيه يقتضي بمطلق الاستحقاق، ولكنه لا يدل على تقديمه على غيره.

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٢٣

٥ - قال قوم: لا يجوز أن يُسمَّى النبي ﷺ أباً؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ولكن يقال: مثل الأب للمؤمنين؛ كما قال ﷺ فيما رواه أبو داود: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلِّمكم». وقال القرطبي: والصحيح أنه يجوز أن يقال: إنه أبٌ للمؤمنين، أي في الحرمة لا في النسب، وأما قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فهو في النسب. وقرأ ابن عباس: «من أنفسهم، وهو أب لهم، وأزواجه أمهاتهم» وهي في مصحف أُبَيّ.

٦ - لا مانع من الإحسان لغير الوارثين في الحياة، والوصية عند الموت لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي إن ذلك جائز.

وقال محمد بن الحنفية: «إنها نزلت في جواز وصية المسلم لليهودي والنصراني»[1] أي إنه تجوز الوصية للقريب والوليّ وإن كان كافراً؛ لأن الكافر ولي في النسب لا في الدين، فيوصى له بوصية. ويكون معنى الآية: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بميراث بعض، إلا إذا كان لكم أولياء من غيرهم، فيجوز أن توصوا إليهم.

٧ - رسالات الأنبياء في الأصول العامة كأصول الاعتقاد والأخلاق واحدة، وهم متناصرون متعاونون فيما بينهم، ويكمّل بعضهم رسالة بعضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ الآية، أي أخذنا عهدهم على الوفاء بما أوحي إليهم، وأن يبشر بعضهم ببعض، ويصدّق بعضهم بعضاً، وذلك حكم قديم مسطور حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء، وهو عهد وثيق عظيم على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضاً.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٥٥

وقد خصَّ الله تعالى خمسة أنبياء بالذكر (وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى). تفضيلاً لهم؛ لأنهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم، ولأنهم أصحاب الشرائع والكتب. وقدَّم محمداً ﷺ في الذكر؛ لما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ فقال: «كنتُ أولهم في الخَلْق، وآخرهم في البعث، فبدأ بي قبلهم»[١]

٨ - قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه[٢]

أحدها - ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، وفي هذا تنبيه؛ أي إذا كان الأنبياء يُسألون، فكيف مَنْ سواهم؟

الثاني - ليسأل الأنبياء عماأجابهم به قومهم.

الثالث - ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم.

الرابع - ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/٦].

وفائدة سؤال الأنبياء: توبيخ الكفار، كما قال تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/١١٦].

---

(١) لكنَّ فيه راوياً ضعيفاً.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤/١٢٨

غزوة الأحزاب أو الخندق وبني قريظة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ
وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا (١١) وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا (١٢) وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ
مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا (١٣) وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا
ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا (١٤) وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ
مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن
فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (١٦) قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي
يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧) ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ
إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ
إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم
بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا (١٩) يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ
أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ
إِلَّا قَلِيلٗا (٢٠) لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ
وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا (٢١) وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا (٢٢) مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا
بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا (٢٣) لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ

يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿تَعْمَلُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يعملون).

﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾: قرئ:

١- (الظنونا) وهي قراءة نافع، وابن عامر، بإثبات الألف وصلاً ووقفاً.

٢- (الظنون) بحذف الألف وصلاً ووقفاً قرأ أبو عمرو، وحمزة.

٣- وقرأ الباقون بإثبات الألف وقفاً وحذفها وصلاً.

﴿لَا مُقَامَ﴾:

وهي قراءة حفص وقرأ الباقون: (لا مَقام).

﴿بُيُوتَنَا﴾: قرئ:

١- (بُيُوتنا) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتنا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿لَأَتَوْهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (لأتوها).

﴿ٱلْبَأْسَ﴾:

وقرأ السوسي، ووقفاً حمزة (الباس).

﴿يَحْسَبُونَ﴾ قرئ:

١- (يَحْسَبُون) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (يَحْسِبُون) وهي قراءة الباقين.

﴿أُسْوَةٌ﴾:

وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقون (إِسوة).

﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾: قرئ:

١- (في قلوبِهِم الرُّعْب) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (في قلوبُهُم الرُّعْب) وهي قراءة حمزة، وخلف.

٣- (في قلوبُهُم الرُّعُب) وهي قراءة الكسائي.

٤- (في قلوبِهِمُ الرُّعُب) وهي قراءة ابن عامر.

٥- (في قلوبِهِمُ الرُّعْب) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾: في موضع نصب على البدل من ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ و﴿إِذْ﴾ هذه منصوبة بـ ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ يقرأ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ بإثبات الألف، لأنها فاصلة، وفواصل الآيات تشبه رؤوس الأبيات. ويقرأ بترك الألف على الأصل.

﴿وَإِذْ يَقُولُ﴾ و﴿وَإِذْ قَالَت﴾: ﴿وَإِذْ﴾ فيهما منصوب بفعل مقدر، أي اذكر.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ الواو: واو الحال، والجملة بعدها في موضع نصب على الحال من (الطائفة) المرفوعة بـ ﴿قَالَت﴾. وقال بعضهم تمّ الكلام عند قوله: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ وليست الواو واو الحال.

و ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي ذات عورة، فحذف المضاف.

﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بمنزلة القسم، و﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾: جوابه.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: إما منصوب على الحال من واو ﴿يَأْتُونَ﴾ أو منصوب على الذم.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ من رؤية العين. و﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: إما حال من واو ﴿يَنظُرُونَ﴾ أو حال بعد حال. و﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ تقديره: تدور أعينهم دوراناً كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت، فحذف المصدر وهو «دوراناً» وما أضيفت الكاف إليه وهو دوران، وما أضيف «دوران» إليه وهو «عين» وأقيم «الذي» مقام «عين» وإنما وجب هذا التقدير ليستقيم معنى الكلام؛ لأن تشبيه الدوران بالذي يغشى عليه تشبيه العَرَض بالجسم، والأعراض لا تشبه بالأجسام، و﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي من حذر الموت.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾: ﴿أَشِحَّةً﴾ منصوب على الحال من واو، ﴿سَلَقُوكُم﴾ وهو عامله.

﴿بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ : الجار والمجرور إما مرفوع على أنه خبر بعد خبر، أي كائنون في جملة الأعراب، وإما منصوب على الحال من ضمير ﴿بَادُونَ﴾.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾: الجار والمجرور بدل من لكم أو في موضع رفع؛ لأنه صفة بعد صفة لـ ﴿أُسْوَةٌ﴾ أي أسوة حسنة كائنة لمن كان. ولا يتعلق بـ ﴿أُسْوَةٌ﴾ إذا جعل مصدراً بمعنى التأسي؛ لأنها وصفت والمصدر إذا وصف لم يعمل.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ أي ما زادتهم الرؤية إلا إيماناً، وإنما جعل الفعل ﴿زَادَهُمْ﴾ بالتذكير؛ لأن الرؤية بمعنى النظر.

﴿مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ : ﴿مَا﴾ هنا: مصدرية، في موضع نصب بـ ﴿صَدَقُواْ﴾ أي صدقوا الله في العهد، أي وفّوا به.

البلاغة:

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ و﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ مبالغة في التمثيل، صور القلوب في خفقانها واضطرابها، كأنها وصلت إلى الحلقوم.

﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ كناية عن الفرار من الزحف.

﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ استعارة مكنية، شبه اللسان بالسيف المصلت، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق أي الضرب، بطريق هذه الاستعارة، و﴿حِدَادٍ﴾ ترشيح.

﴿مَسْطُورًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿غُرُورًا﴾ ﴿فِرَارًا﴾ ﴿يَسِيرًا﴾ ﴿كَثِيرًا﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إطناب بتكرار اسم الله والرسول ﷺ للتعظيم والتشريف.

﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ استعارة، استعير النحب وهو النَّذْر للموت نهاية كل حي؛ كأنه نذر لازم في رقبة كل إنسان.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ اعتراض للدلالة على أن العذاب أو الرحمة بمشيئة الله تعالى.

المفردات اللغوية:

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب وهم قريش بقيادة أبي سفيان، وغَطَفان بقيادة عُيَيْنَة بن حصن، وبنو أسد بإمرة طُلَيْحة، وبنو عامر بزعامة عامر بن الطُّفَيْل، وبنو سُلَيم يقودهم أبو الأعور السُّلَمي، وبنو النَّضير من اليهود برئاسة حُيَيّ بن أخْطب وأبناء أبي الْحُقَيق، وبنو قُرَيظة من اليهود أيضاً وسيدهم كعب بن أسد، وقد نقض هؤلاء اليهود عهدهم مع النبي ﷺ وتواطؤوا مع قريش. وبلغ مجموع الأحزاب عشرة آلاف، أو زهاء اثني عشر ألفاً.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريح الصبا ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وعلى قراءة: (يعملون) تحزيب المشركين ومحاربتهم ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً مطلعاً تمام الاطلاع ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي، من جهة المشرق ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من جهة المغرب ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت عن مستوى نظرها، فلم تلتفت إلا إلى عدوها حيرة ودهشة ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ المراد أنها فزعت فزعاً

شديداً، والحناجر: جمع حَنْجرة: وهي منتهى الحلقوم وهو مدخل الطعام والشراب والتنفس، وتصوير ذلك: أن الرئة تنتفخ من شدة الرعب، فترتفع بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي تظنون مختلف الظنون من نصر ويأس، فالمؤمنون المخلصون خافوا الزلل وضعف الاحتمال، والمنافقون ومرضى القلوب كذبوا بوعد الله، وتشككوا فيه، وأعلنوا بطلانه.

﴿ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ اختُبروا وامتحنوا، فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ اضطربوا كثيراً من شدة الفزع وكثرة العدو ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد، وهم قوم كان المنافقون يستميلونهم بالإغراءات وزرع الشُّبَه في قلوبهم، لحداثة عهدهم بالإسلام ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بالنصر أو الظفر وإعلاء دينه ﴿إِلَّا غُرُورٗا﴾ إلا وعداً باطلاً لا حقيقة له، أو خِداعاً.

﴿طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي المنافقون ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ أهل المدينة ممنوع من الصرف للعلَمية ووزن الفعل ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ أي لا إقامة ولا مكانة لكم هاهنا ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ إلى منازلكم في المدينة هاربين، وذلك بعد أن خرجوا مع النبي ﷺ إلى «سَلْع» : جبل خارج المدينة للقتال ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ في الرجوع ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ قاصية غير حصينة، يخشى عليها الاقتحام من الأعداء ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾ بل هي حصينة ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ أي ما يريدون إلا هروباً من القتال مع المؤمنين.

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم﴾ المدينة ﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ نواحيها وجوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ طلب منهم الداخلون الشرك والردة، ومقاتلة المسلمين ﴿لَأٓتَوۡهَا﴾ لأعطوها وفعلوها، وقرئ: لأتوها أي لجاؤوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾ ما أخّروها، أو ما أخروا إعطاء الفتنة إلا لوقت يسير ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ المراد لا ينهزمون ولا يفرون من الزحف. والأدبار: جمع دُبُر وهو ما قابل

القُبُل، ويطلق على الظهر ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ عن الوفاء به، ومجازى عليه. وهم بنو حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ إذا فررتم لا تتمتعون في الدنيا بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعاً أو زماناً قليلاً ﴿يَعْصِمُكُم﴾ يمنعكم أو يجيركم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ هلاكاً وهزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فيه محذوف أي: أو يصيبكم بسوء إن أراد الله بكم خيراً، فقد يكون المصاب خيراً ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيًّا﴾ موالياً ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً يدفع الضر عنهم.

﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ المثبّطين منكم عن رسول الله ﷺ، وهم المنافقون ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ تعالوا، وأقبلوا إلينا، أو قرِّبوا أنفسكم إلينا ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يأتون الحرب والقتال إلا إتياناً أو زماناً قليلاً، رياءً وسمعة ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء عليكم بما ينفعكم بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله، جمع شحيح ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ حريصين على مال الغنائم، يطلبونها ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ تدير أعينهم أحداقهم ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كنظر أو دوران عين المغشي عليه من سكرات الموت خوفاً ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ زالت حالة الخوف وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ آذوكم بالكلام ورموكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي ألسنة ذَربة سليطة قاطعة كالحديد يطلبون الغنيمة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ حقيقة ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطل ثمرة أعمالهم﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك الإحباط هيناً سهلاً على إرادة الله، فإذا أراد شيئاً كان، ولم يمنعه عنه أحد .﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ من الكفار ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ إلى مكة، لخوفهم منهم، المعنى: يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا، ففروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرة أخرى ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يتمنوا ﴿بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ كائنون معهم في البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أخباركم مع الكفار، وما جرى عليكم ﴿وَلَوْ

﴿كَانُواْ فِيكُم﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي ما كان قتالهم إلا قتالاً ظاهرياً قليلاً، رياء وخوفاً من التعيير.

﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ قدوة صالحة، يتأسى به، كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي يرجو ثواب الله أو لقاءه، ونعيم الآخرة ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ قرن بالرجاء كثرة ذكر الله المؤدية إلى ملازمة الطاعة، فإن المؤتسي بالرسول ﷺ من كان كذلك، بخلاف غيره.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ من الكفار الذين تجمعوا لحرب النبي ﷺ والقضاء عليه ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الابتلاء والنصر، بقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤] وقوله ﷺ: «إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر» «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم». ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ في الوعد والابتلاء ﴿وَمَا زَادَهُمۡ﴾ ذلك الذي رأوه من الخطب أو البلاء ﴿إِلَّآ إِيمَٰنٗا﴾ تصديقاً بوعد الله ﴿وَتَسۡلِيمٗا﴾ لأمره ومقاديره.

﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين ﴿قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ مات أو قتل في سبيل الله شهيداً، ووفَّى نذره، كحَمْزة ومُصْعب بن عُمير وأنس بن النضر، والنحب: النذر، فجعل كناية عن الموت ﴿مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ الشهادة، كعثمان وطلحة ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ العهد ولا غيروه، بخلاف حال المنافقين ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تعليل للمنطوق وهم المؤمنون المخلصون، وللمعرَّض به وهم المنافقون، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء، كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى، لكن التوبة عليهم مشروطة بتوبتهم، والمراد به التوفيق للتوبة ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ لمن تاب.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ متغيظين ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ غير ظافرين ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إيجاد ما يريد ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كل شيء ﴿ظَاهَرُوهُم﴾ ظاهروا الأحزاب أي عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني من بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم، جمع صِيصَة وهي كل ما يتحصن به ﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى ﴿الرُّعْبَ﴾ الخوف الشديد ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ منهم وهم المقاتلة ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾ فريقاً منهم وهم الذراري: أي النساء والأطفال. ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ بعد، وهي خيبر، أخذت بعد قريظة.

سبب النزول:

نزول الآية (٩):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب، ونحن صافون قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخاف على ذرارينا، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة، ولا أشد ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أُذن له، فيتسللون، إذ استقبلنا النبي ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى علي، فقال: ائتني بخبر القوم، فجئت، فإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله، إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفُرُشهم، الريح تضربهم، وهم يقولون: الرحيل الرحيل، فجئت، فأخبرته خبر القوم، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ الآية.

نزول الآية (١٢):

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عمرو المزني قال: خطّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب، فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة، فأخذ رسول الله ﷺ المعول، فضربها ضربة، صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة[1]، فكبَّر، وكبَّر المسلمون، ثم ضربها الثانية، فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبَّر وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة، فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبَّر، وكبَّر المسلمون، فسئل عن ذلك، فقال: ضربت الأولى، فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم، ثم ضربت الثانية، فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة، فأضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فقال المنافقون: ألا تعجبون؟ ويحدّثكم، يُمنِّيكم ويَعدُكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق[2] لا تستطيعون أن تَبْرُزوا، فنزل القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

نزول الآية (٢٣):

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾: أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فكبُر عليه، فقال: أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غِبتُ عنه، لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أصنعُ، فشهد يوم أحد، فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون بين

(١) جانبي المدينة.

(٢) الفَرَق: الخوف.

ضربة وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بالتقوى بحيث لا يبقى في نفس المؤمن خوف من أحد، ذكر مثالاً واقعياً من وقعة الأحزاب، حيث تجمع المشركون من قريش ومن عاونوهم من اليهود والأحباش عشرة آلاف حول المدينة بقصد القضاء على النبي وصحبه، فدفع الله القوم عن المؤمنين من غير قتال وآمنهم من الخوف، مما يدل على أنه لا يخاف العبد غير ربه، فإنه سبحانه القادر على كل شيء، الكافُ أمره.

أضواء من السيرة على غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق:

في شوال من السنة الخامسة للهجرة اجتمع حول المدينة عشرة آلاف، أو اثنا عشر ألفاً، أو خمسة عشر ألفاً من الكفار الوثنيين وأهل الكتاب، للقضاء على النبي ﷺ، وكان المشركون من قريش والأحباش في أربعة آلاف بقيادة أبي سفيان، وبني أسد بقيادة طُلَيْحة، وغَطَفان في ستة آلاف بزعامة عيينة بن حصن، وبني عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وسُلَيم يقودهم أبو الأعور السُّلَمي، وكان يهود بني النضير برئاسة حُيَيّ بن أخْطَب وابني أبي الْحُقَيْق، ويهود بني قريظة وسيدهم كعب بن أسد الذي كان بينه وبين الرسول ﷺ عهد، فنبذه بسعي حيي بن أخطب.

وكان سبب الوقعة اليهود، فقد خرج نفر من بني النضير وبني قريظة، فقدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: إن دينكم خير من دينه، ثم جاؤوا غطَفان وقيساً وعَيْلان وبني مرة وأشجع، فدعوهم إلى الحرب في المدينة، فتوافق المعسكران: الوثني والكتابي على تكوين جيش موحد بقيادة أبي سفيان، فنزلوا أمام المدينة.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف، حتى نزلوا بظهر سَلْع.

ولما سمع الرسول ﷺ بمسير فئات الأحزاب، أمر بحفر خندق حول المدينة بمشورة سلمان الفارسي، وعمل في حفره الرسول ﷺ والمسلمون، في السهل الواقع شمال غرب المدينة، وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو، وأما الجوانب الأخرى فكانت محصنة بالجبال. وبلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة، وعرضه تسعة فأكثر.

فلما رأى المشركون وأحزابهم الخندق قالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، فوقعت مصادمات، وحاول بعض المشركين اقتحام الخندق، فرمي بالحجارة، واقتحمه بعضهم بفرسه فهلك أو قتل، منهم الفارس المشهور عمرو بن وُدّ العامري الذي تبارز مع علي رضي الله عنه، فقتله، وفرَّ صاحباه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب، ومن فوارسهم نوفل بن مغيرة. واستشهد سعد بن معاذ رضي الله عنه في غزوة بني قريظة.

ثم وقعت مكيدة محكمة بين الأحزاب، فبينما رسول الله ﷺ وأصحابه في خوف وشدة، إذ جاءه نُعيم بن مسعود الغَطَفاني، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدعَة».

فأتى بني قُرَيظة، وقال لهم: لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رُهُناً من أشرافهم يكونون بأيديكم تَقِيَّةً لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً؛ لأنهم رجعوا وسئموا حربه، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى قريشاً وغطفان، فقال لهم: إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رُهُناً يدفعونها لمحمد، فيضرب أعناقهم، ويتّحدون معه على قتالكم؛ لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا.

ولما أراد أبو سفيان وقادة غطفان خوض معركة حاسمة مع المسلمين، تباطأ اليهود، وطلبوا منهم رهائن من رجالهم، فامتنعوا وصدَّقوا حديث نعيم بن مسعود، وتحقق اليهود من صدق حديث نعيم أيضاً، فتخاذل اليهود والعرب، وتفرقت الكلمة.

ودبَّ الضعف في الأحزاب، وزاد من قلقهم واضطرابهم أن أرسل الله عليهم ريحاً شديدة البرد في ليلة شاتية، فأكفأت قدورهم، وطرحت آنيتهم.

فرجع أبو سفيان مع قريش إلى بلادهم، وتبعته غطفان، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان حتى يأتي بخبرهم، ومكث النبي ﷺ قائماً يصلي، ودعا لحذيفة بالسلامة والحفظ حتى يعود، كما دعا رافعاً يديه ويقول: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همِّي وغمي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي» فنزل جبريل وقال: إن الله قد سمع دعوتك، وكفاك هول عدوك، فخرَّ رسول الله ﷺ على ركبتيه، وبسط يديه، وأرخى عينيه، وهو يقول: شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي.

وصدق الله إذ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٩] ويقول: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٥].

وانتهت الحرب بين المسلمين والمشركين، قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم».

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة، وقتل من المشركين أربعة.

التفسير والبيان:

تضمنت الآيات في مجال التذكير بنعمة الله وإحسانه إلى عباده المؤمنين

بنصرهم في غزوة الخندق موضوعات خمسة: هي وصف الغزوة (الآيات: ٩-١١) وموقف المنافقين واليهود من المسلمين (الآيات: ١٢-٢١) وموقف المؤمنين في التضحية والفداء (الآيات: ٢٢-٢٤) ونصر المؤمنين وهزيمة الكافرين (الآية: ٢٥) وتأديب يهود بني قريظة (الآيتان: ٢٦-٢٧).

أولاً - وصف الغزوة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله اذكروا بالشكر والحمد نعم الله التي أنعم بها عليكم حين وقعتم في حصار جنود وحشود هائلة من قريش وغطفان واليهود الذين جاؤوا لإبادتكم واستئصال شوكتكم وإنهاء وجودكم، فبعثنا عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتية، وملائكة لم تروها زلزلتهم وألقت الرعب في قلوبهم، فأكفأت القدور، وقلبت البيوت والأواني، حتى بادر رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان، النجاءَ النجاءَ، وقال طُلَيْحة بن خُوَيْلد الأسدي: إن محمداً قد بدأكم بالسحر، فالنجاءَ النجاءَ، وقال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُراعُ (الخيول) والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحِلوا، فإني مرتحل. ثم قام إلى جَمَله، وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عِقاله إلا وهو قائم.

وكان الله مطلعاً عليماً على جميع أعمالكم من حفر الخندق ومقاساة الشدائد، والاستعداد للقتال، والتحرز من العدو، وهو يجازيكم عليها، ولا يبخس منها شيئاً.

ثم ذكَّرهم بإحكام حصار الأحزاب عليهم، فقال:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي واذكروا حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل الوادي من جهة المغرب، الأولون من قريش والأحباش وبني كنانة وأهل تِهامة، والآخرون من بني قريظة، كما ذكر حذيفة. وقيل: الأولون من أهل نجد وبني أسد وبني نصر، والآخرون: من قريش، وأما يهود بني قريظة فمن وجه الخندق.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي وإذ مالت الأبصار عن سَنَنها، فلم تلتفت إلى العدو لكثرته، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف والفزع، وتظنون مختلف الظنون، فمنكم مؤمن ثابت الإيمان لا يتزحزح عن موقفه، واثق بنصر الله وبوعده، ومنكم منافق مريض الاعتقاد، ظن أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وينتصر المشركون، ويسودون المدينة. قال الحسن البصري: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي حينئذ اختبر الله المؤمنين، فظهر المخلص من المنافق، وحركوا واضطربوا اضطراباً شديداً من الفزع وتهديد العدو، فمن ثبت منهم هم المؤمنون حقاً، ومن استبد القلق بهم هم المنافقون.

والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له، بل لحكمة أخرى، هي أن الله تعالى عالم بما هم عليه، لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الأنبياء والملائكة.

ثانياً - موقف اليهود والمنافقين من المسلمين:

ثم أعلن الله تعالى موقف المنافقين ومؤيديهم، فقال:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي واذكروا حين قال المنافقون الذين أسلموا في الظاهر ولم تؤمن

قلوبهم، وضعفاء العقيدة لحداثة عهدهم بالإسلام: ما وعدنا الله ورسوله من النصر على العدو إلا وعداً باطلاً لا وجود ولا حقيقة له. والقائل: جماعة من اليهود والمنافقين نحو من سبعين رجلاً، مثل مُعَتِّب بن قُشَيْر وطُعْمة بن أُبَيْرِق، فقال مُعَتب حين رأى الأحزاب: يَعِدُنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرَّز فَرَقاً (خوفاً) ما هذا إلا وعد غرور[١]. وأما مريض الاعتقاد فتحدث بما توسوس به نفسه لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ أي واذكروا أيضاً حين قالت طائفة من المنافقين، وهم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه، أو عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه: يا أهل المدينة، لا وجه لإقامتكم مع محمد وعسكره، ولا مسوغ لها مع هذه الحال من الذل والهوان، ولا قرار لكم هاهنا، ولا مكان تقيمون فيه، فارجعوا إلى بيوتكم ومنازلكم في المدينة، لتسلموا من القتل والفناء. ويثرب: اسم للبقعة التي هي المدينة أو طيبة أو طابة. والطائفة: تطلق على الواحد فأكثر.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وبسبب إشاعة الفتنة وبثّ روح الضعف عزم جماعة من المنافقين على الرجوع وهم بنو حارثة بن الحارث، وطلبوا الإذن من النبي ﷺ في العودة إلى بيوتهم وترك القتال قائلين: إن بيوتنا سائبة ضائعة ليست بحصينة، أي فيها خلل يخاف منه دخول العدو والسارق ليأخذ المتاع ويفزع النساء والأولاد، فكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي ليس فيها خلل أو ثغرة، بل هي حصينة وليست كما يزعمون، وإنما قصدهم الفرار بسبب الخوف، والهرب من الزحف مع جيش المؤمنين الصادقين.

ثم بيَّن الله تعالى مدى ضعف الإيمان ورقَّته في قلوبهم وأن ذلك الفرار ليس لحفظ البيوت، فقال:

(١) الكشاف: ٢/ ٥٣٣، البحر المحيط: ٧/ ٢١٧

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي ولو دخل الأعداء عليهم من كل جانب من جوانب المدينة، أو البيوت، ثم طلب منهم الردة والعودة صراحة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، لجاؤوها أو لأعطوها من أنفسهم ولفعلوا ذلك سريعاً، ولم يحافظوا على الإيمان ولم يستمسكوا به، وما مكثوا في استجابتهم وعطائهم ما طلب منهم إلا زمناً يسيراً من أدنى خوف وفزع، وهو مقدار ما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو ما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا.

وهذا دليل واضح على ضعف الإيمان في نفوسهم، فلا عجب إذا بادروا إلى التراجع والتسلل من المعركة. وهذه سمة المترددين الجبناء الذين اعتادوا على الهرب من مواقف الصمود ولقاء الشجعان، لذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ أي ولقد كان هؤلاء وهم بنو حارثة عاهدوا الله يوم أُحُد من قبل هذا الخوف ألا يولوا الأدبار، ولا يفرون من الزحف، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا لمثل ذلك. ثم هددهم تعالى وأوعدهم بقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي إن الله سيسألهم عن ذلك العهد والوفاء به يوم القيامة، ويجازيهم على نقضه وخيانة رسول الله ﷺ، وذلك أمر لا بُدّ منه. وقوله: ﴿مَسْئُولًا﴾ معناه: مطلوباً مقتضى حتى يوفى به.

ثم بيَّن الله تعالى لهم عدم جدوى فعلهم، ووبخهم، فقال:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي أخبرهم أيها الرسول أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطوّل أعمارهم، فلن ينفعهم الهرب من لقاء الموت أو القتل في ميدان المعركة، فإن المقدّر كائن لا محالة، وربما كان فرارهم سبباً في تعجيل أخذهم غِرَّة، وإذا ظلوا أحياء ونفعهم الفرار ونجوا من الموت كما يظنون، لم يكن

تمتعهم بالتأخير بمتع الدنيا بعد هربهم وفرارهم إلا تمتيعاً قليلاً أو زماناً يسيراً: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٤/ ٧٧]. قال الربيع ابن خيثمة: وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار؛ لأن مجيء الأجل لا بدّ منه.

ثم أبان الله تعالى ما تقدم معرِّفاً لهم قدرته الكاملة عليهم، فقال:

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي وقل لهم أيضاً أيها الرسول: لا أحد يستطيع أن يمنعكم من مراد الله بكم، أو دفع السوء عنكم إذا قدره الله عليكم، أو تحقيق النفع والخير إذا أراده لكم. وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ معناه: أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام. وقوله: ﴿سُوٓءًا﴾ أي هلاكاً، وقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ أي خيراً ونصراً وعافية.

وأكد هذا بقوله:

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ولا يجد هؤلاء المنافقون ومؤيدوهم من ضعفاء العقيدة ولا غيرهم مجيراً ولا مغيثاً ولا نصيراً ينصرهم أو يشفع لهم.

ثم حذرهم بدوام علمه بالخائنين، فقال:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ قد: هنا للتحقيق وليس للتقليل، والمعنى: إن الله ليعلم علماً محيطاً شاملاً الذين يثبطون المسلمين عن شهود الحرب، تخذيلاً ونفاقاً، ويعلم القائلين لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة: تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وقرِّبوا أنفسكم إلينا، واتركوا محمداً والحرب معه. وهلمَّ: لغة أهل الحجاز، يسوّون فيه بين الواحد والجماعة، وأما تميم فيقولون: هلم يا رجل،

وهلموا يا رجال، وهلمن يا نساء. والذي عليه النحويون أن هلم ليس صوتاً، وإنما هو مركب مختلف في أصل تركيبه، فقيل: هو مركب من ها التي للتنبيه ولم، وهو مذهب البصريين، وقيل: من هل وأم، وهو متعد ولازم، فالمتعدي كقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٠] أي أحضروا شهداءكم، واللازم كقوله: هلم إلينا، وأقبلوا إلينا، وقوله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ إما المنافقون قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس[1]، وهو هالك ومن معه، فهلم إلينا، وإما يهود بني قريظة قالوا لإخوانهم من المنافقين: تعالوا إلينا وفارقوا محمداً، فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يُبق منكم أحداً. وإما رجل من أصحاب النبي ﷺ قال لشقيقه في قلب المعركة: هلم إلي، قد تُبع بك وبصاحبك، أي قد أحيط بك وبصاحبك.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولا يأتي المنافقون القتال إلا زمناً قليلاً أو شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه، خوفاً من الموت، كقوله تعالى: ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٠].

ثم ذكر الله تعالى صفات أخرى لهم، فقال:

١ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ هذه صفة البخل، أي بخلاء بأنفسهم وأحوالهم وأموالهم، فلا يعاونونكم في الحرب بنفس ولا بمال ولا بمودة وشفقة، وكذا عند قسمة الغنيمة. وأشحة: جمع شحيح على غير القياس، والقياس: أشحاء، مثل خليل وأخلاء. والصواب: أن يعمَّ شحهم كل مافيه منفعة المؤمنين.

٢ - ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل.

﴿ٱلْمَوْتِۖ﴾ وهذه صفة الجبن والخوف، والبخل شبيه الجبن، فلما ذكر البخل بيَّن سببه وهو الجبن، والمعنى: فإذا بدأ حدوث الخوف ببدء المعركة والقتال، رأيتهم ينظرون إليك أيها النبي في تلك الحالة، كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً وضعفاً، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال.

٣ - ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وهذه صفة سلاطة اللسان والإيذاء بالكلام والتفاخر الكاذب، والمعنى: فإذا تحقق الأمن غلبوكم باللسان وآذوكم بالكلام، وتفاخروا بأنهم أهل النجدة والشجاعة، وهم في ذلك كاذبون.

وسبب هذه الصفة، كما قال تعالى:

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ﴾ أي وهم مع ذلك ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم قليلو الخير في الحالتين، كثيرو الشر في الوقتين، يبخلون أولاً وآخراً، أي أنهم حين البأس جبناء، وحين الغنيمة بخلاء، قال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة، يقولون: أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق.

ثم ذكر الله تعالى سبب مرضهم وجميع صفاتهم وهو ضعف الثقة بالله، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي إن أولئك المنافقين هم في الواقع غير مصدقين بالله ورسوله، ولم يؤمنوا حقيقة، وإن أظهروا الإيمان لفظاً، فأبطل الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين، وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً عند الله، بمقتضى عدله وحكمته.

وتساءل الزمخشري بقوله: هل يثبت للمنافق عمل، حتى يرد عليه

الإحباط؟ فأجاب: لا، ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان، وإن لم يواطئه القلب، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجزى عليه، فبين أن إيمانه ليس بإيمان، وأن كل عمل يوجد منه باطل[١].

ثم ذكر الله تعالى أن صفاتهم القبيحة في الجبن والبخل والخوف ملازمة لهم على الدوام، وليست مجرد أمر عارض مؤقت، فقال:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ۖ﴾ أي يظنون من شدة الخوف والفزع أن أحزاب الكفر من قريش وغطفان وبني قريظة لم يرحلوا ولم ينهزموا، وأن لهم عودة إلى الحصار والحرب؛ فكأنهم عند حضورهم غائبون عن الساحة حيث لا يقاتلون، مع أن الأحزاب رحلوا وانهزموا ولن يعودوا.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ﴾ أي وإن يعُد الأحزاب إلى قتالكم، يتمنوا أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة وبين المقاتلين بل يكونون في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم للشماتة بكم، وانتظار وقوع السوء بكم، وجبناً وخوراً في العزائم.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو كان هؤلاء المنافقون معكم في ساحة المعركة لما قاتلوا إلا قتالاً يسيراً وزمناً قليلاً، لاستيلاء الجبن والضعف عليهم.

ثم لفت نظرهم ونظر غيرهم إلى ضرورة التأسي بالقائد رسول الله ﷺ، فقال:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٣٤

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب وغيره في أقواله وأفعاله وأحواله، وصبره ومصابرته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل، والمعنى: لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة صالحة ومثل أعلى يحتذى به، فهلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ، فهو مثل أعلى في الشجاعة والإقدام والصبر والمجالدة، إذا كنتم تريدون ثواب الله وفضله، وتخشون الله وحسابه، وتذكرونه ذكراً كثيراً في الليل والنهار، حباً به وتعظيماً له، وخوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه وجزائه، فإن ذِكْره دافع إلى طاعته، والتأسي برسوله.

وهذا عتاب للمتخلفين، وإرشاد للناس جميعاً أن يتأسوا برسول الله ﷺ في السراء والضراء وحين البأس ولقاء الشجعان ونزال الأبطال.

ثالثاً - موقف المؤمنين:

ثم بعد بيان حال المنافقين أبان الله تعالى حال المؤمنين عند لقاء الأعداء، فقال:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي ولما شاهد المؤمنون المصدقون بوعود الله لهم، المخلصون في القول والعمل الأحزاب المتجمعة حول المدينة قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار بمجابهة الأعداء ثم النصر القريب، وصدق الله ورسوله الوعد بالنصر، وما زادهم تجمع الأعداء وتلك الحال من الشدة والضيق إلا إيماناً بالله، وتصديقاً لرسوله ﷺ، وتسليماً لقضائه وقدره وانقياداً لأوامره وطاعة رسوله ﷺ، واعتقاداً جازماً أن النصر من عند الله تعالى بعد أن يتخذ العباد الأسباب، ويستعدوا للحرب، ويقاتلوا فعلاً؛ لأن الجهاد تكليف من الله لعباده، وتعطيل التكليف معصية، ومجرد الاعتماد على قدرة الله وإمداده بالعون والنصر دون عمل من عباده: سوء فهم وجهل وتمنيات شيطانية خادعة.

والتحذير من هذه المفاهيم المخطئة متكرر في القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤] وقال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢].

وعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً» أي في آخر تسع ليال أو عشر. وقال ﷺ أيضاً: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم».

وفي الآية دلالة على وجوب الثقة بوعد الله ورسوله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص.

وبعد بيان حال المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف الله تعالى المؤمنين الذين استمروا على العهد والميثاق، فوفوا بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت، فقال:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي وهناك في مقابلة المنافقين جماعة من المؤمنين المخلصين الصادقين، صدقوا العهد مع الله، ووفوا بما عاهدوا عليه من الصبر في حال الشدة والبأس، فمنهم من انتهى أجله واستشهد كيوم بدر وأحد، ومنهم من ينتظر قضاء الله والشهادة وفاء بالعهد، وما بدلوا عهدهم وما غيّروه، بخلاف المنافقين الذين قالوا: لا نولي الأدبار، فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم. وقوله: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ معناه قاتل فوفى بنذره، والنحب: النذر.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾

وروى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال: «غاب عمي أنس ابن النضر عن بدر، فشقّ عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليَرَيَنَّ الله عز وجل ما أصنع، قال أنس: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو، أين؟ واهاً لريح الجنة، إني لأجده دون أحد، فقاتلهم حتى قُتل رضي الله عنه. فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فنزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية.

وذكر في الكشاف: نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لَقُوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا، وهم عثمان بن عفان، وطلحة بن عُبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وحمزة، ومُصْعَب بن عمير وغيرهم رضي الله عنهم.

ثم ذكر تعالى علة ابتلاء المؤمنين وغيرهم وإيلامهم في الحرب، فقال:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي إنما يختبر الله عباده بالخوف ولقاء الأعداء ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر كل واحد منهما بالفعل، ويكافئ الصادقين في إيمانهم بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه، وصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا وعودهم، ويعذب المنافقين الذين كذبوا ونقضوا العهد وأخلفوا أوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه.

والكل تحت مشيئة الله في الدنيا، إن شاء بقوا على ما هم عليه حتى يلقوه، فيعذبهم، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى الإقلاع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، أي إن الهداية إلى الإيمان والتوبة بمراد الله ومشيئته.

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ حيث ستر ذنوبهم، ورحمهم ورزقهم الإيمان ووفقهم إلى التوبة، ولا يعاقبهم على ما مضى بعد التوبة. وهذا حثّ على التوبة والإيمان قبل فوات الأوان.

ونظير الآية كثير، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١] وقوله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٩].

رابعاً - نهاية المعركة أو الإجلاء:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ أي إن الله تعالى أجلى الأحزاب عن المدينة، وردهم خائبين خاسرين مع غيظهم، لم يشفوا صدراً، ولم يحققوا أمراً، ولم ينالوا أي خير من غنيمة أو أسر أو نصر حاسم، بما أرسل عليهم من الريح الباردة والجنود الإلهية، فتفرقت جموعهم، وتشتت شملهم، ولم يحققوا خيراً لأنفسهم، لا في الدنيا من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة من الآثام في إعلان عداوتهم للرسول ﷺ ومبارزته، وهمهم بقتله، واستئصال زمرته وجيشه، ومن همَّ بشيء، وبدأ بتنفيذ همه بالفعل، فهو في الحقيقة كالفاعل.

وكفى الله المؤمنين القتال، أي لم يحوجهم إلى قتال ومبارزة حتى يُجْلوا الأعداء عن بلادهم، بل كفى الله وحده شرهم، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، ولهذا كان رسول الله ﷺ - فيما أخرجه الشيخان - يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: «دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: اللهم مُنزِّلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب؛ اللهم اهزمهم وزلزلهم».

وقال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» فلم تغز قريش بعد ذلك، بل غزاهم رسول الله ﷺ بعد ذلك، حتى فتح الله تعالى مكة.

وكان الله قوياً عزيزاً، أي غير محتاج إلى قتالهم، قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم، ردّهم بحوله وقوته خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله.

خامساً - حصار بني قريظة:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي وأنزل الله يهود بني قريظة الذين هم من أهل الكتاب والذين عاونوا الأحزاب من حصونهم وقلاعهم.

وذلك لأنهم بمسعى حُيَي بن أخطب النضيري نقضوا عهدهم الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ إذ لم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئتك بعزّ الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، ويحك يا حُيَي، إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل يفتل له في الذروة والغارب (أي يخادعه) حتى أجابه، واشترط له حُيي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن، فيكون أُسوتهم.

فلما أيد الله تعالى رسوله والمسلمين، وكبت أعداءهم، وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجعوا إلى المدينة، أرسل الله جبريل عليه السلام، فأوحى إلى رسول الله ﷺ قائلاً: «إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة» فنهض رسول الله ﷺ من فَوْره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ فيما رواه الشيخان: «لا يصلِيَنَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يعنِّف واحداً من الفريقين.

وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أمِّ مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه، ثم نازلهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية.

فلما جاء سعد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حُكمك، فاحكم فيهم بما شئت».

فقال رضي الله عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: «نعم» قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم» قال: وعلى من هاهنا؟ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم».

فقال رضي الله عنه: إني أحكم أن تقتل مقاتلتُهم، وتُسبى ذراريهم

وأموالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة» أي سبع سماوات. أو «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسوله».

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد، فخُدَّتْ في الأرض، وجيء بهم مكتَّفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين سبع المئة إلى ثماني المئة، وسَبَى من لم يُنْبِتْ منهم مع النساء، وأموالهم، لذا قال تعالى:

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ أي وألقى في نفوسهم الخوف الشديد، لممالأتهم المشركين على حرب النبي ﷺ، وإخافتهم المسلمين، وقصدهم قتلهم، فانعكس الحال عليهم، وأسلموا أنفسهم للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي، فريقاً تقتلون، وهم الرجال المقاتلة، وتأسرون فريقاً، وهم النساء والصبيان.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ أي جعل الله لكم أراضيهم المزروعة ومنازلهم المعمورة وأموالهم المدخرة، وأرضاً أخرى لم تطأها أقدامكم بعد وهي التي ستفتح في المستقبل، بعد بني قريظة، مثل خيبر ومكة وبلاد فارس والروم.

وكان الله صاحب القدرة المطلقة على كل شيء، فهو كما ورَّثكم أرض بني قريظة، ونصركم عليهم، قادر على أن يورثكم غير ذلك، وينصركم على أقوام آخرين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت هذه الآيات إلى الأحكام والمبادئ التالية:

أ - إن النصر الحاسم للمسلمين على المشركين في غزوة الخندق والأحزاب، وعلى يهود بني قريظة ناقضي العهد نعمة عظمى تستوجب الشكر

والحمد لله تعالى؛ لأنه نصر دبَّره الله عز وجل بإرسال الريح والملائكة، وقد صدقت فيه عزيمة المؤمنين على خوض المعركة، والدفاع عن مدينتهم عاصمة الإسلام.

٢ً - إن السلطان يشاور أصحابه وخاصته في أمر القتال؛ لأنه لما سمع رسول الله ﷺ باجتماع الأحزاب وخروجهم إلى المدينة، شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، فرضي رأيه، وقال المهاجرون يومئذ: سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا آل البيت». وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حرّ، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين.

وفي هذا الخبر أيضاً وجوب التحصن من العدوّ بما أمكن من الأسباب، وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوماً على الناس؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ، فالمسلمون يد على من سواهم. أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازِب قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عنّي الغبارُ جِلْد بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجِز بكلمات ابن رَواحة ويقول:

اللهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صَلّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثَبِّت الأقدام إن لاقينا

٣ً - دلت أخبار السيرة السالفة الذكر ورواية النسائي عن البراء وغيره أن رسول الله ﷺ ضرب صخرة أثناء حفر الخندق ضربات ثلاثاً، أضاءت له الضربة الأولى مدائن كسرى وما حولها، وأنارت له الثانية مدائن قيصر وما حولها، وأبدت له الثالثة مدائن الحبشة وما حولها، ورأى سلمان بعينه ذلك، وتلك معجزة لرسول الله ﷺ بشَّر بها بفتح هذه البلاد، وقال عند ذلك فيما رواه مالك: «دَعُوا الحبشة ما وَدَعوكم، واتركوا التُّرْك ما تركوكم».

٤ً - أعلن بنو قريظة بتواطئهم مع الأحزاب من قريش وغطفان نقضهم العهد مع الرسول ﷺ، فقال لهم الرسول: «نقضتم العهد يا إخوة القرود، أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته» وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى أموالهم وذراريهم. وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة من الهجرة.

٥ً - كان تجمع الأحزاب على المدينة وحصارها مثار قلق واضطراب، ومبعث بلاء وشدة خوف، فانتابتهم الظنون، وأظهر المنافقون كثيراً مما يسرّون، فمنهم من قال: إن بيوتنا عورة، فلننصرف إليها، فإنا نخاف عليها، وممن قال ذلك: أوْس بن قَيْظي. ومنهم من قال: يَعِدُنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقَيْصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك: مُعَتِّب بن قُشير أحد بني عمرو بن عوف.

فأقام المشركون في حصارهم المدينة بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، لم يكن بينهم وبين المسلمين إلا الرمي بالنَّبْل والحصى، فلما رأى رسول الله ﷺ أنه اشتد على المسلمين البلاء، بعث إلى عُيَيْنة بن حِصْن الفَزاري، وإلى الحارث ابن عمرو المرِّي، وهما قائدا غَطَفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطفان، ويخذلا قريشاً ويرجعا بقومهما عنهم. وكان ذلك مراوضة ولم تكن عقداً. فلما وافقا استشار النبي ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمِعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شِراء أو قِرىً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم!! فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك، وقال: «أنتم وذاك».

وقال لعيينة والحارث: «انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف». وتناول سعد الصحيفة، وليس فيها شهادة، فمحاها.

٦ - اختراق الخندق: اخترق فوارس من قريش الخندق، منهم عمرو بن وُدّ العامري من بني عامر بن لُؤَي، وعِكْرمة بن أبي جهل، وهُبَيرة بن أبي وهب، وضِرار بن الخطاب الفهريّ، حتى صاروا بين الخندق وبين سَلْع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثُّغرة التي اقتحموا منها، وأقبلت الفرسان نحوهم، فنادى عمرو: من يبارز؟ فبرز له علي ابن أبي طالب وقال له: يا عمرو، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدْعى إلى إحدى خَلّتين إلا أخذت إحداهما؟ قال: نعم. قال: فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فأدعوك إلى البِراز. قال: يا ابن أخي، والله، ما أحبّ أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فقال له علي: أنا والله أحبّ أن أقتلك، فحمِي عمرو ونزل عن فرسه، فعقره، وسار نحو علي، فتنازلا وتجاولا، حتى رُئي علي على صدر عمرو يقطع رأسه، فلما رأى أصحابُه أنه قد قتله علي، اقتحموا بخيلهم الثُّغْرة منهزمين هاربين.

ورُمي يومئذ سعد بن معاذ، فقُطع منه الأكْحَل[1]، ومات شهيداً في غزوة بني قريظة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «اهتزَّ لموته عرش الرحمن» يعني سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم روحه، واهتزوا له.

٧ - مشروعية الخدعة في الحرب، لما فعل نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي الذي استطاع بدهائه وحيلته بذر بذور الفرقة بين العرب وبين اليهود، ونجح في خدعته، كما تقدم بيانه.

٨ - الاجتهاد جائز، سواء أصاب المجتهد أو أخطأ، فقد أقرّ النبي ﷺ كلاً

(١) الأكحل: عرق في وسط الذراع.

من الفريقين: الذي صلى العصر في الطريق إلى بني قريظة، والذي أخّر الصلاة حتى فات وقتها، عملاً بقول النبي ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قُريظة» فتخوف ناس فوت الوقت، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلّي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ، وإن فاتنا الوقت، فما عنف واحداً من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين.

٩ - قسم ﷺ أموال بني قريظة، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهماً، قيل: وهي أول غنيمة قُسّم فيها للفارس والراجل، وأول غنيمة جعل فيها الْخُمس. وفي قول آخر: إن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جَحْش. ووفّق ابن عبد البر بين القولين: أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٨/٤١]. وكان عبد الله بن جحش قد خَمَّس قبل ذلك في بعثه، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله، وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

١٠- أرسل الله على الأحزاب ريح الصَّبا يوم الخندق، حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم، وأنزل الملائكة لتفريق الجموع، ولم تقاتل يومئذ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والشيخان: «نصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور». وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ، وكان المسلمون قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم بها.

قال المفسرون: بعث الله تعالى الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرُّعْب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر؛ حتى كان سيّد كل خباء يقول: يا بني فلان هلُمّ إلي، فإذا اجتمعوا قال لهم: النَّجاءَ النَّجاءَ، لما بعث الله تعالى عليهم من الرُّعب.

١١ً - لن يمنع حذر من قدر، فمن حضر أجلُه، مات أو قتل، ولا ينفعه الفرار، ويكون تمتعه في الدنيا بعد الفرار إلى انقضاء الأجل زمناً قليلاً، وكل ما هو آتٍ فهو قريب.

١٢ً - للمنافقين خصال اجتماعية وشخصية قبيحة ومذمومة، فهم بخلاء على المسلمين فيما يحقق المصلحة العامة، بخلاء بأنفسهم وأحوالهم وأموالهم، جبناء يخافون من لقاء الشجعان، سليطو اللسان يؤذون غيرهم بالكلام يتفاخرون بما هو كذب وزور، والحقيقة أنهم كفرة، لم يؤمنوا بقلوبهم، وإن كان ظاهرهم الإسلام، لوصف الله عز وجل لهم بالكفر في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ وهم كغيرهم من الكفار حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فلا ثواب لهم؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها، وإحباط أعمالهم على الله هيِّن يسير.

ولجبنهم يظنون الأحزاب لم ينصرفوا، وكانوا قد انصرفوا، وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال، يتمنوا أن يكونوا مع أعراب البادية، حذراً من القتل. وانتظاراً لإحاطة السوء والهلاك بالمسلمين، يتساءلون ويتحدثون: أما هلك محمد وأصحابه! أما غلب أبو سفيان وأحزابه!

ولو كانوا في ميدان المعركة ما قاتلوا إلا رياء وسمعة.

١٣ً - قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية عتاب للمتخلفين عن القتال، معناه: كان لكم قدوة في النبي ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق، والتأسي لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم الآخر، ويرجو لقاء الله بإيمانه، ويصدّق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال، ويذكر الله ذكراً كثيراً، خوفاً من عقابه، ورجاء لثوابه.

وهل التأسي بالرسول ﷺ على سبيل الإيجاب أو الاستحباب! قولان:

أحدهما - على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

الثاني - على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

قال القرطبي: ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

١٤ً - موقف المؤمنين نقيض موقف المنافقين، فهم مصدقون واثقون بوعد الله ورسوله ﷺ، ولم تزدهم المحنة والابتلاء والنظر إلى الأحزاب إلا إيماناً بالله وتسليماً للقضاء.

١٥ً - التجسس على الأعداء أمر جائز شرعاً، فقد أمر النبي ﷺ حذيفة بن اليمان بأن يتعرف أخبار الأحزاب وانصرافهم عن المدينة، قائلاً له: «انطلق حتى تدخل في القوم، فتسمع كلامهم، وتأتيني بخبرهم، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تردّه إلي، انطلق ولا تحدث شيئاً حتى تأتيني».

والدعاء لله تعالى مطلوب في أي وقت ولأي حاجة، وبخاصة وقت الشدة، فقد انطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همِّي وغمِّي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي».

فنزل جبريل وقال: «إن الله قد سمع دعوتك، وكفاك هول عدوك» فخرَّ رسول الله ﷺ على ركبتيه، وبسط يديه، وأرخى عينيه، وهو يقول: «شكراً شكراً كما رحمتني، ورحِمْت أصحابي». وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً؛ فبشر أصحابه بذلك.

١٦ً - تتلاحق مواكب الشهداء وتتوالى على درب الجهاد في سبيل الله، فمنهم من يستشهد في معركة، ومنهم من ينتظر أجله في معركة أخرى، وهذا أمارة الخير، ودليل على استدامة الكفاح والإخلاص جيلاً بعد جيل.

١٧ً - أمر الله بالجهاد ليجزي الصادقين في الآخرة بصدقهم، ويعذب في الآخرة المنافقين، وذلك بمشيئة الله، فإن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت.

١٨ً - كانت الهزيمة الساحقة في غزوة الخندق لجيوش الأحزاب، إذ ردَّ الله أولئك الكفار إلى ديارهم، فرجع أبو سفيان إلى تِهامة، ورجع عُيَيْنة بن بدر إلى نجد، ونصر الله جيش الإيمان بغير قتال كبير، بأن أرسل على الأحزاب ريحاً وجنوداً، حتى رجعوا، ورجعت بنو قريظة إلى حصونهم أو قلاعهم، فكفى أمر قريظة بالرعب، وكان الله قوياً أمره، عزيزاً لا يُغْلَب.

١٩ً - وهزم بنو قريظة هزيمة نكراء بعد أن عاونوا الأحزاب: قريشاً وغَطَفان، وأنزلوا من حصونهم، وشاع الذعر والهلع في صفوفهم، وكان مصيرهم قتل رجالهم، وأسر نسائهم وأطفالهم، وتوريث المسلمين أراضيهم وبساتينهم ومنازلهم وأموالهم المدخرة.

وبشر الله المؤمنين بأنهم سيرثون بلاد فارس والروم، وكل أرض تفتح إلى يوم القيامة، والله على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير، وعلى ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير، لا ترد قدرته، ولا يجوز عليه العجز بحال.

تخيير زوجات النبي ﷺ بين الدنيا والآخرة ومقدار ثوابهن وعقابهن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (مَبيَّنَة).

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾: قرئ:

١- (نُضَعِّفْ لها العذابَ) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر.

٢- (يُضَعَّفْ لها العذابُ) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (يضاعف لها العذابُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصله من العلو، إلا أنه كثر استعماله في معنى «انزل» فيقال للمتعالي: تعال، أي انزل.

البلاغة:

﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة أي الطباق بين جملتين.

المفردات اللغوية:

﴿لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ هن تسع، وطلبن منه من زينة الدنيا ما ليس عنده. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ السعة والتنعم فيها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارفها. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطيكن المتعة وهي متعة الطلاق وهي مال يعطى للمطلقة. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أطلقكن من غير ضرار وبدعة، والتسريح: الطلاق، روي أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة، فنزلت، فبدأ بعائشة، فخيرها، فاختارت الله ورسوله ﷺ، ثم اختارت الباقيات اختيارها، فشكر لهن الله ذلك، فأنزل ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٢].

وتعليق التسريح بإرادتهن الدنيا يدل على أن المخيّرة إذا اختارت زوجها لم تطلق، خلافاً لرواية عن علي، ويؤيده قول عائشة: «خيرنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعدّ طلاقاً» فإذا اختارت نفسها فإنه طلقة رجعية عند الشافعية، وبائنة عند الحنفية. وتقديم التمتيع على التسريح: من الكرم وحسن الخلق.

﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ الجنة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بالدار الآخرة. ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنة، يُستحقر دونه الدنيا، ومن في قوله ﴿مِنكُنَّ﴾ للتبيين؛ لأنهن كلهن كن محسنات.

﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ كبيرة ظاهرة القبح كالنشوز. ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي مثلي عذاب غيرهن؛ لأن الذنب منهن أقبح، كما أن ثوابهن مرتان، كما قال تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣١]. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي ﷺ.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٨):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾: روى أحمد ومسلم والنسائي عن جابر رضي الله عنه قال: «أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يؤذن له، ثم أذن لهما، فدخلا، والنبي ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأُكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفاً، فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقول: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، وأنزل الله الخيار، فبدأ بعائشة، فقال: إني ذاكر لك أمراً ما أحبّ أن تعجلي فيه، حتى تستأمري أبويك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية. قالت: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله ﷺ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ، فقال ﷺ: إن الله تعالى لم يبعثني مُعَنِّفاً، ولكن بعثني مُعَلِّماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها».

المناسبة:

لما نصر الله نبيه، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله، وقلن: «يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحُلَل، والإماء والخَوَل (الخدم) ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق».

وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن.

وأزواج النبي ﷺ إذ ذاك تسع: هن خمسة من قريش وهن عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حَبِيبة بنت أبي سفيان، وسَوْدَة بنت زَمْعة، وأم سَلَمَة بنت أبي أمية، وأربعة من غير قريش: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجُوَيْرية بنت الحارث الْمُصْطَلِقيَّة، وصَفِيّة بنت حُيَيّ بن أخْطَب الخيبرية. فلما خيرهن رسول الله اخترن كلهن الله ورسوله ﷺ. هذا وجه تعلق الآيات بما قبلها. أما مناسبة هذه الآيات للسورة فهي أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله فيما رواه البزار عن أبي رافع: «الصلاةَ وما ملكت أيمانكم». فلما أرشد الله سبحانه نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/١] ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة، وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولهذا قدمهن بالنفقة.

التفسير والبيان:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بتخيير نسائه بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة، والمعنى: يا أيها الرسول قل لأزواجك: اخترن لأنفسكن إحدى حالين: إما المفارقة إن أحببتن وكان عظيم همكن التعمق في لذات الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها ونعيمها، وحينئذ أعطيكن متعة الطلاق المستحقة وهي مال يهدى للزوجة المطلقة تطييباً لخاطرها، وأطلقكن طلاقاً لا ضرر فيه ولا بدعة، وإما الصبر على ما عندي من ضيق الحال، وهو المذكور في الآية التالية.

أما متعة الطلاق: فهي كسوة أو هدية أو مال بحسب حال الزوج يساراً وإعساراً، كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٦] وأما الطلاق الذي

لا ضرر فيه ولا بدعة: فهو ما يكون في حال الطهر مع استقبال العدة أي الابتداء بها، لا في الحيض؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ أي وإن أردتن رضا الله ورسوله وثواب الآخرة وهو الجنة، فإن الله أعدَّ للمحسنة منكن ثواباً عظيماً، تُستحقر زينة الدنيا دونه. وهذا دليل على أن من أراد الله ورسوله والدار الآخرة كان محسناً صالحاً. وقوله: ﴿تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فيه معنى الإيمان.

ولما خيرهن رسول الله ﷺ بين الدنيا والآخرة، اخترن جميعاً الآخرة، فسُرَّ بذلك، وشكرهن الله على حسن اختيارهن، وكرَّمهن، فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٢] ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٣].

وزوجات النبي ﷺ اثنتا عشرة، وهن أمهات المؤمنين، ولم يتزوج إلا بكراً واحدة هي السيدة عائشة، وكان زواجه بالأخريات تأليفاً للقلوب، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية، وبناء الدولة، ووحدة الكلمة، وهن[1]:

١ً - خديجة بنت خُوَيلد: أول زوجاته، تزوجها بمكة، وعاشت مع النبي ﷺ بعد النبوة سبع سنين، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، وسِنُّه ٥٤ عاماً، وهي أول من آمن من النساء. وجميع أولاده منها غير إبراهيم.

٢ً - سَوْدة بنت زَمْعة بنت عبد شمس العامرية، دخل بها بمكة، وتوفيت بالمدينة.

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٦٤ وما بعدها.

٣ً - عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق، العالمة الفقيهة راوية الحديث الكثير عن النبي ﷺ، بنى بها بالمدينة وهي بنت تسع، وبقيت عنده تسع سنين، ومات رسول الله ﷺ وهي بنت ثماني عشرة، ولم يتزوج بكراً غيرها.

٤ً - حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية، تزوجها رسول الله ﷺ، ثم طَلَّقها، فقال له جبريل: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صَوَّامة قَوَّامة» فراجعها.

٥ً - أم سَلَمة: تزوجها رسول الله ﷺ من ابنها سلمة على الصحيح، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية.

٦ً - أم حبيبة، رَمْلة بنت أبي سفيان، تزوجها رسول الله ﷺ سنة سبع من الهجرة ودخل بها بعد الهجرة بسبع سنين وكان وكيله في زواجها عمرو بن أمية الضَّمْري، وقد أصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار، لما مات زوجها.

٧ً - زينب بنت جحش: تزوجها بأمر الله بعد طلاقها من زوجها أسامة بن زيد، لإبطال التبني وآثاره. وكان اسمها بُرَّة، فسماها رسول الله ﷺ زينب.

٨ً - زينب بنت خُزَيمة بن الحارث: تزوجها النبي ﷺ، ثم ماتت بعد ثمانية أشهر، كانت تسمى في الجاهلية أمّ المساكين؛ لإطعامها إياهم.

٩ً - صفية بنت حُيَيّ بن أخطب الهارونية: تزوجها النبي ﷺبعد أن أعتقها، وكانت من سبايا خيبر، اشتراها الرسول ﷺ من دِحْية الكلبي بسبعة أرؤس.

١٠ً - رَيحانة بنت زيد: تزوجها الرسول ﷺ سنة ست، وماتت إثر حجة الوداع، وكان زوجها قد قتل في الحرب، فتزوجها إكراماً له ولأولاده.

١١ - جُويرية بنت الحارث بنت أبي ضرار المُصْطَلِقيَّة الخزاعية: من سبايا بني المصطلق، تزوجها في شعبان سنة ست، وكان اسمها بَرّة، فسماها رسول الله ﷺ جُويرية.

١٢- ميمونة بنت الحارث الهلالية آخر امرأة تزوجها.

هؤلاء المشهورات من أزواج النبي ﷺ، وهن اللاتي دخل بهن، رضي الله عنهن.

وله نساء تزوجهن ولم يدخل بهن، منهن الكلابية واسمها فاطمة أو عَمْرة وهي المستعيذة، وأسماء بنت النعمان بن الجَوْن، وقُتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس، وعددهن عشر، وكان له من السراري سُرِّيَّتان: مارية القبطية ورَيْحانة، وأما من خطبهن فلم يتم نكاحه معهن ومن وهبت له نفسها فعددهن تسع، كأم هانئ بنت أبي طالب.

وبعد أن خيَّرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وعظهن وهددهن بمضاعفة العذاب على المعصية فقال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ أي يا نساء النبي وأمهات المؤمنين من يرتكب منكن معصية كبيرة ظاهرة القبح كالنشوز وعقوق الزوج وسوء الخلق، يكون عقابها مضاعفاً، لشرف منزلتكن، وفضل درجتكن، وتقدمكن على سائر النساء، فأنتن أهل بيت النبوة، وكان تضعيف العذاب لهن يسيراً هيناً على الله الذي لا يحابي أحداً لأجل أحد.

قال أبو حيان: ولا يتوهم أن الفاحشة: الزنى؛ لعصمة رسول الله ﷺ من ذلك، ولأنه تعالى وصف الفاحشة بالتبيين، والزنى مما يتستر به، وينبغي حمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته. ولما كان مكانهن مهبط الوحي من

الأوامر والنواهي، لزمهن بسبب ذلك، وكونهن تحت الرسول ﷺ أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - الآيات حثّ واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقته، ولو من أقرب الناس إليه، وفيها أدب عال لبيت النبوة الطاهر، وتسام لمستوى الأنبياء، وترفع عن حطام الدنيا، وتربية لنساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي، وإعظام الله ورسوله ﷺ.

قال العلماء: هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ متصلة بما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ الذي كان قد تأذى ببعض الزوجات.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها. أُمر النبي ﷺ أن يخيّر نساءه فاخترنه. وجملة ذلك أن الله سبحانه خيَّر النبي ﷺ بين أن يكون نبياً ملِكاً، وعرض عليه مفاتح خزائن الدنيا، وبين أن يكون نبياً مِسْكيناً، فشاور جبريل، فأشار عليه بالمسكنة فاختارها؛ فلما اختارها - وهي أعلى المنزلتين - أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته، فربما كان فيهن من تكره المقام معه على الشدة تنزيهاً له.

٢ - القول الأصح في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه أنه خيَّرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية، أو الطلاق، فاخترن البقاء؛ لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته، فقالت: قد خيَّرَنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعدّه طلاقاً، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق.

وقيل: إنما خيَّرهن بين الدنيا فيفارقهنّ، وبين الآخرة فيمسكهن، لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن، ولم يخيرهن في الطلاق.

٣ً - اختلف العلماء في المخيَّرة إذا اختارت زوجها، فقال جمهور العلماء: إنه لا يلزمه طلاق، لا واحدة ولا أكثر؛ لقول عائشة فيما أخرجه الصحيحان: خيَّرَنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعدّه علينا طلاقاً.

وروي عن علي أنها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية. وهذا غريب.

وفي رواية أخرى عن علي، وهو قول الحنفية: أنها إذا اختارت نفسها أنها واحدة بائنة؛ لأن قوله: اختاري، كناية عن إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة، كقوله: أنتِ بائن.

وروي عن زيد بن ثابت: أنها إذا اختارت نفسها أنها ثلاث.

وذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء، والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما، وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته: قد ملَّكتك؛ أي قد ملّكتك ما جعل الله لي من الطلاق، واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً، فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك، كان القولُ قولَه مع يمينه. أما المخيَّرة إذا اختارت نفسها، وهي مدخول بها، فهو الطلاق كله، ولا عبرة بإنكار الزوج؛ لأن معنى التخيير: التسريح، والتسريح: البتات؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩] وقال تعالى في آية التخيير: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ والتسريح بإحسان: هو الطلقة الثالثة، ومعنى التخيير التسريح. وعلى هذا يكون طلاق المخيرة ثلاثاً عند الإمام مالك.

وأكثر الفقهاء في تحديد زمن الخيار على أن لها الخيار: ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدلّ على الإعراض، فإن لم تختر ولم تقض شيئاً حتى افترقا من مجلسهما، بطل ما كان من ذلك إليها، ويرى آخرون أن ما ملكته يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها، وهذا عند المالكية هو الصحيح لقوله ﷺ لعائشة فيما رواه البخاري والترمذي: «إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك ألا

تستعجلي حتى تستأمري أبويك» فهذا دليل على استمرار التخيير، حيث جعل لعائشة التخيير إلى أن تستأمر أبويها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجاً من الأمر.

والظاهر أن من اختارت الله ورسوله ﷺ كان يحرم على النبي ﷺ طلاقها، أي لا يباشره أصلاً، عملاً بعلو منصبه، وسمو خلقه.

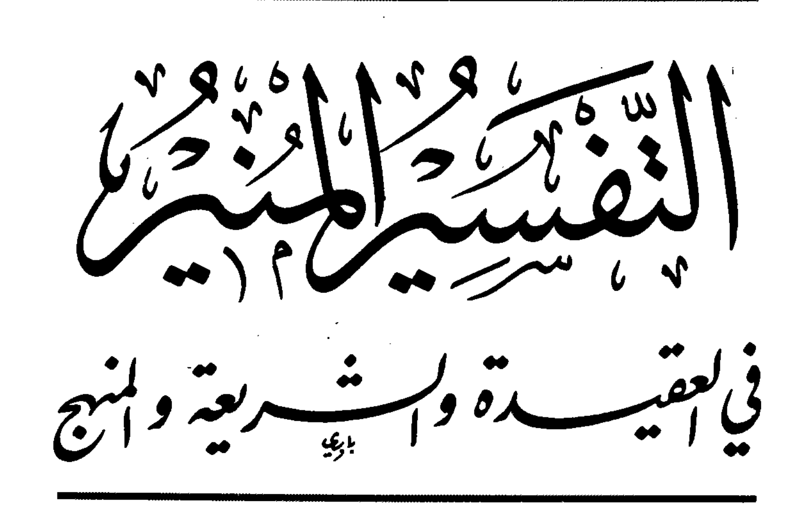
٤ - جعل الله ثواب طاعة أزواج النبي ﷺ وعقاب معصيتهن أكثر مما لغيرهن، بنص الآية هنا: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ والآية التي بعدها: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ فأخبر الله تعالى أن من جاء من نساء النبي ﷺ بفاحشة - والله عاصم رسوله ﷺ من ذلك، كما مرّ في حديث الإفك - يضاعف لها العذاب ضعفين؛ لشرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء أجمع. وبينت الشريعة في مواضع كثيرة أنه كلما تضاعفت الحُرُمات، فهُتكت تضاعفت العقوبات، ولذلك ضُوعف حدّ الحر على العبد، والثيب على البكر.

ولما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي، وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قوِي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب.

وضِعْف الشيء مثله، فمعنى الضعفين: معنى المثلين أو المرتين، فلو فرض وقوع ما يوجب الحدّ منهن - وقد أعاذهن الله من ذلك - حُدَّت الواحدة حدّين لعظم قدرها، كما يزاد حدّ الحرة على الأمة، والعذاب بمعنى الحدّ، قال الله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢٤/٢]. ويدل على هذا ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾

انتهى الجزء الحادي والعشرون ولله الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء الثاني والعشرون

خصائص أهل بيت النبوة

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

القراءات:

﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ويعمل صالحاً يؤتها).

﴿ٱلنَّبِيِّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

﴿وَقَرْنَ﴾: قرئ:

١- (وَقَرْن) وهي قراءة نافع، وعاصم.

٢- (وقِرْن) وهي قراءة الباقين.

﴿بُيُوتِكُنَّ﴾: قرئ:

١- (بُيُوتكن) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتكن) وهي قراءة الباقين.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾:

وقرأ البزّي (ولا تَّبَرَّجْن) وصلاً مع المد.

الإعراب:

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ﴾ من ذكَّر ﴿يَقْنُتْ﴾ و(ويعمل) حمله على لفظ ﴿وَمَن﴾. ومن أنَّث «تعمل» حمله على لفظ «مَنْ» لأن المراد بها المؤنث. ولا مانع في النحو من التذكير بعد التأنيث، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٩] .

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط، وجوابه: إما قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أو ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وتقديره: إن اتقيتن انفردتن بخصائص من جملة سائر النساء، بدليل قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ﴾

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ﴿وَقَرْنَ﴾ أصله «اقررن» من قرَّ يقَرّ، فنقلت فتحة الراء بعد حذفها إلى القاف، فلما فتحت القاف استغني عن همزة الوصل، وحذفت الراء لتكررها مع نظيرها، وتكررها مع نفسها. وقرئ «قِرْن» بكسر القاف، إما من «وَقَرَ يقِر» أي اسكن، وإما من «قرّ يقِرّ» والأصل فيه «اقرِرن» فنقلت الكسرة إلى القاف بعد حذف الراء.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ إما منصوب على الاختصاص والمدح، كقوله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» أي أعني وأمدح أهل البيت، وإما منصوب على النداء، كأن قال: يا أهل البيت، والأول أوجه.

البلاغة:

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ تشبيه بليغ، أي كتبرج أهل الجاهلية، فحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عطف عام على خاص بعد قوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإن الطاعة تشمل جميع الأوامر والنواهي.

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ استعارة، استعار الرجس للذنوب والمعاصي، والطهر للتقوى؛ لأن عرض العاصي يتدنس، وعرض التقي نقي كالثوب الطاهر. و﴿تَطْهِيرًا﴾ ترشيح للتنفير.

المفردات اللغوية:

﴿يَقْنُتْ﴾ يخشع ويخضع ويدم على الطاعة، والقنوت: الطاعة في سكوت والعبادة في خشوع. ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مثلي ثواب غيرها من النساء، مرة على الطاعة ومرة على طلبها رضا النبي ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا. ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة زيادة على أجرها سالماً من العيوب والآفات. ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل أي لا مثيل لكنَّ في جماعة النساء في الفضل. وأصل (أحد) وحَد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام، وهو في النفي يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع الكثير. ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فلم تخالفوا حكمه، وأرضيتم رسوله. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ لا تُلِنَّ القول للرجال مثل قول المريبات. ﴿مَرَضٌ﴾ تطلع إلى الفسق والفجور والريبة. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسناً من غير خضوع، بعيداً عن الريبة غير مُطْمع أحداً.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أصله: اقررن، أي الزمْنَ بيوتكن، بفتح القاف من قَرِرَت، وبكسرها من وَقَر يقِر، من القرار أي السكون، يقال: قرِرت في

المكان أقرُّ به: أقمت فيه. أو من قَرَّ يقرّ. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي لا تتبرجن، والتبرج: إبداء المرأة للرجل ما يجب عليها ستره من محاسنها. ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما كان قبل الإسلام من الجهالات كإظهار النساء محاسنهن للرجال. ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر الأوامر والنواهي. ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ الذنب أو الإثم أو النقص المدنّس للعرض. ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نساء النبي ﷺ، وهو منصوب على المدح أو النداء. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي ويطهركم من المعاصي.

قال البيضاوي: وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما الحسن والحسين رضي الله عنهم، والاحتجاج بذلك على عصمتهم، وكون إجماعهم حجة: ضعيف؛ لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، وحديث العباءة التي أدخل فيها النبي فاطمة وعلياً وولديهما يقتضي أنهم أهل البيت، لا أنه ليس غيرهم.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي عظن النساء بما يتلى، وتذكرن نعم الله عليكن من جعلكن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة. ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هي حديث المصطفى ﷺ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه وأهل طاعته. ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع خلقه، يعلم ويدبر ما يصلح في الدين.

المناسبة:

اقتضى عدل الله ورحمته أن تكون زيادة العقاب مقرونة بزيادة الثواب، فبعد ذكر مضاعفة العذاب على نساء النبي ﷺ عند ارتكاب الفاحشة، ذكر تعالى خصائص لهن، أولها - مضاعفة الثواب لهن على العمل الصالح، وإعداد الرزق الكريم في الجنة وهو ما يأتي بنفسه، على نقيض رزق الدنيا الذي لا يأتي بنفسه، وإنما بواسطة الغير. وثانيها - امتيازهن على سائر النساء، وثالثها - أمرهن بقوة الكلام وعدم إلانة القول للرجال، ورابعها - الأمر بالقرار في

البيوت والنهي عن التبرج، وخامسها - مطالبتهن بمداومة الطاعة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ فيما يأمر وينهى، وسادسها - تحقيق صون العرض والسمعة عن الذنوب والمعاصي والتجمل بالتقوى، وسابعها - الأمر بتعليم غيرهن القرآن والسنة النبوية، وتذكر نعمة الله تعالى عليهن.

التفسير والبيان:

١ - مضاعفة الثواب: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي ومن تطع منكن الله ورسوله، وتخشع جوارحها، وتستجب لأمر ربها، وتعمل صالح الأعمال، نضاعف لها الأجر والثواب مرتين، لكونها من أهل بيت النبوة ومنزل الوحي، وأعددنا لها زيادة على هذا رزقاً كريماً في الآخرة والجنة، لا عيب ولا نقص فيه ولا مِنَّة لأحد ويأتي بنفسه، على عكس رزق الدنيا المشوب بالعيوب والنقائص والمنة ويتوقف على الغير الذي يمسكه ويرسله بوساطة إلى غيره، ولأجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم وصفاً حقيقياً كاملاً إلا الرزاق، وفي الآخرة يوصف بالكريم الرزق نفسه.

ويلاحظ أنه تعالى عبّر هنا عند إيتاء الأجر بقوله: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ للتصريح بالمُؤْتي وهو الله، وفي الآية السابقة عبر عند العذاب بقوله: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ فلم يصرح بالمعذِّب، إشارة إلى كمال الرحمة والكرم، ولأن الكريم عند النفع يظهر نفسه وفعله، وعند الضرّ لا يذكر نفسه[١]

٢ - امتيازهن على سائر النساء: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي يا زوجات النبي ليس لَكُنَّ شبيه في جماعة النساء في الفضل والمنزلة

(١) تفسير الرازي: ٢٥/٢٠٨

والشرف والكرامة، لكونكن أمهات جميع المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، ونزول القرآن في بيتكن وفي حقكن. وهذا التعبير كقولهم: ليس فلان كآحاد الناس، ومعناه أن فيه وصفاً أخص ومزية وفضيلة لا توجد في غيره. ونساء النبي كذلك، وشرفهن مستمد من سمو منزلة النبي ﷺ القائل في الحديث المتفق عليه: «لست كأحدهم».

٣ - النهي عن لين الكلام: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي إن أردتن التقوى أو كنتن متقيات[1] مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله ﷺ، فلا تُلِنَّ الكلام ولا ترققنه عند محادثة الرجال، وليكن كلامكن بجد وحزم وقوة، حتى لا يطمع في الخيانة من في قلبه ميل إلى الريبة والفسق والفجور، وقلن القول المعروف المعتاد الذي ليس فيه ترخيم الصوت، البعيد عن الريبة، الذي يختلف عن مخاطبة الأزواج.

وهذا النهي لا يعني أن أزواج النبي ﷺ على حال من السوء تقتضي المنع والكف، وإنما المراد حملهن على أسمى الفضائل وملازمتها، فلما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح، منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال على وجه فيه ريبة وإطماع، وإساءة فَهْم من في قلبه ميل إلى الفجور والفسوق والنفاق.

ونساء الأمة تبع لنساء النبي ﷺ في هذه الآداب التي أمر الله تعالى بها. والخلاصة: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ إما متعلق بما قبله، على معنى: لستن كأحد إن اتقيتن، فإن الأكرم عند الله هو الأتقى، وإما أن يكون متعلقاً بما بعده، على معنى: إن اتقيتن فلا تخضعن.

(١) الكشاف: ٢/ ٥٣٧

ويصح أن يكون ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ بمعنى استقبلتن أحداً من الرجال، واتقى بمعنى استقبل معروف في اللغة، قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

أي استقبلتنا باليد. قال أبو حيان: ويكون هذا المعنى أبلغ في مدحهن؛ إذ لم يعلِّق فضيلتهن على التقوى، ولا علق نهيهن عن الخضوع بها؛ إذ هن متقيات لله في أنفسهن، والتعليق يقتضي ظاهرة أنهن لسن متحليات بالتقوى[1]. والمراد بقوله: ﴿مَرَضٌ﴾ ميل أو تشوف لفجور، وهو الفسق وحديث السوء، وهذا هو الأصوب؛ فليس للنفاق مدخل في هذه الآية.

٤ - الأمر بالقرار في البيوت والنهي عن التبرج: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ أي الزَمْنَ بيوتكن، فلا تخرجن لغير حاجة، أخرج الترمذي والبزّار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون برَوْحة - رحمة - ربها، وهي في قَعْر بيتها» . وروى أبو داود أيضاً عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مَخْدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حُجْرتها» . أما خروج النساء للمساجد فجائز للعجائز دون الشابات؛ لما أخرجه أحمد ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تَفِلات» .

ولا تتبرجن تبرج الجاهلية القديمة قبل الإسلام: وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، والتبرج: إبداء الزينة والمحاسن للرجال كالصدر والنحر، بأن تلقي المرأة الخمار على رأسها ولا تشده، فتظهر عنقها وقُرْطها وقلائدها.

٥ - مداومة الطاعة لله ورسوله: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) البحر المحيط: ٧/٢٢٨

وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بعد أن أمرهن تعالى بالقول المعروف (وهو القول الحسن الجميل المعروف في الخير) وأتبعه ببيان الفعل المناسب للمرأة وهو القرار في البيوت، ثم نهاهن عن الشر، أمرهن بالخير في إقامة الصلاة (وهو أداؤها على الوجه المطلوب شرعاً من الخشوع وإتمام الأركان والشروط) وإعطاء الزكاة (وهي الفريضة الواجبة شرعاً والإحسان إلى الناس) وإطاعة الله ورسوله ﷺ في كل أمر ونهي.

وخص تعالى الصلاة والزكاة، لأهميتهما وخطورتهما واثارهما الكبرى، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ إذ ليس التكليف منحصراً بالصلاة والزكاة، وإنما هو شامل لكل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، وأمر الله والرسول واحد.

٦ً - تحقيق السمعة العالية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي سبب تلك الأوامر والنواهي والمواعظ إنما هو لإذهاب المأثم عنكن، وتطهيركن من دنس المعاصي والذنوب، وتعمير قلوبكن بنور الإيمان.

وقد استعار الرجس (أو الرجز) للذنوب، والطهر للتقوى؛ لأن عِرْض المقترف للمعاصي يتدنس بها ويتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس القذرة الحسية. وأما الطاعات فالعِرْض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة تنفير عما نهى الله عنه، وترغيب فيما أمر به. والرجس يطلق على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسة وعلى النقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت.

وأهل البيت: كل من لازم النبي ﷺ من الأزواج والأقارب. وتوجيه

الأوامر لهم لأنهم قدوة الأمة، روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

٧ً - الأمر بتعليم القرآن والسنة والتذكير بالنعم: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي تذكرن نعم الله عليكن من جعل بيوتكن مهابط الوحي، ولا تنسين ما يُتلى فيها من آيات الله في قرآنه، وما ينزل على الرسول ﷺ من الحكمة البالغة والأحكام والعلوم والشرائع، فاعملوا بها وعلموها، إن الله لطيفٌ خبيرٌ حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم، فأنزله عليكم، وجعل في بيوتكن الآيات والشرائع، واختاركن زوجات لرسوله ﷺ؛ فهو اللطيف فعله يصل إلى كل شيء.

وفي هذا حثّ على الطاعة والتزام التكاليف الشرعية، وتنفير عن العصيان والمخالفة واقتراف المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآداب سبعة أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة في أغلبها تبع لهن في ذلك:

١ً - طاعة الله والرسول والعمل الصالح من أزواج النبي ﷺ لها ثواب مضاعف، ورزق كريم وهو الجنة.

٢ً - لنساء النبي ﷺ منزلة وفضل وشرف يتميزْنَ بها عن سائر جماعات النساء الأخرى، لكن هذه الفضيلة مشروطة بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة الرسول ﷺ، ونزول القرآن في حقهن، وهذه درجة عالية. وكذلك تمتاز

نساء الأمة عن غيرهن من جنس النساء بالتقوى والعمل الصالح، ولكن درجتهن بالطبع أدنى من درجات أمهات المؤمنين أزواج النبي ﷺ.

٣ً - على نساء النبي ﷺ أن يكون قولهن جَزْلاً، وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يُظهر اللين والميل من الفجار، كما كانت عليه الحال في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه؛ مثل كلام المريبات والمومسات. وهذا النهي ليس خاصاً بنساء النبي ﷺ، وإنما هو شامل لنساء المؤمنين أيضاً. وعلى هذا، فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام، ويندب لها إذا خاطبت الأجانب، وكذا المحرَّمين عليها بالمصاهرة، كزوج الأخت أن تكون نبرات صوتها قوية من غير رفع الصوت.

وفي الجملة: القول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

٤ً - أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بملازمة بيوتهن، ونهاهن عن التبرج: وهو إظهار ما ستره أحسن. والخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ، فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، ولأن الشريعة تكرر الأمر فيها بلزوم النساء بيوتهن، وعدم الخروج منها إلا لضرورة. وإنما خوطبت نساء النبي ﷺ بذلك تشريفاً لهن، وليكونن قدوة الأمة في الطهر والصون والعفاف.

وأما خروج السيدة عائشة رضي الله عنها في موقعة الجمل بين أنصار علي وبين طلحة والزبير، فما كان لحرب، ولكن اشتدت شكاوى الناس إليها من عظيم الفتنة، ورَجَوْا بركتها، وطمِعوا في الاستحياء منها إذا رأتها الجموع المتقاتلة، فخرجت بقصد الإصلاح بين الناس، وآثرت ذلك على خروجها للحج الذي كانت قد عزمت عليه، مقتدية بقول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ٤/ ١١٤] وقوله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩/٤٩] . والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى، ولكن لم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح، فدارت رحى الحرب واشتد الطعان، وطعن جمل عائشة وعرقبه بعضهم، فاحتملها محمد بن أبي بكر إلى البصرة، ثم أركبها علي رضي الله عنه إلى المدينة في ثلاثين امرأة، فوصلت إليها برَّة تقية مجتهدة، مصيبة مثابة في تأويلها، مأجورة فيما فعلت؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب.

٥ً - الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله ﷺ في كل أمر ونهي.

٦ً - إن كل تلك الأوامر والآداب بقصد تطهير أهل بيت النبوة من دنس المعاصي ورجس المنكرات، وجعلهن في طليعة النساء صوناً وعفة، وطاعة لله ورسوله ﷺ.

وأهل البيت النبوي: هم نساؤه وقرابته منهم العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم، قال الرازي: والأولى أن يقال: هم وأولاده وأزواجه، والحسن والحسين وعلي منهم؛ لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبي ﷺ وملازمته للنبي[١]. وهذا واضح من ألفاظ الآية وسياقها، فالخطاب في مطلع الآيات ونهايتها مُوَجَّه إلى زوجات النبي ﷺ.

لكن قال القرطبي: والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنما قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأن رسول الله ﷺ وعلياً وحَسَناً وحُسيناً كان فيهم، وإذا اجتمع المذكّر والمؤنث غُلِّب المذكر، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهنّ، يدل عليه سياق الكلام[٢].

(١) تفسير الرازي: ٢٠٩/٢٥

(٢) أحكام القرآن: ١٥٢٧/٣

وأما الحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره عن أم سلمة فهو كما قال الترمذي: هذا حديث غريب. ونصه: قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحَسَناً وحُسَيْناً، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَري، وقال: «هؤلاء أهل بيتي» وقرأ الآية، وقال: «اللهم أذهب عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً» فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أنتِ على مكانكِ، وأنت على خير» . وقال القشيري: وقالت أم سلمة: أدخلت رأسي في الكساء وقلت: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «نعم» .

٧ً - التذكير بنعمة الله على نساء النبي إذ صيّرهن الله في بيوت يتلى فيها القرآن والحكمة وهي كلمات النبي ﷺ، والأمر بالتفكير فيها، والاتعاظ بمواعظ الله تعالى، وإحسان الأفعال، وحفظ أوامر الله تعالى ونواهيه، وإخبار الناس وتبليغهم بها ليعملوا بها ويقتدوا.

وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدِّين.

قال ابن العربي: في هذه الآية مسألة بديعة، وهي أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن، وتعليم ما علّمه من الدين، فكان إذا قرأه على واحد أو ما اتفق، سقط عنه الفرض، وكان على من سمعه أن يبلّغه إلى غيره، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علَّم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس، فيقول لهم: نزل كذا، ولا كان كذا، ولا يلزم أن يبلّغ ذلك الرجال[١].

(١) أحكام القرآن: ٣/١٥٢٧

المساواة بين الرجال والنساء في ثواب الآخرة

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية: كله منصوب بالعطف على اسم ﴿إِنَّ﴾، وخبرُها: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾. وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ حذف منه المفعول، وكذلك: ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ حذف مفعوله، وتقديره: والذاكرات الله، والحافظات فروجهن، فحذف المفعول لدلالة ما تقدم عليه. وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين، وأما عطف الصنفين على الصنفين فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع، لتغاير الوصفين، وكأن معناه أن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات لهم مغفرة.

البلاغة:

﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ فيهما إيجاز بالحذف، حذف المفعول لدلالة السابق عليه، أي والذاكرات الله، والحافظات فروجهن.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ من باب التغليب؛ لأنه إذا اجتمع الذكور والإناث، غلّب الذكور، ثم أدرجهم في الضمير.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله الآتين

بأركان الإسلام، والإسلام: الانقياد والخضوع لأمر الله. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدقين بأركان الإيمان، والإيمان: التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهي. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ الخاضعين لله المداومين على الطاعة، والقنوت: الطاعة في سكون. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات وعن المعاصي، فالصبر: تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصي. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وأعضائهم، والخشوع: السكون والطمأنينة. ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب في مالهم. ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المفروض في رمضان وغيره من النذور وكفارات الأيمان والقتل الخطأ. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم، وهي ما اقترفوا من الصغائر؛ لأنهن مُكَفَّرات. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتهم: وهو نعيم الآخرة.

سبب النزول:

أخرج الترمذي وحسَّنه عن أم عُمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذْكَرن بشيء، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال: قالت النساء: يا رسول الله، ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال: لما ذَكَر أزواج النبي ﷺ، قالت النساء: لو كان فينا خير لذكرنا، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

وأخرج الإمام أحمد والنسائي وابن جرير عن عبد الرحمن بن شَيْبة قال:

سمعت أم سَلَمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يَرُعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أُسرِّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حُجْرتي - حجرة بيتي - فجعلت سَمْعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ » إلى آخر الآية.

المناسبة:

بعد أمر نساء النبي ﷺ ونهيهن عن الأمور السابقة، وبيان ما يكون لهن من ثواب، أبان الله تعالى ما أعدّ للمسلمين والمسلمات من المغفرة والثواب العظيم في الآخرة.

التفسير والبيان:

هذه الآية وعد للرجال والنساء على الطاعة، والاتصاف بهذه الخصال، ذكر الله تعالى فيها عشر مراتب إشارة إلى ما يجب أن يكونوا عليه، دون اتكال نساء النبي على صحبته وملازمته وقربهن منه:

١ - الإسلام والانقياد لأمر الله واتباع أحكام الدين قولاً وعملاً.

٢ - الإيمان والتصديق التام بما جاء عن الله من شرائع وأحكام وآداب. وهذا دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وأن الأول أخص من الثاني، فالإيمان: هو الاعتقاد والتصديق الكامل مع العمل الصالح، والإسلام قول وعمل بالفعل؛ قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤/٤٩] . وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن» فيسلبه الإيمان، ولا يلزم منه كفره بإجماع المسلمين، فدلَّ على أن الإيمان أخص من الإسلام.

٣ً - القنوت: وهو دوام العمل الصالح، والطاعة في سكون، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩/٣٩] وقال سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦/٣٠] . وقال عز وجل: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣/٣] .

ويلاحظ التدرج بين هذه المراتب، فالإسلام: إسلام الظاهر من النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ثم يأتي بعده مرتبة يُرتقى إليها وهو الإيمان الذي هو الإذعان والتصديق الباطني في القلب، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، ثم ينشأ عن مجموعهما القنوت الذي هو السكون والخشوع في الطاعة وأداء العبادة.

٤ً - الصدق في القول والعمل، وهو خصلة محمودة، وعلامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، فمن صَدَق نجا، وفي الحديث الصحيح عند أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي عن ابن مسعود: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدُق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صِدّيقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب، حتى يُكتب عند الله كَذّاباً» . لذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لم تجرّب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

وهذه المرتبة تلي القنوت، فإن من آمن وعمل صالحاً كمل، فيكمّل غيره، ويأمر بالمعروف، وينصح أخاه بصدق.

٥ً - الصبر على المصائب، وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك المعاصي،

والعلم بأن المقدر كائن لا محالة، وتلقي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي أصعبه وأوجبه في أول وهلة من الحادث. وهو سجية الراسخين الأثبات. ويأتي بعد المراتب السابقة؛ لأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى، فيصبر عليه.

٦ً - الخشوع: وهو السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع لله تعالى قلباً وسلوكاً، خوفاً من عقاب الله تعالى، ومراقبته، كما في الحديث الصحيح عند مسلم عن عمر: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

وهذه المرتبة تأتي بمثابة المراقبة على أعمال الحسنات، فإذا عملها الإنسان قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته، فأمر تعالى بالتواضع حتى لا تجمح الأهواء والشهوات بالنفس، فتوقعها فيما يرديها، وقد تعصف بثمرات جميع الأعمال الصادرة عنها.

٧ً - التصدق بالمال: وهو الإحسان إلى المحتاجين الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب، فيعطون حال الفرض والنفل طاعةً لله وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله - فذكر منهم -: ورجل تصدّق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه» وفي حديث آخر: «والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار». وهذه مرتبة تعد ترجماناً عملياً للخصال السابقة؛ لأن بذل المال شاق على النفس، لمحبتها إياه، وهي دليل على محبة الإنسان لأخيه، فيساعده لينقذه من آفات الفقر والحاجة، كما أن الصدقة تزكية للمال وتطهير له.

٨ً - الصوم فرضاً ونفلاً: وفيه تسامٍ روحي عن التعلق بالماديات، والإقبال على عبادة الله، ومن أكبر المعونة على كَسر حِدّة الشهوة، كما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عن ابن مسعود عنه ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع

منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاء» وهو أيضاً تزكية للبدن، كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه عنه ﷺ: «والصوم: زكاة البدن» أي يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً، كما قال سعيد بن جبير: «من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر، دخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾».

٩ً - العفّة وحفظ الفروج عن المحارم والمآثم، إلا عن المباح، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥-٧]. ومن اخترق حرمة الفروج وزنى، هان عليه اختراق حرمات الدين كلها، ومن صان فرجه وعفّ نفسه، كان من الطاهرين الأصفياء الذين استحقوا رضوان الله تعالى.

ويلاحظ أن بين المرتبتين الأخيرتين تجانساً، فالصُّوام إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله، والأعفّاء حفظة الفروج إشارة إلى الذين لا تمنعهم شهوة الفرج عن العبادة.

١٠ً - الذِّكْر الكثير لله تعالى: وهو استحضار عظمة الله تعالى في القلب، وتنزيهه باللسان عن كل نقص، ووصفه بكل كمال في جميع الأحوال، بنية صادقة لله. ويلاحظ أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر «الذِّكْر» قرنه بالكثرة، ليرشدنا إلى أنه لا يصير الإنسان ذاكراً حتى يداوم على الذكر قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وهذا مروي عن مجاهد. وقد يصبح ذاكراً بصلاة التهجد ليلاً، كما أخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

ويكون الذكر أيضاً بالصلاة وفي الأكل والشرب والمشي والبيع والشراء

والركوب والهبوط، وغير ذلك من الأحوال في غير أماكن القاذورات، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١].

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤١-٤٢].

وقد ختمت هذه الآداب بالذكر؛ لأن صحة جميع الأعمال الدينية من إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وصدقة وصوم بذكر الله تعالى وهي النية.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سَبَق المفْرِدُون، قالوا: وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». وأخرج أحمد أيضاً عن مُعاذ الجُهَني عن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً سأله، فقال: أيُّ المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ قال ﷺ: أكثرهم لله تعالى ذكراً، قال: فأيّ الصائمين أكثر أجراً؟ قال ﷺ: أكثرهم لله عز وجل ذكراً، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ: أكثرهم لله ذكراً» فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: «أجل».

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء جميعاً فقال:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إن الله تعالى هيّأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآية كما وضح في تفسيرها عشرة آداب أمر الله تعالى بها، وهي تجمع أصول الإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك والعمل

الاجتماعي البناء في إطار من النية الصادقة والإخلاص لله عز وجل وهو المراد بذكر الله كثيراً.

وقد بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعمّ الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر الإيمان تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه دِعامة الإسلام، وأتبعه بالقانت: العابد المطيع، ثم الصادق: الذي يفي بما عوهد عليه، والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات وقت الرخاء والشدة (أو المَنْشَط والمكْره) والخاشع: الخائف لله، والمتصدق بالفرض والنفل، والصائم فرضاً ونفلاً، وحافظ الفرج عما لا يحلّ من الزنى وغيره، وذاكر الله كثيراً في أدبار الصلوات وغُدُوّاً وعَشِياً، وفي المضاجع وعند الانتباه من النوم، وفي الذكر فوائد كثيرة محورها ربط المؤمن بالله تعالى في جميع الأحوال. قال مجاهد: لا يكون ذاكراً لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: من أيقظ أهله بالليل، وصلّيا أربع ركعات، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

قصة زيد بن حارثة
وزينب بنت جحش رضي الله عنهما

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا
لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ
أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَن يَكُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان (أن تكون).

﴿ٱلنَّبِىِّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

﴿وَخَاتَمَ﴾:

وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقون (وخاتِم)

﴿ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾:

وقرأ نافع (النبيئين).

الإعراب:

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ تذكير الفعل على أن الخيرة بمعنى التخيير، فهي مصدر بمعنى الاختيار، ومن قرأ بالتاء؛ لأن اللفظ مؤنث.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، و﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾: إما منصوب بتقدير حذف حرف الجر، وإما مرفوع على أنه مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾ خبره، والجملة من المبتدأ أو الخبر في موضع رفع؛ لأنه خبر المبتدأ الأول وهو الله تعالى، أو مرفوع على أنه بدل من الله تعالى.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب مصدر لفعل دلَّ عليه ما قبله وهو ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي سنّ له سنة، أو منصوب بنزع الخافض، أي كسنة الله.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا أو مدح لهم منصوب أو مرفوع.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﴿رَّسُولَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ مقدرة، أي ولكن كان محمد رسول الله. ومن قرأه بالرفع جعله خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو رسول الله.

البلاغة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ التنكير لإفادة العموم؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي ليس لمؤمن ولا لمؤمنة أن يريد غير ما أراده الله ورسوله.

﴿وَتُخْفِى﴾ و﴿مُبْدِيهِ﴾ بينهما طباق.

﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي ما يصح له أو ما ينبغي له ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي قضى رسول الله ﷺ، وذكر الله لتعظيم أمره، والإشعار بأن قضاءه قضاء الله. والسبب أنه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته: أُمَيْمة بنت عبد المطلب، خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها عبد الله ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاختيار، فليس لهم أن يختاروا من أمرهم شيئاً، بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي ظاهراً بيِّن الانحراف عن الصواب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي اذكر حين تقول ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والتحرير، وهو زيد بن حارثة، كان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ قبل البعثة، والأصح أن السيدة خديجة وهبته له، ثم أعتقه وتبناه، وقد تقدمت قصته ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينب ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمر طلاقها، ولا تطلقها ضراراً ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي تخفي في نفسك ما الله مظهره وهو الأمر من الله بزواجها بعد طلاقها من زوجها[(١)] ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي تستحييهم وتخاف تعييرهم إياك وقولهم: تزوج زوجة ابنه الذي تبناه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ في كل شيء، والواو للحال، فتزوجْها ولا تأبه لقول الناس، قال البيضاوي: وليست المعاتبة على الإخفاء وحده، فإنه وحده حسن، بل على الإخفاء مخافة قالة الناس وإظهار ما ينافي إضماره، فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه.

(١) الإخفاء هو لزواجها المأمور به من الله لإبطال عادة التبني وآثاره في الجاهلية، وليس المراد كما جاء في تفسير الجلالين وغيره إخفاء حبها حين وقع بصره عليها بعد حين من زواجها، فهذا الكلام باطل لا أصل له، ويتنافى مع منصب النبوة، فهي ابنة عمته يعرفها من قديم، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل تزويجه إياها من زيد.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ حاجة، أي لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ جعلناها لك زوجة وأمرناك بزواجها، فدخل عليها النبي ﷺ بغير إذن بشر، بعد إذن الله تعالى، وأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، فكانت بلا واسطة عقد بشري، بدليل أنها كانت تقول لسائر نساء النبي ﷺ: إن الله تولى إنكاحي، وأنتُن زوَّجكن أولياؤكن .﴿حَرَجٌ﴾ مشقة وضيق دائم ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ جمع دعي وهو الابن المتبنى ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي مقضيه ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً حاصلاً لا محالة، كما كان تزويج زينب. وجملة ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ علة للتزويج، وهو دليل على أن حكم النبي وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي قسم له وقدر وأجل، مأخوذ من قولهم: فرض له في الديوان كذا، وفرض للعسكر أو الجند كذا، أي قدر لهم أرزاقهم ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ مضوا من الأنبياء ألا حرج عليهم في ذلك، وفيما أباح لهم ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ فعله قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً كائناً لا بدّ منه ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا يخشون مقالة الناس فيما أحلَّ الله لهم، وهو تعريض بعد تصريح ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبتهم، فينبغي ألا يخشى إلا منه.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ على الحقيقة، فيثبت ما يترتب على البنوة من حرمة المصاهرة وغيرها، فليس أبا زيد، أي والده، فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ولكن كان رسول الله، وكل رسول أبو أمته، لا مطلقاً، بل من حيث إنه رؤوف بهم، ناصح لهم، واجب التوقير والطاعة عليهم، و﴿زَيْدٌ﴾ منهم كبقية المؤمنين ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بكسر التاء، فاعل الختم، أي فلا يكون له ابن رجل بعده يكون نبياً، وبفتح التاء بمعنى الطابع كآلة الختم، أي وآخرهم الذي ختمهم، أو به ختموا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم من يليق بأن يختم به النبوة، فلا نبي بعده، وكيف ينبغي شأنه.

وكون النبي ﷺ أباً للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم لا ينافي الآية، فإن هؤلاء قد أخرجوا من حكم النفي بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لأن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال، ولأنه قد أضاف الرجال إليهم، وهؤلاء رجاله، لا رجالهم.

وأما كون عيسى ينزل في آخر الزمان، فلا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ لأن المعنى: لا يكون هناك بعد محمد ﷺ نبوة مبتدأة جديدة، فلا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن نُبّئ قبله، وحين ينزل يحكم بشريعة محمد، ويصلي إلى قبلته، كأنه بعض أمته.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٦):

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآيات، أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب، يريدها لزيد، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد، أبت، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، فرضيت وسَلَّمت.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية كلها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها، قالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوجنا عبده. وهذا قول أضعف مما سبق، فيكون الراجح ما ذكره قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظنت أن الخطبة لنفسه، فلما تبيَّن أنه يريدها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت، فنزلت الآية.

نزول الآية (٣٧):

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾: أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، فقال النبي ﷺ: أمسك عليك أهلك، فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب، فاذكرها علي، فانطلق، فأخبرها، فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامِرَ[1] ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن. قال: ولقد رأيتنا حين دخلنا على رسول الله ﷺ أطعَمَنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتبع حُجَر نسائه، ثم أخبرته أن القوم قد خرجوا، فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب. قال: ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٣] الآية.

نزول الآية (٤٠):

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾: أخرج الترمذي عن عائشة قالت: لما تزوج النبي ﷺ بزينب قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتخيير زوجاته بين البقاء معه، والتسريح

(١) آمره في أمره، ووامره واستأمره: شاوره.

الجميل، حتى لا يظن أن الرسول ﷺ يريد ضرر الغير، ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان في كل شيء، كما في شأن الزوجات، بل هناك أمور لا اختيار فيها لأحد، وهي ما حكم الله فيه، فما أمر به فهو المتَّبع، وما أراد النبي فهو الحق، ومن خالفهما فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً؛ لأن الله هو المقصد، والنبي هو الهادي الموصل.

ثم ذكر الله تعالى قصة زواج النبي ﷺ بزينب، تنفيذاً لأمر الله، وتقريراً لشرع محكم دائم مشتمل على فائدة، خال من المفاسد، وأن الرسول ﷺ ليس بدعاً بين الرسل فيما أباح الله له من الزوجات، وأنه من أولئك الرسل الكرام الذين يبلّغون رسالات ربهم، ولا يخشون أحداً غير الله، وهو بهذا الزواج من زينب قد أبطل بالفعل بعد القول ما كان مقرراً في الجاهلية من حرمة الزواج بحليلة الابن بالتبني، كما قال تعالى في هذه الآيات: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ أي ليس لأي مؤمن أو مؤمنة إذا حكم الله ورسوله بأمر أن يختاروا أمراً آخر، وإنما عليهم الامتثال لأمر الله ورسوله، وتجنب معصيته. ومبلّغ الأمر هو رسول الله ﷺ، وذكر الله لتعظيم أمر رسوله، فصار حكم الله ورسوله واحداً، وقضاؤهما واحداً، فإذا قضى الرسول ﷺ بأمر لم يكن لبشر اختيار غيره. وهذه الآية داخلة في ضمن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب: ٦/٣٣] .

ثم حذر الله تعالى من عصيان الأمر فقال:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي من يخالف أمر الله أو

أمر رسوله ﷺ أو يعصي ما نهيا عنه، فقد انحرف عن طريق الهدى والرشاد، ووقع في متاهات الضلال المبين البعيد عن منهج الحق والخير، المؤدي إلى ضياع المصالح والانغماس في المفاسد، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/٦٣] .

وإزاء هذا الحكم الإلهي القاطع والتحذير من العصيان، فإن زينب بنت جحش التي نزلت الآية بسببها، امتثلت أمر الرسول ﷺ بقبول زواجها من زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ وعبده المعتق، وهي من عِلْية قريش وذؤابة القوم، وبنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وقالت: «إذن لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي» بعد أن استنكفت من زيد، وقالت: «أنا خير منه حسباً» لأنها كانت امرأة فيها حِدَّة.

وكان في زواجها بزيد حكمة بالغة هي إعلان المساواة بين الناس، والقضاء على فوارق النسب والحسب، ما دامت مظلة الإسلام واحدة يتساوى فيها الجميع، وأن التفاضل فيه إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

ولكن بالرغم من الموافقة الظاهرية على هذا الزواج، ظلت الكوامن النفسية والآلام قائمة، وبقيت زينب كارهة لزيد، متعالية عليه، فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ مراراً، فكان ﷺ ينصحه قائلاً: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ إلى أن نَفَذ حكم الله، وحدث الطلاق، وهو ما قررته الآيات التالية:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي واذكر يا محمد حين كنت تقول لزيد الذي أنعم الله عليه بالإسلام وأنعمت عليه بالإعتاق والحرية والتربية والتقريب منك: أبق على زواجك بزينب، واصبر على طبعها وخلقها، واتق الله في شأنها وفي طلاقها، فلا تطلقها لتعاليها وشعورها بالرفعة والشرف، فإن الطلاق مضرة. وهذا نهي تنزيه وتعليم وتربية، لا نهي تحريم وحظر؛ لأن الأوْلى على كل حال ألا يطلقها، لأن الطلاق شائن لها.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي وتخفي أيها الرسول في نفسك ما الله مظهره من الحكم، وهو علمك بأن زيداً سيطلقها وستنكحها؛ لأن الله قد أعلمه بذلك، وتخاف من تعيير الناس ونقدهم واعتراضهم النابع من منطق الجاهلية، والله بعد أن أنزل عليك وحيه وشرعه المصحح لأعراف الجاهلية وتقاليدها أو المبطل لها، أجدر وحده أن تخاف منه، وتلزم أمره، وتمضي حكمه دون مبالاة بشرائع غيره. فقوله: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي في طلاقها، فلا تطلّقها، وأراد بذلك نهي تنزيه، لا نهي تحريم؛ لأن الأولى ألا يطلق.

عن عائشة رضي الله عنها: لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أُوحي إليه، لكتم هذه الآية.

والمراد من هذا التوجيه للنبي ﷺ: أن يصمت حين قال له زيد: أريد مفارقتها، أو يقول له: أنت أعلم بشأنك، حتى لا يتناقض سِرُّه مع علانيته، وليتساوى ظاهر الأنبياء وباطنهم، ولتبدو ظاهرة التصلب في الأمور الجادة التي نزل فيها وحي إلهي.

ثم أعلن الله تعالى حكم زواج زينب المطلقة بعد انتهاء عدتها من نبي الله ﷺ فقال:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي لما طلقها زيد، وانتهت حاجته منها، وملّها، وانقضت عدتها، جعلناها لك زوجة، ليرتفع الحرج والضيق من بين المؤمنين إذا أرادوا الزواج بمطلّقات أدعيائهم وهم الذين تبنوهم في الجاهلية، ثم أبطل الإسلام حكم التبني وألغى جميع آثاره، وصفّى كل نتائجه، وكان قضاء الله وقدره نافذاً وكائناً لا محالة، وحكمه سائداً وشرعه دائماً في كل زمان، ومن أحكام الله في سابق علمه أن زينب

ستصير زوجة للنبي ﷺ. والوطر: كل حاجة للمرء له فيها هِمَّة، والجمع: الأوطار، قال ابن عباس: أي بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع. وفي التعبير إضمار؛ أي لما قضى وطره منها، وطلّقها زوجناكها، وقراءة أهل البيت: زوجتكها.

وفي هذا إشارة إلى أن التزويج لزينب من النبي ﷺ لم يكن لقضاء شهوة، بل لبيان الشريعة بفعل النبي ﷺ، فإن الفعل أوكد، والشرع يستفاد على نحو أقطع من فعل النبي ﷺ، وقد أريد من هذا الزواج نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انتهاء رابطة الزوجية بينهم وبينهن.

روى البخاري والترمذي رحمهما الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، فتقول: زوَّجَكن أهاليكُنّ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات» .

وقال محمد بن عبد الله بن جحش: تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة رضي الله عنها: أنا التي نزل عذري من السماء، فاعترفت لها زينب رضي الله عنها.

وذكر ابن جرير عن زينب رضي الله عنها عن الشعبي قال: كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ: «إني لأدِلُّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تَدِلُّ بهن: إن جَدّي وجَدّك واحد، وإن الله عز وجل أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل عليه السلام».

ثم أخبر الله تعالى عن سنته وحكمه في الرسل والأنبياء، فقال:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن

قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ أي لم يكن على النبي حرج أو عيب فيما أحل له وأمره من زواج زينب مطلّقة دعيه ومتبناه سابقاً زيد بن حارثة رضي الله عنه. وهذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء، وعليهم في ذلك حرج وضيق، وكان أمر الله الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وهذا ردٌّ على المنافقين الذين عابوا رسول الله ﷺ في تزوجه امرأة زيد مولاه ودَعِيّه الذي كان قد تبناه، وردٌّ أيضاً على اليهود الذين عابوه من كثرة الزوجات، فقد كان لداود وسليمان عليهما السلام عدد كثير من النساء.

ثم مدح الله رسله الكرام، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ أي إن أولئك الرسل الذين رفع الله الحرج عنهم فيما أحل لهم، وخاتمهم محمد ﷺ، مهمتهم تبليغ رسالات الله وشرائعه إلى الناس وأداؤها بأمانة، وهم يخافون الله وحده في ترك تبليغ شيء من الوحي، ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد أو انتقاده عن إبلاغ رسالات الله تعالى، وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وحافظاً لأعمال عباده ومحاسبهم عليها.

ثم ردَّ الله تعالى على نقد من قالوا: إن محمداً تزوج حليلة ابنه، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ أي إن التزوج بزوجة الابن النسبي بالفعل هو غير جائز، أما التزوج بزوجة المتبنى بالتبني المصطنع فهو جائز، خلافاً لشرعة الجاهلية، وإن زيداً لم يكن ابناً لمحمد ﷺ حقيقة وإن كان قد تبناه، وليس هو أباً على الحقيقة لأحد من الرجال، وإنما هو رسول الله لتبليغ رسالته وشرعه إلى الناس، وهو الذي ختم به أنبياء الله ورسله، وكان الله وما يزال عليماً مطلعاً على كل شيء، يعلم من بدئت به النبوة ومن ختمت به، ولا يفعل إلا ما هو

الأصلح، ولا يختار إلا من هو الأجدر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤] .

فليس بين محمد ﷺ وبين أحد من الناس أبوة شرعية يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها، وإنما هو أب روحي لجميع المؤمنين، شديد الإشفاق عليهم، يستوجب التوقير والاحترام، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦/٣٣] وهذا أمر أجمع وأعم، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ فهو خاص.

وأما أبوته ﷺ الخاصة فهو أب لأربعة ذكور، وأربع بنات، فقد ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها، ثم ماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارِيةَ القبطية ثم مات رضيعاً، وكان له أربع بنات من خديجة: زينب ورُقَيَّة وأم كُلثوم وفاطمة، وقد ماتت الثلاث الأول في حياته ﷺ، ثم ماتت فاطمة بعده لستة أشهر.

وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعد نبي الله محمد، ولا رسول بعده بالطريق الأولى؛ لأن النبوة أعم من الرسالة، والرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا عكس، وإذا انتفى وجود النبي بصريح الآية، انتفى وجود الرسول أيضاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

أ - يُحظَر ويُمنَع على أي مؤمن أو مؤمنة إذا قضى الرسول ﷺ بأمر أن يختار غيره؛ لأن لفظة ﴿مَا كَانَ﴾ و (وما ينبغي) معناها هنا **الحظر والمنع**، فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء **عقلاً**، كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النمل:

٢٧/٦٠] . وربما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران: ٣/٧٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٤٢/٥١] . وربما كان في المندوبات؛ كما تقول: «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

٢ - في هذه الآية دليل للمالكية على أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان، خلافاً للجمهور؛ لأن الموالي تزوجت في قريش، تزوج زيد زينب بنت جحش، وتزوج المِقداد بن الأسود ضُباعة بنت الزبير، وزَوَّج أبو حذيفة سالماً من فاطمة بنت الوليد بن عُتْبة، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد أراد الله امتحان زينب بزواج زيد لهدم مبدأ العصبية الجاهلية والامتياز الطبقي أو العنصري، وجعل أساس التمايز هو الإسلام والتقوى.

٣ - يجب اتباع أمر الله ورسوله؛ لأن الله أخبر أن من يعصي الله ورسوله فقد ضلَّ طريق الهدى. قال القرطبي: وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين، من أن صيغة «افعل» للوجوب في أصل وضعها؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله ﷺ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم عَلَّق على المعصية بذلك الضلال، فلزم حمل الأمر على الوجوب[1].

٤ - أراد الله تعالى من عتاب نبيه بآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية، وأن يكون ظاهرهم وباطنهم سواء؛ لأن الله تعالى أعلم نبيه بأن زيداً سيطلّق زينب وينكحها هو، فما الداعي لوعظه وقوله له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؟

(١) تفسير القرطبي: ١٤/١٨٨

وقد أخفى النبي ﷺ ما أخبره الله به من طلاق زينب وزواجه، لا أنه أخفى استحسانها وحُبّه لها والحرص على طلاق زيد إياها، كما يقول قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم الطبري وغيره، فهذا لا يليق بمنصب النبوة، ولا يتفق مع الواقع، فإنه كان بإمكانه أن يتزوجها وهي بِكْر، وهو يعرفها؛ لأنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت هي ترغب بذلك، بدليل أنه ﷺ لما خطبها لزيد، ظنت أنه خطبها لنفسه، والخلاصة: إن قائل ذلك - إن تعمد - جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته.

وأشد قبحاً ما قال مقاتل: زوّج النبي ﷺ زينب بنت جحش من زيد، فمكثت عنده حيناً، ثم إنه ﷺ أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينب قائمة، وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهوِيَها وقال: «سبحان مقلّب القلوب» فسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطِن زيد، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كِبْراً، تعظُم علي وتؤذيني بلسانها، فقال ﷺ: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾

وأحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري الفقيه المالكي الذي ولي قضاء العراق، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم: هو ما روي عن علي بن الحسين:

أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يُطلّق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبي ﷺ خُلُقَ زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها؛ وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من

خشيته الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال: «أمسك» مع علمه بأنه يطلّق، وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال.

ويدل تحرج النبي ﷺ من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيراً كبيراً في المجتمعات والسلوك.

٥ً - اقترنت واقعة زواج النبي ﷺ بزينب في السيرة بأحكام شرعية، منها: استخارة الله في الأمور، فعندما جاء زيد يخطبها للنبي ﷺ فرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن.

ومنها: ندب وليمة الزواج، قال أنس بن مالك فيما يرويه مسلم: «ما رأيت رسول الله ﷺ أَوْلَم على امرأة من نسائه ما أَوْلَم على زينب، فإنه ذبح شاة».

ومنها: أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطب علي فلانة، وهو زوجها المطلقة منه، ولا حرج في ذلك، كما قال النبي ﷺ لزيد في رواية: «اذكرها علي» أي اخطبها.

٦ً - اختصاص النبي ﷺ بتزويج الله تعالى له، فلما وكّلت زينب أمرها إلى الله، وصحَّ تفويضها إليه، تولى الله إنكاحها، ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في عقود زواجنا، ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ، وتقول: «زوجكن آباؤكن، وزوَّجني الله تعالى» . أخرج النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تَفْخَر على نساء النبي ﷺ تقول: «إن الله عز وجل أنكحني من السماء»، وفيها نزلت آية الحجاب.

٧ً - المنعم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة؛ إذ أعتقه النبي ﷺ عندما اختار البقاء عنده، مفضلاً إياه على أبيه وعمه، وقال الرسول ﷺ: «اشهدوا

أني وارث وموروث» فلم يزل يقال: زيد بن محمد، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ ونزل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾

٨ً - قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلي رحمه الله تعالى: كان يقال: زيد بن محمد، حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلما نُزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخِصِّيصة لم يكن يَخُصّ بها أحداً من أصحاب النبي ﷺ، وهي أنه سماه في القرآن؛ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني من زينب. ومَنْ ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآناً يُتْلى في المحاريب، نوَّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعِوَض من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له.

فهو لا يزال متردداً على ألسنة المؤمنين، ومذكوراً على الخصوص عند رب العالمين؛ إذ القرآن كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زيد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة. تذكره في التلاوة السَّفَرة الكِرام البرَرَة. وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له مما نُزع عنه.

وزاد في الآية أن قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالإيمان؛ فدلَّ على أنه من أهل الجنة، عَلِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى.

٩ً - قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ دليل على ثبوت الولي في النكاح.

١٠ً - أعلم الله جميع الأمة أنه سَنَّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سُنَّة الأنبياء الماضية، كداود وسليمان، فكان لداود مئة امرأة، وثلاث مئة سُرِّية، ولسليمان ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُرِّية.

١١ً - دلت آية ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ على أن محمداً ﷺ

ليس بأب شرعي لزيد، وليس زيد ابناً له، حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أمّته في التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، واعتراضهم بقولهم: تزوج النبي امرأة ابنه؛ وأعلم أن محمداً لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة.

ولم يقصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد، فقد ولد له ذكور كما تقدم: إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهّر، ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً. وأما الحسن والحسين فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له.

١٢ً - الحقيقة أن محمداً ﷺ كان رسول الله، وخاتم النبيين، وقوله ﴿وَخَاتَمَ﴾ بفتح التاء، بمعنى أنهم به ختموا، فهو كالخاتَم والطابَع لهم، وبكسر التاء: بمعنى أنه ختمهم، أي جاء آخرهم.

وهذا دليل قاطع على أنه لا نبي ولا رسول بعده ﷺ، وفيه وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منها ما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَل الأنبياء كمَثَل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لَبِنَة، فجعل الناس يدخلونها، ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضِعُ اللَّبِنَة، فأنا موضع اللَّبِنَة حيث جئت، فختمتُ الأنبياء» ونحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: «فأنا اللَّبِنَة وأنا خاتم النبيين» . ومنها ما أخرجه الصحيحان عن جبير بن مُطْعِم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» .

ومنها ما رواه أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي»

فشقّ ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشِّرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشِّرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة».

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا نبوة بعدي إلا ما شاء الله» قال ابن عبد البر: يعني الرؤيا - والله أعلم - التي هي جزء منها؛ كما قال ﷺ: «ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة».

وإتمام النبوات مشابه لإتمام الأخلاق، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وهذا كله ردٌّ قاطع على المتنبئين كالأسود العَنْسي باليمن، ومُسَيْلمة الكذَّاب باليمامة، وسَجَاح، وغيرهم من أدعياء النبوة الأفاكين، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢١-٢٢٢].

تعظيم الله تعالى وإجلاله بالأذكار والتسابيح الكثيرة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

البلاغة:

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي في أغلب الأوقات، ويشمل مختلف أنواع

التقديس والتمجيد والتهليل والتحميد ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أول النهار وآخره، وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أي بالرحمة ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بالاستغفار لكم، والاهتمام بما يصلحكم، والمراد بالصلاة المشتركة بين الله وملائكته: هو العناية بصلاح أمركم، وظهور شرفكم ورفعة شأنكم ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ ليديم إخراجه إياكم ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي كان الله وما يزال رحيماً بعباده المؤمنين، حتى اعتنى بصلاح أمرهم ورفع قدرهم وهو دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الله للمؤمنين بلسان الملائكة هي السلام، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أي يُحيّون ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبر، أو دخول الجنة ﴿سَلَـٰمٌ﴾ إخبار بالسلامة من كل مكروه وآفة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هي الجنة.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٣):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى﴾: أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٦] قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما أنزل الله تعالى عليك خيراً إلا أُشركنا فيه، فنزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾

المناسبة:

بعد بيان ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع الله وهو التقوى والإخلاص، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ وهو تحقيق الحرية والاستقرار الزوجي، أمر الله تعالى عباده المؤمنين بما أمر به أنبياءه المرسلين من تعظيم الله وإجلاله بذكره وتسبيحه في أغلب الأوقات ومختلف أنواع الطاعات، بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾ ليحقق لهم أجزل الثواب ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بكثرة ذكر ربهم تبارك وتعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم، لينالوا جزيل الثواب وجميل المآب، فيقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي يا أيها الذين أيقنوا وصدقوا بالله ورسوله اذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم ذكراً كثيراً، يملأ عليكم مشاعركم، في جميع الأحوال، ويحقق في نفوسكم خشية ربكم، ونزهوه عن كل ما لا يليق به أول النهار وآخره، أي في غالب الأوقات؛ لأن بداية الشيء ونهايته تشمل وسطه أيضاً بحكم الاستمرار، قال الزمخشري في تفسير ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أي في كافة الأوقات. وإنما ذكر هذان الوقتان لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار. قال رسول الله ﷺ فيما رواه الدارقطني: «اسم الله على فم كل مسلم» وروي «في قلب كل مسلم» وعن قتادة: «قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» .

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقكم،، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: ذكر الله عز وجل» .

ونظير الآية في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١] .

وقرن التسبيح بالذكر معناه: إذا ذكرتم الله تعالى، فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء، وهو المراد بالتسبيح.

ثم حرَّض تعالى على الذكر والتسبيح وأبان سببه فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ أي إن الله ربكم الذي تذكرونه وتسبحونه هو الذي يرحمكم، وملائكته تستغفر لكم، وهو بهذه الرحمة يريد هدايتكم وإخراجكم من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الحق والهدى والإيمان، وكان ربكم وما يزال رحيماً تام الرحمة بعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم، وأما في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

ومن مظاهر رحمته تعالى ما ورد في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أتُرَون هذه تُلْقي ولدها في النار، وهي تقدر على ذلك؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها» .

ثم ذكر تعالى دليل رحمته الشامل في الآخرة وعنايته فيها بعد بيان عنايته في الدنيا، فقال:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ تحيتهم من الله تعالى

بواسطة ملائكته يوم لقائه في الآخرة هو السلام، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٣٦/٥٨] وقال عز وجل: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ، سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ١٣/٢٣-٢٤].

وهيَّأ لهم ثواباً حسناً في الآخرة وهو الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والملاذّ والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - الحض على ذكر الله وشكره على نعمه، وتسبيحه في معظم الأحوال بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، دون تقدير بقدر معين أو تحديد بحدّ، ليسهل الأمر على العبد، وليعظم الأجر فيه. روى أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون».

٢ - إسباغ الرحمة الإلهية على المؤمنين وتسخير الملائكة للاستغفار لهم، بقصد هدايتهم وإخراجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الهدى واليقين. والصلاة من الله على العبد: هي رحمته له وبركته لديه، وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ [غافر: ٤٠/٧].

قال ابن عباس: لما نزل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٦] قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصَّة، وليس لنا فيه شيء؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾.

وقال القرطبي: وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم؛ ودليل على فضلها على سائر الأمم، وقد قال: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠].

ذكر النحاس حديثاً: أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أيُصلّي ربُّك جلَّ وعزَّ؟ فأعظم ذلك؛ فأوحى الله جل وعز: «إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي» .

٣ - قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى: معناه التثبيت على الهداية؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية. وقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ إخبار برحمته تعالى للمؤمنين وتأنيس لهم، فهو يرحمهم في الدنيا بهدايتهم إلى الحق، ويؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة، وتكون تحية الله لهم يوم القيامة بعد دخول الجنة: سلام، أي سلامة من عذاب الله، وقيل: عند الموت وقبض الروح.

قال ابن كثير: الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم، أي من الله تعالى يوم يلقونه: سلام، أي يوم يسلم عليهم، كما قال عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٣٦/٥٨] . وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير. وكذا قال القرطبي: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية بعضهم لبعض، ويؤيده قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠/١٠] .

مهام دعوة النبي ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ﴾:

وقرأ نافع (النبيء إنا) مع تسهيل الهمزة الثانية، وإبدالها واواً خالصة وصلاً.

﴿أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أن تُماسُّوهُنَّ).

الإعراب:

﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ كلها منصوبات على الحال. وقوله: ﴿وَسِرَاجًا﴾ أي وذا سراج؛ لأن الحال لا يكون إلا وصفاً للفاعل أو المفعول، والسراج ليس وصفاً؛ لأن النبي ﷺ لم يكن سراجاً حقيقة.

البلاغة:

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ تشبيه بليغ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، أي أنت يا محمد كالسراج المضيء في الهداية والإرشاد.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ توافق الفواصل. وكذا أيضاً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

المفردات اللغوية:

﴿شَٰهِدًا﴾ على من أرسلت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من صدَّقك وأطاعك بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من كذبك وعصاك بالنار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته وإلى طاعته ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيره وأمره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي كالسراج الوضاء يستضاء به، ويكون مثله في الاهتداء به ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأمم في الدنيا، وأجراً واسعاً على أعمالهم في جنات النعيم.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك، والمراد به التهييج والإثارة له على ما هو عليه من مخالفتهم، تحقيقاً لاستقلال الذات وصون الشريعة من الاختلاط. ويحتمل كون المراد به: الدوام والثبات على ما كان عليه ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي اترك إلحاق الأذى والضرر بهم، وخذ بظاهرهم، وحسابهم على الله في باطنهم .﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فوض أمرك إليه، فهو كافيك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ مفوضاً إليه الأمر في الأحوال كلها.

﴿نَكَحْتُمُ﴾ النكاح هنا العقد ﴿أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن، ويعبر عن الجماع في القرآن أدباً بالمس والملامسة والقربان والتغشي والإتيان ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي ليس عليهن انتظار أيام أو أقراء تستوفون عددها، يمتنعن فيها عن الزواج بآخرين، فالعدة: الشيء المعدود ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به، والمتعة سنة للمفروض لها المهر، وواجب لمن لم يفرض لها مهر وهي المفوضة في رأي الحنابلة والحنفية، وسنة فقط في غير المفوضة عند الجمهور، وواجبة لكل مطلَّقة عند الشافعية، إلا المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر، فإنه يكتفى لها بنصف المهر، وتكون المتعة سنة

مستحبة لها، وهي كسوة شاملة أو ثلاثون درهماً ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي خلّوا سبيلهن من غير إضرار ولا إيذاء؛ إذ ليس لكم عليهن عدة.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٧):

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا: لما نزل ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢/٤٨] قال رجال من المؤمنين: هنيئاً لك يا رسول الله، قد علمنا بما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا، فأنزل الله ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥/٤٨] . وأنزل في سورة الأحزاب ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس قال: لما نزلت: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩/٤٦] نزلت بعدها: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢/٤٨] فقالوا: يا رسول الله قد علمنا ما يُفْعل بك، فماذا يُفْعَل بنا؟ فنزل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ قال: الفضل الكبير: الجنة. وأخرجه أيضاً ابن جرير وعكرمة عن الحسن البصري.

المناسبة:

موضوع السورة متعلق بآداب النبي ﷺ، فبعد أن أمره الله تعالى بما ينبغي أن يكون عليه مع ربه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١/٣٣] وما ينبغي أن يكون عليه مع أزواجه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ أمره بما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

وكلما ذكر الله تعالى أدباً أو مكرمة للنبي ﷺ، ذكر للمؤمنين ما يناسبه، ففي مقابل أمر النبي ﷺ بالتقوى، أمر المؤمنين بالذكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وفي مقابل أدب الزوجات ذكر ما يتعلق بأزواج المؤمنين، ثم في الآيات التالية ذكر تعالى في مقابل بيان مهام النبي ﷺ أدب المؤمنين مع النبي ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٦].

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات سبع مهام للنبي ﷺ، فقال:

١-٣: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ أي يا أيها الرسول المنزل عليه الوحي، إنا بعثناك شاهداً على من أرسلت إليهم بتصديقك وتكذيبك، واتباع هداك ومخالفتك، أي متحملاً للشهادة في الدنيا، ومؤدياً لما تحمَّلته في الآخرة أمام ربك، وأرسلناك لتبشير من أطاعك بالجنة، ولإنذار من عصاك بالنار، فهذه ثلاث مهام من مهمات الدعوة المكلَّف بتبليغها إلى البشر كافة. ونظير الآية في الشهادة قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣] .

روى الإمام أحمد والبخاري وابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجَل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً» .

٤-٥: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ أي وداعياً الخَلْق إلى عبادة ربهم، وطاعته ومراقبته سراً وعلانية، بأمره إياه، والإقرار به، والإيمان

بما يجب له من صفات الكمال، وجعلناك ذا سراج أو كالسراج الوضاء الذي يستضاء به في الظلمات، ليهتدي بك الناس، ويستنيروا بشرعك في تحقيق سعادتي الدنيا والآخرة. فقوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ معناه: بأمره إياك، وتقديره ذلك في وقته وأوانه، ﴿وَسِرَاجًا﴾ معناه: ذا سراج، أو يكون كقول القائل: «رأيته أسداً» أي شجاعاً، فيكون قوله: ﴿وَسِرَاجًا﴾ أي هادياً مبيناً كالسراج، يُري الطريق ويبين الأمر، ويهدي الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

ومقتضى تشبيه النبي ﷺ بالسراج أن دينه أو أمره يكون ظاهراً واضح الحجة والبرهان، لا تعقيد فيه ولا التواء، ولا خفايا فيه ولا أستار.

وإنما شبّه بالسراج لا بالشمس التي هي أشد إضاءة من السراج؛ لأن ضوء الشمس يبهر العين، وأما ضوء السراج فترتاح له الأعين.

ووصف السراج بالإنارة؛ لأن بعض السرج لا يضيء لضعفه ودقة فتيلته.

٦ - ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ أي أعلن البشارة لكل من آمن برسالتك وأطاع شرعك بأن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وأجراً عظيماً لا يوصف في الدار الآخرة، وبعد البشارة أتى بالإنذار، فقال:

٧ - ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ أي لا تطع هؤلاء الذين كفروا برسالتك، أو نافقوا فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ولا تسمع منهم اعتراضاً أو نقداً في أمر الدعوة، ولا تأبه بهم، وبلِّغ رسالة ربك إلى الناس قاطبة، ودع عنك أذاهم، واصفح عنهم، وتجاوز عن سيئاتهم، وامض لما أمَرك به ربك، وفوِّض أمرك إلى الله تعالى في كل ما تعمل وتذر، وثق به، فإن فيه كفاية لهم، وهو حافظك وراعيك، وكفى بالله كافياً عبده. والوكيل: الحافظ القائم على الأمر. وفي هذا الكلام القوي وعد بالنصر.

وبعد بيان مهمات النبي ﷺ، عاد الكلام إلى قضايا الأزواج، فلما ذكر تعالى قصة زيد وزينب وتطليقه إياها، وكانت مدخولاً بها، واعتدت، وخطبها الرسول ﷺ بعد انقضاء عدتها، بيَّن حال من طلقت قبل الدخول (المسيس) وأنها لا عدة عليها، فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، إذا عقدتم عقد النكاح على النساء المؤمنات، ثم أوقعتم الطلاق عليهن من قبل الدخول بهن، فلا عِدَّة لكم عليهن بأيام تستوفون عددها، ولكن قدموا لهن بعد الطلاق تطييباً لخاطرهن متعة وهي كسوة تليق بكم وبهن بحسب الزمان والمكان، وطلقوهن طلاقاً لا ضرر فيه؛ إذ ليس لكم عليهن عدة. والجمال في التسريح: ألا يطالبها بما آتاها.

وتخصيص المؤمنات بالذكر في الآية إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة، فإنها أشد تحصيناً لدينه.

وقوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قيل بأنه واجب مختص بالمفوَّضة التي لم يسم لها مهر إذا طلقت قبل الدخول، وقيل: بأنه عام يشمل المفوضة وغيرها، والأمر إما أمر وجوب أو أمر ندب على حسب اختلاف العلماء، فمنهم من قال للوجوب، فيجب مع نصف المهر المتعة أيضاً، ومنهم من قال للاستحباب، فيستحب أن يمتّعها مع الصداق بشيء.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات الأحكام التالية:

أولاً - وصف النبي ﷺ بسبع صفات أو أسماء، فهو الشاهد على أمته

بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، وهو المبشر للمؤمنين برحمة الله وبالجنة، وهو المنذر للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد، وهو الداعي إلى الله بتبليغ التوحيد والأخذ به ومكافحة الكفرة، وهو نور كالسراج الوضاء بشرعه الذي أرسله الله به، وهو الذي بشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى، وهو ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة في الدين والممالأة، لكنه مأمور أيضاً أن يدع أذاهم مجازاة على إذايتهم إياه، فلا يعاقبهم، وإنما يصفح عن زللهم، معتمداً على الله وحده بنصر دينه وحفظه وتأييده وعصمته من الناس.

روى ابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً ومعاذاً فقال: «انطلقا، فبشِّرا ولا تنفرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، فإنه قد نزل علي الليلة آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ - بالجنة - ﴿وَنَذِيرًا﴾ - من النار - ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ - شهادة أن لا إله إلا الله - ﴿بِإِذْنِهِ﴾ - بأمره - ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ بالقرآن» .

ثانياً - قال القرطبي[1]: هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم. وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة، وقد سماه الله في كتابه محمداً وأحمد.

وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العدول عند الطبراني عن جابر: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» . وفي صحيح مسلم من

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٠٠

حديث جبير بن مُطْعِم: وقد سماه الله (رؤوفاً رحيماً). وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماء، فيقول: «أنا محمد وأحمد، والمقَفِّي (أي إنه آخر الأنبياء)، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»

وذكر القاضي ابن العربي في أحكامه (٣/ ١٥٣٤) بمناسبة هذه الآية سبعاً وستين اسماً للنبي ﷺ هي:

الرسول، المرسَل، النبي، الأمي، الشهيد، المصدِّق، النور، المسلم، البشير، المبشِّر، النذير، المنذر، المبين، الأمين[١]، العبد، الداعي، السراج المنير، الإمام، الذِّكْر، المذكِّر، الهادي، المهاجر، العامل، المبارك، الرحمة، الآمر، الناهي، الطيب، الكريم، المحلِّل، المحرِّم، الواضع، الرافع، المخبر، خاتم النبيين، ثاني اثنين، منصور، أُذُن خير، مصطفى، أمين، مأمون، قاسم، نقيب، مزمّل، مدثّر، العليّ، الحكيم، المؤمن، المصدِّق[٢]، الرؤوف، الرحيم، الصاحب، الشفيع، المشفَّع، المتوكل، محمد، أحمد، الماحي، الحاشر، المقفي، العاقب، نبي التوبة، نبي الرحمة، نبي الملحمة، عبد الله، نبي الحرمين. ذكر ذلك أهل ما وراء النهر.

فالرسول: الذي تتابع خبره عن الله، وهو المرسَل من ربه، والمرسِل غيره لتبليغ الشرائع إلى الناس مشافهة، والنبيء مهموز من النبأ وهو الخبر، وغير مهموز من النَّبْوة: وهو المرتفع من الأرض، فهو مخبر عن الله، رفيع القدر عنده، والأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، والشهيد: لشهادته على الخلق في الدنيا والآخرة، والمصدّق بجميع الأنبياء قبله، وصدّق ربه بقوله، وصدق قوله بفعله، والمنور: الذي نور الله به الأفئدة بالإيمان والعلم، وبدَّد ظلمات

---

(١) مكرر مع ما بعده (أمين) ويكون النبيء والنبي اسمين.

(٢) مكرر مع ما قبله، ويكون المرسَل والمرسِل اسمين.

الكفر والجهل، والمسلم: خير المسلمين وأولهم، والبشير: الذي أخبر الخلق بثوابهم إن أطاعوا وبعقابهم إن عصوا، والنذير والمنذر: المخبر عما يُخاف ويُحذر، والمبين: الذي أبان عن ربه الوحي والدين وأظهر الآيات والمعجزات، والأمين: الذي حفظ ما أُوحي إليه وما وظف به، والعبد: الذي ذلّ لله خلقاً وعبادة، والداعي الخَلْقَ إلى الحق وترك الضلال، والسراج: النور الذي يبصر به الخَلْقُ الرشد، والمنير: المنور، والإمام: المقتدى به المرجوع إلى قوله وفعله، والذِّكر: الشريف في نفسه، المشرِّف غيره، والمذكِّر: الذي يخلق الله على يديه الذّكر، أي تذكر الله، والهادي: الذي أبان النجدين، أي طريقي الخير والشر، والمهاجر: لأنه هجر ما نهى الله عنه، وهجر أهله ووطنه، والعامل: لأنه قام بطاعة ربه، ووافق فعلُه قولَه واعتقاده، والمبارك: الذي جعل الله في حاله زيادة الثواب، وفي حال أصحابه فضائل الأعمال، وفي أمته زيادة العدد على جميع الأمم، والرحمة: الذي رحم الله به العالمين في الدنيا من العذاب الشامل، وفي الآخرة بتعجيل الحساب، والآمر والناهي: المبلِّغ الأمر والنهي، والطيب: فلا أطيب منه، لسلامته عن خَبَث القلب وخبث القول وخبث الفعل. والكريم: الجواد على التمام والكمال، والمحلِّل والمحرِّم: مبيِّن الحلال والحرام، والواضع والرافع: الذي وضع الله به قوماً ورفع آخرين، والمخبر: النبيء، وخاتم النبيين: آخرهم، وثاني اثنين: أحد اثنين والآخر أبو بكر في غار جبل ثور، والمنصور: المُعان من قِبَل الله بالعزة والظهور على الأعداء، وأُذُن خير: لا يعي من الأصوات إلا خيراً ولا يسمع إلا الأحسن، والمصطفى: المخبر عنه بأنه صَفْوة الخلق، والأمين كما تقدم: المؤتمن على المعاني، والمأمون: الذي لا يُخاف من جهته شرّ، وقاسم: يقسم الزكوات والأخماس وسائر الأموال بين الناس، ونقيب: يتولى الأمور، ويحفظ الأخبار، وقد وصف نفسه للأنصار بذلك فقال: أنا نقيبكم، والمزمِّل: المتلفف بثيابه، والمدثر: المتغشّي بثيابه، والعلي: الرفيع القدر والمكان، الشريف الشأن، والحكيم: العامل بما علم، والمؤمن:

المصدِّق لربه اعتقاداً وفعلاً، والرؤوف الرحيم: لما أعطاه الله من الشفقة على الناس، والصاحب: الذي كان مع أتباعه حسن المعاملة، عظيم الوفاء، والشفيع المشفَّع: الراغب إلى الله في أمر الخلق بتعجيل الحساب، وإسقاط العذاب وتخفيفه، والمتوكل: الملقي مقاليد الأمور إلى الله علماً وعملاً، والمقفّي: العابد، ونبي التوبة: لأنه تاب الله على أمته بالقول والاعتقاد، دون تكليف بقتل أو إصر، ونبي الرحمة: المشفق على الناس، ونبي الملحمة: المبعوث بحرب الأعداء والنصر عليهم.

ثالثاً - يرى مجاهد أن الأمر بالعفو والصفح عن الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ منسوخ بآية السيف.

رابعاً - في آية ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أحكام كثيرة منها:

١ - المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك، فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعاً.

والمشهور عند الفقهاء أن العدّة ليست خالص حق العبد، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معاً؛ لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضاً، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلِّق؛ لأن الشرع أثبتها. والعدة شرعاً: المدة التي تنتظر فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل، أو للتعبد، أو للتفجع على زوج مات.

٢ - إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اتفق العلماء على أن المراد بالنكاح هنا العقد، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد. والنكاح في الأصل حقيقة في الوطء، لكن من أدب القرآن الكناية عن الوطء أو الجماع بلفظ: الملامسة والمماسّة والقربان والتغشّي والإتيان. وسمي العقد نكاحاً من حيث إنه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً؛ لأنه سبب في اقتراف الإثم.

٣ - إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها، وهذه الآية مخصِّصة لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨] ولقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٦٥/٤].

٤ - قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خرج مخرج الغالب من حال المؤمنين أنهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات، ولكن لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في إباحة الزواج بالاتفاق.

٥ - استدل جمهور العلماء منهم الشافعي وأحمد بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ بمهلة ﴿ثُمَّ﴾ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، ولا طلاق قبل النكاح، فمن طلق المرأة قبل نكاحها وإن عيَّنها، فلا يلزمه، فمن قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، أو إن تزوجت فلانة فهي طالق، لا يعدّ طلاقاً، فإذا تزوج لم تطلق زوجته حينئذ، سواء خصّ أو عمّ، وسواء أنجز أو علّق.

وسئل ابن عباس عن ذلك، فقال: هو ليس بشيء، فقيل له: إن ابن مسعود كان يقول: إن طلق ما لم ينكح فهو جائز، فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن، لو كان كما قال، لقال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا طلّقتُم المؤمناتِ، ثم نكحتُموهن) ولكن إنما قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾

وروى ابن ماجه عن علي والمِسْوَر بن مَخْرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل النكاح».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك».

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا فرق بين من خص أو عم؛ لأن الطلاق يقع في الملك، فإن عمّ، فقال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، تطلق منه، وهذا تعليق معنوي للطلاق على الملك، ومثله التعليق اللفظي: «إن تزوجت فلانة فهي طالق»[1]. أما تنجيز الطلاق على الأجنبية فلا يقع؛ لأن الطلاق الناجز لا يقع في غير الملك بالاتفاق.

وقال مالك رحمه الله: إن عمَّ لم يقع؛ لأنه ضيق على نفسه أنواع الزواج، والأمر إذا ضاق اتسع وإن عين امرأة بذاتها أو بقبيلة أو ببلد معين، يلزم ويقع.

٦ً - هل الخلوة قبل الدخول بمثابة الجماع؟

يرى الشافعي وأحمد أن الخلوة ليست كالجماع؛ لأن ظاهر التقييد بعدم المس في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ دليل على الفرق بين الخلوة والجماع؛ والمس كناية عن الجماع، كما بينا، والخلوة لا توجب ما يوجبه الجماع من العدة بعد الطلاق.

ويرى الحنفية والمالكية أن الخلوة الصحيحة كالجماع توجب العدة؛ لما رواه الدارقطني والجصاص والرازي في أحكام القرآن: «من كشف خمار امرأة، ونظر إليها، وجب الصداق، دخل بها أو لم يدخل».

وروي عن زُرارة بن أبي أوفى أنه قال: قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور، وأغلق الباب، فلها الصداق كاملاً، وعليها العدة، دخل بها أو لم يدخل.

والعدة عند الحنفية واجبة بعد الخلوة قضاء وديانة، فلا يحل للمرأة أن

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٦٤

تتزوج بزوج آخر قبل أن تعتد، ما دامت الخلوة بالأول كانت صحيحة، ولو من غير وقاع. ومنهم من يقول: إنه يحل لها ذلك متى كان الزوج لم يواقعها، أما في القضاء فلا اعتبار إلا بالظاهر.

٧ - استدلّ داود الظاهري بظاهر الآية على أنه لا عدّة على المرأة المدخول بها المطلقة الرجعية أو البائنة بينونة صغرى إذا راجعها زوجها أو عقد عليها قبل انقضاء عدتها، ثم طلقها قبل أن يمسها؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها، فليس عليها عدة جديدة للطلاق الثاني؛ لأنه طلاق قبل الدخول، وليس عليها أيضاً أن تكمل العدة الأولى؛ لأن الطلاق الثاني قد أبطل الطلاق الأول، ثم يكون لها نصف الصداق في صورة البينونة.

وقال عطاء بن أبي رباح والشافعي في أحد قوليه: يجب على المرأة في الحالتين أن تبني على عدة الطلاق الأول، ولا تستأنف عدة جديدة؛ إذ الطلاق الثاني لا عدة له، ولكن لا يبطل ما وجب بالطلاق الأول، فإنه طلاق بعد دخول، يجب أن تراعى فيه حكمة الشارع في إيجاب الاعتداد، وعلى الزوج نصف الصداق في صورة البينونة، كما قال الظاهرية.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي: يجب على المرأة أن تستأنف عدة جديدة في الحالتين؛ لأنه وإن لم يحصل دخول، فإن المرأة كان مدخولاً بها من قبل، وعلى الرجل في صورة البينونة مهر كامل بسبب كون المرأة مدخولاً بها.

وفرق المالكية بين الطلاق الرجعي والبائن، فأوجبوا على الرجعية أن تستأنف عدة كاملة؛ إذ إنها في حكم الموطوءة بعد المراجعة، ولم يوجبوا على البائن عدة؛ لأن النكاح بعد البينونة عقد جديد، فالطلاق بعده يصدق عليه أنه طلاق قبل الدخول، فلا يوجب عدة، لكنه لا يصح أن يهدم ما وجب على المرأة بالطلاق، فعليها أن تكمل العدة الأولى، ولها على المطلّق نصف المهر.

٨ - استدل الحسن البصري وأبو العالية بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ على إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول، سواء أفرض لها مهر أم لم يفرض، ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤١] .

وهذا مذهب الشافعية أيضاً، لكنهم استثنوا المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر، فإن لها نصف المهر فقط، والمتعة سنة مستحبة، ودليلهم قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧] فلم يذكر متعة، قال سعيد بن المسيب: هذه الآية ناسخة لآية الأحزاب: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

ويرى الحنفية والحنابلة أن المرأة المفوَّضة وهي التي لم يفرض لها مهر تجب لها المتعة، وأما غيرها فالمتعة لها سنة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٦] .

وجعل المالكية المتعة سنة مستحبة لكل مطلقة؛ لأنهم حملوا الأوامر الواردة في شأن المتعة كلها على الندب والاستحباب؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

والخلاصة: إن هناك تعارضاً بين آية البقرة وبين آية الأحزاب، وقد دفع بعض العلماء التعارض بجعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب أو ناسخة لعمومها، ويكون المعنى: فمتعوهن إن لم يكن مفروضاً لهن المهر في النكاح، وهو مذهب الحنفية والشافعية.

ومن العلماء من حمل المتعة في آية الأحزاب على العطاء مطلقاً، فيشمل نصف المفروض والمتعة المعروفة في الفقه، إلا أن ذلك الشيء في صورة الفرض مقدر بنصف المفروض بالنص، وفي صورة عدم الفرض غير مقدر، فإن اتفقا

على شيء فذاك، وإلا قدرها القاضي باجتهاده على حسب حال الزوجين يساراً وعسراً.

ومنهم من حمل الأمر في آية ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ على الإذن الشامل للوجوب والندب، مع بقاء المتعة على معناها المعروف، فيكون التمتيع واجباً في صورة عدم الفرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ ومستحباً في صورة الفرض الصحيح؛ لأنه من الفضل المندوب إليه عموماً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧] .

٩ - المتعة: كسوة كاملة، روى البخاري عن سهل بن سعد وأبي أُسيد رضي الله عنهما قالا: «إن رسول الله ﷺ تزوج أُميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين»[1].

---

(١) نوع من الثياب مشهور حينئذ.

النساء اللاتي أحلّ اللّه زواجهن بالنبي ﷺ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿تُرْجِى﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (ترجئ).

﴿لَّا يَحِلُّ﴾:

وقرأ أبو عمرو (لا تحل).

الإعراب:

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ منصوب بالعطف على ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾ وعامله: ﴿أَحْلَلْنَا﴾ أو منصوب بتقدير فعل، أي ويحل لك امرأة مؤمنة.

(أن وهبت) بالفتح إما بدل من (المرأة) أو على حذف حرف الجر، أي لأن وهبت.

﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ مصدر مؤكد أو حال من ضمير ﴿وَهَبَتْ﴾ أو صفة لمصدر محذوف، أي هبة خالصة.

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ متعلق بـ ﴿أَحْلَلْنَا﴾ أي أحللنا لك هذه الأشياء، لكيلا يكون عليك حرج، أي ضيق.

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ﴿كُلُّهُنَّ﴾: مرفوع؛ لأنه تأكيد للضمير الفاعل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ﴿مَا﴾: إما مرفوع على البدل من ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ وإما منصوب على أصل الاستثناء، وهو النصب، و﴿مَا﴾ في هذين الوجهين: اسم موصول يفتقر إلى صلة وعائد، فالصلة ﴿مَلَكَتْ﴾ والعائد محذوف للتخفيف. أو أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة:

﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً، تنويهاً بشأنه.

المفردات اللغوية:

﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن. ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي ما كان من الإماء بسبب السبي والغنيمة في الحرب كصفية وجويرية ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ردّه عليك. ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ من مكة إلى المدينة، بخلاف من لم يهاجرن. ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي إرادته أن ينكحها، فإن هبتها نفسها جارٍ مجرى القبول،

والاستنكاح: طلب النكاح والرغبة فيه .﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي خصوصية لك لشرف نبوتك واستحقاقك التكريم، وهو النكاح بلفظ الهبة من غير صداق، وبه احتج الشافعية على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة؛ لأن اللفظ تابع للمعنى، وقد خصّ عليه الصلاة والسلام بالمعنى، فيخص باللفظ.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام، من شرائط العقد، ووجوب المهر بالوطء إذا لم يسمَّ في العقد، ووجوب القسم بين الزوجات، وألا يزيدوا على أربع نسوة، ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر .﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء بشراء أو غيره من أصل رقيق لا من الأحرار، وبأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية، بخلاف المجوسية والوثنية، وأن تستبرأ بحيضة قبل الوطء .﴿لِكَيْلَا﴾ متعلق بـ ﴿أَحْلَلْنَا﴾ .﴿حَرَجٌ﴾ ضيق ومشقة .﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ فيما يعسر التحرز عنه. ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة في مظان الحرج.

﴿تُرْجِى﴾ تؤخر من الإرجاء: وهو التأخير، قرئ مهموزاً وغير مهموز، وهما لغتان، يقال: أرجيت الأمر وأرجأته: إذا أخرته .﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي من أزواجك عن نوبتها .﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ تضم وتضاجع .﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلبت .﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ تجنبت، من العزلة: الإزالة والتنحية من القسمة.﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ لا إثم عليك، في طلبها وضمها إليك. وهذا تيسير على النبي ﷺ بعد أن كان القسم واجباً عليه .﴿ذَٰلِكَ﴾ التخيير .﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أقرب إلى قرة أعينهن وارتياحهن، وتقرّ: تسرّ .﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من أمر النساء والميل إلى بعضهن، فاجتهدوا في الإحسان، وإنما خيرناك يا رسول الله فيهن تيسيراً عليك في كل ما أردت .﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه وبذات الصدور .﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يتقى.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد التسع التي اخترنك، وهو في حقه

كالأربع في حقنا، أو من بعد اليوم، حتى لو ماتت واحدة، لم يحل له نكاح أخرى. وقرئ: يحل وتحل بالياء والتاء، وعلى قراءة الياء؛ لأن تأنيث الجمع غير حقيقي .﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أي تتبدل، بأن تطلقهن كلهن أو بعضهن، ثم تتزوج بدل المطلقة. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسن الأزواج المستبدلة، وهو حال من فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾ .﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء، فتحل لك، وهو استثناء من النساء اللاتي يشملن الأزواج والإماء، وقيل: استثناء منقطع، وقد ملك ﷺ بعدهن مارية القبطية، وولدت له إبراهيم ومات في حياته .﴿رَّقِيبًا﴾ مراقباً ومحافظاً، فلا تتخطوا ما حدّ لكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٠):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾: أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه، فعذَرني، فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فلم أكن أحل له؛ لأني لم أهاجر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أم هانئ قالت: نزلت فيّ هذه الآية: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. أراد النبي ﷺ أن يتزوجني، فنُهي عني، إذ لم أهاجر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾: أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ الآية قال: نزلت في أم شريك الدوسية. وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ، وكانت جميلة، فقبلها، فقالت عائشة: ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك، فسماها الله

مؤمنة، فقال: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فلما نزلت هذه الآية، قالت عائشة: إن الله يسرع لك في هواك.

نزول الآية (٥١):

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾: أخرج الشيخان عن عائشة: أنها كانت تقول: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها! فأنزل الله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾ الآية، فقالت عائشة: أرى ربك يسارع لك في هواك.

وأخرج ابن سعد عن أبي رَزين العقيلي قال: همَّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك، جعلنه في حلّ من أنفسهن، يؤثر من يشاء على من يشاء، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية.

نزول الآية (٥٢):

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾: أخرج ابن سعد عن عكرمة قال: لما خيَّر رسول الله ﷺ أزواجه اخترن الله ورسوله، فأنزل الله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾. وهذا ما ذكره غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم: أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ، كما تقدم في الآية.

المناسبة:

سبق الكلام في أنكحة المؤمنين وأحكامها، وهنا خصص الكلام لنساء النبي ﷺ اللاتي يحل له نكاحهن، وقصر التحريم عليهن، وتخييره في القسم بين الزوجات دون إلزام، بالمبيت عند من يشاء، وترك البيتوتة عند من يريد،

وزواجه بهبة المرأة نفسها له بغير صداق، مما يجري مجرى القبول، وكل من ترك إيجاب القسم والزواج بلفظ الهبة خصوصية للنبي ﷺ دون بقية المؤمنين.

التفسير والبيان:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية أربع مجموعات أو فئات من النساء اللاتي أباح الله لنبيه الزواج بهن، وهذه هي الفئة الأولى وهي النساء الممهورات، والمعنى: يا أيها الرسول، إنا أبحنا لك الأزواج اللاتي أعطيتهن مهورهن، وهي الأجور هنا، والمرأة التي أوتيت مهرها أو صداقها أفضل وأولى ممن لم تأخذ صداقها، فهذه هي الحالة الكاملة التي بدأ النص بها، ويكون الأكمل إيتاء المهر كاملاً، دون تأخير شيء منه، وأما تأخير الناس الآن بعض المهر، فهو من مستحدثات العرف، بقصد الحذر، وبسبب التغالي في المهور وتعذر دفع كامل المهر.

وقد كان مهره ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصفاً، أي خمس مئة درهم فضة، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإن النجاشي رحمه الله أمهرها عنه أربع مئة دينار، وإلا صفية بنت حُيَيّ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جُوَيْرِيّة بنت الحارث المصطلقية أدى عنها نجوم كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس، وتزوجها.

٢ - ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وهذه هي الفئة الثانية من النساء، وهي الإماء المملوكات. وقد ملك ﷺ كما بيّنا صفية وجويرية، وريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم إبراهيم، وكانتا من السراري.

٣ - ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ أي وأحللنا لك من الأقارب بنات العم، وبنات العمات، وبنات

الخال، وبنات الخالة المهاجرات معك، دون غير المهاجرات. وهذه هي الفئة الثالثة التي شرط فيها كون المرأة مهاجرة، ولم تحل له غير المهاجرة كأم هانئ، كما تقدم. والمراد من بنات العم والعمة: القرشيات، فإنه يقال للقرشيين قربوا أم بعدوا: أعمامه ﷺ، ويقال للقرشيات قربن أم بعدن: عماته، والمراد من بنات الخال والخالة: بنات بني زهرة، وقد كان عند النبي ﷺ ستّ من القرشيات، ولم يكن عنده زهرية.

والحكمة في إفراد العم مجاراة مألوف العرب بإفراده في حال إضافة الابن والبنت له، وجاء الكلام في الخال على مثاله، وقيل: جاء الكلام في العمة والخالة بالجمع، وإن كانتا مضافين، لمكان تاء الوحدة، وهي تأبى العموم في الظاهر، وأما عدم الجمع في العم والخال فقد جاء على الأصل من إرادة العموم عند الإضافة.

٤ - ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة التي تهب نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك، وهذه هي الفئة الرابعة، وإباحتها بشرطين: هبة نفسها للنبي ﷺ، ورغبة النبي ﷺ في نكاحها، والزواج بلفظ الهبة من خصوصيات النبي ﷺ دون سائر المؤمنين، فله الزواج بها من غير مهر ولا ولي ولا شهود.

هذه هي الأصناف الأربعة التي أحلّها الله لنبيه: الممهورات، والمملوكات، والأقارب، والواهبات أنفسهن من غير مهر. والمراد بالإحلال: الإذن العام بالنكاح. ويلاحظ كما قال ابن عباس ومجاهد: «لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة» ، وأما المرأة التي وهبت نفسها له وهي أم شَريك الدوسية، فإنها لما قالت للنبي: وهبت نفسي لك، سكت عنها حتى قام رجل، فقال: زوّجنيها يا رسول الله، إن لم تكن لك بها حاجة. وكذلك وهبت

نساء أخريات أنفسهن للنبي ﷺ، ولكن لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها، أخرج ابن سعد: «أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها للنبي ﷺ، ووهب نساء أنفسهن، فلم نسمع أن النبي ﷺ قبل منهن أحداً».

فإن كانت الواهبة نفسها كافرة فلا تحل للنبي ﷺ، قال ابن العربي: والصحيح عندي تحريمها عليه، وبهذا يتميز علينا، فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظّه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أظهر، فجوز لنا نكاح الحرائر من الكتابيات، وقُصِر هو لجلالته على المؤمنات، وإذا كان لا يحلّ له من لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة، فأحرى ألا تحلّ له الكتابية الحرة، لنقصان الكفر[1].

أما لو وهبت امرأة نفسها لرجل غير النبي ﷺ، وهي المفوِّضة، وجب عليه لها مهر مثلها بالدخول أو بالموت، وقد حكم بذلك رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق، لما فوضت نفسها، ومات عنها زوجها، فقضى لها بصداق مثلها.

ثم أكد تعالى مضمون جملة ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ ببيان مغايرة أحكامه ﷺ لأحكام المؤمنين أحياناً، فقال:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إن ما ذكر حكمك أيها الرسول مع نسائك، وأما حكم أمتك مع نسائهم، فعندنا علمه، نبينه لهم على حسب مقتضى الحكمة والمصلحة، والمعنى: قد علم الله ما فرض من أحكام وشرائط وقيود في شأن أزواج المؤمنين والمملوكات، مما فيه صلاحهم وجعلهم غير النبي ﷺ في تلك الأحكام، من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شاؤوا من الإماء المؤمنات والكتابيات غير الوثنيات والمجوسيات، وعدم إباحة الزواج لهم بلفظ الهبة، واشتراط الولي والمهر والشهود.

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١٥٤٧

وهذه جملة اعتراضية تؤكد ما سلف وتبينه، ثم ذكر تعالى علة اختصاصه ﷺ ببعض الأحكام مثلما تقدم، وهو أننا أبحنا أو أحللنا لك ما ذكر من النساء والمملوكات والأقارب والواهبة، لندفع عنك الضيق والمشقة التي تلحقك، وتتفرغ لتبليغ الرسالة، وكان الله وما يزال غفوراً لك وللمؤمنين ما لا يمكن التحرز عنه، رحيماً بك وبهم بدفع الحرج والعَنَت (المشقة)، وعدم العقاب على ذنب تابوا عنه. وفي الجملة: إن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ آنس به تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته.

ثم أجاب الله تعالى عن غيرة بعض نساء النبي ﷺ مثل عائشة من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وعن تفويضهن أمر القسم للرسول ﷺ، فقال:

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي لك يا رسول الله الحرية المطلقة في القَسْم بين زوجاتك، فلك أن تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك، وتبيت مع من تشاء، لا حرج لك أن تترك القَسْم لهن، ولا يجب عليك قسم، بل الأمر لك، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت. ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي ومن طلبت إلى المبيت معك ممن تجنبت وتركت البيتوتة معهن، فلا إثم ولا حرج ولا ضيق عليك في ذلك، وكذلك لا ضير عليك في إرجاع من طلقت منهن.

ثم أبان الله تعالى سبب هذا التفويض للنبي ﷺ في الإيواء والإرجاء وأنه لمصلحتهن، فقال:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القَسْم وأنه غير واجب عليك، فإن شئتَ قسمتَ، وإن شئت لم تقسم، وأنت مع ذلك تقسم

لهن باختيارك لا جبراً عنك، فرحن بذلك، واستبشرن به، وقدرن جميلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن، وعدلك فيهن، ورضين كلهن بما تفعل، دون إقلاق ولا بلبلة.

ثم خاطب الله النبي ﷺ وأزواجه بطريق تغليب الذكور، فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي إن الله عليم تام العلم بالميل إلى بعضهن دون بعض، من غير اختيار، ومما لا يمكن دفعه، وكان الله وما يزال عليماً بما تخفيه النفوس، وتكتمه السرائر، حليماً يحلم ويغفر، فلا يعاجل المذنبين بالعقوبة، ليتمكنوا من التوبة والإنابة. وفي هذا حثّ على حسن النوايا، وسلامة الطوية، وتحسين معاملة النساء للتغلب على أثر الغيرة.

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فِعْلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» زاد أبو داود: يعني القلب.

ثم ذكر الله تعالى مجازاة نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله، فمنع طلاقهن، وحرَّم غيرهن عليه، فقال:

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي يحرم عليك أيها الرسول الزواج بغير هؤلاء النساء التسع اللاتي عندك الآن، جزاءً لاختيارهن الله ورسوله، أخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال: «لما خيَّرهنّ، فاخترن الله ورسوله ﷺ، قصره سبحانه عليهن».

وهذا هو الحكم الأول: تحريم بقية النساء عليه.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ وهذا هو الحكم الثاني: منع استبدالهن وتحريم طلاقهن، أي ولا يحلّ

لك أيها الرسول أن تتزوج غير اللاتي في عصمتك، وأن تستبدل بهن غيرهن، بأن تطلق واحدة منهن وتتزوج بدلها أخرى، وإن أعجبك حسنها، إلا ما ملكت يمينك من الإماء، مثل مارية القبطية التي أهداها المقوقس له، فتسرَّى بها، وولدت له إبراهيم ومات رضيعاً.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل على جواز النظر إلى المخطوبة، أخرج أبو داود أن النبي ﷺ قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها، فليفعل» . وقال المغيرة بن شعبة: «خطبتُ امرأةً، فقال لي النبي ﷺ: هل نظرتَ إليها؟ قلت: لا، قال: انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدَم بينكما» .

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي وكان الله وما يزال مطلعاً على كل شيء، عالماً مراقباً كل ما يكون من أحد وما يحدث في الكون، فاحذروا مخالفة أوامره، فإن الله يجازي كل امرئ بما عمل.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

ًا - إباحة أصناف أربعة من النساء للنبي ﷺ توسعة عليه، وتيسيراً له في تبليغ الرسالة، وهنّ:

أ - جميع النساء حاشا ذوات المحارم إذا آتاهن مهورهن، وهذا قول جمهور العلماء، بدليل ما أخرجه الترمذي عن عطاء قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله تعالى له النساء. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يتزوج في أي الناس شاء، وكان يشقّ ذلك على نسائه، فلما نزلت هذه الآية، وحرم عليه بها النساء إلا من سُمِّي، سُرَّ نساؤه بذلك.

وقد استنبط الكرخي من تسمية المهر أجراً جواز انعقاد النكاح بلفظ الإجارة، ولم يتابعه الحنفية في ذلك؛ لأن معنى الإجارة يتنافى مع عقد النكاح، إذ الإجارة عقد مؤقت، والنكاح عقد مؤبد يبطله التوقيت. ثم إن النكاح ليس عقد تمليك وإنما هو استباحة، وكذلك المهر في النكاح ليس عوضاً، وإنما هو عطية أوجبها الله تعالى، إظهاراً لخطر المحل.

ب - السراري مملوكات اليمين اللاتي ردّها الله عليه من غنائم الحرب المأخوذة على وجه القهر والغلبة في وقت كان السبي أو الاسترقاق مشروعاً في العالم، معاملة بالمثل.

ج - قريباته بنات العم والخال والعمة والخالة المهاجرات معه من مكة إلى المدينة، وهن بنات عمه العباس وغيره من أولاد عبد المطلب وبنات أولاد بنات عبد المطلب، وذلك يشمل القرشيات، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زُهرة. وقد كان عنده خمس قرشيات، ولم يكن عنده من أولاد الخال والخالة أحد.

والمراد بالمعية في قوله: ﴿مَعَكَ﴾ الاشتراك في الهجرة، لا في الصحبة فيها، فمن هاجر حلّ له، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن.

وذكر الله تعالى العم فرداً والعمات جميعاً، وكذا الخال والخالات لحكمة عدا ما ذكرنا هي: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك العمة والخالة، وهذا عرف لغوي.

د - النساء اللاتي وهبن له أنفسهن من غير مهر، وهن أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخَوْلة بنت حكيم. ولكن لم يكن عنده إحدى الواهبات أنفسهن له، إذ لم يقبل منهن أحداً.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ يدل على أن الكافرة لا تحلّ له، كما بيَّنا.

وقوله سبحانه: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة. وقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ دليل على أن الهبة لا تتم إلا بقبول النبي ﷺ، فإن قبل حلّت له، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك، كما إذا وهبت شيئاً لرجل، فلا يجب عليه القبول.

وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ دليل على أن انعقاد النكاح بلفظ الهبة من خصوصيات النبي ﷺ، وأن الهبة لا تحلّ لأحد بعد النبي ﷺ إن كانت هبة نكاح، ولا يحلّ للمرأة أن تهب نفسها لأحد، وهذا قول جمهور العلماء.

وقال الحنفية والمالكية: ينعقد النكاح لغير النبي ﷺ بلفظ الهبة، ويكون للمرأة ما سمي من المهر في العقد، ومهر المثل إن لم يسمّ شيء، وللمفوضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول.

ومنشأ الخلاف هو في معنى قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ فذهب جماعة إلى أن الخصوصية في انعقاد النكاح بلفظ الهبة للنبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ وقوله: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. وهذا رأي الجمهور.

وذهب آخرون إلى أن الخصوصية الواردة في الآية هي في نكاح الواهبة بغير مهر، أما عقد النكاح بلفظ الهبة فكان جائزاً للنبي ﷺ وأمته على السواء، أي إن الخصوصية في المعنى دون اللفظ؛ لأن الله تعالى أضاف لفظ الهبة إلى المرأة بقوله: ﴿وَهَبَتۡ﴾ وأضاف إلى النبي ﷺ إرادة الاستنكاح، فدلت المخالفة على أن المراد مدلول اللفظ الذي من جانب المرأة، وهو ما يدل عليه لفظ الهبة من ترك العوض.

٣ً - ذكر ابن العربي والقرطبي[١] بمناسبة هذه الخصوصية ما خصّ الله تعالى به رسوله من أحكام في الشريعة لم يشاركه فيها أحد، سواء في مجال الفرض أو التحريم أو الإباحة، ففرضت عليه أشياء لم تفرض على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وأبيحت له أشياء لم تبح لهم.

فأما ما اختص به من الفرائض فهو تسعة:

الأول - التهجد بالليل؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٧٣/ ١-٢] ، والصحيح أنه كان واجباً عليه ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩] .

الثاني - الضحى. الثالث - الأضحية. الرابع - الوتر. الخامس - السواك. السادس - قضاء دين من مات معسراً. السابع - مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن - تخيير النساء. التاسع - إذا عمل عملاً أثبته.

وأما ما اختص به مما حرّم عليه فهو عشرة:

الأول - تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني - صدقة التطوع عليه، وفي آله اختلاف. الثالث - خائنة الأعين: وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو ينخدع عما يجب. الرابع - حرّم الله عليه إذا لبس لأْمته (درعه) أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه. الخامس - الأكل متكئاً. السادس - أكل الأطعمة كريهة الرائحة. السابع - التبدل بأزواجه. الثامن - نكاح امرأة تكره صحبته. التاسع - نكاح الحرّة الكتابية. العاشر - نكاح الأمة.

وحرَّم الله عليه أشياء لم يحرِّمها على غيره تنزيهاً له وتطهيراً، فحرَّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه، تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته؛ قال الله تعالى:

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١٥٤٩ - ١٥٥٣، تفسير القرطبي: ١٤/ ٢١١ - ٢١٣

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٨]. وهذا هو المشهور. وذكر النقاش أن النبي ﷺ ما مات حتى كتب.

وحرَّم عليه أن يمدَّ عينيه إلى ما متَّع به الناس؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١] .

وأما ما اختص به مما أُحِلَّ له فهو ستة عشر:

الأول - صَفِيّ المغنم. الثاني - الاستقلال بخمس الخمس أو الخمس. الثالث - صوم الوصال. الرابع - الزيادة على أربع نسوة. الخامس - النكاح بلفظ الهبة. السادس - النكاح بغير ولي. السابع - النكاح بغير صداق. الثامن - نكاحه في حالة الإحرام. التاسع - سقوط القَسْم بين الأزواج عنه. العاشر - إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها؛ وحلّ له نكاحها. هذا ما قاله إمام الحرمين. وقد بيَّنا في قصة زيد بن حارثة أن هذا لا يليق بمنصب النبوة، وكل ما روي مما فيه مساس بذلك هو ساقط غير معتبر ولا دليل عليه(١).

الحادي عشر - أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها. الثاني عشر - دخوله مكة بغير إحرام، وفي حقنا فيه اختلاف. الثالث عشر - القتال بمكة. الرابع عشر - أنه لا يورث، ويصبح ملكه صدقة. الخامس عشر - بقاء زوجيته من بعد الموت. السادس عشر - إذا طلَّق امرأة تبقى حرمته عليها، فلا تُنكح.

وأُبيح له ﷺ أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك، لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦] ، وعلى كل أحد من المسلمين أن يَقِيَ النبي ﷺ بنفسه، وأبيح له أن يحمي لنفسه.

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ١٥٣١

وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجعلت الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً، وكان من الأنبياء من لا تصح صلاتهم إلا في المساجد، ونُصِر بالرُّعْب، فكان يخافه العدو من مسيرة شهر، وبُعث إلى كافة الخلق، وقد كان من قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض.

وجُعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة. وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجار الماء من الصخرة. وقد انشق القمر للنبي ﷺ، وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ. وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وقد سبَّح الحصى في يد النَّبي ﷺ، وحنَّ الجِذْع إليه؛ وهذا أبلغ. وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة، ولهذا جعلت نبوته مؤبدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة.

٤ً - لم يكن القَسْم بين الزوجات واجباً على النبي ﷺ، توسعةً عليه في ترك القَسْم وإباحة له، وإنما كان مخيراً في أزواجه ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم بينهن، دون فرض، تطييباً لنفوسهن، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي. وهذا أصح ما يراد بالآية.

وقيل: كان القَسْم واجباً على النبي ﷺ، ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية. قال أبو رَزين: كان رسول الله ﷺ قد هَمَّ بطلاق بعض نسائه، فقلن له: اقسم لنا ما شئت، فكان ممن آوى: عائشة وحفصة وأم سَلَمة وزينب، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن. وكان ممن أرجى سودة وجُوَيْرِية وأم حبيبة وميمونة وصفية؛ فكان يقسم لهن ما شاء.

٥ً - قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ بيان الحكمة في التخيير بالقَسْم، قال قتادة وغيره: أي ذلك التخيير الذي خيَّرناك في صحبتهنّ أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرَّت أعينهن بذلك ورضين؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حقّ له في شيء، كان راضياً بما أوتي

منه وإن قلَّ. وإن علم أن له حقّاً لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غَيْرته عليه، وعَظُم حرصه فيه، فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه.

وكان ﷺ مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن، تطييباً لقلوبهن، كما قدّمنا، ويقول فيما رواه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها: «اللهم هذه قدرتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» ، يعني ميل قلبه؛ لإيثاره عائشة رضي الله عنها، دون أن يكون ذلك ظاهراً في شيء من فعله. وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت عائشة. أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: «أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرَّض في بيتها - يعني بيت عائشة - فأذِنَّ له» وفي الصحيح أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: «أين أنا اليوم، أين أنا غداً؟» استبطاء ليوم عائشة رضي الله عنها، قالت: فلما كان يومي قبضه الله بين سَحْري ونَحْري[1]، ﷺ.

٦ً - على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوماً وليلة، ولا يُسقِط حق الزوجة مرضُها ولا حَيْضها، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته، إلا أن يَعْجز عن الحركة، فيقيم حيث غلب عليه المرض، فإذا صحَّ استأنف القَسْم. والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء، وأما السراري فلا قَسْم بينهن وبين الحرائر. روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» .

---

(١) أي بين جنبي وصدري. والسحر: الرئة، أطلق على الجنب مجازاً، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه، والنحر: الصدر.

ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة، ويجوز عند الأكثرين دخوله لحاجة وضرورة.

قال مالك: ويعدِل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل. فأما الْحُبُّ والبغض فخارجان عن الكسب، فلا يتأتى العدل فيهما، وهو المعنيّ بقوله ﷺ في قَسْمه: «اللهم هذا فِعْلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ٤/١٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥١].

٧ - قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ خبر عام، يدخل فيه الإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص، ويدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. أخرج البخاري عن عمرو بن العاص «أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحبّ إليك؟ فقال: عائشة، فقلت: من الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً»

والقلب قد يكون مصدر خير أو شر، يروى أن لقمان الحكيم كان عبداً نجاراً قال له سيده: اذبح شاة وائتني بأطيبها بَضْعتين، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاة أخرى، فقال له: ألق أخبثها بَضْعتين، فألقى اللسان والقلب. فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين، فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تُلقي بأخبثها بضعتين، فألقيت اللسان والقلب؟! فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا.

٨ - حُظر على النبي ﷺ أن يتزوج على نسائه؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ويكون ذلك قصراً للنبي ﷺ على أزواجه مجازاة لهن، وشكراً

على هذا الاختيار، كما قصرهن الله عليه إكراماً له في قوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣].

وقيل: إن هذه الآية منسوخة بالسنة، وهو حديث عائشة، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلَّ له النساء. وبه قال الشافعي وقيل: إنها منسوخة بآية أخرى، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء من شاء؛ إلا ذات مَحْرم، وذلك قوله عز وجل: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

والراجح أن الآية محكمة غير منسوخة؛ لأن حديث عائشة كما قال ابن العربي حديث ضعيف واهٍ، أي شديد الضعف[1]. وأما نسخها بآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ فقال فيه بعض فقهاء الكوفة: محال أن تَنْسَخ هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

وأما القول بأن الترتيب في التلاوة ليس دليل الترتيب في النزول، فهو صحيح، لكن النسخ في الحقيقة يتطلب أمرين: ثبوت تأخر الناسخ عن المنسوخ، وأن يكون بينهما تعارض. وهذان لم يتوافرا هنا.

٩ - ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ ناسخ لما كان قد ثبت له ﷺ من أنه إذا رأى واحدة، فوقعت في قلبه موقعاً كانت تحرم على الزوج، ويجب عليه طلاقها. وهو دليل على منع تبديل زوجات النبي ﷺ اللاتي اخترنه وهن تسع.

قال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله، يقول أحدهم: خذ زوجتي وأعطني زوجتك.

---

(١) أحكام القرآن: ٣/١٥٥٩

ولكن أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري: وما فعلت العرب قط هذا.

١٠ً - قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل كما تقدم على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها، وقد أراد المغيرة بن شُعْبة زواج امرأة، فقال له النبي ﷺ فيما رواه الخمسة (أحمد وأصحاب السنن الأربعة) عن المغيرة: «انظر إليها فإنه أجدر أن يُؤْدَم[1] بينكما» وأخرج البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال لآخر: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً» أي صفرة أو زرقة أو رمص.

والأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها، فلعله يرى منها ما يرغّبه في نكاحها، بدليل ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها، فليفعل» فقوله: «فإن استطاع فليفعل» لا يقال مثله في الواجب. وهذا قول جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والظاهرية وغيرهم.

واختلف العلماء فيما يجوز أن ينظر منها، فقال مالك: ينظر إلى وجهها وكفّيها، ولا ينظر إلا بإذنها. وقال الشافعي وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة. وقال الأوزاعي: ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها. وأما قول داود الظاهري: ينظر إلى سائر جسدها، تمسكاً بظاهر اللفظ، فأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة.

١١ً - ظاهر عموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يدل على إحلال الأمة الكافرة للنبي ﷺ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم.

---

(١) أي يؤلف ويوفق.

والأصح أن الكافرة لا تحلّ له، تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١٠] فكيف به ﷺ؟!

١٢ً - إن الذي استقر عليه عدد أزواج النبي ﷺ كما تقدم هو تسع نسوة مات عنهن النبي ﷺ، ولم يكن هذا التعدد لغرض جنسي أو شهواني، وإنما من أجل غاية أسمى هي نشر الدعوة الإسلامية، وتأليف القبائل العربية وترغيبهم في قبول عقيدة الإسلام، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ ظلَّ على زوجة واحدة هي السيدة خديجة بنت خويلد حتى نهاية الرابعة والخمسين، وفي هذه السن تفتر الرغبة الجنسية عادة، وقد تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي ثيِّب بنت أربعين سنة، ومنها رزق الأولاد، وماتت وهي في سن الخامسة والستين. ثم تزوج بعد خديجة سودة بنت زمعة.

وتزوج بعائشة البكر الوحيدة تقديراً لجهود وتضحيات والدها أبي بكر، وتزوج حفصة حباً في عمر، وتقديراً لصدقه وجهاده، مع أنها لم تكن جميلة، وكان زواجه بأم سلمة ذات الأولاد الكثر وفي سن كبيرة تعويضاً عن مصابها بزوجها الذي هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وتزوج سَوْدة بنت زمعة العجوز المسن أرملة السكران بن عمرو وفاء له لموته في سبيل الدفاع عن الحق في الحبشة التي هاجر إليها هرباً من أذى المشركين، وتزوج زينب بنت جحش لإبطال عادة التبني وإلغاء جميع آثاره بتزويج الله له كما بينا، وأم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش التي أسلمت قبل أبيها وهاجرت إلى الحبشة، وقد أصدقها النجاشي أربع مئة دينار عن النبي ﷺ، تزوجها إكراماً لها وتقديراً لإخلاصها وصدقها، وصفية بنت حُيَيّ بن أخطب زعيم اليهود تزوجها رأفة بها بعد سبيها، وجويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق، تزوجها بعد سبيها وإعتاقها وكان عمرها زهاء خمسين عاماً، فآمنت قبيلتها بالإسلام، وكانت سبباً في إسلام خالد بن الوليد البطل الشهير.

هذه هي الأسباب الخاصة بالزواج من أمهات المؤمنين، أما الأسباب العامة فتتلخص في أن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر، ونشر دعوة الإسلام في مبدأ أمرها بحاجة إلى الأعوان، وكان المؤمنون يرون أن أعظم شرف مصاهرتهم للنبي ﷺ وقربهم منه، كما أن تشريعات الإسلام الخاصة بالنساء تحتاج معرفتها إلى نسوة يبلغن الأحكام إلى المسلمات، فكانت أزواج النبي ﷺ يقمن بهذه المهمة.

وأما أسباب تعدد الزوجات لغير النبي ﷺ فهي كثيرة، منها: إصابة المرأة بالعقم أو بالمرض الفتاك، المعدي أو المزمن، ومنها: قلة الرجال أحياناً كما يحدث عقب الحروب، ومنها: الترغيب في كثرة النسل لتقوية الإسلام، ومنها تفاقم الرغبة الجنسية أحياناً عند بعض الرجال.

آداب دخول البيت النبوي وحجاب نساء النبي ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ
غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ
لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ
ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ
وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ
بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ
إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ
وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتَ﴾: قرئ:

١- (بُيوت) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوت) وهي قراءة الباقين.

﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ :

وقرأ نافع (النبيء).

﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ :

وقرأ ابن كثير، والكسائي، ووقفاً حمزة (فَسَلُوهُنَّ).

الإعراب:

﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ﴿غَيۡرَ﴾ منصوب على الحال من واو ﴿تَدۡخُلُوا۟﴾.

﴿أَن تُؤۡذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَن﴾ وصلتها: في موضع رفع اسم ﴿كَانَ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟﴾ لأنه عطف عليه.

البلاغة:

﴿لَا تَدۡخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الإضافة للتشريف.

﴿فَٱدۡخُلُوا۟﴾ ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿تُبۡدُوا۟﴾ ﴿تُخۡفُوهُ﴾.

﴿فَيَسۡتَحۡیِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡیِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿بِكُلِّ شَیۡءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَیۡءٍ شَهِيدًا﴾ عليم وشهيد على وزن فعيل للمبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ أي إلا وقت أن يؤذن لكم في الدخول بالكلام

أو الإشارة، أو إلا مأذوناً لكم. ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن؛ لأنه متضمن معنى (يدعى) للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن بالدخول، لقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ غير منتظرين نضجه أو وقته وإدراكه. وأَنَىً: هو مصدر: أنى يأني، أي أدرك وحان نضجه. ﴿فَانتَشِرُوا﴾ تفرقوا ولا تمكثوا. ﴿مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي مستمعين لحديث أهل البيت أو لبعضكم بعضاً. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المكث أو اللبث. ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله واشتغاله فيما لا يعنيه. ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ من إخراجكم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا يترك بيان الحق وهو الأمر بخروجكم.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي سألتم أزواج النبي ﷺ. ﴿مَتَاعًا﴾ شيئاً محتاجاً إليه ينتفع به. ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر الشيطانية المريبة. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صحَّ لكم. ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أن تفعلوا ما يكرهه. ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ذنباً عظيماً.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من التحدث بزواجهن بعده. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم ذلك، فيجازيكم عليه. قال البيضاوي: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل، ومبالغة في الوعيد.

﴿لَّا جُنَاحَ﴾ لا إثم. ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء. ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا تخفى عليه خافية.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٣):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾: أخرج أحمد والشيخان وابن جرير

والبيهقي وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جَحْش، دعا القوم، فطَعِمُوا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة، ثم انطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾».

وأخرج الترمذي وحسنه عن أنس قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فأتى باب امرأة عَرَّس بها، فإذا عندها قوم، فانطلق، ثم رجع، وقد خرجوا، فدخل، فأرخى بيني وبينه ستراً، فذكرته لأبي طلحة، فقال: لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء، فنزلت آية الحجاب.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ في قَعْب، فمرَّ عمر، فدعاه، فأكل، فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: أوَّه لو أُطاع فِيكُنَّ، ما رأتْكُنَّ عَينٌ، فنزلت آية الحجاب. وفي رواية البخاري: أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: دخل رجل على النبي ﷺ، فأطال الجلوس، فخرج النبي ﷺ ثلاث مرات ليخرج، فلم يفعل، فدخل عمر، فرأى الكراهية في وجهه، فقال للرجل: لعلك آذيت النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني فلم يفعل، فقال له عمر: يا رسول الله، لو اتخذت حجاباً، فإن نساءك لسن كسائر النساء، وذلك أطهر لقلوبهن، فنزلت آية الحجاب. وفي رواية: «بقي ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا».

قال الحافظ ابن حجر: يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب، فلقربه منها أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب، ولا مانع من تعدد الأسباب.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾: قال البيضاوي: الآية خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون ويقعدون، منتظرين لإدراكه، مخصوصة بهم وبأمثالهم، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام، ولا اللبث بعد الطعام لِمُهمّ. أخرج عبد بن حميد عن أنس قال: كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبي ﷺ، فيجلسون فيتحدثون ليُدرك الطعام، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان ابن أرقم قال: نزلت هذه في الثقلاء، ومن ثم قيل: هي آية الثقلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: أخرج ابن زيد قال: بلغ النبي ﷺ أن رجلاً يقول: لو قد توفي النبي ﷺ تزوجت فلانة من بعده، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وأخرج ابن زيد أيضاً عن ابن عباس قال: نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال سفيان: ذكروا أنها عائشة. وأخرج عن السدّي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا، ويتزوج نساءنا، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده، فأنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر عن محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة بن عبيد الله؛ لأنه قال: إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة.

وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلمها وهو ابن عمها، فقال النبي ﷺ: لا تقومَنَّ هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول الله: إنها ابنة عمي، والله ما قلت منكراً، ولا قالت لي، قال النبي ﷺ: قد عرفت ذلك، إنه ليس أحد أغْير من الله، وإنه ليس أحد أغير مني،

فمضى، ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي؟ لأتزوجنها من بعده، فأنزل الله هذه الآية. قال ابن عباس: فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله، وحجَّ ماشياً، توبة من كلمته.

والخلاصة: رويت روايات كثيرة في أسباب نزول هذه الآيات قال فيها أبو بكر بن العربي: إنها ضعيفة كلها ما عدا الذي ذكرنا - أي رواية أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس - وما عدا الذي روي أن عمر قال: قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البَرّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب.

وقد كان سبب نزول أدب الطعام والجلوس وليمة النبي ﷺ عند زواجه بزينب، وسبب نزول الحجاب بسبب القعود في بيت زينب.

المناسبة:

بعد بيان حال النبي ﷺ مع أمته بأنه المبشر المنذر الداعي إلى الله تعالى، أبان الله تعالى حال المؤمنين مع النبي ﷺ، فكما أن دخولهم الدين كان بدعوته، كذلك لا يكون دخول بيته إلا بدعوته، إرشاداً إلى الأدب معه واحترامه وتوفير راحته في بيته، ثم تعظيمه بين الناس بالأمر بعد هذه الآيات بالصلاة والسلام عليه.

ولا يقتصر الأدب معه على الدخول إلى بيته، بل يشمل الخروج منه بعد انتهاء الحاجة من استفتاء أو تناول طعام، فذلك حق وأدب، ثم ذكر الله أدباً آخر، وهو طلب شيء من الحوائج من نساء النبي ﷺ مع وجود حجاب أو ستر أو حائل. ومناسبة هذا لما قبله أنه لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي ﷺ، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى استعارة بعض الحوائج، بيَّن أن ذلك غير ممنوع منه، وإنما يجب أن يكون السؤال والطلب من وراء حجاب.

التفسير والبيان:

تضمنت هذه الآيات آداباً عامة في الدخول إلى البيوت والخروج منها، والحجاب وعدم الاختلاط وتحريم إيذاء النبي ﷺ وزواج نسائه من بعده.

وهي مما وافق الوحي فيها وتنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥] . وقلت: يا رسول الله، إن نساءكَ يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وقلتُ لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٥] نزلت كذلك.

وآية الحجاب هذه - كما ذكر قتادة والواقدي - نزلت في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، وقد صُدِّرت الآية بأدب اجتماعي يدفع الحرج عن النبي، فقال تعالى:

١ً - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله ربّاً وبمحمد رسولاً إياكم أن تدخلوا بيتاً من بيوت النبي ﷺ في كل الأحوال إلا في حال كونكم مصحوبين بالإذن بأن دعيتم إلى وليمة طعام، غير منتظرين وقت نضجه واستوائه، فإذا تمَّ النضج وتوافر الإعداد فادخلوا حينئذ.

وهذا قوله تعالى:

٢ً - ﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ إذا دعاكم الرسول ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا تناولتم

الطعام الذي دعيتم إليه فتفرقوا ولا تمكثوا فيه من أجل تبادل أطراف الحديث والتحدث في شؤون الدنيا.

وهذا دليل على حظر المؤمنين من دخول منازل النبي ﷺ بغير إذن، وعدم ارتقاب نضج الطعام، وعلى حرمة التطفل، وعلى عدم البقاء في البيوت بعد الأكل، للاشتغال بلهو الحديث بعضهم مع بعض أو مع أهل البيت، فذلك أمر غير مرغوب فيه، ونوع من الثقل غير محمود؛ لأن أهل البيت بحاجة إلى التفرغ لتنظيف الأواني والراحة من عناء إعداد الطعام، لذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن عقبة بن عامر: «إياكم والدخول على النساء» وعلّل تعالى طلب مغادرة البيوت بعد الطعام بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي إن بقاءكم واشتغالكم بالحديث والدخول قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي - وإيذاؤه حرام - ويشق عليه، لمنعه من قضاء بعض حاجته، ولما فيه من المضايقة لأهل البيت، ولكن كان النبي ﷺ يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ﷺ، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، والله لا يترك بيان الحق وهو الأمر بالخروج ومنعهم من البقاء والمكث. وهذا أدب عام لا يقتصر على النبي ﷺ، وإنما يشمل سائر المؤمنين. ويحرم اللبث إذا كان فيه إيذاء لصاحب البيت.

وقد نصت آيات سورة النور [٢٧-٣١] على بيوت المؤمنين وآية الأحزاب [٥٩] في حجاب نسائهم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾.

٣ - ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي ﷺ من غير إذن ودون انتظار إدراك الطعام، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي ﷺ، فإذا طلبتم منهن شيئاً ينتفع به، من ماعون وغيره، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر، وحائل مانع من النظر.

وسبب النهي عن ذلك، والأمر بالحجاب كما قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي إن هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الدخول بالإذن، والخروج عقب الطعام دون الاستئناس بالحديث، والحجاب أطهر وأطيب للنفس، وأبعد عن الريبة والتهمة والفتنة، وأكثر طمأنينة للقلوب من الهواجس والوساوس الشيطانية.

ولما علَّم الله المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرَّم، أكده بما يحملهم على محافظته، فقال:

٤ - ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ أي ما صحَّ وما ينبغي لكم أن تكونوا سبباً في إيذاء رسول الله ﷺ، أو تفعلوا فعلاً يضايقه ويكرهه، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث، فكل ما منعتم عنه مؤذ، فامتنعوا عنه، فإنه ﷺ حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبداً بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق، تعظيماً له، ولأنهن أمهات المؤمنين، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن إيذاء الرسول ﷺ ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر، وتشديد فيه وتوعد عليه، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال:

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ أي إن تظهروا شيئاً من الأذى أو تكتموه، فإن الله عليم علماً تاماً دقيقاً به، يعلم ما تكنّه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، ولا تخفى عليه خافية: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩/٤٠] وهو مجازٍ كل إنسان بحسب ذلك العلم.

ثم استثنى الله تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء، فقال:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ أي لا إثم على أزواج النبي ﷺ في ترك الحجاب أمام آبائهن وأجدادهن، سواء من جهة النسب أم من جهة الرضاع، أو أبنائهن من النسب أو الرضاع، أو إخوانهن الأشقاء أو لأب أو لأم، أو أبناء إخوانهن أوأبناء أخواتهن، أو أمام النساء المؤمنات القريبات أو البعيدات، أو الأرقاء من الذكور والإناث، إبعاداً للحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة. ثم ختمت الآية بما ينبه على زيادة الحذر والتقوى، فقال تعالى فيما معناه:

واخشين الله في السرّ والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبنه، فإنه يجازي على كل عمل من خير أو شر؛ لأنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينة كل شيء، وفي ذلك منتهى التحذير من مخالفة الأوامر والنواهي.

ونساء المؤمنين كنساء النبي ﷺ في ذلك، بدليل آية النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [٣١].

وأما السبب في عدم ذكر العم والخال في هاتين الآيتين فهو - كما ذكر عكرمة والشعبي - لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما، أو لأن العم والخال بمنزلة الوالدين، وقد يسمى العم أباً، كما قال تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات الأحكام التالية:

١ - الأدب في أمر الطعام والجلوس، فلا يجوز دخول بيت النبي ﷺ إلا بالإذن، والدخول حرام إلا لأجل الأكل ونحوه، وظاهر الآية حرمة مكث المدعو بعد تناول الطعام إذا كان ذلك مؤذياً لصاحب البيت.

ودخل في النهي سائر بيوت المؤمنين، فلا يجوز دخولها إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار الطعام.

٢ - يجب التفرق والخروج من البيت والانتشار في أرض الله تعالى بعد تناول الطعام، وانتهاء المقصود من الأكل ونحوه، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ والمراد من الأمر: إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل، بدليل أن الدخول من غير إذن حرام، وإنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح، وعاد التحريم إلى أصله.

٣ - قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دليل على أن البيت للرجل، ويحكم له به، فإن الله تعالى أضافه إليه إضافة ملك. وأما الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٤] فهي إضافة محل، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي ﷺ، والإذن إنما يكون للمالك.

وأما سكنى نساء النبي ﷺ في بيوته في حياته وبعد موته من غير تملك، فهو حق لهن على الصحيح؛ فإن ذلك من مؤونتهن التي كان رسول الله ﷺ استثناها لهن، كما استثنى لهن نفقاتهن حين قال فيما رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر وعثمان وغيرهما: «لا تقتسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركتُ بعد نفقة أهلي ومؤونة عاملي، فهو صدقة» ويدل لذلك أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثتهن، ولو كان ذلك ملكاً لهن كان لا

شكَّ قد ورثه عنهن ورثتهن، وعدم الإرث دليل على أنها لم تكن ملكاً لهن، وإنما كان لهن سكنى حياتهن، فلما توفَّين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعمّ المسلمين نفعه، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله ﷺ، فزيد إلى أصل المال، فصرف في منافع المسلمين مما يعمّ جميعَهم نفعُه.

٤ً - قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ خصَّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب، قال ابن العربي: وتقدير الكلام: ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول[1].

٥ً - في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ دليل آخر في غير إلزام الخروج بعد انتهاء الأكل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف، لا على ملك نفسه؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل، ولا أضاف إليه سواه، وبقي الملك على أصله.

٦ً - قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ دليل على أن المكث في المنزل بعد الطعام للاستئناس بالحديث أمر غير مرغوب فيه، وأدب يجب التزامه.

٧ً - وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يمتنع من بيانه وإظهاره دليل على ألا حياء في معرفة أحكام الدين وبيان الشرع. جاء في الصحيح عن أم سلَمة قالت: جاءت أم سُليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأت الماءَ» .

٨ً - ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الصواب في المتاع كما قال القرطبي: أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا.

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١٥٦٥

٩ً - ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تَعْرِض، أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، فلا يجوز كشف شيء من جسدها إلا لحاجة كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤالها عما يعرض وتعيَّن كون الجواب عندها. قال القاضي عياض: فرض الحجاب بما اختصصن به، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها ولا إظهار شخوصهن، وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه ضرورة.

١٠ً- استدل بعض العلماء من الأخذ عن أزواج النبي ﷺ من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها، وهو رأي المالكية والحنابلة في قبول شهادته، ولا تقبل شهادته في رأي الحنفية والشافعية.

١١ً - إن الحجاب وسيلة ناجعة في طهارة القلب من هواجس السوء وخواطر المعصية، سواء بالنسبة إلى الرجال أو النساء، فذلك أنفى للريبة، وأبعد للتهمة، وأقوى في الحماية والتحصن. وهذا يدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله، وأحصن لنفسه، وأتم لعصمته.

١٢ً - قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ دليل على تعليل الأحكام، ثم إن بيان العلة وتأكيد إيرادها يقوي دلالة الأحكام الشرعية على المطلوب. وذكر النبي بوصف الرسالة هنا مشعر بتوبيخ من تحدثهم نفوسهم بإذايته إذ ذلك يكون كفراناً بنعمة الرسالة الواجب شكرانها.

١٣ً - يحرم التزوج بنساء النبي ﷺ بعد مفارقتهن بطلاق أو موت، تعظيماً للنبي، ولكونهن أمهات المؤمنين، والمسلم لا يتزوج أمه.

واختلف العلماء في وجوب العدة عليهن بالموت، فقيل: عليهن العدة؛ لأن العدة عبادة، وقيل: لا عدة عليهن؛ لأنها مدة تربّص (انتظار) لا ينتظر بها إباحة الزواج، قال القرطبي: وهو الصحيح؛ لقوله ﷺ: «ما تركت بعد نفقة عيالي» وروي «أهلي» وهذا اسم خاص بالزوجية، فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن؛ لكونهن نساءه، وحرمن على غيره؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح. وإنما جعل الموت في حقه ﷺ لهن بمنزلة المغيب في حق غيره؛ لكونهن أزواجاً له في الآخرة قطعاً، بخلاف سائر الناس؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار؛ فبهذا انقطع السبب في حق الخلق، وبقي في حق النبي ﷺ؛ وقد قال ﷺ: «زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة» وقال ﷺ فيما رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر: «كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي، فإنه باق إلى يوم القيامة».

وأما النساء اللاتي فارقهن النبي ﷺ قبل الدخول، فالصحيح جواز نكاحهن لغيره، كالكلبية التي تزوجها عكرمة بن أبي جهل، وقيل: تزوجها الأشعث بن قيس الكندي، وقيل: إنه مهاجر بن أبي أمية.

١٤ً - إن إيذاء رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه من الذنوب الكبائر، ولا ذنب أعظم منه.

١٥ً - الله تعالى عالم بكل ما بدا وما خفي، وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماض انقضى، ولا مستقبل آت، فهو سبحانه يعلم ما يخفيه الإنسان من المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيه عليها. والتذييل بهذه الآية توبيخ ووعيد لمن يضمر السوء في مخاطبة أزواج النبي ﷺ وأزواج المؤمنين أيضاً.

١٦ً - استثنى الله تعالى من فرضية الحجاب على أزواج النبي ﷺ الأقارب المحارم من النسب أو الرضاع، وهم الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة

وأبناء الأخوات والنساء المؤمنات، وهو رأي ابن عباس ومجاهد، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي ﷺ من الكافرات.

ويرى بعضهم أن المراد منهن النساء القريبات، وتكون إضافتهن إليهن لمزيد اختصاصهن بهن، لما لهن من صلة القرابة، وكذلك الخادمات.

وأيضاً ما ملكت أيمانهن من الذكور والإناث.

١٧ - توَّج الله تعالى آية الحجاب واستثناء المحارم بالأمر بالتقوى، كأنه قال: اقتصرن على هذا، واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره، وخصَّ النساء بهذا الأمر وعيَّنهن، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن، ثم توعد تعالى بأنه رقيب على كل شيء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي إنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينة، فيجازي على ما يكون.

تعظيم النبي ﷺ وجزاء إيذائه وإيذاء المؤمنين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِىِّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

البلاغة:

﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ إتباع الفعل بالمصدر للتأكيد.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ محمد ﷺ، أي يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. والصلاة في اللغة: الدعاء، يقال: صلى عليه، أي دعا له. وهي من الله: الرحمة والرضوان، ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار، ومن الأمة: دعاء وتعظيم للنبي ﷺ. ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أي اعتنوا أنتم أيضاً بالصلاة عليه، فإنكم أولى بذلك، وقولوا: اللهم صلِّ وسلم على محمد. والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة، وتجوز الصلاة على غيره تبعاً له، وتكره استقلالاً؛ لأنه في العرف صار شعاراً لذكر الرسل، كما ذكر البيضاوي والشوكاني وغيرهما، فلا يقال: صلى الله على فلان، أو فلان عليه السلام، وقد اتفق العلماء على أن الصلاة على رسول الله ﷺ فرض على كل مسلم، وأقلها في العمر مرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي وهم الكفار يصفون الله بما هو منزه عنه من الولد والشريك، ويكذبون رسوله ﷺ. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدهم وطردهم من رحمته. ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ذا إهانة وغاية في الإهانة مع الإيلام، وهو النار. ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ يرمونهم بغير جناية استحقوا بها الإيذاء، أو بغير ما عملوا. ﴿ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا﴾ تحملوا كذباً. ﴿وَإِثۡمًا مُّبِينًا﴾ أي ذنباً ظاهراً واضحاً.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٧):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية قال: نزلت في الذين طعنوا النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حُيَيّ زوجة له. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن أُبَيّ وناسٍ معه قذفوا عائشة، فخطب النبي ﷺ وقال: «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني» ، فنزلت.

وروي أنها نزلت في منافقين يؤذون علياً رضي الله عنه، وقيل: في أهل الإفك كما تقدم، وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات.

نزول الآية (٥٨):

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها، فخطب النبي ﷺ وقال: «من يَعْذِرني من رجل يؤذيني، ويجمع في بيته من يؤذيني».

وقيل: نزلت في أناس من المنافقين كانوا يؤذون علي بن أبي طالب. وقيل: نزلت فيمن آذى عمر لضربه جارية من الأنصار متبرجة. وقال جماعة: نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن.

المناسبة:

بعد أن أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً، أكمل ذلك ببيان مكانة النبي ﷺ في الملأ الأعلى، وما يجب له من احترام في الملأ الأدنى، ثم أردفه بتبيين أضداد الاحترام، فنهى عن إيذاء الله، بمخالفة أوامره وارتكاب معاصيه، وعن إيذاء رسوله ﷺ بالطعن فيه أو في أهل بيته، أو بنسبة عيب أو نقص فيه.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ أي إن الله يصلي على نبيه بالرحمة والرضوان، والملائكة تدعو له بالمغفرة ورفعة الشأن، لذا فأنتم أيها المؤمنون بالله ورسوله قولوا: اللهم صلّ وسلم على محمد، أي ادعوا له بالرحمة ومزيد الشرف والدرجة العليا. ويلاحظ الاهتمام بالحكم من طريق مجيء الخبر مؤكداً بـ «إنَّ» والإتيان

بالجملة الاسمية لإفادة الدوام، وأن مجيء الجملة اسمية في صدرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ فعلية في عجزها: ﴿يُصَلُّونَ﴾ للدلالة على أن الثناء من الله على رسوله ﷺ يتجدد على الدوام.

وهذه الآية بمثابة العلة لما ذكر قبلها من أن شأن المؤمنين ألّا يؤذوا رسول الله ﷺ، فكأنه قيل: ما كان لكم أن تؤذوه؛ لأن الله يصلي عليه والملائكة، وما دام الأمر كذلك، فهو لا يستحق إلا الاحترام والإكرام. وقد بدئت الآية بالجملة الاسمية لإفادة الدوام، وانتهت بالجملة الفعلية للإشارة إلى أن هذا الإكرام والتمجيد يتجدد مع مرور الزمان على الدوام.

ويكون المقصود من الآية أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة نبيه وعبده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه، لذا أمر الله تعالى العالم الدنيوي بالصلاة والسلام عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً.

والصلاة كما بينا من الله الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن المؤمنين الدعاء بالمغفرة والتعظيم لشأن النبي ﷺ.

وكيفية الصلاة عليه تعرف بالأحاديث المتواترة التي منها: ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهم عن كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه قال: «قال رجل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟! قال: قل: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد» .

وأخرج مالك وأحمد والبخاري وغيرهم عن أبي حُمَيد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وأخرج الجماعة عن أبي سعيد الخدري قلنا: «يا رسول الله، هذا السلام عليك، قد عَلِمنا، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم».

وأما التسليم فهو بأن يقولوا: السلام عليك يا رسول الله، ومعنى «السلام عليك» الدعاء له بالسلامة من الآفات والنقائص.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصلاة والسلام على رسول الله، منها: ما رواه أحمد وابن ماجه عن عامر بن ربيعة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى عليه، فليُقلّ عبد من ذلك أو ليُكْثِر».

ومنها: ما رواه أحمد أيضاً والنسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور - أو البشر - يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور - أو البشرى - في وجهك، فقال: «إنه أتاني المَلَك فقال: يا محمد، أما يُرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يُصلّي عليك أحد من أمّتك إلا صلّيتُ عليه عَشْراً، ولا يُسلِّم عليك أحد من أمتك إلا سَلَّمتُ عليه عَشْراً، قلت: بلى».

ومنها: ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ واحدة، صلّى الله عليه بها عشراً».

لذا أوجب الشافعي الصلاة على الرسول ﷺ، وجعلها ركناً في التشهد الأخير من الصلاة، وتستحب عنده في التشهد الأول.

واتفق العلماء على وجوب الصلاة والتسليم على النبي ﷺ مرة في العمر،

عملاً بما يقتضيه الأمر ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ﴾ من الوجوب، وتكون الصلاة والسلام في ذلك ككلمة التوحيد؛ لأن الصحيح أن الأمر لا يقتضي التكرار، وإنما هو للماهية، المطلقة عن قيد التكرار والمرة، وحصوله مرة ضرورة لتحقيق مجرد الماهية. وأما القول بالوجوب كلما ذكر، أو في كل مجلس مرة، أو الإكثار منها من غير تقيد بعدد، فهو استدلال بالأحاديث المرغبة في فعلها والمرهبة من تركها، كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠] الذي هو ترغيب في الإحسان.

ويسن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وعند زيارة قبره ﷺ، وبعد النداء للصلاة، وفي صلاة الجنازة، روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة: فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أرِمْتَ؟ - يعني وقد بليت - قال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وروى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى عليَّ صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة».

وروى النسائي عن أبي أمامة أنه قال: من السنة في الصلاة على الجنازة: أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه.

وروى أبو داود، وصححه النووي في الأذكار، كما صحح الحديث المتقدم، عن أبي هريرة رضيَ الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد يسلم علي إلا رَدَّ الله علي روحي حتى أردَّ عليه السلام».

ولا شكّ بأن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ مجلبة للخير والثواب، وسبب لدخول الجنة، ومذهبة للهم والحزن، وطرد للنسيان، أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِم أنف رجل ذُكرت عنده، فلم يُصلّ علي، ورَغِم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورَغِم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يُدْخلاه الجنة».

وبعد الأمر بالصلاة والسلام على النبي ﷺ، عاد الكلام إلى النهي عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره، وإيذاء رسوله ﷺ بوصفه بعيب أو نقص فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ أي إن الذين يصدر منهم الأذى لله ورسوله بارتكاب ما لا يرضيانه من الكفر والعصيان، كقول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤] و﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] وقول المشركين: الملائكة بنات الله، والأصنام آلهة شركاء لله، وقولهم عن رسول الله ﷺ: إنه شاعر، أو ساحر أو كاهن أو مجنون، إن هؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله طردهم الله من رحمته في الدنيا والآخرة، وهيأ لهم عذاباً مهيناً محقراً مؤلماً في نار جهنم.

وهذا دليل على أنه تعالى لم يحصر جزاءهم في الإبعاد من رحمته، بل أوعدهم وهددهم بعذاب النار الأليم. والآية عامة في كل من آذى النبي ﷺ بشيء، فمن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله، كما قال

الإمام أحمد. وروي عن ابن عباس أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب.

وبعد بيان شأن الذين يؤذون الله ورسوله ﷺ، أبان الله تعالى ما يناسب ذلك، وهو حكم الذين يؤذون المؤمنين، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ أي والذين يؤذون أهل الإيمان من الرجال والنساء بوجه من وجوه الأذى من قول أو فعل، وسواء أكان الإيذاء للعرض، أو الشرف أو المال، بأن ينسبوا إليهم ما هم برآء منه، لم يعملوه ولم يفعلوه، فهو إيذاء بغير حق، كأن يشتم المؤمن أحداً، أو يضربه، أو يقتله، فقد أتوا بالكذب المحض والبهتان الكبير: وهو نسبة شيء لهم لا علم لهم به ولم يفعلوه، على سبيل العيب والإنقاص، وارتكبوا ذنباً واضحاً بيناً. ونظير الآية: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١٢] . والبهتان: الفعل الشنيع، أو الكذب الفظيع.

ومن أشد أنواع الأذى: الطعن في الصحابة، والغيبة، واستباحة عرض المسلم، روى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن المغَفَّل المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» .

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة: أنه قيل: «يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: ذِكْرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» .

وروى ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أي الربا أربى عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم،

قال: أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

فإن كان الإيذاء بحق لم يحرم، مثل الإيذاء بالقصاص، والإيذاء بقطع اليد في السرقة، والإيذاء بالتعزيرات المختلفة، وقتال المرتدين، لقوله ﷺ في الحديث المتواتر الذي رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» . فهم أبو بكر رضي الله عنه من هذا الحديث أن الزكاة حق المال، فقاتل مانعيه من أجله، وقال: «والله لو منعوني عناقاً كانوا يعطونه لرسول الله، لقاتلتهم عليه» وحاجه في ذلك عمر فقال: «إلا بحقها» والزكاة حق الأموال، فانشرح صدره لِمَا رآه أبو بكر.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن آية الصلاة على النبي ﷺ تشريف له في حياته وموته، وتنويه بمنزلته ومكانته السامية، والصلاة كما بينا من الله: الرحمة والرضوان، ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار، ومن الأمة: الدعاء والتعظيم لأمره.

٢ - أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفاً له، ولا خلاف في أنها فرض في العمر مرة، وسنة مؤكدة في كل حين لا يسع المسلم تركها، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.

وقد عرفنا صفة الصلاة والسلام على النبي ﷺ، وهي صيغة الصلاة الإبراهيمية، وبينا فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو كما ورد عنه فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة: «من صلّى علي

واحدة، صلى الله عليه بها عشراً» وقال أيضاً: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب»(١). وقال سهل بن عبد الله: الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليست كذلك. وقال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ؛ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما.

وأما الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة فهي سنة مستحبة عند الجمهور، فإن تركها فصلاته مجزية، وواجبة لدى الشافعي، فمن تركها فعليه الإعادة.

وأما الصلاة على غير الأنبياء: فإن كانت على سبيل التبعية مثل: اللهم صلِّ على محمد وآله، وأزواجه، وذريته، فهذا جائز بالإجماع، فإن أفردوا فقال جماعة: يجوز ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٣] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ٢/١٥٧] وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/١٠٣] وحديث الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صلّ عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى» وحديث جابر أن امرأته قالت: يا رسول الله، صلّ عليّ وعلى زوجي، فقال: «صلّى الله عليك وعلى زوجك»

وقال جمهور العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: أبو بكر صلى الله عليه، أو يقال عليّ صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله عز

(١) لكن قال عنه ابن كثير: ليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة.

وجل. وأما ما ورد في الكتاب والسنة من ذلك، فمحمول على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته.

والصحيح أن هذا المنع من الصلاة على غير الأنبياء مكروه كراهة تنزيه؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

والسلام هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: عليّ عليه السلام، وهذا سواء في الأحياء والأموات. وأما الحاضر فيخاطب به، فيقال: سلام عليك، وسلام عليكم، أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه.

وقال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقول: صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

٣ - إن من يؤذي الله ورسوله يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، وله عذاب محقر مؤلم في نار جهنم. وإيذاء الله: يكون بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤] ، و﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] ، وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] ، وقول المشركين: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه.

وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهر. أُقلِّب ليله ونهاره» ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: « قال الله تبارك وتعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أقلّب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما» . هكذا جاء هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة في هذه الرواية. وقد جاء مرفوعاً عنه بلفظ آخر عند مسلم أيضاً:

«يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهر، وأنا الدهر أقلّب الليل والنهار» . وقال عكرمة: معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المصوِّرين» .

والطعن في تأمير أسامة بن زيد[1] لغزو (أُبْنَى) قرية عند مؤتة أذية له ﷺ، من حيث إنه كان من الموالي، ومن حيث إنه كان صغير السن؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثماني عشرة سنة، ومات النبي ﷺ بعد خروج هذا الجيش إلى ظاهر المدينة، فنفَّذه أبو بكر بعده ﷺ. جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمرته؛ فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبلُ، وايمُ الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لَمِن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده» .

وفي هذا الحديث دلالة على جواز إمامة المَوْلى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى، ويؤكده أن رسول الله ﷺ قدَّم سالماً مولى أبي حذيفة على الصلاة بقُباء، فكان يؤمهم، وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش.

٤ - إن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حق بالأقوال أو الأفعال القبيحة بهتان وإثم واضح. ومن أنواع الأذى: التعيير بحَسَب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه.

وقد ميَّز الله بين أذاه سبحانه وأذى الرسول ﷺ وأذى المؤمنين، فجعل الأول كفراً موجباً اللعن، والثاني كبيرة، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

---

(١) كان أسامة رضي الله عنه يُدعى: الحِبّ ابن الحِبّ، وكان أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيض.

آية جلباب النساء لستر العورة

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿النَّبِيُّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

المفردات اللغوية:

﴿يُدْنِينَ﴾ الإدناء: التقريب، والمراد الإرخاء والسدل على الوجه والبدن، وستر الزينة، ولذا عدّي بعلى. ﴿مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ جمع جلباب، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق القميص، أو الثوب الذي يستر جميع البدن. و﴿مِن﴾ للتبعيض، فإن المرأة تغطي بعض جلبابها وتتلفع ببعض، والمراد: يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن إلا شيئاً قليلاً كعين واحدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إدناء الجلابيب ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي أقرب إلى أن يميزن بأنهن حرائر، ويُبْعَدن عن الإساءة ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن لترك الستر ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده، حيث يراعي مصالحهم بالأمر بالستر وغيره.

سبب النزول:

أخرج البخاري عن عائشة قالت: خرجت سَوْدة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر، فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت

راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عِرْق، فدخلت، فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العِرْق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أُذن، لكن أن تخرجن لحاجتكن.

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال: كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن، فيؤذين، فشكوا ذلك، فقيل للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ﴾

المناسبة:

بعد بيان أن من يؤذي مؤمناً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً، منعاً وزجراً للمكلف من إيذاء المؤمن، أمر الله تعالى المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم التي قد تؤدي إلى الإيذاء، بالتستر وإرخاء الجلباب، خلافاً لما كان عليه الحال في الجاهلية من خروج النساء مكشوفات يتبعهن الزناة.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ أي يطلب الله من رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات وبخاصة أزواجه وبناته إذا خرجن من بيوتهن بأن يسدلن ويغطين من جلابيبهن ليتميزن عن الإماء. والجلباب: الرداء فوق الخمار. وهناك روايات في كيفية هذا التستر.

- قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطّين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة.

- وقال محمد بن سيرين فيما رواه ابن جرير عنه: سألت عَبيدة السَّلْماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ فغطَّى وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرى.

- وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن أم سَلَمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار، كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها.

والمقصود بالآية التي نزلت بعد استقرار الشريعة أن يكون الستر المأمور به زائداً على ما يجب من ستر العورة، وهو أدب حسن يبعد المرأة عن مظان التهمة والريبة، ويحميها من أذى الفساق.

واللباس الشرعي: هو الساتر جميع الجسد، الذي لا يشف عما تحته، فإن كانت المرأة في بيتها وأمام زوجها فلها أن تلبس ما تشاء.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إن إدناء الجلابيب أو التستر أقرب أن يعرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر، فلا يُتعَرَّض لهن بالأذى من أهل الفسق والريبة، وكان الله غفوراً لما سلف منهن من إهمال التستر، ولمن امتثل أمره إذا أخلَّ بالتستر خطأً بغير قصد، واسع الرحمة بعباده حيث راعى مصالحهم وأرشدهم إلى هذا الأدب الحسن.

أما الإماء فلم يكلفهن الشرع بالتستر الكامل دفعاً للحرج والمشقة في التقنع، وتيسيراً لهن القيام بخدمات السادة. هذا رأي الجمهور. وقال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل الحرائر والإماء، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن، بخلاف الحرائر، فيحتاج إخراجهن - أي الإماء - من عموم النساء إلى دليل واضح[١].

(١) البحر المحيط: ٧/ ٢٥٠

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

أ - الأمر بالتقنع والتستر عام يشمل جميع النساء، وذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها، فلها أن تلبس ما شاءت؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء.

ومن المأمورات بالستر: زوجات الرسول ﷺ وبناته. أما زوجاته فقال قتادة: مات رسول الله ﷺ عن تسع: خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسَوْدة، وأم سَلَمة، وثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرِية. وواحدة من بني هارون: صفية، وأما أولاده: فكان للنبي ﷺ أولاد ذكور وإناث.

وأولاده الذكور: القاسم والطاهر وعبد الله والطيب أبناء خديجة.

وبناته: فاطمة الزهراء بنت خديجة زوجة علي رضي الله عنهما، وزينب بنت خديجة زوجة ابن خالتها أبي العاص، ورُقَيَّة وأم كلثوم بنتا خديجة، زوجتا عثمان، كما تقدم سابقاً.

ويلاحظ أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله، لذا بدأ الأمر بالحجاب بنساء الرسول ﷺ وبناته.

٢ - صورة إرخاء الجلباب: تغطية المرأة جميع جسدها إلا عين واحدة تبصر بها، كما قال ابن عباس وعَبيدة السَّلْماني. وقال قتادة، وابن عباس في رواية أخرى: أن تلويه فوق الجبين وتشدّه، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وقال الحسن البصري: تغطي نصف وجهها.

٣ - الحكمة من أمر الحرائر بالتستر هي ألا يختلطن بالإماء، فإذا عُرفن لم يقابلن بأدنى معارضة، مراعاة لرتبة الحرية، فتنقطع الأطماع عنهن.

٤ً - وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

٥ً - في الطبقات الكبرى لابن سعد أن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن؛ وإن لم يفعله السلف؛ لأن فيه تمييزاً لهم، حتى يعرفوا، فيعمل بأقوالهم.

هذا وقد استدل بالآية على لزوم تغطية وجه المرأة؛ لأن العلماء والمفسرين كابن الجوزي والطبري وابن كثير وأبي حيان وأبي السعود والجصاص الرازي فسروا إدناء الجلباب بتغطية الوجوه والأبدان والشعور عن الأجانب، أو عند الخروج لحاجة.

تهديد المنافقين وجزاؤهم

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

الإعراب:

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ إما منصوب على الحال من واو ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ وإما منصوب على الذم، أي أذُمُّ ملعونين.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد.

البلاغة:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المرجفون هم من المنافقين، ففيه ذكر الخاص بعد العام، زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

﴿ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ بينهما طباق.

﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ إتباع الفعل بالمصدر للتأكيد.

المفردات اللغوية:

﴿لَّئِن﴾ اللام لام القسم ﴿لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه، أو فسوق وعصيان ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هم اليهود وغيرهم المشيعون للأكاذيب والأباطيل الملفقون أخبار السوء ونشرها بين جنود المسلمين قائلين: قد أتاكم العدو، وسرايا المسلمين هُزموا أو قتلوا أو غُلبوا، ونحو ذلك من الأخبار المتضمنة توهين جانب المسلمين، من الإرجاف والرَّجفان: الزلزلة والاضطراب الشديد.

﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ لنسلطنك عليهم ولنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ يساكنونك والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار رسول الله ﷺ أعظم ما يصيبهم ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ مبعدين عن الرحمة، أي لا يجاورونك إلا ملعونين ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ وجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أي إن هذا الحكم فيهم مأمور به.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ أي سنّ الله ذلك في الأمم الماضية، وهو أن يُقْتَل المنافقون الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا، وخلوا: مضوا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي لأنه لا يبدلها الله، أو لا يقدر أحد أن يبدلها.

المناسبة:

هذا هو الصنف الثالث من المؤذين، فبعد أن ذكر الله تعالى حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله، وأتبعه بذكر المجاهر الذي يؤذي المؤمنين، ذكر حال المسرّ المبطن الذي يظهر الحق، ويضمر الباطل، وهو المنافق.

ثم ذكر مظاهر ثلاثة للنفاق في مواجهة الأقوام الثلاثة المؤذين: وهم المؤذون الله، والمؤذون الرسول ﷺ، والمؤذون المؤمنين، وهذه المظاهر: هي المنافق الذي يؤذي الله سراً، والذي في قلبه مرض الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه، والمرجف الذي يؤذي النبي ﷺ بالإرجاف، بقوله: غُلب محمد ﷺ، وسيخرج من المدينة وسيؤخذ أسيراً. وهذا كله من آثار النفاق العملي.

التفسير والبيان:

توعد الله المنافقين وحذرهم وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، فقال:

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ أي لئن لم يكف المنافقون عما هم عليه من النفاق، والذين في قلوبهم ضعف إيمان وشك وريبة في أمر الدين، وأهل الإرجاف في المدينة الذين يشيعون الأخبار الملفقة الكاذبة المتضمنة توهين جانب المسلمين، وإظهار تفوق المشركين وغلبتهم عليهم، لنسلطنك عليهم ونأمرنك بقتالهم وإجلائهم عن المدينة، فلا يساكنونك فيها إلا زمناً قليلاً.

وهذه الأوصاف الثلاثة: النفاق، ومرض القلب، والإرجاف هي لشيء واحد، فإن من لوازم النفاق مرض القلب بضعف الإيمان، والإرجاف بالفتنة وإشاعة أخبار السوء، والمنافقون متصفون بهذه الأوصاف الثلاثة كلها.

وكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي، سواء إبطان الكفر، أو الفسوق والعصيان وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة، مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم.

ثم أبان الله تعالى جزاءهم في الدنيا والآخرة فقال:

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ أي إنهم في حال مدة إقامتهم في المدينة فترة زمنية قليلة مطرودون من رحمة الله منبوذون، وأينما وجدوا وأدركوا أخذوا لذلتهم وقلتهم، وقتّلوا شرّ تقتيل، فلن يجدوا أحداً يؤويهم، بل ينكل بهم ويؤسرون ويقتّلون تقتيلاً شديداً يستأصلهم.

وهذا دليل على أخذهم أسرى، والأمر بقتلهم إذا ظلوا على النفاق، وقد كان ذلك في أواخر حياة الرسول ﷺ.

ثم أوضح الله تعالى أن هذا الجزاء عام في جميع المنافقين الغابرين واللاحقين فقال:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ أي إن هذا الحكم - وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم وتسليط المؤمنين عليهم وقهرهم - هو سنة الله وطريقته في المنافقين في كل زمان مضى، إذا بقوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عما هم عليه، وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير، لقيامها على الحكمة والمصلحة وصلاح الأمة، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء على مر التاريخ.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما هو آت:

١ً - اتفق أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة: النفاق، ومرض القلب، والإرجاف لشيء واحد كما تقدم، أي إن المنافقين قد جمعوا هذه الأشياء(١).

---

(١) قالوا: والواو مقحمة، كما قال الشاعر:

إلى المَلِك القَرْم وابن الهُمام   وليث الكتيبة في المُزْدَحم

أي إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة.

والآية دليل على تحريم الإيذاء بالإرجاف وعلى أن تتبع عورات النساء نفاق.

٢ً - إن جزاء هؤلاء المنافقين إن أصروا على نفاقهم تسليط أهل الحق والإيمان عليهم، لاستئصالهم بالقتل، وطردهم من البلاد، فلا يساكنون النبي ﷺ والمؤمنين في المدينة إلا مدة يسيرة حتى يهلكوا، وطردهم من رحمة الله.

٣ً - إن هذا العقاب هو ما سنه الله عز وجل فيمن أرجف بالأنبياء، وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل، ولا تبديل ولا تغيير لسنة الله وحكمه، فلا يغيره هو سبحانه، ولا يستطيع أحد تغييره.

٤ً - لكن يجوز تأخير تطبيق هذا العقاب، فليس هو على الفور، قال القرطبي: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه - ﷺ - حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم[١].

وقد تأخر بالفعل عقاب المنافقين إلى أواخر عهد النبي ﷺ، فإنه لما نزلت سورة «براءة» جُمعوا، فقال النبي ﷺ: «يا فلان قم فاخرج، فإنك منافق، ويا فلان قم» فقام إخوانهم من المسلمين، وتولوا إخراجهم من المسجد.

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٢٤٨

توعد الكفار بقرب الساعة وبيان نوع جزائهم

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ
تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا
ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠
﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، (السبيلا): قرئ:

١- (الرسولا، السبيلا) وهي قراءة نافع، وابن عامر، بإثبات الألف وصلاً، ووقفاً.

٢- (الرسول، السبيل) بحذف الألف وصلاً ووقفاً قرأ أبو عمرو، وحمزة.

وقرأ الباقون بإثباتها وقفاً، وحذفها وصلاً.

﴿سَادَتَنَا﴾:

وقرأ ابن عامر (ساداتنا).

﴿كَبِيرًا﴾: قرأ عاصم (كبيراً)، وقرأ الباقون (كثيرا).

البلاغة:

﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ تحسر وتفجع من طريق التمني.

﴿سَعِيرًا﴾ ﴿نَصِيرًا﴾ ﴿كَبِيرًا﴾ فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل، لما فيها من وقع حسن.

المفردات اللغوية:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يسألك أهل مكة المشركون عن وقت يوم القيامة وحصوله استهزاء، أو تعنتاً، أو امتحاناً ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لم يُطْلع عليه مَلَكاً ولا نبياً ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي وما يعلمك يا محمد؟ أي أنت لا تعلمها، فكيف بغيرك من الناس؟ وربما توجد الساعة في زمن قريب. وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين.

﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أبعدهم وطردهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاتقاد والاستعار يدخلونها ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مقدراً خلودهم ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم ويحفظهم عنها ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ تصرَّف من جهة إلى جهة أخرى، كاللحم يشوى بالنار. ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ (يا): للتنبيه ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الأتباع منهم ﴿سَادَتَنَا﴾ أي ملوكنا وقادتنا الذين لقنوهم الكفر، وقرئ «ساداتنا» جمع الجمع، للدلالة على الكثرة ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ علماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي أضلونا طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر بالله ورسوله ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ مثلي ما أوتينا من العذاب؛ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي عذبهم وأبعدهم بلعن هو أشد اللعن وأعظمه، وقوله ﴿كَبِيرًا﴾ أي عدده، أي عظيماً.

المناسبة:

بعد بيان حال الفئات الثلاث في الدنيا (المشركين الذين يؤذون الله ورسوله، والمجاهرين الذين يؤذون المؤمنين، والمنافقين الذين يظهرون الحق ويضمرون الباطل) وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون، ذكر حالهم في الآخرة، فتوعدهم بقرب يوم القيامة، وبين نوع عذابهم فيه.

التفسير والبيان:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي يتساءل الناس بكثرة عن وقت قيام القيامة، فالمشركون يسألون عنها تهكماً واستهزاء،

والمنافقون يسألون عنها تعنتاً، واليهود يسألون عنها امتحاناً واختباراً، فيجيبهم النبي ﷺ بتعليم الله له: إن علمها محصور بالله تعالى، لم يُطْلع عليها مَلَكاً ولا نبياً مرسلاً، فهو وحده الذي يعلم وقت حدوثها.

وأكد نفي علمها عن أحد غيره فقال:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي وما يعلمك بها، فإنها من المغيبات المختصة بالله تعالى، وربما توجد في وقت قريب، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ٥٤/١] وقال سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ٢١/١] وقال عز وجل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١٦/١] وقال النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «بُعثت والساعةُ كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى.

وفي هذا تهديد للمستعجلين، وتوبيخ للمتعنتين، كما تقدم. وكلمة ﴿قَرِيبًا﴾ فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٦] لذا لم يقل: لعلَّ الساعة تكون قريبة.

ثم ذكر الله تعالى نوع جزاء الكفار الذي ينتظرهم يوم القيامة، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤﴾ أي إن الله تعالى طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته، وهيأ لهم في الآخرة ناراً شديدة الاستعار والاتقاد.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥﴾ أي إنهم في ذلك العذاب في نار جهنم مخلدون ماكثون فيه على الدوام، ولا أمل لهم في النجاة منه، فلا يجدون من يواليهم ويكون لهم مغيثاً ومعيناً ينقذهم مما هم فيه، ولا من ينصرهم ويخلصهم منه. والمقصود أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب.

ثم ذكر وصف حال العذاب فقال:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ أي إنهم يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، ويتقلبون فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يُشوى في النار، وحينئذ يقولون ويتمنون: يا ليتنا لو كنا في الدار الدنيا ممن أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ، وآمنوا بما جاء به، لينجوا من العذاب كما نجا المؤمنون، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٧] وقال أيضاً مخبراً عنهم: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/٢] .

ثم اعتذروا بالتقليد، فقال الله تعالى واصفاً ذلك:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ أي وقال الكافرون حينئذ وهم في عذاب جهنم: يا ربنا إنا أطعنا في الشرك والكفر رؤساءنا وقادتنا وعلماءنا، وخالفنا الرسل، واعتقدنا أنهم محقون فيما يقولون، فأخطؤوا بنا سواء الطريق، وأضلونا عن طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر بالله ورسوله، وعدم الإقرار بالوحدانية، وإخلاص الطاعة لله تعالى.

ثم صوَّر الله تعالى ما يغلي في نفوسهم من الحقد الذي أدى بهم إلى طلب التشفي من القادة والأمراء والأشراف فقال:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي يا ربنا عَذِّبهم مثل عذابنا مرتين: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال والإغواء إيانا، وأبعدهم عن رحمتك بعداً عظيماً كثيراً شديد الموقع، وهذا بمعنى الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل: اللهم، إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني،

إنك أنت الغفور الرحيم» يروى «كبيراً» و «كثيراً» وهما بمعنى واحد، واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه، قال ابن كثير: وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مخير بين القراءتين، أيتهما قرأ أحسن، وليس له الجمع بينهما[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لما توعد الله المؤذين لرسول الله ﷺ بالعذاب، سألوا عن الساعة، استبعاداً وتكذيباً، موهمين أنها لا تكون، فأجابهم الله بأن علمها عند الله، وليس في إخفائها عن رسوله ﷺ ما يبطل نبوته، فليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله عز وجل.

٢ - إن وقت حصول الساعة (القيامة) في زمان قريب، وقد أخفي وقت الساعة ليكون العبد مستعداً لها. وهذا إشارة إلى التخويف.

٣ - إن الله عاقب الكافرين بالطرد والإبعاد من رحمته، وبإعداد نار جهنم المستعرة الشديدة الاتقاد، وهم فيها خالدون ماكثون على الدوام، ولا شفيع لهم ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه، ويتقلبون في السعير ذات اليمين وذات الشمال كما يشوى اللحم في النار. وهذا يدلّ على أنهم ملعونون في الدنيا، وملعونون عند الله، وأن العذاب دائم مستمر لا أمل في الخروج منه.

٤ - يتمنى الكافرون في أثناء العذاب في نار جهنم أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسوله، فآمنوا بالله وحده لا شريك له، وآمنوا برسوله ﷺ خاتم النبيين، وأدوا فروض الطاعة والولاء، وأخلصوا لله في أعمالهم.

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٩

٥ً - إنهم يقولون أيضاً على سبيل الأسف والاعتذار غير المفيد: إنا أطعنا القادة والأمراء والأشراف والعلماء بدل طاعة الله تعالى، فبدّلنا الخير بالشر، وأضلونا عن السبيل الصحيح وهو توحيد الله تعالى.

٦ً - لا يجدون بداً من المطالبة على سبيل التشفي والانتقام بمضاعفة العذاب على أولئك المضللين: عذاب الكفر وعذاب الإضلال، أي عذبهم مثلي ما تعذّبنا؛ فإنهم ضلّوا وأضلوا.

بل إنهم يطلبون أيضاً إبعادهم وطردهم من رحمة الله إبعاداً كبيراً كثيراً؛ لأن ما كبر كان كثيراً عظيم المقدار. وهذا في كلا الطلبين يتضمن معنى جديداً، فإنهم طلبوا لهم ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ وزيادة اللعن بقولهم: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

تحريم الإيذاء الذي لا يؤدي إلى الكفر والأمر بالتقوى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ
عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا
﴿٧١﴾﴾

البلاغة:

﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ تشبيه مرسل مجمل، ذكر فيه أداة الشبه، وحذف وجه التشبيه.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تَكُونُوا﴾ مع نبيكم محمد ﷺ ﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ وهم اليهود،

كقولهم: ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، أو اتهامه بالفاحشة، كما روي أن قارون حرض امرأة على قذف موسى بنفسها، فعصمه الله وبرّأه مما قالوا ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ من كثير من التهم الباطلة، منها أنه وضع ثوبه على حجر ليغتسل، فطار الثوب مع الحجر، حتى استقرَّ أمام ملأ من بني إسرائيل، فأدركه موسى، فأخذ ثوبه، فاستتر به، فرأوه ولا أدرة به وهي نفخة في الخصية .﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر وقربة ووجاهة عنده تعالى.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه، فضلاً عما يؤذي رسوله ﷺ ﴿وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا﴾ قاصداً إلى الحق ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ويتقبلها ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ أي يسترها ويكفِّرها بالاستقامة في القول والعمل ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ نال غاية مطلوبة، بالعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن من يؤذي الله ورسوله ﷺ يلعن ويعذب، مما يدلّ على أن إيذاءهما كفر، أرشد المؤمنين إلى ضرورة الامتناع من إيذاء لا يؤدي إلى الكفر، مثل عدم الرضا بقسمة النبي ﷺ الفيء بين أصحابه.

أما إيذاء موسى فمختلف فيه، قال بعضهم: هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب في بدنه، أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: قال لموسى قومه: إنه آدر، فخرج ذات يوم ليغتسل، فوضع ثيابه على حجر، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، فخرج موسى يتبعها عرياناً، حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل، فرأوه وليس بآدر.

وقال بعضهم: إن قارون تآمر مع امرأة أن تقول عند بني إسرائيل: إن موسى زنى بي، فلما جمع قارون القوم، والمرأة حاضرة، ألقى الله في قلبها أنها صدقت، ولم تقل ما لُقِّنت.

قال الرازي: وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف، وهو أنهم قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٥/ ٢٤] وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٥٥] وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١] إلى غير ذلك، فقال للمؤمنين: لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول ﷺ إلى القتال، أي لا تقولوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٥/ ٢٤] ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه، «وإذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[١].

التفسير والبيان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، لا تؤذوا الرسول ﷺ بالقول أو العمل، مما يكرهه ولا يحبه، ولا تكونوا مثل الذين آذوا موسى، كتعييبه كذباً وزوراً، أو تعجيزه برؤية الله جهراً، أو تركه يقاتل وحده، أو مطالبته بأنواع من الطعام، فبرأه الله مما قالوا من الكذب والزور، وكان ذا قدر وجاه ومنزلة عند ربه، قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله، وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل.

ومن مظاهر إيذاء النبي ﷺ: ما رواه البخاري ومسلم وأحمد عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قَسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فاحمرَّ وجهه، ثم قال: رحمة الله على موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

---

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ٢٣٣ والجملة الأخيرة حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ «وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

وروى أحمد عن ابن مسعود أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يُبَلِّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم، وأنا سليم الصدر».

وأما إيذاء موسى فالظاهر أنه كان بالطعن في تصرفاته، لا بتعييبه في بدنه، بدليل الحديث الأول عن ابن مسعود.

وبعد نهي المؤمنين عن إيذاء الرسول ﷺ بالقول أو بالفعل، أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر عنهم من الأقوال والأفعال، أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق؛ لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، اتقوا الله في كل الأمور باجتناب معاصيه، والتزام أوامره وعبادته عبادة من كأنه يراه، وقولوا القول الصواب والحق في كل أموركم، ويدخل فيه قول: لا إله إلا الله، والإصلاح بين الناس، كما يدخل فيه القول في شأن زيد وزينب، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل.

ثم وعدهم على الأمرين: الخير في الأفعال والصدق في الأقوال بأمرين فقال:

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي وعدهم على فعل الخيرات بإصلاح الأعمال، أي بقبولها، وجعل صاحبها في الجنة خالداً فيها أبداً، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب الماضية، وأما ما قد يقع منهم في المستقبل فيلهمهم التوبة منها.

ثم حرضهم على الطاعة، فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ومن يطع أوامر الله

والرسول ويجتنب النواهي، فقد نجا من نار الجحيم، وصار إلى النعيم المقيم. وبالرغم من أن طاعة الله هي طاعة الرسول ﷺ، فإنه تعالى جمع بينهما لبيان أن المطيع اتخذ عند الله عهداً، وعند الرسول ﷺ يداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - لم تقتصر عناية القرآن وتحذيره على فئة من الناس دون فئة، فبعد أن ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ والمؤمنين، حذّر المؤمنين من التعرّض للإيذاء، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في إيذائهم نبيهم موسى عليه السلام.

ومظاهر إيذاء محمد ﷺ وموسى عليه السلام مختلف فيها، فقيل: إن أذِيّتهم محمداً ﷺ قولهم: زيد بن محمد، أو أنه قسم قَسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القِسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب النبي ﷺ وقال: «رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وأما أذية موسى ﷺ، فقال ابن عباس وجماعة: هي اتهامه بالأدرة كما تقدم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: آذوا موسى بأن قالوا: قتل هارون، مع أنه مات في جبل في سيناء بعد خروج موسى وهارون من التيه (قلب شبه جزيرة طور سينا). وقيل: إن أذية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون، وقيل بغير ذلك. قال القرطبي: والصحيح الأول، ويحتمل أن فعلوا كل ذلك، فبرَّأه الله من جميع ذلك.

وقد استدل بقصة اغتسال موسى عليه السلام على جواز وضع ثوبه على الحجر، ودخوله في الماء عُرياناً في منطقة معزولة بعيدة عن الناس، وهو مذهب الجمهور، ومنعه ابن أبي ليلى، واحتج بحديث لم يصح.

٢ - كان موسى عليه السلام عند الله وجيهاً، أي عظيم القدر، رفيع المنزلة، ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه.

٣ - أوجب الله تعالى الخير في الأفعال أو التقوى، والصدق في الأقوال وهو ما يقابل الأذى المنهي عنه بالنسبة للرسول ﷺ والمؤمنين.

٤ - وعد الله تعالى أنه يجازي على القول السديد، وتقوى الله بإصلاح الأعمال (أي قبولها وجعلها صالحة لا فاسدة بتوفيقهم إليها) وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة.

٥ - من يطع الله ورسوله ﷺ فيما أمر به ونهى عنه، فقد نجا من النار وفاز بالجنة، أو وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي.

أمانة التكاليف وأثرها في تصنيف المكلفين

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

الإعراب:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ نصب ﴿رَّحِيمًا﴾ إما على الحال من ضمير ﴿غَفُورًا﴾ وهو العامل فيه، وإما صفة لغفور، وإما خبراً بعد خبر.

البلاغة:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ استعارة تمثيلية، مثّل الأمانة بما فيها من ثقل وشدة متناهية بشيء لو عرض على السماوات والأرض والجبال لأبت حمله وأشفقت منه.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

وبين بدء السورة: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وبين ختمها: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ ما يسمى في علم البديع: «ردّ العجز على الصدر» فالبدء في ذم المنافقين، والختام لبيان سوء عاقبتهم.

المفردات اللغوية:

﴿عَرَضْنَا﴾ أي عرضها على هذه الأجرام خلافاً لما في الطبيعة ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ أي التكاليف الشرعية كالصلوات وغيرها مما في فعلها من الثواب، وتركها من العقاب، وسماها أمانة؛ لأنها واجبة الأداء ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ المعنى أن الأمانة لعظمة شأنها، بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام، وكانت ذات شعور وإدراك، لامتنعت من حملها، وأشفقت منها وخافت ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم أبو البشر بعد عرضها عليه، مع ضعف بنيته ورخاوة قوته، فإن أدى حقوقها فاز بخير الدارين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي إن الإنسان حينما التزم بحقوق الأمانة كان ظلوماً لنفسه بما حمله، جهولاً به، وهذا وصف لجنس الإنسان باعتبار الأغلب.

والمقصود بالآية تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ اللام متعلقة بعرضنا المترتب عليه حمل آدم، فهي لام الصيرورة؛ لأنه لم يحملها لأن يعذب، لكنه حملها، فآل الأمر إلى أن يعذب من خان الأمانة وكذب الرسل ونقض الميثاق ممن نافق وأشرك، ويتوب على من آمن، الذين أدوا ما حملوه من الأمانات من العبادة وغيرها.

وقال الزمخشري: اللام لام التعليل على طريق المجاز؛ لأن نتيجة حمل

الأمانة العذاب، كما أن التأديب في قولك: «ضربته للتأديب» نتيجة الضرب. وقد جاراه القرطبي في ذلك .﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ المضيعين الأمانة .﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المؤدين الأمانة. والوعد بالتوبة دليل على أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ موجه إلى حال جبلة الإنسان فهو ظلوم لنفسه جهول بربه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ غفوراً للمؤمنين رحيماً بهم، حيث تاب على ما فرطوا من ذنوب، وأثاب على طاعاتهم.

المناسبة:

بعد بيان أن من أطاع الله ورسوله فاز فوزاً عظيماً، أبان الله تعالى الوسيلة التي تنال بها الطاعة وهي فعل التكاليف الشرعية، وأن تحصيلها شاقّ على النفوس يحتاج إلى مكابدة وجهاد، ثم ذكر أن ما يحدث من صدور الطاعة من المكلفين، وإباء القبول، والامتناع من الالتزام إنما هو باختيار الإنسان دون جبر ولا إكراه.

التفسير والبيان:

يبين الله تعالى خطورة التكاليف وثقلها، وأنها عظيمة ناءت بحملها السماوات والأرض والجبال، فقال:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ أي إنا عرضنا التكاليف كلها من فرائض وطاعات على هذه الأجرام العظام، فلم تطقها وأبت تحمل مسؤوليتها، وخافت من حملها، لو فرض أنها ذات شعور وإدراك، ولكن كُلِّف بها الإنسان، فتحملها مع ضعفه، وهو في ذلك ظلوم لنفسه، جهول لقدر ما تحمله.

قال ابن عباس: يعني بالأمانة الطاعة والفرائض، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. والمراد جنس الإنسان بحسب الأغلب.

فالأمانة تشمل الطاعات والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، وبتضييعها العقاب، وتشمل أمانة الأموال كالودائع وغيرها مما لا بيِّنة عليه، وغسل الجنابة أمانة، والفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرِّجْل أمانة.

وقد حملها الإنسان بسبب جهله بما فيها، مع أن السماوات والأرض أحست بثقل المسؤولية، وهو مع ذلك يتأثر بالانفعالات النفسية وبالشهوات الذاتية، ولا يتدبر عواقب الأمور، وكانت هذه التكاليف وسيلة للحد من سلطان الشهوة، وتأثير النوازع، والقوى الداخلية في نفسه.

ثم بيَّن الله تعالى نتائج تلك التكاليف بين المكلفين، فقال:

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أي إن عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة وهي التكاليف أن ينقسم الناس فريقين: فريق المنافقين والمنافقات (وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله) والمشركين والمشركات (وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة الرسل) الذين يعذبهم الله لخيانتهم الأمانة، وتكذيب الرسل، ونقض الميثاق، وفريق المؤمنين والمؤمنات (وهم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، العاملين بطاعته) الذين يتوب الله عليهم إذا تابوا، وأدوا ما حملوه من الأمانات من العبادة وغيرها؛ لأن الله غفور لذنوبهم، كثير الرحمة بهم.

والآية دليل على أن الله أعلم الإنسان بأنه غفور رحيم، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً، ثم عرض عليه الأمانة، فقبلها مع ظلمه وجهله، لعلمه بما يجبرها من الغفران والرحمة. والمعنى أن هناك مرضاً جبلياً في الإنسان، وأن هناك علاجاً ودواء لهذا المرض وهو سعة المغفرة وكثرة الرحمة الإلهية إذا تعرض الإنسان لهما في الجملة بالتوبة والإنابة والطاعة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - ختمت السورة المشتملة على الأحكام بأمر إجمالي هو وجوب التزام الأوامر الإلهية، والآداب الشرعية السامية، والمواعظ الرائعة.

٢ - الأمانة تشمل جميع تكاليف الشرع ووظائف الدين، على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور، ومنها الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد، وليست التكاليف سهلة هينة، وإنما هي من عظائم الأمور التي ناءت بحملها السماوات والأرض والجبال.

روى الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى لآدم: يا آدم، إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض، فلم تطقها، فهل أنت حاملها بما فيها؟ فقال: وما فيها يا رب؟ قال: إن حملتها أُجرت، وإن ضَيَّعتها عُذِّبت، فاحتملها بما فيها، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر، حتى أخرجه الشيطان منها» .

٣ - العرض على السماوات والأرض والجبال إما مجاز، وإما حقيقة، وإما ضرب مثل، فقال قوم: المعنى: إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السماوات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن، فأبين أن يحملن وزرها، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٢] أي أهلها. فهذا مجاز مرسل.

وقال قوم: إن الآية من المجاز - بنحو آخر - أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السماوات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت. وهذا كما تقول: عرضت الحِمْل على البعير فأباه، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه.

وقال آخرون: الحسن وغيره: العرض حقيقة أي إنه عرض على السماوات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب، أي أظهر لهن ذلك، فلم يحملن وزرها، وأشفقت، وقالت: لا أبتغي ثواباً ولا عقاباً، وكلّ يقول: هذا أمر لا نطيقه، ونحن له سامعون ومطيعون فيما أُمِرن به وسُخِّرن له. ولكن قال العلماء: معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب، فلا بدّ من تقدير الحياة، على القول الأخير. وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام.

وقال القفّال وغيره: العرض في هذه الآية ضَرْب مَثَل، أي إن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أي إن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد كُلِّفه الإنسان، وهو ظلوم جهول لو عَقَل. وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢١] ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ (الآية نفسها) قال القفال: فإذا تقرر أنه تعالى يضرب الأمثال، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل، وجب حمله عليه.

وعلى أي حال، المقصود بالآية بيان عظمة التكاليف وثقلها وتنبيه الإنسان لخطورة التبعة (أو المسؤولية) عنها، فلا يفرط فيها، وهو بين خيارين: إما العصيان فالعذاب، وإما الطاعة فالثواب، والله غفور رحيم.

٤ - لقد تجشم الإنسان تحمل مسؤولية الأمانة، والتزم القيام بحقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه أو للأمانة، جهول بقدر ما دخل فيه أو جهول بربه.

والإنسان: هو النوع كله، مراعاة لعموم الأمانة، فيشمل الكافر والمنافق، والعاصي، والمؤمن. وقيل: المراد بالإنسان: آدم الذي تحمَّل الأمانة.

٥ - اللام في قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ المتعلقة بـ ﴿عَرَضْنَا﴾ أو بـ ﴿وَحَمَلَهَا﴾ سواء قلنا: إنها لام الصيرورة أو لام التعليل، فإن النتيجة انقسام الناس إزاء التكاليف إلى قسمين: عصاة وطائعين، فقد حمل الإنسان الأمانة، ثم كانت حالته أمامها ليست واحدة، فهناك قوم التزموا القيام بحقها، فأثابهم الله الجنة، وهناك آخرون أهملوا القيام بحقها، فعذبهم الله بالنار.

وإذا تعلقت اللام بـ ﴿عَرَضْنَا﴾ يكون المعنى على أن اللام للتعليل: عرضنا الأمانة على الجميع، ثم قلدناها الإنسان، ليظهر شرك المشرك، ونفاق المنافق، ليعذبهم الله، وإيمان المؤمن ليثيبه الله. وإذا تعلقت بـ ﴿وَحَمَلَهَا﴾ يكون المعنى على جعل اللام للتعليل: حملها ليُعذِّب العاصي، ويثيب المطيع، لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة.

وإذا كانت اللام لام الصيرورة يكون المعنى: حملها الإنسان، فآل الأمر إلى أن يعذب من خان الأمانة، ويتوب على من أداها حقها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ سَبَإٍ

مكية، وهي أربع وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة (سبأ) للتذكير فيها بقصة سبأ، وهم ملوك اليمن، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [١٥-١٦] فقد أنعم الله عليهم بالحدائق الغناء والأراضي الخصبة، فلما كفروا النعمة، أبادهم بسيل العَرِم.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة: الأول - أن هذه السورة افتتحت ببيان صفات الملك التام والقدرة الشاملة التي تناسب ختام السورة السابقة في تطبيق العذاب وتقديم الثواب: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

الثاني - كان آخر الأحزاب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ومطلع سبأ في فاصلة الآية الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

الثالث - في سورة الأحزاب سأل الكفار عن الساعة استهزاء، وفي هذه السورة حكى القرآن عنهم إنكارها صراحة.

مشتملاتها:

تضمنت سورة سبأ المكية محور ما تدور عليه بقية السور المكية في إثبات العقيدة: من توحيد الله، والنبوة، والبعث.

فابتدأت بحمد الله تعالى والثناء عليه؛ لأنه خالق السماوات والأرض، ومرسل الملائكة رسلاً بمهام عديدة إلى البشر.

ثم أعقب ذلك الحديث عن إنكار المشركين البعث بعد الموت، وإثباته بالقسم العظيم بالله تعالى من النبي محمد ﷺ على وقوع المعاد: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وذكرت اتهامهم الباطل للنبي ﷺ بأنه مفتر أو مجنون، ثم أكدت ثبوت قدرة الله تعالى بخسف الأرض وإسقاط السماء.

وتلاها تعداد النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان، وأهل سبأ كتسخير الطير والجبال للتسبيح مع داود، وتسخير الريح لسليمان عليهما السلام، وجعل الحدائق والثمار الطيبة لملوك اليمن أهل سبأ.

ثم تحدثت السورة عن أدلة وجود الله ووحدانيته، وتفنيد مزاعم المشركين في عبادة الأوثان، وإظهار صورة من الجدل العنيف بين الأتباع الكفرة والمتبوعين المخذولين يوم القيامة، وإلقاء كل من الفريقين التبعة على الآخر.

وأبانت عموم الرسالة الإسلامية - المحمدية - لجميع الناس، وهددت بالحساب العسير والجزاء الأليم يوم القيامة، وأن المترفين في كل زمان هم أعداء الرسل لاغترارهم بأموالهم وأولادهم، وأن الله راضٍ عنهم فلا يعذبهم، وأن الله سيسأل الملائكة يوم الحشر، هل طلبوا من المشركين عبادتهم؟

ثم حكت السورة إنكار المشركين للقرآن وأنه في زعمهم مفترى ليس بوحي، ووعظتهم بما عوقب به من قبلهم، وطالبتهم بالتأمل والتفكر في أن

محمداً ﷺ ليس بمفترٍ ولا مجنون، وإنما هو نذير بين يدي عذاب شديد، وأنه لا يطلب أجراً على دعوته، بل أجره على ربه.

وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، قبل أن يأتي يوم القيامة، فيطلبون العودة إلى دار الدنيا للإيمان بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ، والإتيان بصالح الأعمال، ولكن يحال بينهم وبين ما يشتهون، لفوات الأوان.

صفات الملك والقدرة والعلم لله تعالى

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ إما في موضع جر على النعت أو البدل، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أو في موضع نصب بمعنى أعني.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من اسم الله، ويحتمل أن يكون مستأنفاً لا موضع له من الإعراب.

البلاغة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر، أي لا يستحق الحمد الكامل إلا الله.

﴿يَلِجُ﴾ ﴿يَخْرُجُ﴾ ﴿يَنزِلُ﴾ ﴿يَعْرُجُ﴾ بين كل منهما طباق.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ صيغة فعيل وفعول للمبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو الثناء على الله بما هو أهله، أو الثناء على الله بجميل صفاته وأفعاله ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ونعمة. ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وتمام نعمته، وله أيضاً حمد عباده في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة، للسبب السابق ذاته ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وهو الذي أحكم أمر الدارين ودبره بمقتضى الحكمة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بخلقه في الدارين، وهو الذي يعلم بواطن الأمور.

﴿يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدخل فيها كالماء ينفذ في موضع وينبع في آخر، وكالكنوز والدفائن والأموات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع والنباتات والحيوان والفلزات وماء العيون ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والملائكة والكتب والمقادير ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من أعمال العباد وغيرها من الملائكة والأبخرة والأدخنة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبهم.

التفسير والبيان:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن الحمد المطلق الكامل لله مالك السماوات والأرض وما فيهما، والمتصرف بشؤونهما، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وحمده على النعم التي أنعم بها على خلقه، والمعنى: إن المستحق للحمد والثناء والشكر هو الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وتصرفاً بما يشاء، فهو صاحب القدرة الكاملة، والنعمة التامة.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي لله الحمد في الآخرة كالحمد في الدنيا؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٠]. وقال تعالى في حكاية حمد أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤-٣٥].

وإذا كان هو المحمود على طول المدى، فهو المعبود أبداً.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي والله هو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، يدبر شؤون خلقه على مقتضى الحكمة، والخبير ببواطن الأمور، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. قال مالك: خبير بخلقه حكيم بأمره.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض كالغيث الذي ينفذ في موضع وينبُع في آخر، وكالكنوز والدفائن والأموات، ويعلم ما يخرج من الأرض، كالحيوان والنبات والماء والفِلزَّات.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي ما ينزل من السماء كالملائكة والكتب والأرزاق والأمطار والصواعق، وما يعرج فيها كالملائكة وأعمال العباد والغازات والأدخنة ووسائل النقل الجوي والطيور.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي والله هو الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصيانهم بالعقوبة، الغفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - الله تعالى هو المستحق لجميع المحامد والحمد: الشكر على النعمة، ويكون الثناء على الله بما هو أهله، فالحمد الكامل والثناء الشامل كله لله؛ إذ النعم كلها منه، وهو مالك السماوات والأرض وخالقهما والمتصرف فيهما بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة.

٢ً - الله تعالى هو المحمود في الدنيا والآخرة؛ لأنه المالك للأولى والثانية، وهو الحكيم في فعله، الخبير بأمر خلقه.

٣ً - الله عالم بكل شيء من الظواهر والخوافي، يعلم ما يدخل في الأرض من قَطْر وغيره من الكنوز والدفائن والأموات، ويعلم ما يخرج منها من نبات وغيره، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات، وما يعرج فيها من الملائكة وأعمال العباد، وهو الرحيم بعباده الغفور لذنوب التائبين منهم.

هذا ويلاحظ كما ذكر الرازي أن السور المفتتحة بالحمد خمس سور، سورتان منها في النصف الأول: وهما الأنعام والكهف، وسورتان في الأخير: وهما هذه السورة وسورة فاطر (سورة الملائكة)، والفاتحة التي تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير، والحكمة فيها أن نعم الله منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، ففي سورة الأنعام إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [١] وفي سورة الكهف إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [١-٢] فإن بالشرائع البقاء. ثم في هذه السورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وفي سورة فاطر إشارة إلى نعمة الإبقاء الثاني وهو في يوم القيامة؛ لأن الملائكة لا تكون رسلاً للبشر غير الأنبياء إلا يوم القيامة حيث يرسلهم الله مُسَلِّمين، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء:

٢١/١٠٣] . وفي فاتحة الكتاب إشارة إلى النعمة العاجلة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [١] وإلى النعمة الآجلة بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [٤] لذا قرئت في الافتتاح والاختتام.

إنكار الكفار الساعة
وموقف الناس من آيات الله وجزاؤهم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

القراءات:

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾:

قرئ:

١- (عالمُ الغيب) وهي قراءة نافع، وابن عامر.

٢- (علاَّم الغيب) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٣- (عالمِ الغيب) وهي قراءة الباقين.

﴿لَا يَعْزُبُ﴾:

وقرأ الكسائي (لايعزِب).

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (مَعَجِّزين)

﴿مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾:

قرئ:

١- (من رجز أليمٌ) وهي قراءة ابن كثير، وحفص.

٢- (من رجز أليمٍ) وهي قراءة الباقين.

﴿صِرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجر: نعت لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي﴾ أو بدل منه، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو عالم الغيب .﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ مرفوعان بالابتداء.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ﴾ اللام تتعلق بقوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾. و﴿أَلِيمٌ﴾ بالجر والرفع صفة لرجز أو عذاب.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إما معطوف على ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ أو مستأنف.

﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿وَيَرَى﴾ وهو: ضمير فصل، ومن قرأ بالرفع جعل ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلۡحَقَّ﴾ خبره، والجملة ثاني مفعولي ﴿وَيَرَى﴾.

البلاغة:

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة، فالمغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين، والعذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ القيامة والبعث، وهذا منهم إنكار لمجيئها، أو استبطاء واستهزاء بالوعد به ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ ردّ لكلامهم وإثبات لما نفوه[1] ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ تكرار لإثباته، مؤكداً بالقسم، مقرراً وصف المقسم به بصفات تثبت إمكانه، وتنفي استبعاده ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ لا يغيب عنه ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ وزن أو مقدار أصغر نملة ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ المثقال ﴿وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي إلا وهو مثبت في كتاب بيِّن واضح وهو اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ﴾ إلخ جملة مؤكدة لنفي العزوب.

---

(١) «بلى»: لها موضعان: الأول - أن تكون ردّاً لنفي يقع قبلها، خبراً كان أو نهياً، فينتفي بها ما قبلها من النفي وتحققه، كما هنا. والثاني - أن تقع جواباً لاستفهام دخل على نفي تحققه، فيصير معناها التصديق لما قبلها، مثل: ألم أكن صديقك؟ فيقول الرادّ: بلى، إذا صدقه، والمعنى: بلى كنت صديقي، فهي إذن لإثبات المنفي. وأما «نعم»: فهي في الأصل: تصديق لما قبلها في كل كلام وإيجاب له، وعدة، مثل: هل تحسن إلي؟ فيقول الرادّ: نعم، فيعدُه بالإحسان، فإن أراد ترك الإحسان قال: لا، ولا يحسن هنا: بلى. و«لا» نفي لما قبلها وردّ له. وأما «كلا» فتكون بمعنى «لا» ومعناها الرد والإنكار لما تقدم قبلها من الكلام وذلك في حال الوقف عليها. وقد تأتي بمعنى «حقّاً» وهو مذهب الكسائي خلافاً لحذّاق النحويين. وفي حال الابتداء بـ «كلا» تكون بمعنى «ألا» مثل ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾ (شرح «كلا، وبلى، ونعم» للعلامة مكي بن أبي طالب القيسي).

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ علة لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها، أي إن إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب والكافرين بالعقاب ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، أي محوها من قبل الله تعالى بسبب غلبة إيمانهم وأعمالهم الصالحة على ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن لا تعب فيه ولا مِنَّة عليه، وهو ما يقيض لهم من ملاذ الأطعمة وغيرها في الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح تفضلاً من الله تعالى عليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بإبطال آياتنا المنزلة على الرسل، وتزهيد الناس فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين لنا يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم، لاعتقادهم ألا بعث ولا عقاب، وقرئ: مُعَجِّزينَ، أي مُثَبِّطين عن الإيمان بآيات القرآن من أراده ﴿رِّجْزٍ﴾ سيئ العذاب أو عذاب شديد ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي ويعلم أولو العلم من الصحابة ومشايعوهم من الأمة، أو من مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الثابت الصحيح وغيره باطل ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ أي يوصل إلى طريق الله ودين الله وهو التوحيد والتقوى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ذي العزة الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود في جميع شؤونه.

المناسبة:

بعد بيان أن لله الحمد في الدنيا والآخرة، أبان الله تعالى أن الكفار ينكرون حدوث القيامة أشد الإنكار، أو يستعجلون بها استهزاء بوعد النبي ﷺ بها، ثم أوضح تعالى أن الناس من آيات القرآن فريقان: فريق المنكرين الجاحدين المعاندين الساعين في إبطالها، وجزاؤهم العذاب الأليم، وفريق العالمين المؤمنين بأنها الحق الصراح الأكيد الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ أي وقال الكافرون بالرسالات السماوية إنكاراً منهم أو استعجالاً على سبيل الاستهزاء بالوعد: لن يكون هناك قيامة ولا بعث ولا حساب. وهم بذلك جاحدون الأخبار الواردة من ربهم بحدوث الساعة، والتي تضمنتها كتبه وما فيها من الحجج والبينات.

فردَّ الله عليهم مؤكداً بطلان اعتقادهم:

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أي قل لهم أيها النبي: بلى والله إنها لآتية لا ريب فيها. ويلاحظ في ذلك إثبات وجودها ونفي مزاعمهم، مؤكداً ذلك بالقسم بالله وبالتأكيد في الفعل باللام ونون التوكيد.

وهذه الآية - كما ذكر ابن كثير - إحدى آيات ثلاث أمر الله تعالى فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، للرد على المنكرين من أهل الشرك والنفاق والعناد، فإحداهن في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾ [١٠/٥٣] والثانية هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ والثالثة في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [٦٤/٧].

ثم وصف الله تعالى نفسه بصفة العلم الشامل الدال على إمكان البعث، فقال:

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي إن الله تعالى القادر على البعث لا يغيب عنه ولا يستتر عليه شيء من الموجودات ولو كان بقدر أصغر نملة، ولا أصغر من المثقال ولا أكبر منه إلا وهو محفوظ ومثبت في

كتاب بيّن وهو اللوح المحفوظ. فالعلم بالغيبيات موجود، فاقتضى إمكان البعث.

ثم بيّن الله تعالى حكمته في إعادة الأجساد وقيام الساعة بقوله:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ أي إن الله يبعثهم من قبورهم في البر والبحر وفي أي مكان يوم القيامة، ليثيب المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر، الذين عملوا صالح الأعمال وهو ما أمروا به، واجتنبوا ما نهوا عنه، وأولئك لهم مغفرة أي محو لذنوبهم، ونعيم في الجنة لا تعب ولا منة فيه، والمقصود أن إثابة المؤمنين حق وعدل.

هذا هو فريق المؤمنين والفريق الثاني:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ أي إن الكفار المعاندين الذين حاولوا إبطال آيات القرآن وأدلة إثبات البعث، ظانين أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم، لهم عذاب شديد في نار جهنم هو أسوأ العذاب وأشده، وهو مؤلم شديد الألم. وهذا التعذيب أيضاً حق وعدل، حتى لا يتساوى المسيء مع المحسن، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٨] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/٢٠].

والخلاصة: إن الغاية من القيامة هي أن ينعم السعداء من المؤمنين بالجنة، ويعذب الأشقياء من الكافرين بالنار.

ثم أورد الله تعالى حكمة أخرى معطوفة على ما قبلها فقال:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾ أي إن المؤمنين بما أنزل على الرسل من المسلمين وأهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما وغيرهم إذا شاهدوا قيام الساعة، ومجازاة الأبرار والفجار، وتحققوا مما علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين وتيقنوا أن القرآن حق، ويقولون يومئذ: إن الذي جاءت به رسل الله لحق ثابت صدق لا شك فيه وإن القرآن يرشد من اتبعه إلى طريق الله ذي العزة الذي لا يُغلَب ولا يمانع، وهو القاهر كل شيء، وهو المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ولا يليق به صفة العجز. والصحيح أن ﴿وَيَرَى﴾ مرفوع على الاستئناف.

ونظير الآية: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٥٢] ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - أنكر الكفار من أهل مكة وغيرهم مجيء البعث والقيامة، قال أبو سفيان لكفار مكة: واللات والعُزَّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث، وهذا يعني أنهم مقرُّون بابتداء الله الخلق منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا: وإن قدر لا يفعل.

٢ً - أكد الله تعالى حدوث الساعة بقسم محمد ﷺ بربه العظيم لتأتينهم، وأخبر على ألسنة الرسل عليهم السلام أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيء، وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب مَنْ وجب صدقه محال.

٣ً - الله عالم بأصغر شيء كالذَّرَّة وأكبره في السماوات والأرض، فهو العالم بما خلق، ولا يخفى عليه شيء، فوجد المقتضي لوجود البعث وهو إقامة العدل بين الناس، وارتفع المانع من حصوله.

٤ - إن الحكمة من البعث والقيامة والحساب هي إثابة المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وعقاب الكافرين المكذبين بوحدانية الله وبالرسل والملائكة والكتب الإلهية واليوم الآخر.

٥ - إن الكفار الذين سعوا في إبطال أدلة الوحدانية والبعث والنبوة، والتكذيب بآيات الله مسابقين يحسبون أنهم يفوتون ربهم، وأن الله لا يقدر على بعثهم في الآخرة، وظنوا أنه يهملهم، هؤلاء لهم عذاب مؤلم هو أسوأ العذاب وأشده.

٦ - وفي مقابل موقف أولئك الكفار الذين سعوا في إبطال النبوة، وجد آخرون هم الذين أوتوا العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن مؤمني أهل الكتاب يرون أن القرآن حق وإن لم تأتهم الساعة، والرؤية بمعنى العلم، وأن القرآن يهدي إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله.

استبعاد الكفار قيام الساعة واستهزاؤهم بالرسول ﷺ والاستدلال على البعث

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾: قرئ:

١ - (إن يشأ يخسف بهُمُ الأرض أو يسقط) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (إن نشأ نخسف بهِم الأرض أو نسقط) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (إن نشأ نخسف بهِمُ الأرض أو نسقط) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿كِسَفًا﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (كِسْفاً).

الإعراب:

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ العامل في ﴿إِذَا﴾ فعل دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وتقديره: إذا مُزِّقتم كلّ مُمَزَّق بعثتم. وتقديم الظرف للدلالة على البعد.

البلاغة:

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ الاستفهام للسخرية والاستهزاء، ومرادهم الاستهزاء بالرسول ﷺ، ولم يذكروا اسمه تجهيلاً له.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قال بعض الكفار لبعض على جهة التعجيب ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ قطّعتم قطعاً صغيرة. ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي كل تمزيق، أي تقطيع. ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إنكم تنشؤون وتخلقون خلقاً جديداً بعد التمزيق والتفريق بحيث تصير تراباً. قالوا ذلك استهزاء.

﴿أَفْتَرَىٰ﴾ الهمزة للاستفهام، واستغني بها عن همزة الوصل، والافتراء: اختلاق الكذب. ﴿جِنَّةٌۢ﴾ جنون وزوال عقل يوهمه ذلك ويجعله يتخيل البعث. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب فيها ﴿فِى

﴿ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ عن الحق والصواب في الدنيا، والعذاب في الآخرة. والمقصود الردّ من الله عليهم لإثبات ما هو أفظع من القسمين وهو الضلال والعذاب.

﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ينظروا .﴿إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم﴾ ما فوقهم وما تحتهم. ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ نغيبهم فيها .﴿كِسَفٗا﴾ قطعاً جمع كِسْفة .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المرئي .﴿لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ المنيب: الراجع إلى ربه المطيع له، والمعنى: إن فيما رأوا لدلالة على قدرة الله على البعث وما يشاء.

المناسبة:

بعد الإخبار عن إنكار الكفرة الساعة، والردّ عليهم، وبيان جزائهم وجزاء المؤمنين بها، ذكر الله تعالى مقال الكافرين في شأن الساعة على سبيل التعجب والتهكم والاستهزاء، ووصفهم لمحمد ﷺ بأنه مفترٍ أو مجنون، ثم أقام الدليل على البعث بقدرته على خلق السماوات والأرض، ثم هددهم بالعذاب الشديد، لعلهم يرجعون عن كفرهم.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧﴾ أي قال بعض الكفار لبعض على سبيل التعجب والاستهزاء والتهكم: هل ندلكم على شخص اسمه محمد يخبركم بنبأ غريب وهو أنكم إذا بليتم وصرتم تراباً وصارت أجسادكم في الأرض متفرقة موزعة قطعاً قطعاً، تعودون بعدئذٍ أحياء كما كنتم مرة أخرى.

ونظير الآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨] .

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ أي إن حاله لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون قد تعمّد الافتراء على الله كذباً أنه قد أوحى إليه ذلك، أي أنه كاذب فيما قاله، أو أن به جنوناً جعله لا يعقل ما يقول، ويتوهمُ البعث ويتخيله.

فردّ الله عليهم بإثبات ما هو أخطر وأشنع من الأمرين فقال:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل إن محمداً ﷺ هو الصادق الرشيد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء المنكرون للآخرة، الذين كفروا، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة، وهم اليوم في الدنيا في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

ثم نبههم تعالى على قدرته في خلق السماوات والأرض، فهو القادر على البعث، فقال:

﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ أي وبخهم لعدم التفكر والتدبر في خلق السماء والأرض، فقال لهم: أفلم ينظروا خلفهم وأمامهم إلى العجائب الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته، فإنهم يرون السماء ناطقة بوجود القادر، والأرض كذلك تنطق بمثل ما تشير به السماء من الدلالة، فلو نظروا إليهما لعلموا أن خالقهما قادر على تعجيل العذاب لهم، فإن نرد نخسف بهم الأرض، كما خسفنا بقارون، أو نسقط عليهم قطعاً من السماء، كما أسقطنا على أصحاب الأيكة.

والمراد: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر العقاب عنهم لحلمنا وعفونا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أي إن في النظر إلى خلق السماوات

والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرض في انخفاضها وطولها وعرضها، قادر على إعادة الأجسام كما كانت، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٣٦/٨١].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - لم يكتف المشركون بإعلان إنكارهم البعث والقيامة، وإنما تغالوا في ذلك فأخذوا يقولون قولاً يقصد به الطعن بمحمد ﷺ والتعجب منه والهزء والسخرية من إخباره بالبعث، وجعلوا ذلك أداة ضحك وتلهٍّ، واستغربوا أن الناس إذا فرقوا كل تفريق في أجزاء التراب، كيف يمكن إعادة الحياة لهم؟!

٢ - وقال المشركون: إن محمداً في إخباره بالبعث لا يخلو إما أن يكون كاذباً مفترياً على الله، وإما أنه مجنون.

٣ - ردّ الله عليهم ردّاً يثبت عليهم ما هو أشنع من التهمتين السابقتين: وهو أنهم بسبب إنكارهم البعث واقعون في الآخرة في العذاب الشديد، واليوم في الضلال البعيد عن الصواب، حين صاروا إلى تعجيز الإله، ونسبة الافتراء إلى من أيّده الله بالمعجزات.

٤ - ثم أقام الله تعالى عليهم الدليل على صحة البعث، فأعلمهم أن الذي قدر على خلق السماوات والأرض وما فيهن قادر على البعث، وعلى تعجيل العقوبة لهم، ومنها الخسف والكسف، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.

٥ - وإن في هذا المذكور من قدرة الله الباهرة لدلالة ظاهرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله بقلبه على قدرة الله تعالى على البعث ووقوع المعاد. وخصّ المنيب بالذكر؛ لأنه المنتفع بالتفكر في حجج الله وآياته.

نعم الله على داود عليه السلام

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

الإعراب:

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ إما منصوب بالعطف على موضع المنادى وهو النصب في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ﴾ أو على أنه مفعول معه، أي مع الطير، أو بفعل مقدر، أي وسخرنا له الطير، ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. ويقرأ بالرفع (والطيرُ) عطفاً على لفظ ﴿يَٰجِبَالُ﴾ أو عطفاً على الضمير المرفوع في ﴿أَوِّبِى﴾ وحسن ذلك لوجود الفصل بـ ﴿مَعَهُۥ﴾ والفصل يقوم مقام التوكيد. والقراءة بالنصب أقوى في القياس من الرفع.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ﴿أَنِ﴾: إما مفسرة بمعنى (أي) أو في موضع نصب بتقدير حذف حرف جر، وتقديره: لأن أعمل. و﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي دروعاً سابغات، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

البلاغة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ تنكير ﴿فَضْلًا﴾ للتفخيم، أي فضلاً عظيماً. وتقديم داود على المفعول اهتمام بالمقدم وتشويق إلى المؤخر.

المفردات اللغوية:

﴿فَضْلًا﴾ هو النبوة والملك والجنود وكتاب الزبور والصوت الحسَن. ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ رجّعي وردِّدي معه التسبيح، والتأويب: التسبيح .﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه في يده كالعجين أو الشمع يصرّفه من غير نار ولا طَرْق .﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي وقلنا له اعمل دروعاً كوامل تامة، وهو أول من اتخذها. ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي اجعل النسج متناسباً في الحلَق على قدر الحاجة غير مختلفة. و﴿وَقَدِّرْ﴾ : اقتصد، و﴿السَّرْدِ﴾ : النسج، يقال لصانع الدروع: سَرَّاد وزرَّاد .﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ يعود الضمير لداود وأهله أي آل داود .﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مطلع على كل أعمالكم، فأجازيكم عليها.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى من ينيب من عباده، ذكر نماذج ممن أنابوا إلى ربِّهم ومنهم داود عليه السلام، وبيَّن ما آتاه الله على إنابته، من النبوة والملك والجنود والزبور والصوت الحسَن، فكانت الجبال والطيور إذا سبَّح تسبِّح معه، وعلَّمه تعالى صناعة الدروع الحربية للوقاية من الضربات في الحروب.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ يخبر تعالى عما أنعم به على رسوله داود عليه السلام مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك العظيم المتمكن والجنود، ومنحه من الصوت الرخيم القوي المؤثر، الذي كان إذا سبَّح سبَّحت معه الجبال الراسيات، والطيور السارحات: الغاديات الرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

والمعنى: لقد أعطينا داود فضلاً عظيماً ونعماً جليلة، فقلنا للجبال والطير: رددي معه التسبيح إذا سبَّح.

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، يقرأ من الليل فوقف، فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود» .

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ، أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي جعلنا الحديد في يده ليناً يصنع به ما يشاء، من غير حاجة إلى نار ولا مطرقة، بل كان يفتله في يده مثل الخيوط، ليعمل به الدروع الكاملات الواسعات التي تقي من ويلات الحروب، وعلمه كيفية نسج الدروع بحيث تكون متناسبة الحلق، وعلى قدر الحاجة، فلا هي صغيرة ضيقة لا تحقق الهدف، ولا كبيرة ثقيلة على لابسها، فيعجز عن لبسها. ولا شك أن إلانة الحديد من غير نار ولا طرق معجزة لنبي الله داود، لا تنطبق على غيره. وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع، قال قتادة رحمه الله: «كانت الدروع قبله صفائح ثقالاً» فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة، أي قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه، أي لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة.

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي اعملوا يا آل داود عملاً صالحاً فيما أعطاكم الله تعالى من النعم؛ فإني مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليَّ شيء منها. وقوله: ﴿إِنِّى بِمَا﴾ تعليل للأمر.

وهذا تحريض على إصلاح العمل لشكر النعمة، والعمل الصالح يقوِّم النفوس، ويصقل الروح، ويحصنها من المزالق والانحرافات.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - لقد منح الله تعالى عبده المنيب ورسوله داود عليه السلام فضلاً عظيماً، فضَّله به على سائر الأنبياء من قبله، من الجمع بين النبوة والملك

والزبور والعلم والجنود وتسبيح الجبال والطيور مع تسبيحه، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ٣٨/١٨] .

قال أبو ميسرة في تفسير التأويب: هو التسبيح بلغة الحبشة، ومعنى تسبيح الجبال: هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيُسمَع منها ما يُسمَع من المسبِّح، معجزة لداود عليه السلام.

وقيل: المعنى: سِيري معه حيث شاء؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع، والنزول ليلاً.

وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف فيه داود بالنهار، فكان إذا قرأ الزبور صوَّتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير.

٢ - ومن فضائل الله على داود ومعجزاته: إلانة الحديد بيده، حيث يصير كالعجين أو الشمع من غير نار ولا مِطْرَقة.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على مشروعية تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» .

٣ - علّم الله تعالى داود عليه السلام صناعة الدروع السابغات، أي الكوامل التامات الواسعات، المحكمة الحلَق المتناسبة فيما بينها، ليست بالصغيرة فلا تحقق الغرض منها وهو الدفاع، ولا بالكبيرة التي تثقل كاهل لابسها.

٤ - لم يستثن الله نبياً ولا رسولاً من إلزامه بالعمل الصالح، لذا أعقب بيان نعمه وأفضاله على داود بأمره مع أهله بصالح العمل وهو فعل الأوامر وترك

النواهي، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ٣٤/١٣] . وعلل الترغيب بالعمل الصالح بأنه تعالى بصير بأعمال عباده وأقوالهم، لا يغيب عنه شيء، فيجازيهم عليها.

نعم الله على سليمان عليه السلام

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾:

وقرأ ورش، وأبو عمرو وصلاً، وابن كثير وصلاً ووقفاً (كالجوابي).

﴿عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾:

قرأ حمزة بسكون الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ الباقون بفتحها وصلاً، وإسكانها وقفاً.

﴿مِنسَأَتَهُۥۖ﴾: قرئ:

١- (منساته) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو.

٢- (منسأْته) وهي قراءة ابن ذكوان.

٣- (منسأته) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ ﴿ٱلرِّيحَ﴾: منصوب بفعل مقدر، تقديره: وسخرنا لسليمان الريح، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر، والجار والمجرور خبر مقدم، أو مرفوع بالجار والمجرور على مذهب الأخفش.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ معطوف عليه، أي غدوها مسيرة شهر، ورواحها مسيرة شهر، وإنما وجب هذا التقدير؛ لأن الغدو والرواح ليسا بالشهر، وإنما يكونان فيه.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ ﴿مَن﴾: إما منصوب بتقدير فعل، تقديره: وسخّرنا من الجن من يعمل بين يديه، وإما مرفوع بالابتداء، والجار والمجرور خبره، أو مرفوع بالجار والمجرور على مذهب الأخفش.

﴿وَمَن يَزِغْ﴾ (مَنْ): شرطية في موضع رفع بالابتداء، و﴿نُذِقْهُ﴾: الجواب، وهو خبر المبتدأ.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ ﴿شُكْرًا﴾: منصوب؛ لأنه مفعول لأجله، ولا يكون منصوباً بـ ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ لأن «شكروا» أفصح من: «اعملوا شكراً».

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ يقرأ بالهمز على الأصل، ومن لم يهمزه أبدل من الهمزة ألفاً.

﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ ﴿أَن﴾: إما بالرفع على البدل من ﴿ٱلْجِنُّ﴾ وهو بدل اشتمال، مثل: أعجبني زيد عقلُه، وإما بالنصب على تقدير حذف حرف جر، وهي اللام.

البلاغة:

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي غدوها مسيرة شهر، ورواحها مسيرة شهر.

﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ تشبيه مرسل مجمل، لذكر أداة الشبه، وحذف وجه الشبه.

المفردات اللغوية:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ فيه تقدير، أي وسخرنا لسليمان الريح. ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر، والغداة: من الصباح إلى الزوال. ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي وجريها بالعشي مسيرة شهر، والعشي: من الزوال إلى الغروب. ﴿وَأَسَلْنَا﴾ أذبنا. ﴿الْقِطْرِ﴾ النحاس المذاب. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمر ربه. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عن طاعة سليمان بأمرنا له بطاعته. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي من عذاب النار في الآخرة، أو الحريق في الدنيا.

﴿مَحَارِيبَ﴾ هي الأبنية العالية والقصور الرفيعة الحصينة، سميت بذلك لأنه يحارب عليها، وقيل: المراد بالمحاريب هنا: المساجد. ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ جمع تمثال، وهو كل شيء مجسّم صوَّرته بصورة الحيوان من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك. قيل: إن التصوير كان مباحاً في شرع سليمان، ثم نسخ ذلك في شرع نبينا محمد ﷺ. ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جَفْنة، أي صحاف تشبه في العِظَم حياض الإبل، يجتمع على القصعة الواحدة جمع كبير كألف، يأكلون منها. ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياض الكبار، جمع جابية. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ أي ثابتات، ولها قوائم لا تتحرك عن أماكنها، تتخذ من الجبال باليمن، يصعد إليها بالسلالم.

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم: اعملوا يا آل داود بطاعة الله، شكراً له على ما آتاكم. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ العامل بطاعة الله، المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يوفي حقه؛ لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر إلى ما لا نهاية.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان، بأن مات ومكث قائماً متكئاً على عصاه، وبقي الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة على عادتها، لا تشعر بموته، حتى أكلت الأَرَضة عصاه، فخرّ ميتاً. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما دلّ الجن على موته إلا الأَرَضة: وهي التي تأكل الأخشاب ونحوها، مأخوذة من أُرضيت الخشبة: أكلتها الأرضة، ويقال: أرضيت الأرضة الخشبة أرضاً. ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ عصاه؛ لأنها ينسأ بها، أي يطرد ويزجر بها. ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط ميتاً. ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ انكشف لهم. ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، أي أنهم. ﴿يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ كما زعموا، لعلموا بموته. ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ ما أقاموا في الأعمال الشاقة التي كُلِّفوا بها، لظنهم حياته. قيل: وقد أرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت يوماً وليلة مقداراً، فحسبوا ذلك، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. وقال كما ذكر الماوردي بعد الانتهاء من بناء المسجد الأقصى: «اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال: لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرتَ له وتبت عليه، ولا خائف إلا أمَّنته، ولا سقيم إلا شفيته، ولا فقير إلا أغنيته، والخامس: ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه إلا من أراد إلحاداً أو ظلماً، يا ربّ العالمين».

المناسبة:

بعد بيان ما أنعم الله به على داود عليه السلام من النبوة والملك، ذكر تعالى ما أنعم به على سليمان من تسخير الريح له، حيث كانت تجري من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر، وإذابة النحاس كإذابة الحديد لأبيه داود، وتسخير الجن لبناء القصور الشامخة وصناعة الجفان الكبيرة كالأحواض، والقدور الثابتة التي لا تتحرك لسعتها

وكبرها. وهذه الأشياء الثلاثة تقابل الثلاثة في حقّ داود وهي تسخير الجبال الذي هو من جنس تسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير الذي هو من جنس تسخير الجن لسليمان، وإلانة الحديد كإلانة النحاس لسليمان.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات نعماً ثلاثاً كبرى أنعم بها على سليمان عليه السلام وهي:

١ - تسخير الريح: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي وسخّرنا لسليمان الريح التي كانت تحمل بساطاً له غدوها (أي سيرها وقت الغداة من أول النهار إلى منتصف النهار) مسيرة شهر، ورواحها (جريانها وقت الرواح من منتصف النهار إلى الغروب) مسيرة شهر.

قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل بإصْطَخْر يتغدى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابُل (في أفغانستان) وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

٢ - إذابة النحاس: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي وأذبنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود، فكان يصنع منه ما يشاء دون نار ولا مطرقة. وسمي عيناً، لأنه سال من معدنه سيلان الماء من الينبوع.

٣ - تسخير الجن: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وسخرنا له من الجن من يعمل لديه من المحاريب وغيرها، بأمر ربّه وقدرته وتيسيره وتسخيره إياهم لسليمان، ومن يعدل ويخرج منهم عن طاعة سليمان نذقه عذاباً أليماً من الحريق في الدنيا، أو من عذاب النار في الآخرة.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ أي يعمل الجن لسليمان ما يريد من الأبنية الرفيعة والقصور العالية والمساجد والصور المجسمة المصنوعة من النحاس أو الزجاج أو الرخام ونحوها، والصحاف أو القصاع الكبيرة التي تكفي لعدد كبير من الناس وتشبه حياض الإبل، والقدور الثابتات في أماكنها، لا تتحرك ولا تتحول عن مواضعها لعظمها وثقلها.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي وقلنا: اعملوا يا آل داود بطاعة الله، شكراً له على ما آتاكم من النعم في الدين والدنيا، وقليل من عبادي من يشكرني، فيستعمل جميع جوارحه فيما خلقت له من المنافع المباحة. والشكور: هو الذي يشكر في جميع أحواله من الخير والضرّ. كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٤] وهذا إخبار عن الواقع.

ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ أحبَّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحبّ الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً، ويُفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى».

وأخرج مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّر قدماه، فقلت له: أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ صعِد المنبر، فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود، فقلنا: ما هنّ؟ فقال: العدل في الرِّضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السِّرّ والعلانية».

ومع هذه النعم وعظمة سليمان عليه السلام ذكر تعالى كيفية موته وتعميته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة، فقال:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت وألزمناه إياه، مات، وهو قائم متكئ على عصاه، ولم تعلم الجن بموته، وبقوا يعملون خوفاً منه، ولم يدلّهم على موته إلا الأرَضة التي أكلت عصاه من الداخل، فلما سقط بعدما وقعت عصاه، ظهر للجن أنهم لا يعلمون الغيب كما زعموا، ولو صحّ ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب، لعلموا بموته وهو أمامهم، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العمل الشاق الذي سخرهم فيه، ظانين أنه حيّ. أما المدة التي مكث فيها سليمان متكئاً على عصاه فلم يرد خبر صحيح في شأنها، ونترك الأمر في تقديرها لله عزّ وجلّ، وربما يستأنس بالحديث المرفوع الذي رواه إبراهيم بن طهمان عن ابن عباس وفيه: «أن سليمان نحت عصا الخرنوبة، فتوكأ عليها حولاً لا يعلمون، فسقطت، فعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب، فنظروا مقدار ذلك، فوجدوه سنة»[١].

قال الرازي: وقوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير؛ لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين[٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/٢٧٩

(٢) تفسير الرازي: ٢٥/٢٥٠

١ً - امتنّ الله تعالى على سليمان عليه السلام بما أنعم عليه من النعم الجليلة أهمها ثلاث: تسخير الريح، وإذابة النحاس، وتسخير الجنّ للعمل بأمره.

أما تسخير الريح فكانت تحمل بساطه تنقله من مكان إلى آخر، فتقطع مسافة في نصف يوم تقدر بمسيرة شهر للمسافر العادي، وهذا معنى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

٢ً - والنعمة الثانية هي إذابة النحاس في يده.

قال القرطبي: والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوته[١]

٣ً - والنعمة الثالثة هي تسخير الجنّ له شَغَلة عَمَلة لمختلف الحرف والصناعات الثقيلة، من المساجد والقصور الشامخة، والقصاع الكبيرة كحياض الإبل وقدور النحاس الثوابت التي لا تحرك لعظمها. والتماثيل: وهي كل ما صُوِّر على مثل صورة من حيوان أو غيره. ذكر أنها صور الأنبياء والعلماء، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس، فيزدادوا عبادةً واجتهاداً، قال ﷺ: «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح، بنَوْا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصُّوَر» أي ليتذكروا عبادتهم، فيجتهدوا في العبادة.

والآية صريحة في أن نبي الله سليمان عليه السلام كان يتخذ التماثيل. وهذا يدلّ على أن التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونسخ جوازه بشرع محمد ﷺ. وعلة النسخ سد الذّرائع ومحاربة ما كانت العرب تفعله من عبادة الأوثان والأصنام، كما أن التعظيم لا يكون لغير الله تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٧٠

ذكر ابن العربي خمسة أحاديث في منع التصوير، منها ما رواه مسلم عن أبي طلحة عن النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة» زاد زيد بن خالد الجُهَني: «إلا ما كان رَقْماً في ثوب» ثم ثبتت كراهية الرَّقْم أيضاً ونسخه المنع منه في أحاديث أخرى، فاستقرّ الأمر فيه على المنع كما ذكر القرطبي، ومنها: ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود وابن عباس: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون» ومنها ما رواه مسلم عن عائشة قالت: كان لنا سِتْر فيه تمثال طائر، وكان الداخل إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ: «حَوِّلي هذا، فإني كلما دخلت، فرأيته ذكرت الدنيا» وعنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقِرام[1] فيه صورة، فتلوَّن وجهه، ثم تناول السّتر فهتكه، ثم قال: «إنّ من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُشَبِّهون بخلق الله عزّ وجلّ».

هذا ما يراه ابن العربي والقرطبي[2] في أن المنع من التصوير عام، ثم استثنيت منه أشياء، مثل لُعَب البنات، بالحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها. واستبعد جماعة من العلماء هذا الاتجاه؛ لأن النسخ يشترط فيه العلم بالتاريخ، والأولى في الجمع بين الأحاديث: أن يقال: تحمل النصوص التي فيها الحظر بإطلاق على ما كان منها مجسداً لذي روح، بدليل حديث: «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله» ومن طريق آخر: «يقال لهم: أحيوا ما خلقتم» فيكون المنع متجهاً إلى صور الأجسام ذات الروح إذا كانت على حالة بحيث يمكن أن يقال: إن صاحبها يضاهي بها خلق الله، وذلك إذا كانت كاملة الخَلْق، بحيث لا ينقصها إلا نفخ الروح.

(١) القرام: السّتر الرقيق.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/١٥٨٩ - ١٥٩٠، تفسير القرطبي: ١٤/٢٧٢ - ٢٧٤

وأما حديث الأمر بتحويل السّتر الذي فيه تمثال طائر، فلاستقبال المارة له، مما يشعر بتعظيمه، فإذا وضع للاستعمال فلا بأس.

أما تصوير الجمادات، كالجبال والأنهار، والأشجار ونحوها، فليست مما يتناولها النص بإشارة: «يشبّهون خلق الله» وبإشارة «يقال لهم: أحيوا ما خلقتم» .

وكذلك كل ما وضع في حالة لا تشعر بالتعظيم كالاستعمال في الأرض لا يكون ممنوعاً.

هذا وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري شرح البخاري آراء العلماء في اتخاذ الصور، نقلاً عن ابن العربي، وهي أن اتخاذ الصور ذات الأجسام أو ذات الظل لكل ما فيه روح من إنسان أو حيوان حرام بالإجماع إلا لعب البنات. أما الرَّقْم على الثياب ففيه أربعة أقوال:

الأول - يجوز مطلقاً، عملاً بحديث: «إلا رقماً في ثوب» .

الثاني - المنع مطلقاً.

الثالث - إن كانت الصورة باقية الهيئة، قائمة الشكل، حرم، وإن كانت مقطوعة الرأس أو تفرقت الأجزاء، جاز، قال: وهذا هو الأصح.

الرابع - إن كانت مما يمتهن جاز، وإلا لم يجز.

وأجاز جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب اتخاذ الصور إذا كانت مما يوطأ ويداس أو يمتهن بالاستعمال كالمخاد والوسائد.

أما التصوير الشمسي أو الفوتوغرافي فحكمه حكم الرقم في الثوب، وهذا مستثنى بالنّص، بل إن هذا في الحقيقة ليس تصويراً بالمعنى الذي جاءت به الأحاديث بل حبس للصورة أو الظل، فيكون مثل الصورة في المرآة أو الماء، وليس فيه محاكاة صنع الخالق أو تشبيه خلق الله تعالى.

٤ً - أمر الله آل داود بشكره، وأخبر أن الشاكرين من عباده قلة قليلة، مما يدل على وجوب شكر الله تعالى على ما أنعم على الإنسان، وحقيقة الشكر: الاعتراف بالنعمة للمنعم، واستعمالها في طاعته، والكفران استعمالها في المعصية.

وظاهر القرآن والسُّنّة: أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان.

٥ً - ليس لأحد من الملائكة والجنّ والأنبياء والناس ادعاء العلم بالغيب، وإنما ذلك مختص بالله تعالى، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦/٧٢-٢٧].

وفي قصة موت سليمان متكئاً على عصاه، دون أن تعلم الجن بموته، بدليل استمرارهم بما كُلِّفوا به من الأعمال الشاقة: مثل واقعي فذّ لجهلهم بالغيب، فإنه ظلّ مدة متكئاً على عصاه، ثم سقط بسقوط العصا التي تآكلت بفعل الأرضة، وحينئذٍ علموا أنه ميِّت.

قصة سبأ وسيل العرم

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

القراءات:

﴿لِسَبَإٍ﴾: قرئ:

١- (لسَبَأَ) وهي قراءة البزي، وأبي عمرو.

٢- (لسَبَأْ) وهي قراءة قنبل.

٣- (لسبإٍ) وهي قراءة الباقين.

﴿مَسْكَنِهِمْ﴾: قرئ:

١- (مسْكَنهم) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٢- (مسْكِنهم) وهي قراءة الكسائي، وخلف.

٣- (مساكِنهم) وهي قراءة الباقين.

﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ :قرئ:

١- (أُكْلٍ) وهي قراءة نافع، وابن كثير.

٢- (أُكُلِ) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (أُكُلٍ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَهَلْ نُجَزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (وهل يُجازى إلا الكفورُ).

﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ربَّنا بَعِّدْ).

﴿صَدَّقَ﴾ : قرئ:

١- (صَدَّق) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (صَدَق) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿لِسَبَإٍ﴾ من قرأ بالتنوين جعله منصرفاً، وقال: هو اسم بلد أو حي، وليس فيه تأنيث، ومن لم ينونه، جعله غير منصرف للتعريف (العلمية) والتأنيث، وقال: هو اسم بلدة أو قبيلة. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ من قرأ بالإفراد ففيه لغتان بفتح الكاف وكسرها، والفتح على القياس؛ لأن مضارعه «يسكُن» . والكسر على خلاف القياس، مثل: مطلِع ومغرِب ومسجِد ومسقِط ومنبِت ومجزِر. ومن قرأ بالجمع جعله جمع مسكن.

﴿جَنَّتَانِ﴾ إما بدل من قوله ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي جنتان، أو مبتدأ على تقدير: هنا جنتان، أو هناك جنتان.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ خبر مبتدأ أي هذه بلدة طيبة، وكذلك: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي وهذا رب غفور.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ منصوبان على الظرف. والليالي جمع (ليلة) على خلاف القياس. وأيام جمع يوم.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال.

﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ من قرأ بالتنوين جعل (الخمط) عطف بيان على (الأكل) ولا يجوز أن يكون صفة؛ لأنه اسم شجرة بعينها، ولا بدلاً: لأنه ليس هو الأول ولا بعضه. ومن لم ينون أضاف (الأكُل) إلى الخمط؛ لأن الأكل هو الثمرة، والخمط هو الشجرة، فأضاف الثمرة إلى الشجرة، مثل تمر نخل، وعنب كرم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: في موضع نصب لأنه مفعول ثانٍ لـ ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ والمفعول الأول: الهاء والميم، وما: مصدرية أي بكفرهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ من قرأ ﴿صَدَّقَ﴾ بالتخفيف، كان ﴿ظَنَّهُۥ﴾ إما منصوب انتصاب الظرف، أي في ظنه، وإما منصوب انتصاب المفعول به على الاتساع، وإما منصوب على المصدر. ومن قرأ بالتخفيف ونصب إبليس ورفع ظنه، جعل الظن فاعلاً وإبليس مفعولاً. ومن قرأ بالتشديد نصب ﴿ظَنَّهُۥ﴾ لأنه مفعول ﴿صَدَّقَ﴾.

البلاغة:

﴿يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ بينهما طباق.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ﴾ بين الكلمتين الأخيرتين جناس اشتقاق.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعول.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بينهما ما يسمى بمراعاة الفواصل، من أنواع الجمال في اللفظ.

المفردات اللغوية:

﴿لِسَبَإٍ﴾ اسم قبيلة من قبائل العرب العاربة في بلاد اليمن، وتعد أصلاً تفرع منها عدة فروع في جزيرة العرب. وقد سميت باسم جدّ لهم من العرب: هو سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قَحْطان. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ موضع السكنى وهو مأرب في بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. ﴿ءَايَةٌ﴾ علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد أمور عجيبة. ﴿جَنَّتَانِ﴾ بستانان. ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عن يمين واديهم وشماله. ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي قيل لهم ذلك، والرزق: ثمار الجنتين. ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ على ما رزقكم من هذه النعم في أرض سبأ، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر، أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور. وكون البلد طيبة: أنه ليس فيها سباخ ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية؛ لطيب هوائها.

﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ انصرفوا عن شكر هذه النعم وكفروا بالله. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي دمَّره الله، وفتَق عليهم سد مأرب حتى انتقض، فدخل الماء بساتينهم فغرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم. والعرم: جمع عَرِمة: وهي الحجارة المركومة والمباني القائمة، وسيل العرم: هو السيل الذي لا يطاق لقوته وشدّته. ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ مُرّ، والأُكل بمعنى المأكول: الثمر، والخمط: كل شجرة مُرَّة ذات شوك وليس له ثمر. ﴿وَأَثْلٍ﴾ هو الشجر

المعروف الشبيه بالطرفاء، ولا ثمر له. ﴿سِدۡرٖ﴾ شجر النبق له ثمر يؤكل. أهلك الله أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر، ووصف السدر بالقلة؛ لأن ثمره مما يطيب أكله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التبديل. ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي بكفرانهم النعمة، أو بكفرهم بالرسل، إذ بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم. ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أي لا نجازي بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في كفران النعم أو الكفر بالرسل. وقرئ: يجازي.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ﴾ سبأ باليمن. ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة. ﴿قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ مرتفعة على الآكام، متواصلة من اليمن إلى الشام، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا. ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ أي كانت القرى على مقادير للمسافر، بحيث يكون المقيل في قرية، والمبيت في أخرى، إلى انتهاء سفرهم ووصولهم إلى الشام، دون أن يحتاجوا في الطريق إلى حمل زاد وماء. ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي وقلنا: سيروا فيها. ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل أو نهار. ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون في ليل ولا في نهار.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ﴾ وفي قراءة: بعِّد. ﴿بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ إلى الشام؛ فإنهم بطروا النعمة كبني إسرائيل، فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد. ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر وبطر النعمة. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم في ذلك، جمع أحدوثة: وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب، فإن الله أجابهم بتخريب القرى المتوسطة. ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ فرقناهم في البلاد غاية التفريق. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عبراً ودلالات واضحات. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ كثير الصبر عن المعاصي وعلى الطاعات. ﴿شَكُورٖ﴾ كثير الشكر على النعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي صدق إبليس على الكفار ومنهم سبأ ظنه، والمعنى: ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه. ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي فصَدَق في ظنه، أو صدَّق ظنه بأن وجده صادقاً. ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ بمعنى لكن. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لكن فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه، و﴿مِّنَ﴾: للبيان.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي لم يكن له على المتبعين تسلط واستيلاء بوسوسة واستغواء. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم ظهور وانكشاف. ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي لنتعرف ونتميز المؤمن بالآخرة من الشاك. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظ رقيب.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم أن فَرْوة بن مُسَيْك الغطفاني رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: ما أمرت فيهم بشيء بعد، فأنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ الآيات.

المناسبة:

بعد بيان حال الشاكرين لنعم الله المنيبين إليه، وهم داود وسليمان عليهما السلام، بيَّن الله تعالى حال الكافرين بأنعمه، بحكاية قصة أهل سبأ، تحذيراً لقريش، ووعيداً لكل من يكفر بنعم الله تعالى.

أضواء على سبأ وسد مأرب:

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن

يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال سيل العرم، والتفرق في البلاد[١].

روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي عن ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو، أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل، ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فَمَذْحِج، وكِنْدة، والأَزْد، والأشعريون، وأنمار، وحِمْيَر، وأما الشامية: فلَخْم، وجُذام، وعاملة، وغَسَّان» وإسناده حسن.

قال علماء النسب كمحمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يَعْرُب بن قَحْطان، وإنما سمي سبأ؛ لأنه أول من سبأ - أي تفرق - في العرب، وكان يقال له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو، فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال ريشاً ورياشاً.

وأرض **سبأ**: طيبة الثمار والهواء، كثيرة الخيرات والبركات، أنعم الله على أهلها بنعم كثيرة ليوحدوه ويعبدوه. والسبئيون: قوم سكنوا اليمن، وأقاموا المدن العظام ذات الحصون والقلاع والقصور الشامخة.

واختلفوا في **قحطان** على ثلاثة أقوال: أحدها - أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، والثاني - أنه من سلالة عابر وهو هود عليه السلام، والثالث - أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام.

وأما **سد مأرب**: فكأن الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء، وبلغ حافة الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٣٠

وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب. وقد جدّد بناؤه عام ١٩٨٧ م.

التفسير والبيان:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾(١) ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ كان لقبيلة سبأ باليمن التي كان منها ملوك اليمن في مسكنهم: مأرب آية هي بستانان عن يمين واديهم وشماله، وكانت مساكنهم في الوادي، وفي البستانين جميع الثمار، فقيل لهم: كلوا من رزق ربكم، أي من ثمار الجنتين، والقائل لهم نبيهم، أو القول بلسان الحال أو الدلالة؛ لأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك. وقيل لهم أيضاً: واشكروا ربكم على ما رزقكم من هذه النعم، ووحدوه واعبدوه، وأطيعوه واجتنبوا معاصيه، فهذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها، وطيب ثمارها، واعتدال هوائها، وصحة مناخها، والله المنعم عليكم بهذه النعم رب غفور لذنوبكم إن استمررتم على التوحيد والطاعة.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ أي فأعرضوا عن توحيد الله، وعبادته وطاعته، وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما حكى القرآن عن قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٢-٢٤].

---

(١) منصرف على أنه اسم حي، وهو في الأصل اسم رجل، كما تقدم بيانه.

فأرسل الله عليهم سيل العرم، أي المياه الكثيرة الغزيرة، بأن تحطم سد مأرب، فملأ الماء الوادي، وغرّق البساتين الخضر ثم يبست، ودفن البيوت، ولم يُبْق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد، وأعطوا بدل تلك الجنان والبساتين المثمرة الأنيقة النضرة بساتين لا خير فيها ولا فائدة منها، وإنما أشجار ذات ثمر مُرّ هي الأراك، وأثل هو الطرفاء، والسدر ذي الشوك الكثير الذي لا ثمر له وهو شجر الضَّال.

قال القشيري: وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستاناً، ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] .

وسبب هذا العقاب كما قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ أي إن ذلك التبديل من الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال الوارفة والأنهار الجارية إلى أشجار ذات أشواك وثمار مُرَّة، كان بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل، لقد عاقبناهم بكفرهم، ولا يعاقب الله إلا المبالغ في كفران النعم، والكفر بالرسل.

وبعد تعداد نعم الله على السبئيين في مساكنهم، ذكر تعالى باقة أخرى من النعم أثناء تنقلهم في البلاد، ومتاجرتهم مع بلاد الشام، فقال:

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ أي وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التي باركنا فيها بالمياه والأشجار والخيرات الكثيرة قرى مرتفعة معروفة، متواصلة، متقارب بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل ماء ولا زاد، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً، وهي قرى ظاهرة، أي بينة واضحة يعرفها المسافرون، لبنائها على هضاب عالية.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جعلناها محطات متعاقبة ذات مقادير متناسبة بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، فيقيلون في بلد، ويبيتون في آخر، إلى أن يصلوا إلى الشام.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي وقيل لهم بلسان المقال أو الحال: سيروا في تلك القرى ليالي وأياماً آمنين مما تخافون في السير ليلاً ونهاراً، لا تخشون جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً يهددكم.

ثم بطروا تلك النعمة، فقال تعالى:

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي سئموا النعمة، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار، وقالوا: ربنا اجعل بيننا وبين البلاد التي نسافر إليها مفاوز وقفاراً، ليركبوا فيها الرواحل، والتزود بالزاد والماء، إظهاراً للتمايز الطبقي والتكبر والتفاخر على الفقراء والعاجزين، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد بالمن والسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس، كما طلبوا أن يفصل بين القرى بمفاوز وقفار لأغراض حربية، وهذا غاية الانتكاس على الفطرة، والإمعان في تدمير مظاهر الحضارة والتمدن والحياة الهانئة، لذا وصفهم الله بأنهم ظلموا أنفسهم إذ عرضوها للسخط والعذاب، وعاقبهم الله على بطرهم النعمة وكفرهم بالله، فقال:

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي جعلناهم عبرة لمن يعتبر، وحديثاً للناس يَسْمُرون به في مجالسهم، وفرقنا شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، وفرقناهم في البلاد كل تفريق، فصارت العرب تضرب بهم المثل، فتقول: «تفرق القوم أيدي سبأ» وأيادي سبأ، أي مذاهب سبأ وطرقها، فنزلت الأوس والخزرج بيثرب، وغسان آل جفنة بن عمرو بالشام،

والأزْد بعُمان والسَّراة، وخزاعة بتهامة، فمزقهم الله كل ممزق، وهدم السيل بلادهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة، وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

وفي هذا إشادة بالصبر، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن: إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته» . وروي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» .

وكان مُطَرِّف بن الشِّخِّير يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر.

وبعد بيان قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان، أخبر تعالى بأنهم وأمثالهم هم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالفوا الرشاد والهدى، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي ظن إبليس بهؤلاء السبئيين أنه إذا أغواهم اتبعوه، فكان كما ظن بوسوسته، فانقادوا لإغوائه وعصوا ربهم وعبدوا الشمس من دون الله، إلا فريقاً مؤمناً منهم قاوموا وسوسة الشيطان وعصوا أمره، وثبتوا على طاعة الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي لم يكن لإبليس على هؤلاء القوم من حجة وبرهان لإضلالهم، ولم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الوسوسة والتزيين، قال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها، فأجابوه.

ولكن ابتليناهم بوسوسته وسلطانه عليهم لنعلم علم ظهور - وإلا فالله بكل شيء عليم - أمر من يؤمن بالآخرة وقيامها، والحساب فيها، والجزاء بالثواب والعقاب، ممن هو منها في شك، فلا يؤمن بحدوثها ولا بما اشتملت عليه من ثواب وعقاب. وربك أيها الرسول محافظ ورقيب على كل شيء، ومنه أعمال هؤلاء الكفار، وسيجازيهم عليها يوم الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - لقد كان لقبيلة سبأ باليمن بساتين خضر ومناظر رائعة حسناوات، وخيرات وفيرة عن يمين واديهم التي يسكنون فيها وعن شمالهم في مأرب، وتلك علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة، لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر.

٢ - كان جديراً بهم أن يشكروا نعم الله وما رزقهم بالطاعة، فضلاً عن أن الرسل قالت لهم ذلك، فهذه أي مأرب بلدة طيبة، أي كثيرة الثمار، معتدلة المناخ، لطيفة الهواء، بعيدة عن المؤذيات، والمنعم بهذه النعم عليهم ربّ غفور يستر ذنوبهم، فجمع الله تعالى لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه.

٣ً - لقد خيبوا ما يظن بهم، فأعرضوا عن أمر ربهم واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين، فأرسل عليهم سيل العرم، أي نقض سدّ مأرب، فتدفقت المياه المدرارة الغزيرة، فغرَّقت بساتينهم، ودفنت بيوتهم، فيبست الأشجار المثمرة، ونبت مكانها أشجار مرّة لا خير فيها من الخمط أي الأراك، والأثل: وهو كما قال الفراء: شجر شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً، والسِّدر وهو نوعان: نوع له ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذي يسمى الضَّال، ونوع ينبت على الماء وثمره النَّبْق، وورقه يشبه شجر العنَّاب.

قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيَّره الله تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطَّرفاء والسِّدر.

٤ً - هذا التبديل من النعمة إلى النقمة جزاء كفرهم، ولا يعاقب بهذا إلا المبالغ في كفران النعمة والكفر بالله تعالى.

وتساءل الزمخشري والقرطبي: لِمَ خصَّ الله تعالى المجازاة بالكفور، ولم يذكر أصحاب المعاصي؟ والجواب أن المراد: هو الجزاء الخاص وهو العقاب بالاستئصال والإهلاك، وليس المراد: الجزاء العام الذي يشمل الكافر والمؤمن. هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حوسب هلك[1]»، فقلت: يا نبي الله، فأين قوله جلّ وعزّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ قال: إنما ذلك العرض، ومن نوقش الحساب هلك» والمعنى: أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير.

٥ً - ومن النعم على أهل سبأ جعل طرقاتهم وممراتهم التجارية بين اليمن

(١) ورواه الترمذي عن أنس: «من حوسب عذب».

والشام مأهولة، لا تحتاج إلى حمل ماء وزاد، فقد جعل لهم محطات يستريحون فيها بالقيلولة والمبيت هي القرى الكثيرة على طول الطريق إلى الشام، قيل: إنها كانت أربعة آلاف وسبع مئة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. والمسافات بين تلك القرى منتظمة، إذ جعل بين كل قريتين نصف يوم، حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى.

كما أن تلك الطرقات كانت آمنة غير مخوفة ليلاً ونهاراً، ولا يحتاجون إلى طول السفر، لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظِماء، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان، لا يحرّك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجلُ قاتلَ أبيه لا يحرّكه، فلم يشكروا النعمة، بل طلبوا التعب والكدّ.

٦ً - بطروا النعمة أيضاً، وطغوا، وسئموا الراحة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة، فتبددوا في الدنيا، وتفرقوا في البلاد كل تفرق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل، ويتزودون الأزواد، وظلموا أنفسهم بكفرهم، وأصبحوا مدار القصص والتحدث بأخبارهم، وعبرة للمعتبر.

٧ً - إن في هذا التبديل والتدمير وتغير نمط الحياة من رفاه ونعومة إلى تعب وكدّ وشظف وخشونة لعبرة ودلالة لكل صبار يصبر عن المعاصي، شكور لنعم الله تعالى.

٨ً - كانوا في كفرانهم النعم، وجحودهم وجود الله وعبادتهم الشمس، وإعراضهم عن طاعة الرسل، واتباعهم أهواءهم، كما توقع إبليس الذي سوّل له ظنه فيهم شيئاً، فصدق ظنه أن يغويهم، فأغواهم فاتبعوه، إلا قوماً منهم أطاعوا الله تعالى، وآمنوا برسلهم.

٩ً - لا سلطان لإبليس على قلوب الناس، ولا حجة يضلهم بها، ولا قدرة

له على قهرهم على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين والوسواس، وكان منهم أنهم اتبعوه بشهوة وتقليد، وهوى نفس، لا عن حجة ودليل، وكان هو مجرد آية وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق.

وتوضيح ذلك: لقد سلطه الله على الناس، كما يسلط الذباب على العيون القذرة، والأوبئة على من أهمل النظافة، فتكون الفريسة من لا قدرة له على المقاومة، وينجو الأقوياء الأصحاء المجاهدون.

وهو تسليط قصد به الابتلاء والاختبار، وإظهار الواقع، مع أن الله يعلم بكل شيء، وتكون النتيجة ظهور أمر المؤمن بالله وبالآخرة، وتمييزه من الشاك بوجود الله وبالقيامة، وتنصب في النهاية أعمال العباد في الحافظة الإلهية، فهو سبحانه يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

إبطال شفاعة آلهة المشركين

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ﴾: قرئ:

١- (قلِ ادعوا) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (قلُ ادعوا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَذِنَ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: (أُذِنَ له).

﴿فُزِّعَ﴾:

وقرأ ابن عامر (فَزَّع).

الإعراب:

﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ (ما) في موضع نصب بـ ﴿قَالَ﴾ وذا: زائدة.

﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ ﴿الْحَقَّ﴾: منصوب بـ ﴿قَالُوا﴾ أيضاً، ليكون الجواب على وفق السؤال.

البلاغة:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ تعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع.

المفردات اللغوية:

﴿قُلِ﴾ أيها الرسول للمشركين في مكة وغيرها، وهو أمر للنبي ﷺ بأن يقول لكفار قريش: هؤلاء الأصنام الذين زعمتموهم آلهة من دون الله، ادعوهم ليكشفوا عنكم الضرّ الذي نزل بكم في سنين الجوع. ﴿ادْعُوا﴾ نادوا. ﴿زَعَمْتُمْ﴾ زعمتموهم آلهة. ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره، لينفعوكم بزعمكم. ثم أجاب تعالى عنهم إشعاراً بتعين الجواب دون مكابرة: وهو ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو شر.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي ليس لتلك الآلهة المزعومة من شركة، لا خلقاً ولا ملكاً. ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي ليس له تعالى من الآلهة من معين يعينه على تدبير أمرهما. ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ تعالى، فلا تنفعهم شفاعة

آلهتهم كما يزعمون، وهو ردّ لقولهم: إن آلهتهم تشفع عنده .﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أذن له أن يشفع .﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الفزع بالإذن فيها، والفزع: انقباض بسبب الخوف .﴿قَالُوا۟﴾ قال بعضهم لبعض استبشاراً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ في الشفاعة .﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم المؤمنون .﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلو فوق خلقه بالقهر، وذو الكبرياء العظيم، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه.

المناسبة:

بعد بيان حال الشاكرين كداود وسليمان، وحال الكافرين كسبأ وما فعله بهم حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل، عاد الله تعالى إلى خطاب المشركين ومناقشتهم ومطالبتهم على سبيل التهكم بهم بأن يستعينوا بآلهتهم المزعومة ليكشفوا عنهم الضر، ثم بيَّن أنهم لا يملكون شيئاً ولا تنفع شفاعتهم، فكيف يعبدونهم، وشأن المعبود تحقيق النفع للعابد؟

التفسير والبيان:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين من قريش: نادوا تلك الآلهة المزعومة كالأصنام، والتي عبدت من دون الله، ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع، أو يجلبوا لكم النفع.

ثم أجاب سبحانه عنهم الجواب المتعين دون مكابرة، مبيناً خطأهم، فقال:

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن تلك الآلهة المزعومة لا يملكون شيئاً أبداً، ولو كان وزن ذرة في السماوات والأرض، وليس لهم قدرة على خير ولا شر في أمر من الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٥/١٣] .

ثم نفى الله تعالى وجود الشريك والمعين له، فقال:

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي لا تستطيع الأصنام شيئاً أصلاً، لا استقلالاً، ولا شركة في الخلق أو الملك، فليس لله شريك ولا معين على خلق شيء ولا على حفظه، كما قال تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥١] بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه.

ثم نفى إمكان شفاعتهم، فقال:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي لا تنفعهم شفاعة تلك الأصنام؛ لأنه لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا لمن أذن الله له أن يشفع، من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل، وهو لا يأذن للكافرين، وهؤلاء الشفعاء المأذون لهم لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٥٣/٢٦] وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٨] وقال عز اسمه: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٧٨/٣٨].

ومفاد هذه الآيات: أن الشفاعة تحتاج إلى إذن الله تعالى، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله، وأن تكون أسباب الشفاعة حقاً وصواباً مقبولاً، لهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم حينما يأتي ربهم لفصل القضاء، أنه قال: «فأسجد لله تعالى، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل تُسْمَع، وسَلْ تُعْطَه، واشفع تشفع».

وفي هذا الموقف الرهيب يتجلى مقام رفيع من العظمة الإلهية، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، فسمع أهل السماوات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما.

وهنا ذكر الله تعالى ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة، فقال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي إن الناس والملائكة يقفون فزعين خائفين منتظرين الإذن بالشفاعة، حتى إذا أذن للشافعين، وأزيل الخوف والفزع عنهم، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في الشفاعة؟ قالوا للذي قال: قال ربنا القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، والله هو المتفرد بالعلو والكبرياء والعظمة، لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه، وليس لملَك ولا لنبي أن يتكلم في ذلك اليوم إلا بإذنه تعالى.

وكلمة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وقعت غاية لشيء مفهوم ضمناً وهو أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً من الراجين للشفعاء، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه مناقشة معلن عنها مسبقاً في القرآن الكريم، تحدث على سبيل التهكم والتوبيخ والتعجب بين الإله الخالق وبين المشركين.

يأمر الله فيها نبيه أن يقول لهؤلاء المشركين: هل عند شركائكم قدرة على شيء من النفع يحققونه لكم؟ ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك.

إنهم لا يملكون شيئاً أصلاً ولو وزن ذرة في السماوات والأرض، وليس للأصنام في السماوات والأرض مشاركة، لا بالخلق ولا بالملك، ولا

بالتصرف، وليس لله من معين يعينه على شيء من أمر السماوات والأرض ومن فيهما، بل الله المنفرد بالإيجاد والتدبير، فهو الذي يُعبَد، وعبادة غيره محال.

ولا تنفع شفاعة الملائكة وغيرهم عند الله إلا لمن أذن له، حتى إذا وقفوا - أي الراجون للشفاعة والشفعاء - جميعاً خائفين وجلين منتظرين الإذن بالشفاعة، ثم أزيل الفزع عن قلوبهم، تساءل الناس فيما بينهم وقالوا للملائكة: ماذا أمر الله بالشفاعة؟ فيجيبون: إنه أذن في الشفاعة للمؤمنين لا للكافرين، والله هو المتعالي المتكبر العظيم، فله أن يحكم في عباده بما يريد.

وهكذا يتبين أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم على غاية الفزع من الله، كما قال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ ولن يكون الإذن بالشفاعة لتلك الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها، كما لن تكون الشفاعة إلا لمن رضي الله من المؤمنين، لا الكافرين. وهذا بيان جلي يقطع الأطماع في الشفاعة الموهومة، ويبدد الآمال في النجاة من غير أمر الله ورضوانه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ دليل على: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن، تباشروا بذلك، وسأل بعضهم بعضاً. والمأذون لهم في الشفاعة: الملائكة وغيرهم، في رأي جمهور المفسرين منهم الزمخشري وأبو حيان.

وقال الشوكاني في فتح القدير: هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب، أخرج البخاري وأبو داود، من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، فإذا فُزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقّ، وهو العلي الكبير» .

إقرار المشركين بأن الله هو الرازق وإعلامهم بالحاكم ووقت الحكم

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ
لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم
مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

الإعراب:

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ﴿إِيَّاكُمْ﴾ ضمير منفصل منصوب معطوف على اسم «إن». و﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ إما خبر لقوله: ﴿وَإِنَّآ﴾ وخبر ﴿إِيَّاكُمْ﴾ محذوف لدلالة الأول عليه، أو أن يكون خبراً للثاني، وخبر الأول محذوف لدلالة الثاني عليه. وهذا كقولهم: زيد وعمرو قائم، إما أن يجعل قائم خبراً للأول، ويقدر للثاني خبر، وإما أن يجعل خبراً للثاني، ويقدر للأول خبر.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ ﴿كَآفَّةً﴾ منصوب على الحال من كاف ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ ولا يجوز جعلها حالاً من الناس على المختار. وأصله «كاففة» اجتمع حرفان متحركان من جنس واحد، فسكن الأول وأدغم في الثاني، ﴿كَآفَّةً﴾ وتقديره: وما أرسلناك إلا كافّاً للناس. ودخلت التاء للمبالغة، كعلّامة ونسّابة.

﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ مبتدأ مرفوع، و﴿لَّكُم﴾ خبره، والهاء في ﴿عَنْهُ﴾ عائدة على الميعاد.

البلاغة:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ توبيخ وتبكيت.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ حذف الخبر، لدلالة السياق عليه، أي قل الله الخالق الرازق للعباد.

﴿تَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿تَسْتَقْدِمُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعيل.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد به تقرير القول السابق: لا يملكون، والرزق من السماوات: المطر، ومن الأرض: النبات. ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي لا جواب سواه، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا في الجواب مخافة الإلزام، فهم مقرّون به بقلوبهم. ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي أحد الفريقين. ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إما في حال هدى أو في ضلال واضح. وهذا بعدما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى، ومن هو في الضلال. وهذا الإبهام أبلغ من التصريح؛ لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم، وهو تلطف بهم في الدعوة إلى الإيمان إذا وفقوا له.

﴿أَجْرَمْنَا﴾ أذنبنا، أو وقعنا في الجُرْم، وهو الذنب. ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأنا بريئون منكم. ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي يحكم، والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح طريق الحق ويظهره، وبعد الحكم يدخل تعالى أهل الحق والإيمان الجنة، وأهل الباطل والكفر النار. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم بالحق. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به وبما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح.

﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾ أي أعلموني بالدليل وجه الشركة في استحقاق العبادة، وهو استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم، زيادة في تبكيتهم. ﴿كَلَّاۚ﴾ كلمة للزجر عن كلام أو فعل صدر من المخاطب، والمراد هنا: ردع لهم عن اعتقاد شريك لله تعالى. ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة، والحكمة الباهرة في تدبيره لخلقه، فلا يكون له شريك في ملكه.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وما أرسلناك إلا للناس جميعاً عربهم وعجمهم، و﴿كَآفَّةً﴾ مانعاً لهم، من الكف وهو المنع عن الكفر ودعوتهم إلى الإسلام، أو جامعاً لهم بالإنذار والإبلاغ، من الكف بمعنى الجمع، والتاء للمبالغة، والمعنى على الأول: إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد، وعلى الثاني: إلا جامعاً للناس في الإبلاغ والإنذار، وهو حال من الكاف، ولا يجوز جعله حالاً من ﴿لِّلنَّاسِ﴾ لأن تقدم حال المجرور عليه ممنوع كتقدم المجرور على الجار. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين بالعذاب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على مخالفتك، فهم لا يعلمون ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩﴾ أي ويقول المشركون من فرط جهلهم: متى يكون هذا الوعد بالعذاب الذي تعدوننا به يا محمد وصحبه، وهو قيام الساعة، أخبرونا به إن كنتم صادقين فيه. والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. ﴿مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ وعد يوم أو زمان وعد، وهو يوم البعث أو القيامة. ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون عليه، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قدَّر الله وقوعه فيه. وهو جواب تهديد جاء مطابقاً لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار.

المناسبة:

بعد بيان أن الأصنام ونحوها من الآلهة المزعومة لا يملكون شيئاً في الكون، أبان الله تعالى أن المشركين يعترفون بأن الرازق من السماء والأرض بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ويوجد من المعادن هو الله، فيلزمهم أن يعتقدوا بأنه لا إله غيره، وأن المحق واحد من الفريقين وغيره مبطل، والمحق هم المؤمنون لقيام الدليل على التوحيد، وأن يعلموا أن الله هو الحاكم بالحق يوم القيامة، وأنه هو الخالق الرازق، أما الشركاء فلا يخلقون ولا يرزقون.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين عبدة الأوثان والأصنام على سبيل التوبيخ والتبكيت: من الرازق لكم من السماوات بإنزال المطر، ومن الأرض بالنبات والمعادن ونحوها؟ قل لهم: هو الله الذي يرزقكم، إن لم يجيبوا، بل لا جواب لهم سواه، وقد أجابوا فعلاً في آيات أخرى بأنه هو الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣١].

وإذا اعترفتم بأن الله هو الرازق، فلِم تعبدون سواه ممن لا يقدر على الرزق؟ كما قال تعالى تبكيتاً وتعنيفاً لهم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٦].

ثم دعاهم الله تعالى إلى الإيمان بالله بطريق التلطف، بعد هذا الإلزام القائم مقام الاعتراف والإقرار، فقال:

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن أحد

الفريقين منا، سواء معشر المؤمنين الموحدين الله الخالق الرازق، الذين يخصونه بالعبادة، أو المشركين الذين يعبدون الجمادات العاجزة عن الخلق والرزق والنفع والضرر، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو في الضلال البيِّن الواضح، فلا سبيل إلى تصويب كلٍّ منا، فإما أن نكون نحن أو أنتم على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، والآخر مخطئ مبطل. وهذا أسلوب فيه لطف وأدب، لاستدراج الخصم إلى أن ينظر في حاله وحال غيره، ويستعمله العرب لإعطاء الحرية للمخاطب بأن يتأمل ويعلن عن قناعة أنه مخطئ وغيره مصيب، كما يقول الرجل لصاحبه: قد علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب.

ويلاحظ أنه ذكر كلمة «على» مع الهدى، وكلمة «في» مع الضلال؛ لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها. ووصف الضلال بالمبين، ولم يصف الهدى؛ لأن الهدى هو الطريق المستقيم الموصل إلى الحق، والمستقيم واحد، وغيره كله ضلال، بعضه أبين من بعض. وقدم الهدى على الضلال لمناسبته لوصف المؤمنين المبدوء بكلمة ﴿وَإِنَّآ﴾ المقدم في الذكر.

ثم أعلن الله تعالى وجود الانفصال بين الفريقين واستقلال كل منهما عن الآخر بطريق التلطف مرة أخرى بنسبة الإجرام فَرَضاً إلى المؤمنين والعمل للمشركين فقال: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي قل أيها الرسول أيضاً للمشركين: إن كانت عبادتنا لله وطاعتنا له جريمة، فلستم مسؤولين عنا، ولا نسأل عما تعملون من خير أو شر. وهذا معناه التبري منهم، فلستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى توحيد الله وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا، ونحن منكم، وإن أعرضتم وكذبتم فنحن برآء منكم، وأنتم برآء منا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/

٤١] . وقد أضاف الإجرام إلى النفس: ﴿أَجْرَمْنَا﴾ وقال في حقهم ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم.

ثم أنذرهم الله تعالى بالقضاء والحكم الذي سيقضي به، تأكيداً للنظر والتفكر، في مجال الحساب والثواب والعذاب، فقال:

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ أي قل لهم أيها الرسول أيضاً. إن ربنا سيجمع بيننا في ساحة واحدة يوم الحساب، ويوم القيامة، ثم يحكم ويقضي بيننا بالحق والعدل، والله هو الحاكم العادل القاضي بالصواب، العالم بحقائق الأحوال والأمور، وبما يتعلق بحكمه من المصالح، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ١٤-١٦] .

ثم تحداهم تعالى بالكشف عن الشركاء وقدراتهم، فقال:

﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين قولاً فصلاً: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً، وصيرتموها شركاء ونظراء معادلين لله، حتى أراهم، وأرى ما يقدرون عليه. الحق واضح، والأمر ليس كما تزعمون، كلا أي فارتدعوا عن ادعاء المشاركة، فلا نظير ولا شريك ولا عديل لله، بل هو الله الواحد الأحد، المتفرد بالألوهية، الذي لا شريك له، ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وغلب كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، حكمة باهرة لا يعلوها شيء. وهذا التساؤل يراد به بيان فائدة الشركاء في دفع الضرر، بعد إبطال فائدتها بآية ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾

لجلب المنفعة، تمشياً مع أهداف العامة الذين لا يعبدون المعبود إلا لدفع الضرر أو لجلب المنفعة، أما الخواص فيعبدون الله لأنه يستحق العبادة لذاته.

وبعد إثبات التوحيد، أبان الله تعالى عموم الرسالة المحمدية للناس جميعاً، فليست ذات نزعة عنصرية، ولا حكراً على العرب وحدهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي وما أرسلناك أيها النبي لقومك العرب خاصة، بل أرسلناك للناس قاطبة، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، مبشراً من أطاع الله بالجنة، ومنذراً من عصاه بالنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨] وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/١] .

وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي.. وذكر منها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» . وفي الصحيح أيضاً: «بعثت إلى الأسود والأحمر» .

إلا أن أكثر الناس لا يعلمون بعموم الرسالة، ولا بمهمة التبشير والإنذار، ولا بخطورة ما هم عليه من الضلال والجهالة، ولا بالنفع في إرسال الرسل، ولا ما عند الله من الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦/١١٦] .

وبعد بيان التوحيد ثم الرسالة، ذكر الحشر، فأخبر تعالى عن استبعاد الكفار قيام الساعة وأجاب عنه، فقال:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي ويقول المشركون استهزاء وتعنتاً وجهلاً: متى يكون هذا الوعد الذي تعدوننا به يا

محمد والمؤمنون، وهو قيام الساعة، أخبرونا به إن كنتم صادقين في قولكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ٤٢/١٨].

والجواب هو:

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي قل لهم أيها الرسول: لكم موعد يوم مؤجل محدد لا شك فيه، هو يوم البعث والقيامة، لا تتأخرون عنه ساعة ولا تتقدمون عليه، لا يزاد ولا ينقص، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قدّر الله وقوعه فيه. وفي هذا إنذار كافٍ.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الله سبحانه وتعالى في الواقع الذي لا يقبل سواه، وفي اعتراف المشركين أنفسهم هو خالق الأرزاق الكائنة من السماوات، عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع، والخارجة من الأرض عن الماء والنبات، وبما أن الله هو الخالق الرازق فهو الذي ينبغي أن يعبد. ومن المعلوم أن العامة يعبدون الله، لا لكونه إلهاً، وإنما يطلبون به شيئاً: إما دفع ضرر، أو جر نفع.

٢ - الحق واحد لا يتعدد، فلا يعقل أن يكون كل المؤمنين والمشركين في حال واحدة من الهدى أو الضلال، بل هما متعارضان متضادان، وأحد الفريقين مهتد، وهم المؤمنون، والآخر ضال وهم المشركون.

وقد كذبهم القرآن بأسلوب يعدّ أحسن من تصريح الكذب، وهو أن المشركين هم الضالون حين أشركوا بالذي يرزقهم من السماوات والأرض. فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كما تقول:

أنا أفعل كذا، وتفعل أنت كذا، وأحدنا مخطئ، وقد عرف من هو المخطئ. أما لو قال أحد المتناظرين للآخر: هذا الذي تقوله خطأ، وأنت فيه مخطئ، فإنه يغضب، وإذا غضب اختل الفكر وساء الفهم.

٣ً - أقام الله تعالى مهادنة ومتاركة بين المؤمنين والمشركين، فأعلن رسوله لهم: إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، لا أن ينالني ضرر كفركم، ولا يسأل أحد الفريقين عن الآخر، فلا يسأل المشركون عما اكتسب المؤمنون، ولا يسأل المؤمنون أيضاً عما اقترف المشركون، كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦] .

٤ً - يجمع الله تعالى يوم القيامة أهل الإيمان وأهل الشرك، ثم يقضي بينهم بالحق والعدل، فيثيب المهتدي، ويعاقب الضال، والله هو القاضي بالحق، العليم بأحوال الخلق.

٥ً - يسألُ النبي المشركين بأمر الله قائلاً: عَرِّفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله عز وجل، وهل شاركت في خلق شيء؟ بينوا ما هو؟ وإلا فلِمَ تعبدونها؟!

الحق أنه ليس الأمر كما زعم المشركون، فليس لله شركاء، بل هو الله ذو العزة القاهر الغالب، الحكيم في أقواله وأفعاله، يفعل ما هو مصلحة.

٦ً - رسالة النبي ﷺ رسالة عامة للبشرية جمعاء، وليست مقصورة على العرب خاصة، ومهمة النبي تبشير من أطاع الله بالجنة، وإنذار من عصاه بالنار، ولكن أكثر الناس وهم في ذلك الوقت المشركون لا يعلمون ما عند الله تعالى.

٧ً - يتساءل المشركون استهزاء وعناداً وتعجيزاً، فيقولون للمؤمنين: متى موعدكم لنا بقيام الساعة إن كنتم صادقين في إخباركم عنها؟

فيجيبهم الله تعالى: قل لهم يا محمد: لكم ميقات معين هو يوم البعث أو القيامة، لا يزيد ولا ينقص، ولا تتقدمون عنه ولا تتأخرون، وهو آتٍ لا محالة، وعلمه عند الله لم يطلع عليه أحداً من خلقه.

إنكار المشركين القرآن
والحوار يوم القيامة بين الضالين والمضلين

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ ضمير مرفوع منفصل، مبتدأ، خبره محذوف، ولا يجوز إظهاره لطول الكلام بالجواب.

البلاغة:

﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة في الجملة

الأخيرة، إذ ليس للقرآن يدان، ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المتقدمة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حذف الجواب للتهويل، أي لو رأيت حالهم، لرأيت أمراً مريعاً مهولاً.

﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ و﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ بينهما طباق.

﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أسند المكر إلى الليل على سبيل المجاز العقلي، أي المكر الواقع ليلاً.

﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ استفهام بمعنى الإنكار.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة. ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ما تقدمه من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث؛ لإنكارهم له. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد. ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون. ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ممنوعون في موقف الحساب. ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الأتباع. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الرؤساء. ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان. ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالله مصدقين لرسوله وكتابه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ مجيبين عليهم، مستنكرين لما قالوه. ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي منعناكم عن الهدى. ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الهدى. ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ مصرّين على الكفر، كثيري الإجرام والآثام. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ردّاً لجوابهم ودفعاً لما نسبوه إليهم من صدهم عن الإيمان. ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي لم يكن إجرامنا الصادّ، بل مكركم بنا في الليل والنهار، ودعوتكم المستمرة لنا إلى الكفر، هو الذي حملنا على هذا، والمكر: الخديعة والاحتيال. ﴿أَندَادًا﴾ شركاء، جمع نِدّ:

وهو النظير والشبيه .﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر، وأخفوها عن غيرهم .﴿ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾ جمع غُلّ، وهو طوق من حديد يوضع في العنق .﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جاء بالظاهر تنويهاً بذمّهم، أي جعلنا الأغلال في أعناق الكافرين في النار .﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي ما يجزون إلا جزاء عملهم في الدنيا، أو لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء على أعمالهم، وتعدية ﴿يُجْزَوْنَ﴾ إما لتضمين «يجزى» معنى: يقضي، أو لنزع الخافض.

المناسبة:

بعد بيان الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر التي كفروا بها كلها، ذكر تعالى إنكار جماعة من المشركين القرآن والكتب السماوية القديمة، وما فيها من إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم ذكر صورة من الحوار الحادّ بين الرؤساء المضلين والأتباع الضالين، وأوضح وصفاً للجزاء الذي يلقونه على أعمالهم في الدنيا.

التفسير والبيان:

هذا لون من تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وهو إصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي وقال جماعة من مشركي العرب في مكة وغيرها: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السماوية السابقة، كالتوراة والإنجيل، ولا بما اشتملت عليه من أمور الآخرة من بعث وحشر وحساب وجزاء. والمعنى: أنهم جحدوا نزول القرآن من الله تعالى، وأن يكون لما دلَّ عليه من المعاد وإعادة الجزاء حقيقة.

ثم أخبر الله تعالى عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة وحوارهم فيما بينهم فقال لرسوله أو للمخاطب:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي ولو تنظر أيها الرسول حين يكون الكافرون أذلة مهانين محبوسين في موقف الحساب، يتخاصمون ويتحاجون ويتحاورون فيما بينهم ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، لرأيت العجيب والمخيف.

وصورة الحوار هي:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول الأتباع الضعفاء للسادة الرؤساء المتكبرين في الدنيا: لولا صدكم لنا عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ، لكنا مؤمنين بالله، مصدقين برسوله ﷺ وكتابه.

فأجابهم القادة:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي قال السادة القادة المتكبرون في الدنيا للأتباع الضعفاء، مستنكرين لما قالوا: أنحن منعناكم عن الإيمان واتباع طريق الهدى بعد أن جاءكم من عند الله؟ لا، بل أنتم منعتم أنفسكم بإصراركم على الكفر، وولوغكم في الإجرام والإثم.

فردَّ عليهم الأتباع بقولهم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ أي ردَّ الأتباع على القادة رؤساء الضلال: بل الذي صدّنا عن الإيمان مكركم بنا بالليل والنهار حين كنتم تطلبون منا أن نبقى على الكفر بالله، ونجعل له أشباهاً وأمثالاً في الألوهية والعبادة.

ثم ذكر مصير الفريقين فقال:

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي وأضمر الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه من الكفر، وأخفاه عن غيره، مخافة الشماتة، وتبينت الندامة في وجوههم حين واجهوا العذاب المحدق بهم، وحين جعلنا الأغلال وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم في النار.

ثم أخبر الله تعالى عن عدالة هذا الجزاء، فقال:

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؟ أي إنما نجازي هؤلاء وأمثالهم بأعمالهم، كل بحسبه، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - لقد أعلن كفار قريش عدم إيمانهم بالقرآن وبالكتب السماوية السابقة المتضمنة الإخبار عن أمور الغيب من البعث والحشر والحساب والجزاء.

٢ً - أخبر الله تعالى عن حالهم من الذلة والمهانة يوم القيامة، فهم محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين، فحين ترى الظالمين موقوفين على تلك الحال، ترى عجباً.

٣ً - تكون المحاورة بين الرؤساء والأتباع شديدة حادة، فيقول الأتباع للسادة - وبدأ بهم لأن المضل أولى بالتوبيخ -: لولا أنكم أغويتمونا وأضللتمونا لكنا مؤمنين بالله ورسوله وكتبه.

ويردّ القادة والرؤساء على الضعفاء الأتباع بقولهم منكرين اتهامهم: ما

رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم، بعد أن جاءكم من الله، بل كنتم أنتم مشركين مصرين على الكفر.

فأجابهم الأتباع بجواب أبلغ وأحكم: إن خديعتكم وحيلتكم وعملكم في الليل والنهار هو الذي صدَّنا عن الإيمان بالله ورسوله، وهو الذي حملنا على الكفر بدعوتكم المستمرة المدبرة دوماً، وكنتم تأمروننا بالكفر بالله، وبأن نجعل له أشباهاً وأمثالاً ونظراء.

وحين مجيء العذاب وبعد اليأس من الحوار أضمر الفريقان الندامة، وأخفوها مخافة الشماتة، وهذا معنى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ وقيل: معنى الإسرار: الإظهار، أي أظهروا الندامة؛ لأن الفعل من الأضداد، يكون بمعنى الإخفاء والإبداء.

٤ - كان جزاء الفريقين التابعين والمتبوعين وسائر الكفار: جعل أغلال الحديد في أعناقهم في النار، وهذا جزاء حق وعدل، ولا يجازى هؤلاء إلا بسبب أعمالهم في الدنيا من الشرك بالله والإثم والعصيان.

تسلية النبي ﷺ
ظاهرة الكفر بين المترفين
واعتدادهم بالأموال والأولاد

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ
﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ
ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾:

وقرأ حمزة (الغرفة).

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (مُعَجِّزين).

الإعراب:

﴿بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ ﴿بِٱلَّتِى﴾ في موضع نصب؛ لأنه خبر (ما). ودخلت الباء في خبر (ما) لتكون بإزاء اللام في خبر «إنّ» لأن «إن» للإثبات، و(ما) للنفي. و﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ في موضع نصب على الاستثناء، ولا

يجوز أن يكون منصوباً على البدل من الكاف والميم في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ لأن المخاطب لا يبدل منه. لكن جاء إبدال الغائب من المخاطب، بإعادة العامل في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١] أبدل منه بإعادة الجار، فقال: لمن كان يرجو.

البلاغة:

﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب للمبالغة في تحقيق الحق، وفيه إيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه، حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، أي ما أموالكم بالتي تقربكم، ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ مقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار.

﴿كَٰفِرُونَ﴾ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿ءَامِنُونَ﴾ ﴿مُحْضَرُونَ﴾ فيها توافق الفواصل الذي فيه جميل الوقع على السمع.

المفردات اللغوية:

﴿قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية أي بلد. ﴿نَّذِيرٍ﴾ ينذرهم ويحذرهم عقاب الله. ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ أثرياؤها وقادة الشرّ فيها. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ مكذبون لكم بما أرسلتم به من التوحيد والإيمان. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قاسوا أمر الآخرة المفترضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكونوا مكرمين عند الله لما رزقهم، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يوسعه لمن يريد امتحاناً. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن

يشاء ابتلاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة، وكثيراً ما يكون للاستدراج. ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قربى أي تقريباً، ويصح: زلفة: قربة. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ لكن من آمن. ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ الجزاء المضاعف للحسنات، أي الحسنة بعشر فأكثر. ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ غرفات الجنة، وقرئ: الغرفة، بمعنى الجمع. ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون من الموت وغيره.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآن بالرد والطعن. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين مغالبين لنا، زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ تُحضرهم الزبانية إلى النار، دون أن يجدوا عنها محيصاً أو مهرباً.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ في فعل الخيرات التي أمر الله بها في كتابه وبيَّنها رسوله ﷺ. ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يعوضه عليكم إما في الدنيا وإما في الآخرة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي إن الناس مجرد وسطاء، فإن رزق العباد لبعضهم بعضاً إنما هو بتيسير الله وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة، وإنما الرازق الحقيقي هو الله تعالى.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٤):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي رَزِين قال: «كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الشام، وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال: دُلّني عليه، وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ، فقال: إلامَ تدعو؟ فقال: إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: وما علمك بذلك؟ قال: إنه لم

يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِى قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فأرسل إليه النبي ﷺ: إن الله قد أنزل تصديق ما قلت».

المناسبة:

بعد بيان تكذيب المشركين بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية، آنس الله رسوله ﷺ مما مُني به من مخالفة قومه، وخصّ بالتكذيب المترفين المعتمدين على كثرة الأموال والأولاد؛ لأن الداعي إلى التكبر والاستعلاء المفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات، والاستهانة بمن لم يحظ منها، وهذه ظاهرة عامة في الأمم؛ لأن إيذاء الكفار الأنبياء ليس بدعاً.

ثم فنَّد الله تعالى مزاعمهم مبيناً بأن الغنى والفقر لا يرتبطان بالإيمان والكفر، فقد يُرزَق الكافرُ الفاجر ويُحرم المؤمن وبالعكس، لحكمة ومصلحة يعلمها الله تعالى، وإنما الجزاء العادل في الآخرة حيث يمتّع المتقون بغرف الجنان، ويزج الكافرون الصادون عن سبيل الله في نار جهنم.

التفسير والبيان:

يؤانس الله نبيه ﷺ عن إعراض قومه عن دعوته، ويأمر بالتأسي بالرسل المتقدمين، ويخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، فقال:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِى قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي لم نبعث إلى أهل كل قرية نبياً أو رسولاً يحذرهم ويخوفهم عقاب الله إلا قال أغنياؤها وكبراؤها وأولو النعمة وقادة الشر فيها: إنا مكذبون بما أرسلتم به من توحيد الإله والإيمان به، ونبذ تعدد الآلهة، فلا نؤمن بكم ولا نتبعكم.

ونظير الآية كثير مثل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٣] ومثل: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٦] .

ومسوغات كفرهم: الاغترار بالأموال والأولاد، كما قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي وقال المترفون الكافرون للرسل وأتباعهم المؤمنين: إن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأنتم فقراء ضعفاء، فهذا دليل تميزنا وتفاخرنا، وهو دليل على محبة الله تعالى لنا ورضاه عنا، وما نحن عليه من الدين، وما كان ليعطينا هذا في الدنيا ويحسن إلينا، ثم يعذبنا في الآخرة.

ولكن هذه النظرة خطأ محض، وقياس باطل، فإن الإمداد بالأموال غالباً ما يكون للاستدراج، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٥-٥٦] . وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٥٥] .

وهنا ردَّ الله عليهم، وأبان خطأهم، فقال:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي قل أيها الرسول لهم: إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لا لمحبة لمن وسع عليه، ولا لبغض لمن ضيق عليه، وإنما له في ذلك حكمة تامة بالغة، ولأن الدنيا لا تساوي شيئاً في ميزان الله، كما قال النبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن سهل بن سعد: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة سنن

الله في الكون، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مسألة الرزق غلط بيِّن، أو مغالطة واضحة، فقد يعطي الله العاصي والكافر استدراجاً، ويمنع الطائع والمؤمن ابتلاء واختباراً، ليصبر، فتكثر حسناته عند الله، وبه يتبين أن ما يزعمه المترفون من أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة ومدار التضييق هو الهوان والذل: لا حقيقة له ولا أصل في تقدير الله تعالى.

ثم أبان تعالى ميزان القربى عنده، وأنها ليست بكثرة المال والولد، وإنما بالإيمان والعمل الصالح، فقال:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي وليست كثرة أموالكم وأولادكم هي دليل محبتنا لكم ورضائنا عنكم، ولا هي مما تقربكم إلى رحمتنا وفضلنا، فإنما أموالكم وأولادكم فتنة واختبار لنعلم من يستعملها في طاعة الله، ممن يعصي الله فيها.

لكن من آمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وعمل صالح الأعمال، فأدى الفرائض، واستعمل أمواله في طاعة الله، فإن إيمانه وعمله يقربانه لدينا، ويكون مرضياً عندنا، وهؤلاء لهم الجزاء المضاعف للحسنات، نجازيهم الحسنة بعشر أمثالها فأكثر إلى سبع مئة ضعف، وهم آمنون من كل مكروه في غرفات الجنان.

روى الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً تُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

ثم هدّد الله تعالى الكافرين، وأبان حال المسيئين، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي إن الذين يحاولون ردَّ آياتنا في القرآن، والطعن فيها، لإبطالها، ويسعون في الصدّ عن سبيل الله، واتباع رسله، والتصديق بآياته، زاعمين أنهم يفوتوننا، وأننا لا نقدر عليهم، فأولئك جميعهم مجزيون بأعمالهم، تُحضرهم الزبانية إلى عذاب جهنم، ولا يجدون عنها محيصاً أو مهرباً.

ثم أبان الله تعالى ما يريح الخلائق جميعاً في مسألة الرزق، وأنه وحده هو المصدر، فقال:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي قل أيها الرسول لهم: إن ربي وحده هو الذي يوسع الرزق على من يريد من عباده، وهو الذي يضيقه على من يشاء، بحسب ما له في ذلك من الحكمة التي لا يدركها غيره.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي إن عطاء الله متجدد دائم، فكل ما تنفقونه في فعل الخيرات التي أمر الله بها في كتابه وبيَّنها رسوله ﷺ، فهو يعوضه عليكم بالبدل في الدنيا أو بالجزاء والثواب في الآخرة، والله هو الرازق في الحقيقة، وما العباد إلا وسائط وأسباب، وفي هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الإنفاق في الخير.

جاء في الحديث القدسي عند مسلم: «يقول الله تعالى: أَنْفِق أُنفق عليك» وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا مَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعْطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعْطِ ممسكاً تَلَفاً» . وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بِلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن الاغترار بالأموال والأولاد ظاهرة عامة في البشر، وهي في الغالب سبب للإعراض عن دعوة الرسل، فلم يرسل الله نبياً ولا رسولاً إلا قال مترفوها أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل والأنبياء: نحن كافرون بما أرسلتم به.

وقالوا أيضاً: لقد فُضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضياً بما نحن عليه من الدِّين والفضل لم يعطنا ذلك، ولسنا نحن بمعذبين في الآخرة إن وجدت كما تقولون؛ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه.

٢ - ردَّ الله عليهم قولهم بأن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أن أموالكم وأولادكم تغني عنكم غداً شيئاً، والرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل، فكم من موسر شقي ومعسر تقي.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا؛ لأنهم لا يتأملون.

٣ - أكد الله تعالى جوابه بأن الأموال والأولاد لا تقرب شيئاً إلى الله، أما الذي يقرب إليه فهو الإيمان والعمل الصالح، فمن آمن وعمل صالحاً فلن يضره ماله وولده في الدنيا.

وأولئك المؤمنون الصالحون لهم الجزاء المضاعف للحسنات في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠] وهم الآمنون من كل مكروه في غرفات الجنة، آمنون من العذاب والموت والأسقام، وهذا إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من تنقطع عنه النعمة، لا يكون آمناً.

وقد استدل بعضهم بهذه الآية في تفضيل الغنى على الفقر، قال محمد بن كعب: إن المؤمن إذا كان غنياً آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية.

٤ - أما الكافرون الصادون عن سبيل الله واتباع رسله، الساعون في إبطال الأدلة والحجج المذكورة في القرآن، الذين يحسبون أنهم يفوتون الله بأنفسهم، فلا يقدر عليهم، فأولئك تحضرهم الزبانية في نار جهنم، وهذا إشارة أيضاً إلى دوام العذاب، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٠] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٦].

٥ - كرر الله تعالى للتأكيد أنه هو وحده باسط الرزق ومضيقه لمن يشاء، على وفق ما يرى من الحكمة والمصلحة لعباده، فيا أيها المغترون بالأموال والأولاد: إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد، بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه عليكم، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى، وهو الرازق على الحقيقة، والناس مجرد وسطاء ورزقهم منقطع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨].

٦ - ما دلت عليه الآية: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ والحديث المتقدم المتفق عليه عن أبي هريرة مرفوعاً: «قال: قال الله عز وجل: أَنْفِق أُنفقْ عليك»: فيه إشارة إلى أن الخلف في الدنيا عن النفقة إذا كانت النفقة في طاعة الله، وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء لتكفير الذنوب أو ادخار الثواب في الآخرة.

روى الدارقطني عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله، كتب له صدقة، وما وَقَى به الرجل عِرْضَه[1] فهو صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خَلَفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية».

(١) مثل إعطاء الشاعر وذي اللسان لتوقي الذم والقدح والهجاء.

أما ما أنفق الشخص في معصية فلا جَرَمَ أنه غير مثاب عليه، ولا مخلوف له. وأما البنيان فما يكون منه ضرورياً يكنّ الإنسانَ ويحفظه فذلك مخلوف عليه، ومأجور ببنيانه، كحفظ بنيته، وستر عورته. قال ﷺ فيما رواه الترمذي والحاكم عن عثمان: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْف الخبز والماء» أي الوعاء.

٧ - دلَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ على أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم، مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى، بناء على وعد الله تعالى.

وخيرية الرزق في أمور ذكرها الرازي: أحدها - ألا يؤخر عن وقت الحاجة، والثاني - ألا ينقص عن قدر الحاجة، والثالث - ألا ينكده بالحساب، والرابع - ألا يكدره بطلب الثواب[1].

تقريع الكفار يوم القيامة أمام معبوداتهم

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

القراءات:

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ﴿يَقُولُ﴾:

وهي قراءة حفص ، وقرأ الباقون (نحشرهم)، (نقول).

(١) تفسير الرازي: ٢٥/ ٢٦٣

البلاغة:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تقريع وتوبيخ للمشركين، والخطاب للملائكة.

﴿نَّفۡعًا﴾ و﴿ضَرًّا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي يحشر للحساب العابد والمعبود، والمستكبر والمستضعف، وقرئ: نحشرهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ هذا تقريع للمشركين، وتوبيخ لكل من عبد غير الله عز وجل، وإقناط لهم عما يتوقعون من شفاعتهم. والخطاب للملائكة؛ لأنهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم.

﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أي تنزيهاً لك عن الشريك، أنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم، ولا موالاة بيننا وبينهم، وما كنا معبودين لهم على الحقيقة ﴿بَلۡ﴾ للإضراب والانتقال ﴿كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ الشياطين، وهم إبليس وجنوده، فإنهم كانوا يطيعونهم في عبادتهم إيانا ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ أي أكثر المشركين مصدقون بالجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس والأكاذيب، ومنها أمرهم بعبادة الأصنام، فالضمير الأول للمشركين والثاني للجن.

قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ أي لا يملك المعبودون للعابدين شفاعة ونجاة، ولا عذاباً وهلاكاً؛ لأن الأمر يوم القيامة كله لله، والدار دار جزاء، والله هو المجازي وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم وكفروا بعبادة غير الله ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

المناسبة:

لما بيّن الله تعالى أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار، وبيَّن لهم خطأ اعتمادهم على كثرة الأموال والأولاد، بيَّن ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتوبيخ، بسؤال الملائكة: أهم كانوا يعبدونكم؟ إهانة لهم. ثم بيّن أنهم كانوا ينقادون لأمر الجن، وأن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم.

التفسير والبيان:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾؟ أي ويوم يحشر الله تعالى العابدين والمعبودين، والمستكبرين والمستضعفين جميعاً، ثم يسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم، ليقربوهم إلى الله زلفى: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ وهذا السؤال يراد به تقريع المشركين يوم القيامة أمام الخلائق، على طريقة: إياك أعني واسمعي يا جارة.

وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧/٢٥] وشبيه بسؤال عيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦/٥] . والله يعلم أن الملائكة وعيسى أبرياء من هذه التهمة، وإنما السؤال والجواب للتقريع والتوبيخ والتعيير.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي قالت الملائكة: تنزيهاً لك يا رب عن الشريك، نحن عبيدك، ونبرأ إليك من هؤلاء، وأنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم، ما اتخذناهم عابدين، ولا موالاة بيننا وبينهم، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين وهم إبليس وجنوده، فهم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم، وأكثر

المشركين مصدقون الجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس والأكاذيب، ومنها أمرهم بعبادة الأصنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٤/١١٧-١١٨].

ثم أعلن الله تعالى إفلاسهم وتبدد آمالهم بشفاعة الآلهة المزعومة، زيادةً في إيلامهم وحسرتهم، فقال:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي في يوم القيامة هذا لن يتحقق لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، ولن تكون لكم شفاعة وقدرة على النجاة، كما لن يكون بيدكم العذاب والهلاك، وإنما المجازي هو الله وحده.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ونقول للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله وهم المشركون تأنيباً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون بوقوعه في الدنيا، فأنتم الآن في أعماق النار. وهذا تأكيد لبيان حالهم في الظلم وعقابهم على الإثم.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

١ - الحشر والحساب حق، والله يحشر جميع الخلائق، لكن يكون للكفار حشر وموقف خاص، فالله تعالى يحشر العابدين والمعبودين أي يجمعهم للحساب بعضهم مع بعض، ثم يسأل الملائكة الذين يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم، فيقول تقريعاً وتوبيخاً للكفار على عبادتهم غير الله: أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟

٢ - يتبرأ الملائكة من هذه التهمة قائلين: سبحانك، أي تنزيهاً لك يا رب

عن الشريك، أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونُخلص في العبادة له، وإنما يعبد هؤلاء الشياطين ويطيعونهم؛ لأنهم زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم.

وجاء في التفاسير: أن بني مُلَيح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله. وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ٣٧/١٥٨] .

٣ً - أيأس الله تعالى الكفار من شفاعة أحد من آلهتهم المزعومة، وأخبر بأنه في يوم القيامة لا يملك المعبودون للعابدين شفاعة ونجاة، ولا عذاباً وهلاكاً، وإنما المالك المجازي وحده هو الله تعالى.

٤ً - يعاين الكفار جهنم، ويقذفون فيها، فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، والمكذب به هنا: هو النار، وفي سورة السجدة ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/٢٠] هو العذاب، وهم في الواقع يكذبون بالكل. وسبب التغاير في التعبير أن الآية هنا في وصف النار التي كانت أول ما رأوها بعد الحشر والسؤال، وأما في سورة السجدة فالمراد وصف العذاب الذي يعانونه بعد دخولهم النار، وأنه العذاب الدائم.

أسباب تعذيب الكفار

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ
قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟
رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ
وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ
وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ
فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾:

قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص (أجريَ إلا).

وقرأ الباقون (أجريْ إلا).

﴿ٱلْغُيُوبِ﴾:

وقرأ حمزة (الغِيوب).

﴿رَبِّىٓ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ربيَ إنه).

الإعراب:

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ ﴿أَن تَقُومُواْ﴾: إما في موضع جر على البدل من قوله: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بأن، أو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وهي أن تقوموا، أو في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، وهو اللام، وتقديره: لأن تقوموا لله، و﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ منصوبان على الحال من واو ﴿تَقُومُواْ﴾.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ مرفوع على أنه خبر ثان بعد أول وهو ﴿يَقْذِفُ﴾ أو على البدل من ضمير ﴿يَقْذِفُ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهو ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، أو بدل من «ربّ» على الموضع، وموضعه الرفع، أو وصف لـ «رب» على الموضع. ويجوز فيه النصب من وجهين: على الوصف لـ «رب» أو على البدل منه.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: (ما): في موضع نصب، تقديره: أيَّ شيء يبدئ الباطل، وأيَّ شيء يعيد.

البلاغة:

﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استعارة، استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال أمام الإنسان.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره.

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ بينهما طباق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على إمعانهم في الكفر.

المفردات اللغوية:

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالات، ظاهرات المعاني ﴿مَا

﴿هَٰذَآ﴾التالي لها وهو النبي محمد ﷺ ﴿يَصُدَّكُمْ﴾ يمنعكم ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ قالوا ثانياً ما هذا القرآن ﴿إِفْكٌ﴾ كذب ﴿مُّفْتَرًى﴾ مختلق لا أساس له ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قالوا ثالثاً ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لأمر الدين الذي جاءهم به رسول الله ﷺ من القرآن والمعجزات، وهذا باعتبار لفظه وإعجازه، والأول باعتبار معناه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ما هذا إلا سحر ظاهر سحريته.

ويلاحظ أن الإشارة الأولى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ إلى رسول الله ﷺ، والثانية: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ إلى القرآن، والثالثة: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ والحق: أمر النبوة كله ودين الإسلام معاً.

وتكرار الفعل: ﴿قَالُواْ﴾ والتصريح بذكر الكفرة، وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من المبادهة بالكفر وأنه حين جاءهم لم يفكروا فيه، بل بادروه بالإنكار: دليل على صدور الكفر عن إنكار عظيم له، وغضب شديد منه، وتعجيب بليغ منه، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المنير قبل أن يتذوقوه: ما هو إلا سحر واضح لمن يتأمله.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي ما أنزلنا على العرب كتباً سماوية يدرسون فيها، وهو دليل على صحة الإشراك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه، وينذرهم بالعذاب على تركه. وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول ﷺ وجه، ولا شبهة يعتمدون عليها، إذ لم يأتهم كتاب، ولا نذير بهذا الذي فعلوه، فمن أين كذبوك؟!

﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال فأهلكهم الله، كعاد وثمود ونحوهم، والمعشار: هو العشر أي عشرة في المئة، وقيل: هو عُشْر العُشْر، أي واحد في المئة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب والعقوبة؟ أي هو واقع موقعه.

﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وأوصيكم بخصلة واحدة وهي ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي أن تقوموا في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين: اثنين اثنين، أو واحداً واحداً؛ لأن الاجتماع يشوش الفكر. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ تنظروا في حقيقة أمر النبي ﷺ وما جاء به من الكتاب، فتعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أن محمداً ﷺ ليس بمجنون ولا ساحر، فليس في أحواله ولا تصرفاته ما يدل على ذلك، ومجيئه بالوحي دليل ظاهر على صدقه ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ ما هو إلا منذر لكم قبل مجيء عذاب شديد في الآخرة إن عصيتموه، وقد علمتم أنه أرجح الناس عقلاً، وما جربتم عليه كذباً مدة عمره فيكم.

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم﴾ قل لهم: ما طلبت منكم على الإنذار والتبليغ ﴿مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ مال مقابل الرسالة ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ ما ثوابي إلا على الله، لا على غيره ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ مطلع، لا يغيب عنه شيء، يعلم صدقي.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ يتكلم بالحق ويلقيه إلى أنبيائه، وهو القرآن والوحي ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ يعلم ما غاب عن خلقه في السماوات والأرض ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي الإسلام والتوحيد، والقرآن الذي فيه البراهين والحجج ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا أثر للكفر أو الشرك، فهو لا حقيقة له بدءاً وإعادة. ﴿إِن ضَلَلۡتُ﴾ عن الحق وطريقه ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ أي إثم ضلالتي يكون على نفسي ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ من القرآن والحكمة والموعظة ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ مني ومنكم، يعلم الهدى والضلالة.

المناسبة:

بعد بيان عقاب المشركين في نار جهنم يوم القيامة وأنه يقال لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ذكر الله تعالى الأسباب الموجبة للعذاب من فساد الاعتقاد، واشتداد العناد، وتكذيب النبي ﷺ والقرآن والإسلام

كله، ثم أنذرهم سوء العاقبة كالذين من قبلهم من الأمم القوية، ودعاهم إلى التأمل والتفكر الهادئ العميق في شأن النبي ﷺ المنذر من عذاب يوم القيامة، وأخبرهم بأن الله أرسل إليهم الحق الدامغ الساطع وهو القرآن والوحي، وما عداه هوَ الباطل الذي لا حقيقة ولا بقاء لأثره.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أسباب استحقاق الكفار العقوبة وأليم العذاب، ويذكر هنا أهمها وهي ثلاثة: الطعن بالنبي ﷺ، وبالقرآن الكريم، وبالدين والإسلام كله، فيقول:

١ - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن الواضحات الدلالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك، الظاهرات المعاني، قالوا: ما هذا أي النبي محمد ﷺ إلا رجل يريد صرفكم عن دين الآباء والأجداد من عبادة الأصنام، دون حجة ولا برهان، وما جاء به باطل.

٢ - ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي وقال الكفار ثانياً: ما هذا أي القرآن إلا كذب على الله، مختلق من عنده، بقصد تضليل الأتباع.

٣ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وقال الكافرون ثالثاً: ما هذا الدين والإسلام المشتمل على المعجزات والشرائع والأحكام لتنظيم الحياة الاجتماعية إلا سحر ظاهر.

فردَّ الله عليهم مبطلاً كون دينهم حقاً، ومظهراً انعدام حجتهم في اتباعه، فقال:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن يقرر لهم ديناً، وما أرسل

إليهم نبياً قبل محمد ﷺ يدعوهم إلى الحق، وينذرهم بالعذاب مع أنهم كانوا يقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

وإذا كان الدين الصحيح لا يعرف إلا بوحي من عند الله، وبكتاب ينزل على رسول، فإن ادعاء المشركين أن الشرك بالله وتقليد الأسلاف هو الدين الحق ادعاء باطل لا يعتمد على أساس ولا حجة.

ونظير الآية كثير منها: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٥] ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢١] ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٧-٣٨] .

ثم هددهم بعذاب مشابه لعذاب الأمم الظالمة من قبلهم، فقال:

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي ولقد كذبت الرسل والوحي أمم سابقة من القرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود، وكانوا في الدنيا أشد قوة وبأساً من العرب، بل إن أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب لم يبلغوا بقوتهم وكثرة مالهم عُشْر ما آتينا من قبلهم من القوة وكثرة المال، فلم يدفع عنهم عذاب الله ولا ردّه، وإنما أهلكهم الله ودمرهم تدميراً، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٢] .

وما جرى على المثيل يجري على مثيله، لتساويهما في سبب العقاب، فيتساويان في الحكم.

ثم نصحهم القرآن بالتأمل والتريث في الحكم على النبي ﷺ، فقال تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه، وآمركم وأنصحكم بخصلة واحدة: هي قيامكم في طلب الحق بالفكرة الصادقة، والتأمل الذاتي المجرد المخلص، دون تأثر بهوى أو عصبية، متفرقين اثنين اثنين، أو واحداً واحداً؛ لأن الاجتماع والتجمهر يشوّش الفكر، وينشر الغوغائية والفوضى، ويثني الفكر عن الصواب، ثم ينصح بعضكم بعضاً بإخلاص أن ينظر ويتفكر في حقيقة أمر النبي ﷺ وما جاء به من الكتاب، فإنكم حينئذ تعلمون أن صاحبكم ليس بساحر ولا مجنون؛ ليس في أحواله ولا تصرفاته ما يدل على ذلك، وإنما هو نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ أي وما هذا الرسول إلا منذركم ومخوفكم ما تستقبلونه من عذاب شديد على النفوس يوم القيامة. وجعل إنذاره بين يدي العذاب إشارة إلى قرب العذاب؛ لأنه بعث قرب الساعة، روى الإمام أحمد حديثاً هو: «بُعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني» .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «صَعِد النبي ﷺ الصَّفا ذات يوم، فقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتُكم أن العدو يُصبّحكم أو يمسِّيكم، أما كنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [المسد: ١١١/١] » .

قال الرازي: ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعدما سبق منه تقريرها بالدلائل، فقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم

مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ إشارة إلى الرسالة، وقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.

ولما نفى تعالى عن النبي ﷺ الجنون المستلزم كونه نبياً، ذكر سبباً آخر يلزم منه أنه نبي: وهو عناؤه الشديد في دعوته لا لغرض دنيوي عاجل، وإنما بقصد الثواب الأخروي، فقال:

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾﴾ أي قل أيها الرسول للمشركين: لا أريد منكم أجراً ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، ونصحي لكم، وأمري بعبادته تعالى، إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله تعالى، والله عالم بجميع الأمور، من صدقي في تبليغ الرسالة، وما أنتم عليه.

ثم صرح تعالى بأن ما جاء به هذا الرسول ﷺ إنما هو وحي من عند الله، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ أي قل للمشركين: إن الله يرسل الملَك بالوحي إلى من يشاء من عباده فمن يصطفيهم لرسالته، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

وهذا كما قال تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٤٠/١٥] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٤].

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه يقذف بالحق بصيغة الاستقبال، أخبر أن ذلك الحق قد جاء فقال:

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي قل للمشركين: جاء الدين الحق وهو الإسلام والقرآن والتوحيد، وهو الذي سيعلو على سائر الأديان، ويمحق الله الباطل ويذهب أثره، فلا يبقي منه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٨].

روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي «أنه لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يَطْعَنُ الصنم منها بسِيَة قوسه ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١/١٧] ، و﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ » .

ثم أكد الله تعالى تقرير الرسالة، وأعلن القول الفصل بين النبي ﷺ وبين المشركين، فقال:

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي قل أيها النبي لأولئك المشركين: إن ضللت عن الهدى وطريق الحق، فإن إثم ضلالي وضرره على نفسي، وإن عرفت طريق الهداية فمما أوحى إلي ربي من الخير والحق والاستقامة، إنه سميع لقولي وأقوالكم، قريب مني ومنكم، يعلم الهدى والضلالة، ويجازي كل إنسان بما يستحق.

فالخير كله من الله عز وجل، وفيما أنزله من الوحي والحق المبين الذي فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ من تلقاء نفسه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ - العدل والحق المطلق أهم مزية الحكم الإلهي، فلا يظلم الله أحداً، ولا يعاقب إلا بأسباب موجبة للعقاب، وأهم الأسباب التي استحق بها المشركون نار جهنم: الطعن بالنبي ﷺ، وبالقرآن المجيد، وبالدين والإسلام نظام البشرية الأمثل، وقانونها الأعدل والأحكم.

٢ - لا حجة للمشركين في الإشراك بالله إلا تقليد الأسلاف واتباع الآباء والأجداد، دون حجة عقلية ولا برهان منطقي مقبول.

٣ - ليس للمشركين ما يعتمدون عليه أيضاً من الأدلة النقلية، فليس لهم كتاب يقرؤون فيه بطلان ما جاء به النبي ﷺ، ولم يسمعوا شيئاً عن دينهم من رسول بُعث إليهم، فلا وجه لتكذيبهم ولا شبهة يتمسكون بها، كشبهة أهل الكتاب وإن كانت باطلة، الذين يقولون: نحن أهل كتاب وشرائع، ومستندون إلى رسل من رسل الله.

والخلاصة: إنه ليس للمشركين على شركهم حجة عقلية ولا نقلية.

٤ - لم يبق أمام موقف أولئك المشركين المتشدد المعاند إلا توعدهم على تكذيبهم رسول الله ﷺ والقرآن بما حلَّ من العذاب بالأمم الغابرة كعاد وثمود، الذين كانوا أشد من أهل مكة المشركين بطشاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع عيشاً، فأهلكهم الله، بل إنهم ما بلغوا عشر ما أوتي من قبلهم من تلك الأمم.

٥ - وبجانب الوعيد فهناك للكلمة المتأنية والفكرة الهادئة دور حيوي، لذا دعاهم الله تعالى أيضاً إلى إعمال الفكر، لا بنحو جماهيري جماعي غوغائي، وإنما بطريق ثنائي أو فردي يدعو إلى الهدوء والتروي والمناقشة المنطقية المقبولة، وذلك في توحيد الله مصدر السعادة، وفي حقيقة النبي محمد ﷺ، بدراسة تاريخ حياته المعاصرة لهم، فهل جربوا عليه كذباً، أو رأوا فيه جنوناً وخللاً عقلياً، وهل في أحواله وتصرفاته من فساد وشذوذ وانحراف، وهل كان يتردد إلى من يدّعي العلم بالسحر، وهل تعلَّم الأقاصيص وقرأ الكتب، وهل عرفوه طامعاً في أموالهم، وهل هم قادرون على معارضة القرآن المنزل عليه في سورة واحدة؟!

فإذا عرفوا بهذه التأملات والدراسة الواقعية صدقه، فما بال هذه المعاندة والمعارضة له؟

٦ - لم يكن رسول الله ﷺ إلا مبشراً من أطاعه بالجنة، ومنذراً من عصاه بنار جهنم يوم القيامة.

٧ً - وأيضاً إن عناء النبي الشديد في تبليغ دعوته دون أن يأخذ من أحد أجراً على تبليغ الرسالة دليل واقعي على صدق نبوته، فهو لا يريد إلا الأجر والثواب من عند ربه، وهذا دليل الإخلاص، والله رقيب على كل أعماله وأعمالهم، وعالم بها لا يخفى عليه شيء، فهو يجازي الجميع بما يستحقون.

٨ً - الله الحق هو مصدر الوحي والحق والقرآن وبيان الحجة وإظهارها، وهذا ما أنزله على نبيه محمد ﷺ؛ لأنه علام الغيوب: أي الأمر الذي غاب وخفي جدّاً، وقد علم أن محمداً ﷺ أولى من غيره باصطفائه للنبوة والرسالة ونزول القرآن على قلبه.

٩ً - لقد جاء الحق للبشرية فعلاً وهو القرآن الذي فيه البراهين والحجج على صحة الاعتقاد من التوحيد والرسالة والبعث والحساب. وإذا جاء الحق اندحر الباطل وهو الشرك والكفر ولم يعد له قرار ولا أثر ولا مقام، ولم يبق منه شيء أمام الحق.

١٠ً - قال الكفار للنبي محمد ﷺ: تركتَ دين آبائك فضللت، فردَّ الله عليهم آمراً نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن ضللت كما تزعمون، فإنما أضل على نفسي، أي إن ضرره وإثمه علي، وإن اهتديت إلى الحق والرشاد فبما أوحى الله إلي من الحكمة والبيان، إن الله سميع ممن دعاه، قريب الإجابة، وفي هذا تقرير للرسالة أيضاً.

تهديد الكفار بشديد العقاب وإيمانهم حين معاينة العذاب

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ
وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن
قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾:

قرئ:

١- (التناؤش) وهي قراءة أبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (التناوش) وهي قراءة الباقين.

﴿وَحِيلَ﴾:

بإشمام كسرة الحاء الضم قرأ ابن عامر، والكسائي. وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟﴾ جواب (لو) محذوف، تقديره: لو ترى لتعجبت، و﴿فَزِعُوا۟﴾: جملة فعلية في موضع جرّ بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. و﴿وَأُخِذُوا۟﴾: جملة فعلية أخرى معطوفة عليها.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ قرئ «التناؤش» بالهمز على الأصل: أي التأخر، وقرئ بترك الهمز على إبدال الهمزة واواً، أو بمعنى التناول، فلا يكون أصله الهمز.

البلاغة:

﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ استعارة تصريحية، استعار لفظ القذف للقول، وشبه القائل بغير علم وإنما بالظن بالصائد الذي يرمي هدفاً بعيداً فلا يصيبه.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، وجواب (لو) محذوف، تقديره: لرأيت مدهشاً أو عجباً ﴿إِذۡ فَزِعُواْ﴾ عند البعث. والفزع: انقباض في النفس عند الأمر المخيف ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ أي فلا يفوت أحد منهم، ولا ينجو منهم ناج ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ أي من القبور أو من موقف الحساب، فهم قريبون من الله، لا يفوتونه.

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ أو بالقرآن ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ تناول الإيمان تناولاً سهلاً ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ عن محله، إذ هم في الآخرة، ومحله والتكليف به في الدنيا .﴿كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ أي كفروا بمحمد ﷺ أو بالعذاب في الدنيا قبل ذلك أوانَ التكليف ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يرجُمون أو يرمون بالظن الذي لا دليل عليه، تقول العرب لكل من لم يتيقن أمراً: يقذف بالغيب، أي يرمي به ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ من جهة بعيدة، ليس فيها مستند لظنهم الباطل، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد. والمراد أنهم يتكلمون في شأن النبي ﷺ من المطاعن أو في العذاب من الجزم بنفيه، حيث قالوا في النبي ﷺ: ساحر، شاعر، كاهن، وفي القرآن: سحر، شعر، كهانة.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من قبول الإيمان، أو الرجوع إلى الدنيا، أو من أموالهم وأهليهم في الدنيا ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية، من قبلهم، والأشياع: جمع شِيَع: وهذا جمع شيعة: وهي أنصار المذهب المتشيعون له ﴿فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والظن، في أمر الرسل وما دعوا إليه من التوحيد، والبعث والجنة والنار. ومريب: يحتمل وجهين: الأول: موقع في الريب والتهمة، والثاني: ذي ريب.

المناسبة:

بعد بيان أسباب العذاب، والرد على شبهات الكفار، هددهم الله تعالى وأنذرهم بشديد العقاب يوم القيامة، ثم أخبر عن إيمانهم حين معاينة العذاب يوم لا ينفع إيمان، لفوات الأوان، وكفرهم بالله وبرسوله وكتابه من قبل.

التفسير والبيان:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ أي لو رأيت يا محمد هؤلاء الكفار حين خافوا عند البعث، وخروجهم من القبور، ورؤيتهم ألوان العذاب الشديد، لرأيت أمراً عجباً، فهم لا يتمكنون من الهرب ولا فوت، أي لا مفرَّ لهم ولا ملجأ لهم من العذاب، وأخذوا لأول وهلة حين الفزع من القبور وموقف الحساب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/١٢].

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي وقال الكفار حينئذ: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله وآمنا بالقرآن والنبي ﷺ، وكيف لهم تعاطي الإيمان، وقد بعدوا عن محل قبوله؛ لأن الدار الآخرة وهي

دار الجزاء ليست بدار التكليف أو دار الابتلاء، وإنما الدنيا هي مدار التكاليف من الإيمان والعمل الصالح. أو كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب، والإيمان لا يكون إلا في الدنيا، وهم في الآخرة، والدنيا من الآخرة بعيدة؟!

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا، وكذبوا الرسل؟ وكانوا يرجمون بالظن ويتكلمون بما لا مستند لهم فيه، فتارة يقولون في الرسول ﷺ: شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو مجنون ونحو ذلك من الأباطيل، وتارة يقولون في القرآن: سحر، أو شعر، أو كهانة، أو إفك مفترى، وتارة يقولون: لا بعث ولا جنة ولا نار ولا حساب ولا جزاء، وما نحن بمعذبين.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا، وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه، مثل قبول الإيمان، والفرار من العذاب، أو الرجوع إلى الدنيا، أو اصطحاب أموالهم وأهليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٤-٨٥].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ هذا بيان سنة الله في أمثالهم، وعلة تعذيبهم ورفض قبول إيمانهم، والمعنى: لقد فعلنا بهم كما فعلنا في أمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية، إنهم كانوا جميعاً في الدنيا في شكّ مغرق في الريبة في أمر الرسل وما جاؤوا به من التوحيد، وإثبات البعث والجزاء، والشرائع والأحكام.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - هذه صورة كئيبة محزنة من أحوال الكفار في وقت اضطرارهم إلى معرفة الحق، فتراهم في أسوأ حال وأعجبه حين يستبد بهم الفزع والخوف ويتملكهم عند نزول بأس الله تعالى بهم، ومعاينة العذاب والعقاب يوم القيامة، حيث لا مفرَّ ولا مهرب ولا نجاة لهم، وأخذوا من حيث كانوا في موقف الحساب إلى النار، فهم من الله قريب لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه.

٢ً - في هذه الحالة الرهيبة يعلنون الإيمان بالقرآن والنبي ﷺ، والبعث، ولكن كيف لهم تعاطي الإيمان وتناوله في الآخرة، وقد كفروا في الدنيا؟!

٣ً - إنهم كفروا بالله عز وجل وبالقرآن وبمحمد ﷺ في الدنيا، ويرجمون بالظن، ويتكلمون بالأوهام كحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد، فلا يصيبه، فيقولون: لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، رجماً منهم بالظن، ويقولون في القرآن: سحر، وشعر، وأساطير الأولين، ويقولون في محمد ﷺ: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون.

٤ً - والنهاية المحتومة: الحيلولة بينهم وبين النجاة من العذاب، ومن الرجوع إلى الدنيا، ومما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. وذلك المصير مشابه لمصير أمثالهم ممن مضى من القرون السالفة الكافرة، إنهم جميعاً استحقوا العذاب؛ لأنهم كانوا في شك ممعن في الريبة في أمر الرسل والبعث والجنة والنار، بل وفي الدين كله والتوحيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ فَاطِر

مكية، وهي خمس وأربعون آية

تسميتها:

تسمى سورة «فاطر» لافتتاحها بهذا الوصف لله عز وجل الدال على الخلق والإبداع والإيجاد للكون العظيم، والمنبئ عن عظمة الخالق وقدرته الباهرة. كما تسمى أيضاً سورة «الملائكة» ؛ لأنها أفادت في مطلعها أيضاً أن الله سبحانه جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغهم رسالاته وأوامره.

مناسبتها لما قبلها:

قال السيوطي: مناسبة وضعها بعد سبأ: تآخيهما في الافتتاح بالحمد، مع تناسبهما في المقدار.

وتظهر صلتها أيضاً بما قبلها في أنه لما أبان تعالى في ختام سورة سبأ هلاك الكفار وتعذيبهم أشدّ العذاب، فقال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ اقتضى أن يذكر ما يلزم المؤمنين من الحمد والشكر لله تعالى على ما اتصف به من قدرة الخلق والإبداع، وإرسال الملائكة رسلاً إلى الأنبياء لتبليغ الرسالة والوحي.

مشتملاتها:

موضوع هذه السورة كموضوع سائر السور المكية في العقيدة من الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والإلزام بمنهج الاستقامة على دين الله وأخلاق الإسلام.

وقد اشتملت هذه السورة في فاتحتها ومقدمتها على بيان الأدلة الدامغة على قدرة الله عز وجل بإبداع الكون، وجعل الملائكة رسلاً بينه وبين أنبيائه لتبليغ الوحي. ثم ذكّرت الناس بنعم الله ليشكروها، وحذرت من وساوس الشيطان، وأبانت الفرق المتميز بين جزاء الكفار وجزاء المؤمنين الأبرار، وميَّزت بين المؤمن والكافر بضرب المثل بالأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور.

وأوضحت مظاهر القدرة الإلهية، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث في سجل هذا الكون من إنزال الغيث، وإنبات الزرع والثمار، وخلق الإنسان في أطوار، وعزل البحر المالح عن البحر العذب، وتعاقب الليل والنهار، وإيلاج أحدهما في الآخر، وتسخير الشمس والقمر، واختلاف ظواهر الجبال والناس والدواب والأنعام، ومزية العلماء.

وأعلنت إرسال النبي ﷺ بالحق بشيراً ونذيراً، كما أُرسل نذير في كل أمة، وثبَّتت قلبه بذكر قصص المكذبين السابقين للأنبياء.

وأشادت بمن يتلو كتاب الله، ويقيم الصلاة، وينفق من رزق الله سراً وعلانية، وأبانت أن القرآن مصدّق للكتب السماوية السابقة، وفاخرت بميراث الأمة الإسلامية لأشرف رسالة، وذكرت انقسام الأمة إزاءها إلى أنواع ثلاثة: ظالم مقصّر، ومحسن مقتصد، وسابق بالخيرات، وحددت جزاء كل نوع في عالم الآخرة.

ثم ذكرت جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، ووصفت عاقبة كل منهم وما أعدَّ له يوم القيامة.

وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم الأوثان والأصنام، وأنذرتهم بعاقبة الذين من قبلهم الذين كانوا أشد منهم قوة، وقرنت هذا الإنذار برحمة الله العامة للناس جميعاً حيث لم يعاجلهم العقوبة، وإنما يؤخرهم إلى أجل مسمى.

بعض أدلة القدرة الإلهية والتذكير بنعم الله وإثبات التوحيد والرسالة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

القراءات:

﴿نِعْمَتَ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف عليها ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بالهاء.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (هل من خالقٍ غيرِ).

﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾: قرئ:

١- (تَرْجع الأمور) وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تُرْجع الأمور) وهي قراءة الباقين.

الاعراب:

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿فَاطِرِ﴾: إما صفة لاسم الله تعالى أو بدل.

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ﴿رُسُلًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل: ﴿جَاعِلِ﴾ إذا كان مراداً به الحال أو الاستقبال؛ لأنه حينئذ يكون عاملاً، أما إن أريد به الماضي كان ﴿رُسُلًا﴾ منصوباً بتقدير فعل.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾: صفة: ﴿أَجۡنِحَةٖ﴾، وهي ممنوعة من الصرف سوصف والعدل، فهي معدولة عن لفظ اثنين وثلاثة وأربعة.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ (ما) فيهما: شرطية منصوبة بـ ﴿يَفۡتَحِ﴾ و﴿يُمۡسِكۡ﴾، وما الشرطية يعمل فيها ما بعدها كالاستفهامية؛ لأن الشرط والاستفهام لهما صدر الكلام، وقوله ﴿فَلَا مُمۡسِكَ﴾ ﴿فَلَا مُرۡسِلَ﴾ جواب الشرط.

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ ﴿غَيۡرُ﴾: إما مرفوع لأنه فاعل أو صفة لخالق على الموضع، وإما مجرور صفة لخالق على اللفظ، وإما منصوب على الاستثناء. و﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ خبر المبتدأ.

البلاغة:

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ استعارة تمثيلية، استعير الفتح لإطلاق النعم والإمساك للمنع.

﴿يَفۡتَحِ﴾ و﴿يُمۡسِكۡ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، من الفطر بمعنى الشق أي شق العدم بإخراج السماء والأرض ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى الأنبياء، أي وسائط بين الله وبين أنبيائه، يبلغونهم رسالاته بالوحي، والملائكة: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ أصحاب أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومنهم له ثلاثة، ومنهم له أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي في خلق الملائكة وغيرها. وهو استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك مقتضى مشيئته ومؤدى حكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فبقدرته يزيد ما يشاء.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ ما يعطي من نعمة حسية أو معنوية، كرزق ومطر، وصحة وأمن، وعلم ونبوة وحكمة، ونحو ذلك ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ فلا مانع لها ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ يطلقه بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الغالب، يتصرف في ملكه كما يشاء ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فعله، يضع الأمر في موضعه المناسب، ولا معقب لحكمه، وكل ما يفعله فهو لحكمة بالغة.

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ تذكروا نعمه، واحفظوها بمعرفة حقها، والاعتراف بها، وطاعة المنعم بها، ومن النعم التي كانت على أهل مكة: إسكانهم الحرم، ومنع الغارات عنهم ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر وغيره من فائدة الكواكب ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالنبات وغيره من المعادن، والاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ للتقرير، أي لا خالق رازق غيره ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن توحيد الخالق، مع إقراركم بأنه الخالق الرازق.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد في دعوتك إلى التوحيد والبعث والحساب والعقاب ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ في ذلك، فاصبر كما صبروا. وفي هذا دعوة له للتأسي بمن قبله من الأنبياء. ومؤانسة عن تكذيب كفار العرب له ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي المصير النهائي المحتوم إلى الله، فيجازي كلاً بما يستحقه، يجازي المكذبين، وينصر المرسلين.

التفسير والبيان:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لله الشكر الخالص على نعمه وقدرته، فإنه خلق السماوات والأرض وأبدعهما، لا على مثال سابق، وأحكم نظامهما. فموضوع الآية: أن الله تعالى يحمد نفسه على عظيم قدرته وعلمه وحكمته التي يشهد عليها ابتداء خلق السماوات والأرض من العدم، واختراعهما على غير مثال، قال سفيان الثوري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: هذه بئري وأنا فطرتها» أي بدأتها.

والمقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم، فهو قادر على الإعادة.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي إنه تعالى جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغ رسالاته وغير ذلك، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهم ذوو أجنحة متعددة، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، وبعضهم له أكثر من ذلك، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. جاء في الحديث الصحيح عن مسلم عن ابن مسعود «أن رسول الله ﷺ رأى جبريل

عليه السلام، وله ستّ مئة جناح، بين كل جناحين، كما بين المشرق والمغرب» . ولهذا قال جلّ وعلا:

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يزيد في خلق الملائكة أجنحة أخرى ما يشاء، ويزيد في خلق غيرهم ما يشاء، من ملاحة العين، وحسن الأنف، وحلاوة الفم، وجمال الصوت، إن الله كامل القدرة في خلق الزيادة المادية الحسية والمعنوية، فلا يعجز عن شيء، وبقدرته يزيد مما يشاء.

قال الزهري وابن جريج في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾: يعني حسن الصوت[١].

وبعد بيان كمال القدرة بيَّن الله تعالى أنه نافذ الإرادة والمشيئة والأمر، فقال:

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾ أي ما يعطِ الله تعالى من نعمة حسيّة أو معنوية من رزق ومطر، أو صحة وأمن، أو علم ونبوة وحكمة، فلا مانع له، وما يمنع من ذلك فلا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه، بيده الخير كله، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، روى الإمام أحمد والشيخان عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من الصلاة، قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ» .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ

(١) رواه عن الزُّهري البخاري في الأدب وابن أبي حاتم في تفسيره.

كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربَّنا لك الحمدُ ملءَ السّماء والأرض، وملءَ ما شئت من شيء بعد، اللهم أهلَ الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الْجَدِّ منك الْجَدّ».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧/١٠].

وفي موطأ مالك: بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح، وقد مُطر الناس: مُطرنا بنَوْء الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ﴾.

وبعد بيان كونه تعالى مصدر الخلق والرزق والنعم، أمر بتذكر نعمه والإقرار بالتوحيد فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ أي يا أيها الناس قاطبة، تذكروا نعم الله عليكم، وارعوها، واحفظوها بمعرفة حقوقها والاعتراف بها، وأفردوا موجدها بالعبادة والطاعة، فهو وحده رازقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك، وأعلنوا توحيد الله وأنه لا إله إلا هو، وإذا أقررتم بذلك، فكيف بعد هذا البيان ووضوح البرهان تصرفون عن الحق: وهو توحيد الله وشكره، وتعبدون بعد هذا الأنداد والأوثان؟!

وبعد تقرير الأصل الأول وهو التوحيد، قرر الله تعالى الأصل الثاني وهو الرسالة، فقال مواسياً أومؤانساً رسوله ﷺ عن تكذيب قومه:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ أي

وإن يكذِّبك يا محمد هؤلاء المشركون، ويعارضوك فيما جئت به من التوحيد، بعد إثباته بالأدلة والبراهين، فتأسَّ بمن سلف قبلك من الرُّسل، فإنهم أيضاً جاؤوا قومهم بالبيِّنات وأمروهم بالتوحيد، فكذبوهم وخالفوهم، ومصير الجميع في النهاية إلى الله، فيجازي على ذلك أوفر الجزاء، يجازيك على صبرك، ويجازيهم على التكذيب.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - الله تعالى هو مستحق الحمد والشكر على قدرته ونعمه وحكمته، وقد ذكرت سابقاً أن هذه السورة - كما ذكر الرازي - إحدى السُّور القرآنية الأربع المبدوءة بالحمد، فسورة الأنعام إشارة بالحمد إلى النعمة العاجلة وهي الإيجاد، وسورة الكهف إشارة بالحمد إلى النعمة العاجلة وهي الإبقاء، وسورة سبأ إشارة بالحمد إلى نعمة الإيجاد الثاني وهو الحشر، وهذه السورة إشارة بالحمد إلى نعمة البقاء في الآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي يجعلهم رسلاً يتلقون عباد الله تعالى.

٢ً - الله سبحانه هو مبدع السماوات والأرض على غير مثال سبق، وهو جاعل الملائكة ذوي أجنحة من اثنين إلى ثلاثة فأربعة، فأكثر، للطيران والتحليق هبوطاً وصعوداً بين السماء والأرض، وجاعلهم رسلاً إلى الأنبياء، أو إلى العباد برحمة أو نقمة في الدنيا، ولتلقي عباد الله في الآخرة كما ذكر الرازي.

٣ً - الله تعالى هو الذي يزيد في مخلوقاته ما يشاء، سواء في خلق الملائكة، بالأجنحة الكثيرة، أو في الزيادة المادية الحسية أو المعنوية في خلق الناس، كالتميز بأنواع الجمال المختلفة في العينين والأنف والفم ونحوها، وحسن الصوت، وجمال الخط أو الكلام أو النّطق.

٤ً - الله عزّ وجلّ تامّ القدرة على كل شيء بالنّقصان والزّيادة، والإيجاد والإعدام، وغير ذلك.

قال الزمخشري في آية ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: الآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التّكلُّم، وحسن تأتٍّ[١] في مزاولة الأمور، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف[٢].

٥ً - الله عزّ وجلّ نافذ المشيئة والإرادة والأمر، فإذا منح نعمة لأحد، فلا يقدر أحد أن يمنعها، وإذا حرم أحداً نعمة، لم يستطع أحد إعطاءه إياها. وبما أن الرُّسل بُعثوا رحمة للناس، فلا يقدر على إرسالهم غير الله، وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

وتنكيره الرحمة: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ يفيد العموم والشمول، والإشاعة والإبهام، فهي متناولة لكل رحمة، سماوية كانت أو أرضية.

٦ً - على الناس شكر نعمة الله عليهم، بحفظها وأداء حقها وذكرها باللسان والقلب، وإفراد المنعم بالطاعة والعبادة والثناء عليه بما هو أهله، وإنهاء التعلق بالأصنام والأوثان وجعلها شركاء لله، وهو أبطل الباطل الذي لا يقره العقل المتحضر، ولا الإنسان المتمدن.

٧ً - لا أحد على الإطلاق يأتي بالرزق، فالله تعالى مصدر الرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات.

---

(١) التّأتي في الأمور: التّرفق لها، وإتيانها من وجهها، وعلاجها بحكمة.
(٢) الكشاف: ٣/٥٦٩

٨ً - يجب على الخلق جميعاً إعلان توحيد الله، فالوحدانية في صحيفة الكون، وفي الضمير والوجدان، ومقتضى الفطرة، وفي ميزان العقل الراقي.

٩ً - إذ أثبت العقل ودلّت آيات القرآن والكون على وحدانية الله، فكيف يصحّ للبشر الانصراف عن هذا الظاهر وكيف يشركون المنحوت بمن له الملكوت؟!

١٠ً - إثبات التوحيد يستتبع إثبات الرسالة وصدق نبوة النبي ﷺ بالمعجزات الظاهرة، وأعلاها وأخلدها القرآن العظيم.

وإذا كذب بعض الناس قديماً وحديثاً رسول الله، فقد كذب الكفار عبر التاريخ أنبياءهم، وتلك ظاهرة عامة، وما على الرسول وأتباعه إلا التّأسّي بمن سبق في الصبر، والنهاية الحتمية المصيرية إلى الله، فيجازي الجميع بما يستحقون.

تقرير الحشر والتحذير من الشيطان وجزاء الكافرين والمؤمنين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ
أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا
يَصۡنَعُونَ ٨﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: إما بدل مجرور من ﴿أَصۡحَٰبِ﴾ وإما بدل

منصوب من ﴿حِزْبَهُۥ﴾ وإما بدل مرفوع من ضمير ﴿لِيَكُونُوا۟﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾.

﴿حَسَرَٰتٍ﴾ إما مفعول لأجله، أو منصوب على المصدر. وقرئ بالإمالة مع فتحة الراء وإمالتها، فمن قرأ بفتح الراء أتى بها على الأصل، ومن أمال فلأن الألف بدل عن الياء، ثم أتبع الراء إمالة الهمزة، والإتباع للمجانسة كثير في كلام العرب.

البلاغة:

﴿يُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهْدِى﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ بينهما مقابلة وهي كالطباق إلا أنها تكون في أكثر من شيئين.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ﴾ حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه، أي كمن لم يُزين له سوء عمله؟ ودلّ على المحذوف بقية الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾ و﴿مَن﴾ مبتدأ، وخبره: كمن هداه الله.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إطناب بتكرار الفعل.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ كناية عن الهلاك؛ لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿كَبِيرٌ﴾ سجع مؤثر على السمع.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء أو الحشر والعقاب لا

خلف فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لا تلهينكم ويذهلنكم التمتع بها عن الإيمان بالحشر وعن طلب الآخرة والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله. ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان، بأن يمنيكم المغفرة، مع الإصرار على المعصية.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطاعة الله، ولا تطيعوه في المعاصي، واحذروه في كل الأحوال. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي إنما يدعو أصحابه وأتباعه المتحزبين له، والمطيعين له، إلى المعاصي والكفر، لأجل أن يكونوا من أهل النار الشديدة، لعداوته لآدم وذريته. وهذا تقرير لعداوته وبيان لغرضه في دعوة أشياعه إلى اتّباع الهوى والركون إلى الدنيا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ وعيد لمن أجاب دعاء الشيطان، ووعد لمن خالفه بالإيمان والعمل الصالح بمغفرة الذنوب والأجر الكبير وهو الجنة.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ﴾ أي من غلب وهمه على عقله، فرأى عمله السيئ صواباً، والباطل حقاً، والقبيح حسناً، كمن لم يزين له؟ حذف الجواب لدلالة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ أي من شاء الله إضلاله أضلّه، ومن شاء هدايته هداه. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ أي عليه وهو المزين له، والمعنى: فلا تهلك نفسك باغتمامك على غيِّهم وكفرهم وإصرارهم على التكذيب. والحسرة: همّ النفس على فوات أمر، أي التلهف عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية من أفعالهم وأقوالهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس

قال: أنزلت هذه الآية: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ حيث قال النبي ﷺ: «اللهم أعِزَّ دينك بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام» فهدى الله عمر، وأضلّ أبا جهل، ففيهما أنزلت.

المناسبة:

بعد بيان الأصل الأول وهو التوحيد، والأصل الثاني وهو الرسالة، ذكر الله تعالى الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور، والحساب والعقاب، وقرر أنه حق لا شك فيه، وحذر من وسواس الشيطان في تشكيك الناس بالإيمان به، ثم صنّف الناس إزاءه صنفين: حزب الشيطان الذين لهم العذاب الشديد، وحزب الرحمن الذين لهم المغفرة والأجر الكبير وهو الجنة. ثم أبان قضية جوهرية وهي أن الضلال والهدى بيد الله حسبما يعلم من استعداد النفوس للأول أو الثاني.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾ يا أيها البشر جميعاً إن وعد الله بالبعث والجزاء حقّ ثابت مؤكد لا شك فيه، والمعاد كائن لا محالة، فلا تتلهوا بزخارف الدنيا ونعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة، ولا يغرنكم الشيطان بالله، فيجعلكم تعيشون في الأوهام والآمال المعسولة، قائلاً لكم: إن الله يتجاوز عنكم، ويغفر لكم، لسعة رحمته، فتنزلقوا في المعاصي، وتسرفوا في المخالفات، فإنه غرّار كذّاب أفّاك.

وهذه الآية كآية آخر سورة لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

ثم بيّن الله تعالى علّة عدم الاغترار بالشيطان وهي عداوة إبليس لابن آدم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي إن عداوة الشيطان لكم عداوة قديمة عامة ظاهرة، فعادوه أنتم أشدّ العداوة، وخالفوه وكذِّبوه فيما يغركم به، بطاعة الله، ولا تطيعوه في معاصي الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى أغراض الشيطان ومقاصده الخبيثة فقال:

﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب النار الشديد الدائم. جاء في حديث عبد الله بن مسعود الذي أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان عن النبي ﷺ: «إن للشيطان لِمَّة[١] بابن آدم وللملك لِمَّة، فأما لِمّة الشيطان فإيعاد بالشَّرِّ وتكذيب بالحقّ، وأما لِمّة الْمَلَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ».

ثم ذكر تعالى جزاء حزب الشيطان وحزب الرحمن فقال:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن الذين كفروا بالله ورسوله وأنكروا البعث، واتبعوا وساوس الشيطان، لهم عذاب شديد في نار جهنم؛ لأنهم أطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمن.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله وباليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال من اتِّباع الأوامر واجتناب النواهي ومخالفة الشيطان وهوى النفس، لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير وهو الجنة، بسبب الإيمان والعمل الصالح وعمل الخير.

ثم بيَّن تعالى الفرق بين الصنفين، فليس من عمل سيِّئاً كالذي عمل صالحاً، فقال:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي كيف يتساوى المسيء

(١) اللمة: الخطرة التي تقع في القلب.

والمحسن، وهل يكون أولئك الكفار الفجار الذين بتزيين الشيطان وتحسين القبيح يعملون أعمالاً سيِّئة من كفر ووثنية وعصيان، معتقدين أنهم يحسنون صنعاً، كالذين كانوا على الهدى، ويعلمون أنهم على الحق؟! والمراد بمن زين له سوء عمله: كفار قريش وأمثالهم.

وسبب ذلك ما قال تعالى:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ أي من شاء الله إضلاله أضلّه، ومن شاء هدايته هداه، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التامّ، وتبعاً لعلمه باستعداد النفوس للخير والشّر.

ثم سلَّى الله تعالى رسوله ﷺ حيث حزن من إصرار قومه على الكفر، فقال:

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي لا تغتم ولا تأسف ولا تهلك نفسك على عدم إيمانهم، وإصرارهم على الكفر، واستمرارهم على الضلال، فالله عليم بأحوالهم واستعداداتهم، وعليم بما يصنعون من المنكرات والقبائح لا تخفى عليه خافية، فيجازيهم بما يستحقون. وهذا وعيد كافٍ، وزجر بليغ إن أدركوا أبعاده ومراميه.

ونظير الآية كثير، منها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦/١٨] ومنها: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣/٢٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - بعد إيضاح الدليل على إثبات البعث والحشر ذكر الله تعالى مبدأ عاماً في الاعتقاد: وهو أن البعث والثواب والعقاب حق لا مرية فيه، ولا بدّ من حصوله.

٢ً - وفي ضوء هذا المنظور الأخروي في عقيدة الإسلام الراسخة، على الإنسان ألا تلهيه الدنيا وزخارفها عن العمل للآخرة، وألا يغترّ بوساوس الشيطان، فإنه أفّاك كذّاب، قال سعيد بن جُبير: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذّاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٤].

٣ً - إن عداوة الشيطان للإنسان عامة قديمة، فيجب الحذر منه، ومعاداته وعدم إطاعته، ودليل عداوته: إخراجه أبانا آدم من الجنة، وإصراره على إضلال الإنسان وضمانه ذلك في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١١٩]، وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦-١٧].

٤ً - إن هدف الشيطان الدال على عداوته للإنسان أيضاً دعوة حزبه أي أشياعه وأتباعه ليكونوا معه في نار جهنم الشديدة الاستعار.

٥ً - هناك فرق واضح بين المسيء والمحسن، فلا يسوَّى بين من زيّن له الشيطان عمله السيِّئ فأطاعه، وبين من هداه الله للخير، فاتَّبع أوامر الله تعالى. والفريق الأول يشمل كل الكفار من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان والأصنام والشيطان ونحو ذلك.

٦ً - إن الإضلال والهداية من الله بحسب ما له من العلم التامّ المسبق بكل إنسان، وما لديه من استعداد للشّرّ أو للخير.

٧ً - لا داعي للأسف والاغتمام على إصرار الكفار على كفرهم، ولا ينفع التأسف على مقامهم على كفرهم، فإن الله عليم بصنعهم القبائح، وسيجازيهم على أفعالهم.

من دلائل القدرة الإلهية لإثبات البعث

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف (الرِّيح).

﴿مَّيِّتٍ﴾:

قرئ:

١- (مَيِّت) وهي قراءة نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مَيْت) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الهاء تعود على الكلم، أي والعَمل الصالح يرفع الكلم، وقيل: تعود على العمل، أي والعمل الصالح يرفعه الله، ولو صحَّ هذا القول لكان يلزم نصب كلمة (العمل).

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: إما مفعول ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بمعنى

يعملون، أو منصوب على المصدر؛ لأن معنى ﴿يَمْكُرُونَ﴾: يسيئون، أو وصف لمصدر محذوف، أي يمكرون المكرات السيئات، ثم حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. ﴿وَمَكْرُ أُولَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَمَكْرُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿يَبُورُ﴾ وهو: فصل بين المبتدأ والخبر، ويجوز الفصل إذا كان الفعل مضارعاً.

البلاغة:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ سقناه: التفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة.

﴿تَحْمِلُ﴾ و﴿تَضَعُ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿يُعَمَّرُ﴾ و﴿يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَرْسَلَ﴾ أطلق وأوجد من العدم. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تزعجه وتحركه، وأتى بالمضارع حكاية للحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتخفيف، أو ميِّت بالتشديد: لا نبات فيه، ويرى بعضهم: أن الميت بالتخفيف: هو الذي مات، والميِّت بالتشديد، والمائت: هو الذي لم يمت بعد. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها، وأحيينا به الأرض: معناه أنبتنا بالمطر الزرع والكلأ. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها. و﴿ٱلنُّشُورُ﴾ البعث والإحياء، يقال: نشر الله الميت وأنشره، أي أحياه.

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرف والجاه والمَنَعة. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فليطلبها من عند الله، فإن له كل العزة في الدنيا والآخرة، ولا تنال منه العزة إلا بطاعته، فليطعه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ مجاز يراد به قبول الله له، أو علمه به، و﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو التوحيد (لا إله إلا الله) وكل كلام طيب من ذكر الله،

وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة قرآن ودعاء وغير ذلك. ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. و﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ ما كان بإخلاص، و﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ يقبله. ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي الذين يعملون السيئات في الدنيا على وجه المكر والخديعة، كالمكر بالنبي ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه، كما ذكر في الأنفال، أو مراءاة المؤمنين في أعمالهم بإيهامهم أنهم مطيعون لله. ﴿يَبُورُ﴾ يبطل ويفسد ولا ينفذ، من البوار: الهلاك.

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق أباكم آدم من تراب. ﴿نُّطْفَةٍ﴾ مني يخلق ذريته منه. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكراناً وإناثاً. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي لا يخرج شيء عن علمه وتدبيره، وهو حال، أي معلومة له. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي لا يزاد ولا يطول من عمر أحد، ولا ينقص من عمر معمر آخر، وذلك بحسب العرف والعادة الشائعة بين الناس. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي في صحيفة المرء في اللوح المحفوظ، وتطويل العمر وتقصيره: هما بقضاء الله وقدره، لأسباب تقتضي التطويل أو التقصير، فمن أسباب التطويل: صلة الرحم، ومن أسباب التقصير: الاستكثار من معاصي الله عز وجل. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي لا يصعب عليه منه شيء.

المناسبة:

بعد الإخبار عن عذاب الكفار الشديد، والمغفرة والأجر الكبير للمؤمنين يوم القيامة، أقام تعالى الدليل على البعث بإحياء الأرض بعد موتها، وبخلق الإنسان ومروره في أطوار مختلفة من التراب، فالنطفة، فالبشر السوي، فالمدّ في العمر أو تقصيره.

التفسير والبيان:

كثيراً ما يستدل الله تعالى على المعاد أو البعث بإحياء الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج مثلاً، وقال هنا:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ أي والدليل الحسي المشاهد على إمكان البعث وأنه مقدور لله تعالى: أنه سبحانه يرسل الرياح، فتحرك الغيوم إلى حيث يشاء الله، فيقوده إلى بلد ميت لا نبات به، فينزل المطر عليه، فتحيا الأرض بالنبات بعد يبسها، وتصبح مخضرة ذات زرع وشجر، بعد أن كانت تربة هامدة، فكذلك يكون النشور أي كما يحيي الله الأرض بعد موتها، يحيي العباد بعد موتهم، وهذا هو النشور، أي جعلهم أحياء.

جاء في حديث أبي رَزين: «قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: يا أبا رزين، أما مررتَ بوادي قومك مُمْحِلاً، ثم مررت به يهتز خَضِراً؟! قلت: بلى، قال ﷺ: فكذلك يحيي الله الموتى» .

ثم ندّد الله تعالى بمشاعر الكفار بالعزة والغطرسة التي حجبتهم عن طاعة الله، فقال:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي من كان يريد الوصول إلى الشرف والتعزز والسمو، فليتعزز بطاعة الله، وليطلبها من الله لا من غيره، فإن الله مصدر العزة، وهو يهب منها لمن يشاء، وهذا ردّ على الكفار الذين كانوا يطلبون العزة بعبادة الأصنام، وعدم الطاعة للرسل، وترك الاتّباع لهم، فقال: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله، ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه، فهو الذليل. وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨/٦٣] . وقد حكى القرآن طلب المشركين العزة بعبادة الأصنام، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١/١٩] . وأما المشركون فكانوا يطلبون العزة عند الكفار فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩/٤] .

ثم وصف الله تعالى بعض مظاهر العزة رداً على الكفار الذين كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، فقال:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي إن كنتم لا تصلون إلى الله، فهو يسمع كلامكم، ويقبل طيب الكلام، كالتوحيد والأذكار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء، وتلاوة القرآن وغير ذلك. ومن أفضل الأذكار: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وإن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، كما أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح، وصلاح العمل: الإخلاص فيه، فلا يتقبل الله صلاة وصياماً وزكاة ونحو ذلك من أعمال البر، إذا لم تكن لله، ووقعت مراءاة للناس.

قال ابن عباس: الكلم الطيب: ذكر الله تعالى، يصعد به إلى الله عز وجل، والعمل الصالح: أداء الفريضة.

ثم أخبر الله تعالى أنه لا يقبل من المرائين أعمالهم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي والذين يعملون المكرات السيئات في الدنيا، كالتآمر على قتل النبي ﷺ، أو لإضعاف المسلمين، ويوهمون غيرهم أنهم في طاعة الله تعالى، وهم مبغوضون معاقبون عند الله عز وجل، يراؤون بأعمالهم، فلهم عقاب بالغ الغاية في الشدة.

ومكر هؤلاء الكاذبين المفسدين يفسد ويبطل ولا ينفذ؛ لأن الأمور مقدرة، لا تتغير بالمكر والحيلة، ولأن المرائي ينكشف أمره بسرعة، ولا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل

ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية، يجازي على الرياء أشدّ العذاب.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر على إمكان البعث بخلق الأنفس فقال:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي والله سبحانه ابتدأ خلق الإنسان من تراب، فخلق أبانا آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، فجعل الخلق المتوالي الدائم من النطفة (المني) والنطفة من الغذاء، والغذاء من الماء والتراب، فقد صير التراب نطفة، ثم جعل الناس أصنافاً، ذكراناً وإناثاً، فهذا التحول من تراب إلى خلية حية، إلى إنسان سوي دليل قاطع على إمكان البعث الذي هو إعادة الحياة مرة أخرى، والإعادة في مفهوم الناس أهون من البدء، أما عند الله فهما سواء.

هذا دليل القدرة، أعقبه تعالى بالدليل على كمال العلم فقال:

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي إن الله عالم بحمل أي أنثى في العالم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، كما أنه عالم بوقت الوضع ومكانه وكيفيته، كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ١٣/٨-٩] .

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ سماه معمَّراً بما هو صائر إليه، أي ما يمدّ في عمر أحد، وما ينقص من عمر آخر إلا في صحيفة كل إنسان في اللوح المحفوظ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه، سواء أكان من أصحاب الأعمار الطويلة أم القصيرة الأجل، فتطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره، لأسباب مسبقة يعلمها الله، فمن أطال عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التطويل، كصلة الرحم، ومن قصر عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التقصير، كالإكثار من معاصي الله.

روى البخاري ومسلم وأبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره[١]، فليصل رحمه» .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن ذلك النظام المرتب للعالم سهل يسير على الله، لديه علمه جملة وتفصيلاً، فإن علمه شامل لجميع المخلوقات، لا يخفى عليه شيء منها.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

١ - إمكان حدوث البعث؛ لأن الله قادر على كل شيء، ومن مظاهر قدرته الدالة على ذلك بنحو حسي مباشر: إحياء الأرض بالمطر بعد يبسها وذهاب ما فيها من زروع ونباتات، واكتساؤها بالخضرة والمروج، والنبات، والثمار المختلفة الألوان والأنواع والطعوم.

فكما حدث من تبدل من موت إلى حياة كذلك يحدث إحياء المخلوقات، فمثل إحياء الأرض الموات نشر الأموات، وإعادة الحياة لهم بعد الموت.

٢ - إن الاعتزاز بالكفر والمال والأولاد والجاه والسمعة والنفوذ سراب خادع، فإن من كان يريد العزة التي لا ذلة فيها في الدنيا والآخرة، فعليه بطاعة الله عز وجل وعبادته وحده دون شريك؛ لأن الله تعالى مصدر العزة، وهو سبحانه يُعز من يشاء في الدنيا والآخرة، ويُذلّ من يشاء، قال ﷺ مفسِّراً لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: «من أراد عزّ الدارين، فليطع العزيز» .

(١) أي يؤخر له في أجله.

وعليه: من كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل في دار العزة - ولله العزة - فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به، فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزّه الله.

٣ - الكلم الطيب من توحيد الله وذِكْره ودعائه وتلاوة كتابه ونحو ذلك هو الذي يقبله الله عز وجل، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب كما قال ابن عباس وغيره، كما أن الكلم الطيب لا يقبل إلا مع العمل الصالح. وصلاح العمل: الإخلاص فيه، جاء في الحديث: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنية، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة»[١].

ورُدَّ على ابن عباس قوله بتعارضه مع معتقد أهل السنة، وأن ذلك لا يصح عنه. قال القرطبي: والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله، وقال كلاماً طيباً، فإنه مكتوب له متقبَّل منه، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضاً فإن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأوّل أنه يزيد في رفعه، وحسن موقعه إذا تعاضد معه، كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك، إذا تخلل أعمالَه كَلِمٌ طيب وذكر الله تعالى، كانت الأعمال أشرف؛ فيكون قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظة وتذكرة وحَضّاً على الأعمال. وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة[٢]

٤ - إن الذين يراؤون في أعمالهم، ويعملون المكرات السيئات في الدنيا، لهم عذاب شديد في نار جهنم، ومكرهم بائد غير نافذ. والمكر: ما عمل على سبيل احتيال وخديعة.

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر بلفظ: «لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان».

(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ٣٣٠

٥ - الدليل الآخر على إمكان البعث أحوال نفوس البشر وأطوارها، فقد خلق الله تعالى أصلها من تراب، ثم جعل النطفة سبباً للخلق، ثم حدث التزاوج بين الذكر والأنثى، ليتم البقاء في الدنيا إلى نهاية العالم، عن طريق التناسل، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به، ولا يخرج شيء عن تدبيره.

٦ - الأعمار كالأرزاق مقدرة محددة في صحيفة كل إنسان، لا تزيد ولا تنقص، وأما طول العمر بأسباب، كصلة الرحم، فهو داخل في تقدير العمر بصفة نهائية في علم الله، إذ إنه يكتب في اللوح المحفوظ: عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه، زيد في عمره كذا سنة، وفي موضع آخر من اللوح المحفوظ بُيِّن: إنه سيصل رحمه، فمن اطلع على الأول دون الثاني، ظن أنه زيادة أو نقصان.

٧ - إن نظام العالم البديع، وكتابة الأعمال والآجال غير متعذر على الله، وإنما هو سهل يسير هيّن؛ لأن علم الله مطلق غير نسبي كعلم البشر، وشامل غير محدود، وعام غير خاص يشمل الماضي والحاضر والمستقبل.

من دلائل الوحدانية والقدرة الإلهية

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

الإعراب:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ الشرك: مصدر بمعنى الإشراك، وهو مضاف إلى الكاف والميم، وهي الفاعل في المعنى، وتقديره: بإشراككم إياهم، فحذف المفعول.

البلاغة:

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة وهي كالطباق، لكنها بين أكثر من شيئين.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ العذب والمالح .﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، والعذب: الحلو اللذيذ الطعم، والفرات: المزيل للعطش .﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ سهل انحداره .﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، وذلك مثل للمؤمن والكافر .﴿وَمِن كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك .﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي من البحر الملح، وقال الزجّاج: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، والحلية هنا: هي اللؤلؤ والمرجان، وهي في الأصل: كل ما يتحلى به من سوار أو خاتم .﴿وَتَرَى﴾ تبصر .﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفن .﴿فِيهِ﴾ في كل من البحرين .﴿مَوَاخِرَ﴾ عابرات شاقات تشق الماء بجريها، مقبلة ومدبرة بريح واحدة .﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تطلبوا من فضل الله تعالى بالتجارة والتنقل فيها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على ما أنعم عليكم به من ذلك.

﴿يُولِجُ﴾ يدخل، فيزيد في كل من الليل والنهار بالنقص من الآخر. ﴿وَسَخَّرَ﴾ أجرى .﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كل منهما يسير في فلكه هي مدة دورانه، أو منتهاه، وقيل: إلى يوم القيامة .﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الفاعل لهذه الأفعال .﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي هذا الصانع لما تقدم هو الخالق المقدر،

والقادر المقتدر، المالك للعالم، والمتصرف فيه. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي تعبدون من غيره وهم الأصنام. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: لِفافة النواة، أي القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون على النواة - البزرة. وهذا دليل التفرد بالألوهية والربوبية.

﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض. ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ما أجابوكم. ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يجحدون بإشراككم إياهم مع الله، وعبادتكم لهم، والمعنى: يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياهم. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك بالأمر، ويعلمك بأحوال الدارين مخبر مثل الخبير العالم به، وهو الله تعالى.

المناسبة:

بعد إيراد أدلة إثبات البعث، أورد الله تعالى الأدلة والبراهين الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته، بخلقه أشياء متحدة الجنس، لكنها مختلفة المنافع، من الماء الواحد، والليل والنهار، والشمس والقمر. وأردفه بالرد على عبدة الأصنام التي لا تملك شيئاً، ولا تسمع دعاء، ولا تجيب نداء، وتتبرأ من عابديها يوم القيامة.

التفسير والبيان:

نبَّه الله تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، فقال عن اختلاف البحرين:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان، أو الكافر والمؤمن، فالإيمان لا يتساوى مع الكفر في الحسن والنفع، كما لا يتساوى البحران العذب الفرات، والملح الأجاج، وقال الرازي: والأظهر أن المراد

منه ذكر دليل آخر على قدرة الله تعالى، وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة، ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات، والآخر ملح أجاج.

والمعنى: لا يتساوى ولا يتشابه البحران في الحقيقة، فأحدهما عذب الماء شديد العذوبة، سائغ الشراب، يجري في الأنهار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وثانيهما ملح شديد الملوحة، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار.

وبعد اختلافهما في هذا يتشابهان في أمور: مثل أخذ اللحم الطري والحلية منهما، والذي يوجد في المتشابهين اختلافاً وفي المختلفين تشابهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً، فقال تعالى:

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي يصاد السمك من كل منهما، وتستخرج الحلية الملبوسة منهما، وهو اللؤلؤ والمرجان، كما قال عز وجل: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٢-٢٣].

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تبصر أيها الناظر السفن في البحر شاقَّة الماء، مقبلة مدبرة، حاملة المؤن والأقوات وأنواع التجارة من قطر إلى آخر، لتطلبوا بأسفاركم بالتجارة بين البلدان من فضل الله، لتشكروا الله أو شاكرين ربكم على تسخيره لكم هذا البحر العظيم، وعلى ما أنعم به عليكم من النعم، فإنكم تتصرفون في البحر كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم دون عائق ولا مانع، بل بقدرته تعالى قد سخر لكم جميع ما في السماوات والأرض من فضله ورحمته.

ثم ذكر تعالى دليلاً آخر على قدرته التامة وهو اختلاف الأزمنة، فقال:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل أحدهما في

الآخر فيكون أطول منه، فيزيد في زمن كل منهما بالنقص من الآخر، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي سيَّر الشمس والقمر وبقية الكواكب السيَّارة، والثوابت الثاقبة بإرادته وقدرته، يجري كل منهما بمقدار معين، ومنهاج مقنن، ومدة محددة هي زمن مدارها أو منتهاها، لتعلموا عدد السنين والحساب، وقيل: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي الذي فعل هذا من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، وهو صاحب الملك التام، والقدرة الشاملة، والسلطان المطلق، وكل من عداه عبدٌ له.

ثم أبان تعالى في مقابل ذلك ما ينافي صفة الألوهية، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، لا يملكون شيئاً من السماوات والأرض، ولو كان حقيراً بمقدار هذا القطمير، وهو قشرة النواة الرقيقة.

ثم أبطل ما يقولون: إن في عبادة الأصنام عزة، وأبان عجزها وضعفها وحقارتها، فقال:

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي إن تدعوا هذه الآلهة من دون الله تعالى لا تسمع دعاءكم؛ لأنها جماد لا تدرك شيئاً، ولو سمعوا لم يقدروا أن ينفعوكم بشيء مما تطلبون منها، لعجزها عن ذلك، فهي لا تضر ولا تنفع ولا تغني شيئاً، فكيف تعبدونها؟!

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي وفي اليوم الآخر يجحدون كون ما فعلتموه حقاً، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم أو أقروكم عليها، ويتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/٥-٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ١٩/٨١-٨٢].

وتقريراً عاماً لهذه المعاني، وتأكيداً لهذه الأخبار، قال تعالى:

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة، أو لا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها إلا خبير بصير بها، وهو الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الحال أو في الاستقبال، وقد أخبر بالواقع لا محالة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - من أدلة القدرة الإلهية العظيمة الدالة على وحدانية الخالق خلق الأشياء المتفاوتة، التي منها خلق البحرين: العذب الزلال وهو الأنهار، والملح الأجاج وهو البحار، ومع اختلافهما وتمايزهما حينما يتجاوران، فيهما تشابه بوجود الأسماك في كل منهما، واستخراج الحلية وهي اللؤلؤ والمرجان منهما، أي من اختلاطهما وتمازجهما ونزول مطر السماء، وإن كانت الحلية من البحر المالح.

٢ - في قوله تعالى: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أن لباس كل شيء بحسبه، فالخاتم يجعل في الإصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرِّجْل.

٣ً - من نعم الله تعالى ودليل قدرته: تسيير السفن في البحر، لتبادل التجارات بين الأقطار البعيدة في مدة قريبة، وكسب الأرزاق، الذي يستدعي الشكر على ما آتانا الله من فضله وعلى تسخيره البحر للانتقال فيه، وحرية الحركة في أنحائه.

٤ً - ومن أدلة القدرة الإلهية أيضاً: اختلاف الأزمنة بتعاقب الليل والنهار، واختلاف الفصول، وتفاوت زمن الليل والنهار صيفاً وشتاء، وتسيير الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة والثابتة في مدة دوران معينة تنتهي في اجتياز مدارها، وبقائها على هذا النحو الدقيق إلى يوم القيامة.

٥ً - إن صانع كل ما ذكر من خلق السماوات والأرض، وإنزال الغيث، وخلق الإنسان من تراب، وإيجاد الماء العذب والماء الملح وما يحققان من ثروة مائية ومعدنية ونفطية وحلي، ودورة الأرض واختلاف الليل والنهار بين نصفي الكرة الأرضية، وفي النصف الواحد في مدار السنة وغير ذلك، إن هذا الصانع هو الخالق المدبر، والقادر المقتدر، والمالك القاهر، فهو الذي يستحق أن يُعْبَد.

٦ً - ما أقل عقول الوثنيين وما أبسطها حين يعبدون الأصنام الصماء من الحجارة والمعادن وغيرها، وهي لا تقدر على شيء ولا على خلقه، ولا تنفع ولا تضر، ولا تبصر ولا تسمع، فلا تغيث أحداً إذا استغاث بها؛ لأنها جمادات، ولا تجيب إن ناداها عبّادها؛ لأنها لا تنطق. والداهية العظمى أنها يوم القيامة تتبرأ من عابديها، وتنكر أفعالهم، وتتنصل من تبعة المسؤولية الموجهة إليهم، والله أصدق مخبر بذلك.

سبب العبادة والمسؤولية الشخصية وانتفاع العابدين بالإنذار

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

البلاغة:

﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ﴾ بينهما طباق.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وكذا ﴿حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا، وفي كل حال على الإطلاق. وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء .﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ على الإطلاق عن خلقه .﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم، المحمود في صنعه بهم.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ إن يشأ يفنكم، ويأت بقوم آخرين من جنسكم بدلكم، أطوع منكم، أو من جنس آخر غير ما تعرفونه. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي وما ذلك الإذهاب لكم والإتيان بآخرين بمتعذر ولا بمتعسر على الله تعالى.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ذنب أو إثم نفس أخرى. ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى، لتحمل عنها بعض الذنوب التي تحملها. ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي ولو كان المدعو قريباً لها في النسب كالأب والابن، فكيف بغير القريب؟! وهذا حكم مبرم من الله تعالى. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخافونه غائباً عنهم؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ احتفلوا بأمرها، وأداموها، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ ومن تطهر من الشرك وغيره من المعاصي، واستكثر من العمل الصالح، فإنما يتطهر لنفسه؛ لأن نفع ذلك مختص به، كما أن وزر من تدنس بالذنب لا يكون إلا عليه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى الله المرجع والمآل، فيجزي على تزكيهم وعملهم في الآخرة.

المناسبة:

بعد بيان كون العبادة واجبة لله تعالى؛ لأنه المالك المطلق، والأصنام لا تملك شيئاً، أبان الله تعالى حكمة العبادة للرد على الكفار القائلين بأن أمر العبادة أمر بالغ، وللتهديد الشديد على تركها، لا لحاجته إلى عبادتنا. ثم أوضح أن كل إنسان مسؤول عن نفسه فقط، وأرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما ينفع الذي يخشى الله بالغيب وأقام الصلاة.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن غناه المطلق عمن سواه، وافتقار جميع المخلوقات إليه، فقال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾

أي يا أيها البشر جميعاً، أنتم المحتاجون إلى الله تعالى على الإطلاق، في منح القدرة على الحياة والبقاء، وفي جميع الحركات والسكنات، وفي جميع أمور الدين والدنيا، لذا فاعبدوه وحده؛ لأن ثمرة العبادة عائدة إليكم وحدكم، والله هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له عن عبادتكم وغيرها، وهو المحمود المشكور على نعمه وعلى جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه. وذكر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه.

ثم أبان غناه وقدرته التامة بإمكانه استبدالكم، وأنه غير محتاج إليكم، فقال:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي لو شاء لأفناكم أيها الناس، وأتى بقوم غيركم، يكونون أطوع منكم، وأجمل وأحسن وأتم، وما ذلك بصعب عليه ولا ممتنع، بل هو يسير هيّن عليه.

وفي هذا تهديد ووعيد وتبديد لأوهامكم أنه لو أذهب البشر لزال ملكه وعظمته.

ثم دعاهم إلى النظر والتأمل في المستقبل، وأخبرهم بمسؤولية كل إنسان يوم القيامة عن نفسه فقط دون غيره، فقال:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة أو مذنبة إثم أو ذنب نفس أخرى. وهذا لا يمنع مضاعفة الإثم للمضلين القادة، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٣].

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي وإن

طلبت نفس مثقلة بالأوزار والذنوب مساعدة نفس أخرى في حملها، لتحمل عنها بعض الذنوب، لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب كالأب والابن؛ لأن كل امرئ مشغول بنفسه وحاله، وله من الهموم ما يغنيه.

ونظير الآية: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣١/٣٣] وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٤-٣٧].

قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا رب سل هذا لمَ كان يُغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلّق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن، إن لي عندك يداً، قد عرفتَ كيف كنتُ لك في الدنيا، وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه، حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني خيراً، فيقول له: يا بني، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجته، فيقول: يا فلانة أو يا هذه، أي زوج كنت لك؟ فتثنّي خيراً، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لي لعلي أنجو بها مما ترين، قال: فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوف مثل الذي تتخوف، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآية.

ثم أبان الله تعالى من يجدي عنده الإنذار، فقال:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي إنما يتعظ

بما جئت به أيها الرسول أولو البصيرة والعقل الذين يخافون من عذاب ربهم قبل معاينته أو في خلواتهم عن الناس، ويفعلون ما أمرهم به، ويقيمون الصلاة المفروضة عليهم على النحو الأتم المشروع، إقامة فيها احتفال بأمرها، وبعد عن الاشتغال بغيرها.

ثم ذكر الله تعالى أن فائدة العبادة تعود عليهم، فقال:

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي ومن تطهر من الشرك والمعاصي، وعمل صالحاً، فإنما يتطهر لنفسه؛ لأن نفع ذلك يعود على نفسه، لا غيره، وإلى الله المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً - الناس قاطبة فقراء محتاجون إلى ربهم الخالق الرازق في بقائهم وكل أحوالهم، والله هو الغني عن عباده، المحمود على جميع أفعاله وأقواله ونعمه الكثيرة التي لا تحصى.

وغنى الله لا يعود عليه، وإنما ينفع به عباده، فاستحق الحمد التام والشكر الكامل من أعماق النفوس.

٢ً - الله قادر على إفناء الخلق والإتيان بخلق جديد آخر أطوع منهم وأزكى، وليس ذلك بممتنع عسير متعذر على الله تعالى.

٣ً - من مفاخر الإسلام مبدأ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ أي مبدأ المسؤولية الشخصية في الدنيا والآخرة، فلا يسأل إنسان عن جريمة غيره، ولا يتحمل امرؤ عقوبة جان آخر: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٥].

٤ - كل إنسان في الآخرة مشغول بنفسه، فلا يستطيع أن يتحمّل شيئاً من آثام غيره، ولو كان أقرب الناس إليه، كالأب والابن وغيرهما.

٥ - إنما يقبلُ إنذار النبي ﷺ وإنذارات القرآن الكريم: من يخشى عقاب الله تعالى في السرّ والعلن وقبل معاينة العذاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ٣٦/١١].

٦ - من تطهر من أدناس المعاصي فإنما يتطهر لنفسه، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وتظهر الفائدة في الآخرة؛ إذ إلى الله مرجع جميع الخلق، فيحاسبهم على ما فعلوا.

مثل المؤمن والكافر وإرسال الرسل في الأمم

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ
وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ
بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ
وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رسْلهم).

البلاغة:

﴿الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ و﴿النُّورُ﴾ ﴿الظِّلُّ﴾ و﴿الْحَرُورُ﴾ ﴿الْأَحْيَاءُ﴾ و﴿الْأَمْوَاتُ﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ استعارة تصريحية، استعار المشبه به وهو الأعمى للكافر، لعدم الاهتداء إلى الطريق الصحيح، واستعار البصير للمؤمن لاهتدائه إلى منهج الاستقامة ووضوح الطريق أمامه.

وزيادة ﴿وَلَا﴾ في الآيات [٢٠-٢٢] في المواضع الثلاثة للتأكيد.

﴿نَذِيرٌ﴾ ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ توافق الفواصل ذو التأثير في جمال الكلام والوقع على النفس.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الأول: فاقد البصر، والثاني له ملكة البصر، والمراد تشبيه الكافر بالأعمى، وتشبيه المؤمن بالبصير .﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ شبه الباطل بالظلمات، وشبه الحق بالنور .﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾ أراد بالظل الجنة وأراد بالحرور النار. و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ السموم، إلا أن السموم بالنهار، والحرور بالليل والنهار .﴿ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ شبه المؤمنين بالأحياء، وشبه الكافرين بالأموات .﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، فيجيب بالإيمان .﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي الكفار، شبههم بالموتى الذين لا يجيبون.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ أي ما أنت إلا منذر لهم، أو ما عليك إلا الإنذار والتبليغ، أما الإسماع فليس إليك، ولا قدرة لك عليه؛ لأن الهدى والضلالة بيد الله عز وجل .﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إرسالاً مصحوباً بالحق، وهو الهدى، فيشمل المرسِل والمرسَل، فكلاهما محق .﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشراً من أجابك بالجنة، ومنذراً من لم يجبك بالنار .﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي ما من جماعة كثيرة أو أهل عصر .﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ سلف ومضى فيها منذر مخوف من نبي أو عالم ينذر عنه، واكتفى بالنذير؛ لأن الإنذار قرين البشارة، ولا سيما وقد قرن به من قبل، أو لأن الإنذار هو المقصود الأهم من البعثة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إن يكذبك أهل مكة فقد كذبت الأمم الماضية أنبياءهم .﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ المعجزات الدالة على صدقهم في نبوتهم .﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي الكتب المكتوبة، كصحف إبراهيم، جمع زبور: أي كتاب، والكتاب: ما فيه شرائع وأحكام .﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتكذيبهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك.

المناسبة:

بعد بيان طريق الهدى وطريق الضلالة، واهتداء المؤمن الذي يخاف ربه، وجحود الكافر المعاند، ضرب الله تعالى الأمثال للكافر والمؤمن، وللباطل والحق، وللجنة والنار، وللمؤمنين والكافرين، وعدَّد الأمثلة، للتعريف بأن المؤمن بصير الطريق، والكافر أعمى الطريق، وأن الإيمان نور فلا يخفى على المؤمن، والكفر ظلمة فيزيد الأعمى حيرة، ثم ذكر مآلهما ومرجعهما، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، ثم جعل الكافر أسوأ حالاً من الأعمى فشبهه بالميت؛ لأنه غير مدرك إدراكاً نافعاً، فهو كالميت، أما الأعمى فقد يدرك شيئاً ما كالبصير. ثم أوضح تعالى أن الهداية بيده يمنحها من يشاء، ولكنه لم يترك سبيلاً لأحد بالاعتذار، فقد أرسل الرسل والأنبياء في كل أمة من الأمم، فمن آمن نجا، ومن عصى عذب في النار.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وللكافرين، فكما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة في حقيقتها وفائدتها، كذلك لا يتساوى الكافر الذي عمي عن دين الله، والمؤمن الذي عرف طريق الرشاد فاتبعه وانقاد له، ولا تتساوى ظلمات الكفر ونور الإيمان، أو الباطل والحق، ولا يتساوى الثواب والعقاب أو الجنة والنار.

فالمؤمن سميع بصير يمشي في نور على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال الوارفة والعيون المتدفقة، والكافر أصم أعمى يمشي في ظلمات لا خروج له منها، بل يتيه في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى ينتهي به الأمر إلى الحرور والسموم والحميم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ أي ولا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر، والكافرون أموات القلوب والحواس.

فهذه أمثال للمؤمن والإيمان والعاقبة، والكافر والكفر والمصير، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ١١/ ٢٤] وقال عز وجل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٢] . قال قتادة: هذه كلها أمثال؛ أي كما لا تستوي هذه الأشياء، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن.

ثم بيَّن تعالى مصدر الهداية، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي إن الله يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، وكما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار، بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون لا تستطيع أيها النبي هدايتهم؛ لأن الكفر أمات قلوبهم.

وأما مهمة الرسول فهي:

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر عذاب الله، ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ، أما الهدى والضلالة فهي بيد الله عز وجل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أرسلناك أيها الرسول إرسالاً مصحوباً بالحق، والمرسِل محق، وكذا المرسَل محق، مبشراً المؤمنين أهل الطاعة بالجنة، ومنذراً الكافرين أهل المعصية بالنار.

والإرسال منهج عام في البشرية، فقال تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمة من بني آدم سبقت إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ١٦/٣٦].

ثم آنس رسوله ﷺ عما يلقاه من صدود قومه وتكذيبهم وإعراضهم عن دعوته، فقال:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي وإن يكذبك أيها الرسول قومك فقد كذبت الأمم الماضية من قبلهم أنبياءهم، جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحة والأدلة القاطعة، وبالكتب المكتوبة كصحف إبراهيم، وبالكتاب الواضح البيِّن، كالتوراة والإنجيل. وكرر الزبر والكتاب، وهما واحد، لاختلاف اللفظين.

ثم هدّد مخالفيه وأوعدهم بالعقاب، فقال:

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي ومع كل هذه الأدلة كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم بالعقاب والنكال، فكيف رأيت إنكاري عليهم شديداً بليغاً؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - لا مساواة بين الكافر والمؤمن والجاهل والعالم، ولا بين الكفر والإيمان أو الحق والباطل، ولا بين الثواب والعقاب أو الجنة والنار، ولا بين العقلاء والجهال أو أحياء القلوب وأموات القلوب.

٢ً - إن الله يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته، ويهدي أحباءه لطاعته، ولن يستطيع النبي إسماع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ أي كما لا يُسمع من مات، كذلك لا يُسمع من مات قلبه. والمراد بالآية: أن الكفار الذين حجبوا نور الهداية عن قلوبهم هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه.

٣ً - ما الرسول إلا مجرد رسول منذر، فليس عليه إلا التبليغ، ليس له من الهدى شيء، إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى.

٤ً - أرسل الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق، بشيراً بالجنة أهل طاعته، ونذيراً بالنار أهل معصيته.

٥ً - لم تخل أمة من نبي أو رسول ينذرها ويبشرها.

٦ً - آنس الله رسوله ﷺ عما يلقاه من تكذيب كفار قريش، بأن الأمم السابقة كذبوا أنبياءهم، بالرغم من تأييد صدقهم بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات، وبالكتب المكتوبة، وبالكتاب المنير، وكانت نتيجة التكذيب عقوبة الاستئصال.

العلوم العملية الطبيعية
دليل آخر على وحدانية اللّه وقدرته
وحال العلماء أمام مشاهد الكون

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

الإعراب:

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هاء ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ تعود على موصوف محذوف، تقديره: خَلْق مختلف ألوانه، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، هي في موضع رفع بالابتداء، والجار والمجرور قبله: خبره. و﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعل مختلف؛ لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ خبر إن. و﴿لَّن تَبُورَ﴾ صفة للتجارة.

البلاغة:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، بدلاً من «أخرج» للدلالة على كمال قدرة الله وحكمته.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهام تقريري، فيه معنى التعجب.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قصر صفة على موصوف، قصر الخشية على العلماء.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ استعارة، استعار التجارة للمعاملة مع الله لنيل ثوابه، وشبهها بالتجارة الدنيوية، وأيدها بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ وهو الذي يسمى ترشيحاً.

﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿لَّن تَبُورَ﴾ ﴿غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ توافق الفواصل من عناصر جمال الكلام.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم فهذه رؤية القلب والعلم. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها أو أصنافها أو هيئاتها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك. ﴿جُدَدٌۢ﴾ أي ذو جدد، أي طرائق وخطوط في الجبال وغيرها، جمع جُدَة: وهي الخطة أو الطريقة المختلفة الألوان في الجبل ونحوه. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ أي وصفر ونحوها. ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدة والضعف. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ معطوف على جدد، أي صخور شديدة السواد، وأصل اللفظ: وسود غرابيب، والعرب تقول كثيراً للشديد السواد المشابه لون الغراب: أسود غِرْبيب، وقليلاً: غربيب أسود.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلاف الثمار والجبال. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ بخلاف الجهال كأهل مكة؛ إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه، ولذلك قال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أنس: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له». ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قاهر. ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده التائبين المؤمنين. والجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يستمرّون على تلاوة القرآن الكريم. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أداموا إقامتها في أوقاتها، مع كمال أركانها وأذكارها. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فيه حثّ على الإنفاق كيفما تهيأ، لكن السر أفضل من العلانية. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ أي تحصيل ثواب الطاعة. ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران.

سبب نزول الآية (٢٩):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ أخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية.

المناسبة:

هذا دليل آخر على وحدانية الله وقدرته من مشاهد الكون المختلفة الأجناس والألوان، ضمَّنه أن العلماء في العلوم الكونية أقدر الناس على إدراك عظمة الكون. فيكونون هم أخشى الناس لله، ثم أردفه ببيان حال العلماء العاملين بكتاب الله، فهم الذين يرجون ثواب الله على طاعتهم.

التفسير والبيان:

ينبه الله تعالى على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، فيخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أي ألم تشاهد أيها الإنسان أن الله تعالى خلق الأشياء المختلفة من الشيء الواحد، فأنزل الماء من السماء، وأخرج به ثماراً مختلفة الأجناس والأنواع والطعوم والروائح والألوان من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٤] .

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو مشاهد من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد مختلفة الألوان أيضاً.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ أي وخلق أيضاً خلقاً آخر من الناس والدواب والأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم مختلفة الألوان في الجنس الواحد، بل وفي النوع الواحد، وفي الحيوان الواحد، كاختلاف الثمار والجبال. وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي خَلْق مختلف ألوانه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٢] . والدواب: كل ما دبَّ على القوائم، و﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من باب عطف الخاص على العام. وكلمة ﴿كَذَٰلِكَۗ﴾ هنا تمام الكلام، أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية.

وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان والأصباغ في هذه الأشياء؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه، فذكر أولاً اختلاف الألوان في ثمار النبات، ثم ذكر اختلاف الألوان في الجمادات، ثم في الناس والحيوان.

أخرج الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أيصبغ ربك؟ قال ﷺ: «نعم صبغاً لا ينْفُضُ، أحمر وأصفر وأبيض» .

ثم ذكر مستأنفاً من يعرف جمال ذلك ودقائقه وهم العلماء فقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي إنما

يخاف الله بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، ومنها عظيم قدرته على صنع ما يشاء وفعل ما يريد، فمن كان أعلم بالله، كان أخشاهم له، ومن لم يخش الله فليس بعالم. والمراد به العالم بعلوم الطبيعة والحياة وأسرار الكون. وسبب خشية العلماء من الله أن الله قوي في انتقامه من الكافرين، غفور لذنوب المؤمنين به التائبين إليه، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى، وهذا يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ وهذا كله يدركه بدقة وشمول العلماء المتخصصون.

قال ابن عباس: العالم بالرحمن: من لم يشرك به شيئاً، وأحلّ حلاله، وحرَّم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسب بعمله.

وقال الحسن البصري: العالم: من خشي الرحمن بالغيب، ورغِب فيما رغَّب الله فيه، وزَهِد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وقال سعيد بن جبير: الخشية: هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب.

ثم أخبر الله تعالى عن العلماء بكتاب الله العاملين به، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي إن الذين يواظبون على تلاوة القرآن الكريم ويعملون بما فيه من فرائض، كإقام الصلاة المفروضة في

أوقاتها، مع كمال أركانها وشرائطها والخشوع فيها، والإنفاق مما أعطاهم الله تعالى من فضله ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، هؤلاء يطلبون ثواباً من الله على طاعتهم، لا بدّ من حصوله، لذا قال:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ أي ليوفيهم الله ثواب ما عملوه، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، إنه غفور لذنوبهم، شكور لطاعتهم وللقليل من أعمالهم.

ونظير الآية قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/١٧٣] وقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٧-٣٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ً - من أدلة قدرة الله العظمى ووحدانيته واختياره: إنزال الماء من السماء، وإنبات النباتات، وإخراج الثمار المختلفة الأنواع والطعوم والروائح والألوان.

٢ً - ومن الأدلة أيضاً: إرساء الأرض بالجبال، وخلق طرق مختلفة الألوان فيما بينها تخالف لون الجبل، وإن كان الجميع حجراً أو تراباً.

٣ً - ومنها أيضاً خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان، ففيهم الأحمر والأبيض والأسود والأصفر وغير ذلك، وكل ذلك دليل على وجود صانع مختار، واحد لا شريك له.

٤ً - إن العلماء بطبيعة تركيب الكون ودقائقه، وبصفات الله وأفعاله، هم الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية،

ومن لم يخش الله فليس بعالم، كما قال الربيع بن أنس، والخشية بمعرفة قدر المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد؛ لأن الله بين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

٥ - آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾: هذه آية القراء العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه، الذين يقيمون صلاة الفرض والنفل، وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية، هؤلاء هم الذين يبتغون تحصيل الثواب من الله على طاعاتهم، ويزيدهم الله من فضله، والزيادة هي الشفاعة في الآخرة، إن الله عند إعطاء الأجور غفور للذنوب، وعند إعطاء الزيادة شكور يقبل القليل من العمل الخالص، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي ينفقون لا ليقال: إنه كريم، ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله تعالى.

تصديق القرآن لما تقدمه وأنواع ورثته وجزاء المؤمنين

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (يُدْخَلُونها).

﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾:

قرئ:

١- (ولؤلُؤاً) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (ولولؤٍ) وهي قراءة السوسي.

٣- (ولؤلؤٍ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿مُصَدِّقٗا﴾ حال مؤكدة؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: خبره، و﴿هُوَ﴾: ضمير فصل بين المبتدأ والخبر. و﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: صفة الخبر، ويصح القول: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أول، و﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثان، و﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إما مبتدأ، و﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ الخبر، أو بدل من قوله: ﴿ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو جنات. و﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ خبر ثان أو حال مقدرة.

﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، وهذا جمع سوار. و﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ معطوف على محل: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا﴾ ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ في موضع نصب صفة اسم «إن» في قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ ويصح جعله في موضع الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الذي، أو خبر بعد خبر، أو بدل من ضمير ﴿شَكُورٌ﴾

البلاغة:

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إطناب بتكرار الفعل، للمبالغة في انتفاء كل من النصَب واللغوب.

المفردات اللغوية:

﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، و﴿مِنَ﴾ للتبيين. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تقدمه من الكتب. ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ عالم بالبواطن والظواهر. ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أعطيناه وقضينا وقدرنا. ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ اخترناهم، وهم علماء الأمة الإسلامية من الصحابة ومن بعدهم. ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به، والظلم: تجاوز الحدود. ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ متوسط يعمل به أغلب الأوقات. ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يضم إلى العلم والتعليم، والإرشاد إلى العمل. و﴿سَابِقٌۢ﴾ متقدم إلى ثواب الله، و﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي بسبب عمل الخيرات والأعمال الصالحة. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادته وتوفيقه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ توريثهم الكتاب والاصطفاء، وقيل: السبق إلى الخيرات.

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة. ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة: وهي حلية تلبس في اليد. ﴿ٱلْحَزَنَ﴾ الخوف من مخاطر المستقبل. ﴿لَغَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعة.

﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي دار الإقامة الدائمة وهي الجنة. ﴿نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب أو كلال، ونفيهما جميعاً للدلالة على الاستقلال، ولعدم التكليف في الجنة.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٥):

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: أخرج البيهقي وابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: «قال رجل للنبي ﷺ: إن النوم مما يُقِرُّ الله به أعيننا في الدنيا، فهل في الجنة من نوم؟ قال: لا، إن النوم شريك الموت، وليس في الجنة موت، قال: فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ، وقال: ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة، فنزلت: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾» .

المناسبة:

بعد بيان الأصل الأول في العقيدة، وهو وجود الله الواحد، وإثباته بأنواع الأدلة، وهي: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾

ولما بيَّن الله تعالى في الآية السابقة ثواب تلاوة كتاب الله، أكد ذلك وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق، فتاليه محق ومستحق لهذا الثواب، وهو مصدق لما تقدمه من الكتب السابقة، ثم قسم ورثته ثلاثة أنواع، ثم أوضح جزاء العاملين به في الآخرة.

التفسير والبيان:

يبين الله تعالى مكانة القرآن ومهمته بين الكتب السماوية فقال:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ أي إن الذي أوحينا إليك به يا محمد وهو القرآن هو الحق الثابت الدائم، المصدق والموافق لما تقدمه من الكتب السماوية السابقة، إن الله محيط بجميع أمور عباده، يعلم أحوالها الباطنة والظاهرة،

يشرع لهم من الشرائع والأحكام المناسبة لكل زمان ومكان، وقد أنزله على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، لما اقتضت حكمته وعدله.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي ثم قضينا وقدرنا بتوريث هذا القرآن من اخترنا من عبادنا، وهم يا محمد علماء أمتك من الصحابة فمن بعدهم، التي هي خير الأمم بنص الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠] وجعلناهم أقساماً ثلاثة:

١ - الظالم لنفسه: بتجاوز الحد، وهو المفرِّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

٢ - المقتصد: المتوسط المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، لكنه قد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.

٣ - السابق بالخيرات بإذن الله: وهو الذي يفعل الواجبات والمستحبات، ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات. وهذا خير الثلاثة، الذي سبق غيره في أمور الدين.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي توريث الكتاب والاصطفاء فضل عظيم من الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى جزاء المؤمنين السابقين بغير حساب، والمقتصدين بحساب يسير، والعصاة إن رحمهم ربّهم، فقال:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي يدخل هؤلاء المصطفون جميعاً جنات الإقامة الدائمة يوم المعاد، التي يحلّون فيها أساور من ذهب مرصع باللؤلؤ، ويكون لباسهم حريراً خالصاً، وقد أباحه الله تعالى لهم في الآخرة، بعد أن كان محظوراً عليهم في

الدنيا. ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لَبِس الحرير في الدنيا، لم يَلْبَسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

وعلى هذا تكون الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أُخَي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من سلك طريقاً يطلب فيها علماً، سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به، أخذ بحظّ وافر».

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي وقالوا حين استقروا في مأواهم جنات عدن: الحمد والشكر والثناء على الله الذي أزال عنا الخوف من المحذور، وأراحنا من هموم الدنيا والآخرة، إن ربنا صاحب الفضل والرحمة والسعة، فهو غفور لذنوب عباده، شكور لطاعتهم.

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت، ولا في القبور، ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾».

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

ثم حمدوه أيضاً على نعمة البقاء والاستقرار في الجنة والراحة فيها، فقال:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام الذي لا تحول عنه من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح لدى مسلم وأبي داود عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» ولا نتعرض فيها لتعب ولا إعياء، لا في الأبدان ولا في الأرواح؛ إذ إنهم دأبوا على العبادة في الدنيا، فصاروا في راحة دائمة مستمرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - القرآن الكريم هو الحق الصدق الثابت الذي لا شك فيه، وهو الموافق والمصدق لأصول الكتب السماوية السابقة في صورتها الصحيحة قبل التحريف والتبديل؛ لأن الله أعلم بما يحقق الحكمة والمصلحة والعدل.

٢ - علماء الأمة الإسلامية من الصحابة فمن بعدهم ممن اختارهم الله ورثوا القرآن وضمنه كل كتاب منزل؛ لأن الله شرفهم على سائر العباد، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم.

٣ - قسم الله الأمة المسلمة بالنسبة إلى العمل بالقرآن ثلاثة أقسام: الظالم

لنفسه: أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة، والسابق إلى الأعمال الصالحة.

٤ - وعد الله المصطفين جميعاً أو السابقين إلى الخيرات جنات عدن يدخلونها، متمتعين فيها بحلي الذهب المرصع باللؤلؤ، مرتَدِين فيها الحرير الخالص. وهذا دليل سرورهم ومتعتهم.

٥ - يحمد اللهَ هؤلاء المؤمنون الذين جعل مأواهم جنات عدن ودار الإقامة، قائلين: الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن أي الخوف من محذور المستقبل، لا يصيبنا فيها عناء ولا إعياء ولا مشقة.

وهذا إخبار ببقائهم في الجنان ودوامهم فيها على الاستمرار.

جزاء الكافرين

وأحوالهم في النار وتهديدهم على كفرهم

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم
مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ
وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى
ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

القراءات:

﴿نَجْزِى كُلَّ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يُجْزى كلٌّ).

الإعراب:

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ : منصوب بأن مضمرة بعد النفي.

البلاغة:

﴿لَغَفُورٌ﴾ ﴿شَكُورٌ﴾ ﴿كَفُورٍ﴾ صيغ مبالغة، وتوافق فواصل.

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تهكم في صيغة أمر.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ إطناب لزيادة التشنيع والتقبيح على الكافرين وكفرهم.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ سجع عفوي فيه غاية الجمال.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ يستريحوا من العذاب ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبت زيد استعارها ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ مثل ذلك الجزاء، أو كما جزيناهم ﴿كَفُورٍ﴾ كثير الكفر.

﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون في النار بشدة وصوت عال، من الصراخ: وهو الصياح ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ بإضمار: يقولون: أخرجنا منها ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ تقييد العمل بالصالح للتحسر على ما عملوه من غير الصالح، والاعتراف به.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ جواب من الله وتوبيخ لهم، معناه نجعلكم تعمرون وقتاً

أو نمهلكم ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي أو لم نعمركم وقتاً كافياً للتذكر، من أراد أن يتذكر ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ الرسول، فما أجبتم ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿نَّصِيرٍ﴾ معين يدفع عنهم العذاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية، فلا يخفى عليه أحوالهم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في القلوب من العقائد والظنون، وهو تعليل لما سبق؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور - وهي أخفى ما يكون - كان علمه بغيرها أولى، بالنظر إلى حال الناس.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، يخلف بعضكم بعضاً وهو الذي يقوم بما كان يقوم به سلفه، والخلفاء: جمع خليف. ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ جزاء كفره ﴿مَقْتًا﴾ غضباً وبغضاً ﴿خَسَارًا﴾ خسارة للآخرة؛ لأنهم اشتروا بعمرهم رأس المال سخط الله تعالى.

المناسبة:

بعد بيان جزاء ورثة القرآن، ذكر جزاء الكفار؛ لأن المقارنة تبعث في النفس طمأنينة وارتياحاً، وليعرف المؤمنون أن فخار الكفار في الدنيا عليهم ينقلب حسرة في الآخرة، وأنه لا نصير للظالمين. ثم أردف ذلك ببيان إحاطة علم الله بالأشياء، لينفي وجود نصير للظالمين، ثم ذكر خلافتهم في الأرض ليقطع حجتهم بطلب العودة إلى الدنيا، وأعقبه بتهديد الكافرين على كفرهم، فإنه لا ينفع عند الله إلا المقت، ولا يفيدهم إلا الخسارة، فإن العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

التفسير والبيان:

بعد بيان حال السعداء شرع الله تعالى في بيان حال الأشقياء في الآخرة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أي والذين كفروا بالله وبالقرآن وستروا ما تدل عليه العقول من دلالات واضحة على الحق، لهم نار جهنم، لا يحكم عليهم بموت ثانٍ، فيستريحوا من العذاب والآلام، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب طرفة عين، بل كلما خبت زيد سعيرها، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٤-٧٥] وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧] وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٣٠].

وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها، ولا يحيون».

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل مبالغ في الكفر، فنزج به في قعر جهنم.

ثم وصف تعالى حالهم في العذاب بقوله:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي وهؤلاء الكفار يستغيثون في النار، رافعين أصواتهم، ينادون قائلين: ربنا أخرجنا منها، وارجعنا إلى الدنيا، نعمل عملاً صالحاً ترضى عنه، غير ما كنا نعمله من الشرك والمعاصي، فنجعل الإيمان بدل الكفر، والطاعة بدل المعصية.

فردَّ الله عليهم موبخاً:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي ألم نبقكم مدة من العمر،

تتمكنون فيه من التذكر إذا أردتم التذكر، أو أما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق، لانتفعتم به في مدة عمركم؟

ونظير الآية: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ، ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/١١-١٢] .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه» .

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر، وهو النبي ﷺ، ومعه القرآن، ينذركم بالعقاب إن عصيتم. وقيل: النذير: الشيب. وقال الرازي: أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول.

وبه يتبين أن الله تعالى احتج عليهم بالعمر والرسل؛ لقوله تعالى:

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٧٧-٧٨] وقوله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٦٧/٨-٩] .

﴿فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في الدنيا، فليس لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال، وهو تهكم بصيغة الأمر مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٩] .

ثم أخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع الأمور ومنها أحوالهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

﴿٣٨﴾ أي إن الله يعلم كل أمر خفي في السماوات والأرض، ومنها أعمال العباد، لا تخفى منها خافية، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٨] وذلك لأنه عليم بما تنطوي عليه الضمائر، وبما تكنّه السرائر، من المعتقدات والظنون وحديث النفس، وسيجازي كل عامل بعمله.

وفيه إشارة إلى أنه لو أعادهم إلى الدنيا لم يعدلوا عن الكفر أبداً. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لشمول علمه.

ثم ذكر سبباً آخر لعلمه بالغيب، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن الله هو الذي جعلكم يخلف قومٌ قوماً آخرين قبلهم، خلفاً بعد خلف، وجيلاً بعد جيل، لتنتفعوا بخيرات الأرض، وتشكروا الله بالتوحيد والطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢] .

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي فمن كفر منكم هذه النعمة، فعليه ضرر كفره، وجزاؤه عليه دون غيره.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى وغضب عليهم، وكلما أصروا على الكفر خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأصابهم النقص والهلاك.

وهذا التكرار دليل على أن الكفر يستوجب أمرين هما البغض والخسران.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - هذه أحوال النار ومقالتهم، يخلدون في نار جهنم، ولا يموتون فيها ولا يحيون: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ⑬﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٣] ، ولا يخفف عنهم شيء من عذابها، وهذا جزاء كل كافر بالله ورسوله ﷺ.

٢ً - إنهم يقولون في النار: ربنا أخرجنا من جهنم، وردنا إلى الدنيا، نعمل عملاً صالحاً غير عملنا الذي كنا نعمله، وهو الشرك، فنؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل.

٣ً - أجابهم الله تعالى بأنه أعطاهم مدة من العمر كافية، يتمكن فيه كل واحد من التذكر إذا أراد التذكر، وجاءتهم الرسل تنذرهم من عقاب الله إن أصروا على الكفر، فكان أمامهم فرصتان: مدة العمر، وإرسال الرسل.

٤ً - إن دار الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يقبل فيها تصحيح الإيمان، ولا تنفع فيها التوبة، فذلك كله محله دار الدنيا، لذا يقال للكفار: ذوقوا عذاب جهنم؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم، فما للظالمين من ناصر ولا مانع من عذاب الله تعالى.

٥ً - الله تعالى عالم بكل أمر خفي أو ظاهر في الدنيا والآخرة، ومطلع على أعمال العباد، وهو يعلم أنه لو ردَّ الكفار إلى الدنيا لم يعملوا صالحاً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٨] وهذا تقرير لدوامهم في العذاب.

وسبب سعة علمه الغيب: أنه عالم في الماضي والمستقبل بمضمرات الصدور، وأنه جعل الناس خلفاً بعد خلف، وقرناً بعد قرن، للانتفاع بكنوز الأرض، وشكر الله بالتوحيد والطاعة.

٦ً - من كفر فعليه جزاء كفره وهو العقاب والعذاب.

٧ً - إذا استمر الكفار على كفرهم لم يستفيدوا إلا أمرين: المقت، أي

البغض والغضب من الله تعالى، والخسارة، أي الهلاك والضلال. فهل من معتبر منهم في الدنيا قبل فوات الأوان؟

مناقشة المشركين في عبادة الأوثان وإنكار التوحيد

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

القراءات:

﴿بَيِّنَتٍ﴾: قرئ:

١- (بَيِّنت) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحفص، وحمزة، وخلف.

٢- (بينات) وهي قراءة الباقين.

ومن قرأ بالجمع وقف بالتاء.

وأما من قرأ بالإفراد، فقد وقف ابن كثير وأبو عمرو بالهاء. ووقف حفص، وحمزة، وخلف، بالتاء.

الإعراب:

﴿أَرُونِى﴾ بدل اشتمال من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ جملة سادّة مسد الجوابين: جواب القسم وجواب الشرط.

البلاغة:

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ.

﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ من صيغ المبالغة.

﴿غُرُورًا﴾ ﴿غَفُورًا﴾ توافق فواصل.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعبدون من غير الله، وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاء لله تعالى ﴿أَرُونِى﴾ أخبروني ﴿شِرْكٌ﴾ شركة مع الله ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي في خلقها ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق على أنا اتخذنا شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جَعْلية، أي لهم معي شركة ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ما يعد الكافرون. ولمّا تقرر نفي أنواع الحجج في ذلك، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغرير الأسلاف الأخلاف أو الرؤساء الأتباع ﴿غُرُورًا﴾ باطلاً.

﴿يُمْسِكُ﴾ يحفظ ﴿أَن تَزُولَا﴾ كراهة أن تضطرب وتنتقل من أماكنها، من الزوال، والمعنى: يمنعهما من الزوال ﴿وَلَئِن﴾ اللام لام القسم ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد الله، أي سواه، أو من بعد الزوال، ومن الأولى: زائدة، والثانية: للابتداء والمعنى الأصح: لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما لو فرض زوالهما ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ في تأخير عقاب الكفار، وفي إمساكه السماوات والأرض.

المناسبة:

بعد بيان جزاء المؤمنين والكافرين وتهديد كل من كفر بالله، ذكر تعالى ما يدعو للتوحيد ويبطل الإشراك، مناقشاً المشركين في أبسط مقومات عبادة الإله: وهو الخلق والإبداع، وأن هذه الآلهة المزعومة عاجزة عن ذلك.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قل أيها النبي للمشركين: أخبروني عن الشركاء الذين تعبدونهم من دون الله وتتخذونهم آلهة من الأصنام والأوثان، هل خلقوا شيئاً من الأرض، حتى يستحقوا الألوهية؟

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهل لهم شركة مع الله في خلق السماوات أو في ملكها أو في التصرف فيها، حتى يستحقوا بذلك الشركة في الألوهية؟

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؟ أي وهل أنزلنا عليهم كتاباً يقرر ما يقولونه من الشرك والكفر، يكون لهم حجة فيما يدعون؟

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي كلها غرور وباطل وزور، كما يعد الرؤساء والقادة أتباعهم بمواعيد يغرونهم بها، وهي أباطيل تغر ولا حقيقة لها، وذلك قولهم: إن هذه الآلهة تنفعهم وتقرّبهم إلى الله، وتشفع لهم عنده.

وبعد بيان ضعف الأصنام وعجزها عن أي شيء، أبان تعالى ما يؤهله للعبادة، ويجعله أهلاً للعظمة، فقال مبيناً قدرته وبديع صنعه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي إن الله يمنع زوال السماوات والأرض واضطرابها، وانتقالها من أماكنها، وهذا يشير إلى نظام الجاذبية، وأن الأرض كرة تسبح في الفضاء، كغيرها من الشمس والقمر والكواكب الأخرى السيارة التي تجري في مدارات خاصة بها، كما قال عز وجل: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٥] .

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي لو قدّر إشرافهما على الزوال، لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما، ولا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، يمهل عقاب المشركين، ويغفر لمن تاب منهم ما أجرم في الماضي، فهو يحلُم فيؤخّر ويؤجِّل، ولا يعجِّل، ويستر آخرين ويغفر، ويظل ممسكاً السماوات والأرض، بالرغم من أنه يرى عباده، وهم يكفرون به ويعصونه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - يتحدى الله تعالى المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد، ويطالبهم أن يخبروا عن شركائهم الذين يعبدونهم من دون الله، أعبدوهم؛ لأن لهم شركة في خلق السماوات والأرض، أم خلقوا من الأرض شيئاً؟ أم عندهم كتاب أنزله إليهم بالشركة؟

وقوله ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾: إنما أضاف الشركاء إليهم، لأن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ أي الشركاء بجعلكم. ويحتمل أن يقال: شركاءكم في النار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨] قال الرازي: وهو قريب، ويحتمل أن يقال: هو بعيد، لاتفاق المفسرين على الأول.

٢ً - الحقيقة أنه لا جواب يقنع من المشركين، وإنما هم يتبعون أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي باطل وزور، وما مواعيدهم لبعضهم بعضاً إلا أباطيل تغرّ، حين قال السادة للأتباع: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقرّبكم.

٣ً - الدليل على عظمة الله وقدرته بعد ثبوت ضعف الأصنام وعجزها: هو

أن الله خالق السماوات والأرض وممسكهما، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه، ولو زالتا فَرَضاً واضطربتا ما أمسكهما من أحد غير الله جلّ جلاله.

٤ - من صفات الله العليا: الحلم، فلا يعجل العقوبة للكفار والعصاة، والمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، ثم اهتدى إلى طريق الحق على الدوام، وهو تعالى يحافظ على هذا النظام البديع للكون، بالرغم من كفر الكافرين.

إنكار المشركين الرسالة النبوية وتهديدهم بالإهلاك

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿سُنَّتَ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي. ووقف الباقون بالتاء.

﴿يُؤَاخِذُ﴾، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (يواخذ، يوخرهم).

الإعراب:

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ مفعول لأجله، و﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ منصوب على المصدر، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

البلاغة:

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ في ﴿ظَهْرِهَا﴾ استعارة مكنية، شبَّه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الظهر، بطريق الاستعارة المكنية.

﴿عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ حلف المشركون ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ طاقتها وغاية اجتهادهم فيها ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول منذر ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ اليهود أو النصارى، لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضاً؛ إذ قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ محمد ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق والهدى.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنهم ما كذبوا برسالة محمد ﷺ لاعتقاد كذبه، إنما فعلوا ذلك لأجل الاستكبار عن أن يكونوا أتباعاً له، ولأجل العتو: وهو التجبر والمضي في الفساد ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي ومكر العمل السيئ من الشرك وكيد رسول الله ﷺ، والمكر: هو الحيلة والخداع والعمل القبيح ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ لا يصيب ولا ينزل ولا يحيط ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكر ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾

ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ طريقة المتقدمين من تعذيب المكذبين رسلهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي لا يبدل بالعذاب غيره، ولا يحول إلى غير مستحقه، وبعبارة أخرى: التبديل: وضع الرحمة موضع العذاب، والتحويل: نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم.

﴿عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مصير وآثار الماضين من قبلهم أثناء سَيرهم إلى الشام واليمن والعراق، كعاد وثمود ومدين وأمثالهم، نزل بهم العذاب، لما كذبوا الرسل، فتلك سنة الله في المكذبين التي لا تبدَّل ولا تحوَّل ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً، وأقوى أبداناً، من أهل مكة، فأهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم. والواو: واو الحال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ يسبقه ويفوته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها لا يخفى عليه شيء ﴿قَدِيرًا﴾ لا يصعب عليه أمر.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ عملوا من الذنوب أو المعاصي أو الخطايا ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض من الأحياء ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من الدواب التي تدبّ، والدابة: كل ما يدبّ على الأرض ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم، بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٢):

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه: أن قريشاً كانت تقول: لو أن الله بعث منا نبياً، ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبيها، ولا أشد تمسكاً بكتابها منا، فأنزل الله: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٦٧-١٦٨] ﴿لَوْ أَنَّآ

أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٧] ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ﴾ وكانت اليهود تستفتح على النصارى به، فيقولون: إنا نجد نبياً يخرج.

المناسبة:

بعد بيان إنكار المشركين للتوحيد، وتوبيخهم وتقريعهم على سخف عقولهم، ذكر الله تعالى تكذيبهم للرسول ﷺ، بعد ترقبهم له، ثم هددهم بالهلاك كمن قبلهم من الأمم الغابرة الذين كذبوا رسلهم، وأردفه بتذكيرهم بما يشاهدونه في رحلاتهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار تدمير منازل المكذبين بالرغم من كمال القوة، وكثرة المال والولد، وختم السورة ببيان مدى حلمه على الناس، وأنه لو أراد مؤاخذتهم لأفناهم، ولكنه أخّر عقابهم إلى يوم القيامة، وحينها يعاقبهم على أعمالهم.

التفسير والبيان:

هذا نبأ عجيب غريب عن قريش والعرب لا علم لنا به من غير القرآن، قال تعالى:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ﴾ أقسمت قريش والعرب بالله أغلظ الأيمان قبل إرسال الرسول إليهم: لئن جاءهم من الله رسول منذر ليكونن أمثل من أي أمة من الأمم أو من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل في الطاعة، وأشدهم تمسكاً بالرسالة وقبولاً لها.

وذلك كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٥٦-١٥٧].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي فلما أتاهم ما تمنوه، وهو رسول الله ﷺ بما أنزل عليه من القرآن العظيم، ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم وتباعداً عن الإيمان وإجابة النبي ﷺ، مستكبرين عن اتباع آيات الله، ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله تعالى.

وبه تبين ألا عهد لهم، ولا صدق في كلامهم، ولا وفاء بما يقولون، فتحملوا إثم فعلهم كما قال تعالى:

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، وعادت عليهم عاقبة مكرهم بالإثم والوزر، ونزلت عاقبة السوء بمن أساء، قبل المساء إليه، كما قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٢٧] ومكر السيئ: أي مكر العمل السيئ، والمكر: هو الحيلة والخداع والعمل القبيح، وهو هنا الكفر وخداع الضعفاء، وصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم.

ثم هددهم بجزاء أمثالهم، فقال:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فهل ينتظرون إلا عقوبة لهم على تكذيبهم الرسول ﷺ ومخالفة أوامره مثل عقوبة الله للأمم الماضية المكذبين.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي تلك سنة الله وطريقته. التي لا تتغير ولا تتبدل في كل مكذب، فلن توضع الرحمة موضع العذاب، ولن يحوّل العذاب من مكذب إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١٣/١١].

ثم لفت أنظارهم إلى آثار تدمير الماضين المكذبين فقال:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي أو لم ينتقلوا في الأراضي في رحلاتهم إلى الشام واليمن والعراق، فيشاهدوا مصير السابقين الذين كذبوا الرسل، كيف دمّر الله عليهم، وللكافرين أمثالهم، بالرغم من أنهم كانوا أشد قوة من قريش وأكثر عَدَداً وعُدَداً، وأموالاً وأولاداً، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك، لأنه كما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي لأن الله لا يعجزه ولا يفوته أو يسبقه شيء إذا أراد حدوثه في السماوات والأرض، فلن يعجزه هؤلاء المشركون المكذبون لرسوله ﷺ، ولن يفلتوا من عقابه؛ لأن الله تعالى عليم بجميع الكائنات لا يخفى عليه شيء، قدير لا يصعب عليه أمر، فهو يعلم المستحق للعقوبة، قادر على الانتقام منه في أي وقت أو مكان شاء.

ثم أبان الله تعالى سياسته العقابية، وأخبر عن سابغ وواسع رحمته بالناس، فقال:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي لو عجل تعالى العقاب وآخذ الناس بجميع ذنوبهم، لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، لشؤم معاصيهم. والمراد بالدابة كما قال ابن مسعود: جميع الحيوان مما دبّ ودرج.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي ولكن يؤجل عقابهم ومؤاخذتهم بذنوبهم إلى وقت محدد وهو يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، والله بصير بمن يستحق منهم الثواب، ومن يستحق منهم العقاب، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

ونظير الآية: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨/١٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - أقسمت قريش قبل بعثة الرسول ﷺ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم أنه إن جاءهم نبي ليكونن أهدى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب. وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل.

فلما جاءهم ما تمنَّوه وهو الرسول النذير، من أنفسهم، نفروا عنه، ولم يؤمنوا به تكبراً وعتواً عن الإيمان، ومكراً منهم بصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم.

٢ً - لكن تنكر المشركين للعهد بالله، وإخلالهم بالوفاء باليمين، وعاقبة شركهم: لا ترتد آثاره إلا عليهم أنفسهم. وهذا ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾. وفي أمثال العرب: «منْ حفَر لأخيه جُبّاً، وَقَع فيه مُنْكَبّاً» وروى الزهري أن النبي ﷺ قال: «لا تَمْكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾» . وفي الحديث الذي أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن قيس بن سعد: «المكر والخديعة في النار» أي تدخل أصحابها في النار؛ لأنها من أخلاق الكفار، لا من أخلاق المؤمنين الأخيار، قال ﷺ: «وليس من أخلاق المؤمن: المكر والخديعة والخيانة» .

٣ً - ما موقف المشركين المعاند من نبي الله إلا كموقف من ينتظر العذاب

الذي نزل بالكفار الأولين، وقد أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل ذلك سنة أي طريقة فيهم، فهو يعذب المستحق، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره. والإهلاك ليس سنة الأولين وإنما هو سنة الله بالأولين.

٤ً - تأكيداً لهذا الموقف نبّههم الله تعالى إلى الأمثلة الواقعية من تاريخ الأمم الغابرة، وهم الذين يشاهدون آثار تدمير مساكنهم ودورهم أثناء تجاراتهم ورحلاتهم إلى بلاد اليمن والشام والعراق، مثل إهلاك قوم عاد وثمود ومدين وغيرهم، لما كذبوا رسل الله، وكانوا أشد من أهل مكة قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وإذا أراد الله إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك.

٥ً - اقتضت رحمة الله تبارك وتعالى ألا يعجل العذاب للعصاة والكفار على ذنوبهم، وإنما يؤخرهم ويمهلهم إلى يوم معين كي تكون لديهم فرصة، فيتداركوا تقصيرهم، ويعدلوا عن ظلمهم، وكان مقتضى العدل تعجيل العقوبة، وإذا فعل الله ذلك، أهلك جميع المخلوقات إلا من يشاء، والله سبحانه عليم بمن يستحق العقاب منهم.

وهذا ردّ بليغ على المشركين الذين كانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم وعتوهم يستعجلون بالعذاب، ويقولون لرسول الله ﷺ: عجل لنا عذابنا، فقال الله: للعذاب أجل.

وقد حكى القرآن الكريم استعجال المشركين بالعقاب استهزاء، حيث قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

مكية، وهي ثلاث وثمانون آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ لافتتاحها بهذه الأحرف الهجائية، التي قيل فيها إنها نداء معناه (يا إنسان) بلغة طي لأن تصغير إنسان: أنيسين، فكأنه حذف الصدر منه، وأخذ العجز، وقال: ﴿يسٓ ۝١﴾ أي أنيسين. وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب لمحمد ﷺ، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - بعد أن ذكر تعالى في سورة فاطر قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [٣٧] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [٤٢] والمراد به محمد ﷺ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه، افتتح هذه السورة بالقَسَم على صحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم، وأنه أُرسل لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم.

٢ - هناك تشابه بين السورتين في إيراد بعض أدلة القدرة الإلهية الكونية،

فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [١٣] وقال في سورة يس: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [٣٧-٣٩].

٣ً - وقال سبحانه في فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [١٢] وقال في يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [٤١].

مشتملاتها:

تضمنت هذه السورة كسائر السور المكية المفتتحة بأحرف هجائية الكلام عن أصول العقيدة من تعظيم القرآن الكريم، وبيان قدرة الله ووحدانيته، وتحديد مهام النبي ﷺ بالبشارة والإنذار، وإثبات البعث بأدلة حسية مشاهدة من الْخَلْق المبتدأ والإبداع الذي لم يسبق له مثيل.

وقد بدئت السورة بالقسم الإلهي بالقرآن الحكيم على أن محمداً رسول حقاً من رب العالمين لينذر قومه العرب وغيرهم من الأمم، فانقسم الناس من رسالته فريقين: فريق معاند لا أمل في إيمانه، وفريق يرجى له الخير والهدى، وأعمال كل من الفريقين محفوظة، وآثارهم مدونة معلومة في العلم الأزلي القديم.

ثم ضرب المثل لهم بأهل قرية كذبوا رسلهم واحداً بعد الآخر، وكذبوا الناصح لهم وقتلوه، فدخل الجنة، ودخلوا هم النار. وأعقب ذلك تذكيرهم بتدمير الأمم المكذبة الغابرة.

وانتقل البيان إلى إثبات البعث والقدرة والوحدانية بإحياء الأرض الميتة، وبيان قدرة الله الباهرة في الكون من تعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب السيارة والثابتة، وتسيير السفن في البحار.

وإزاء ذلك هزم الجاحدون، وأنذروا بالعقاب السريع، وفوجئوا بنقمة الله في تصوير أهوال القيامة، وبعثهم من القبور بنفخة البعث والنشور، فأعلنوا ندمهم، وصرحوا بأن البعث حق، ولكن لم يجدوا أمامهم إلا نار جهنم، وكانوا قد وبخوا على اتباع وساوس الشيطان، وأُعلموا أن الله قادر على مسخهم في الدنيا.

وأما المؤمنون فيتمتعون بنعيم الجنان، ويحسون بأنهم في أمن وسلام من رب رحيم.

ثم نفى الله تعالى كون رسوله شاعراً، وأعلم الكافرين أنه منذر بالقرآن المبين أحياء القلوب، وذكّر الناس قاطبة بضرورة شكر المنعم على ما أنعم عليهم من تذليل الأنعام، والانتفاع بها في الطعام والشراب واللباس.

وندد الله تعالى باتخاذ المشركين آلهة من الأصنام أملاً في نصرتها لهم يوم القيامة، مع أنها عاجزة عن أي نفع، وهم مع ذلك جنودها الطائعون.

وختمت السورة بالرد القاطع على منكري البعث بما يشاهدونه من ابتداء الخلق، وتدرج الإنسان في أطوار النمو، وإنبات الشجر الأخضر ثم جعله يابساً، وخلق السماوات والأرض، وإعلان القرار النهائي الحتمي الناجم عن كل ذلك، وهو قدرة الله الباهرة على إيجاد الأشياء بأسرع مما يتصور الإنسان، وأنه الخالق المالك لكل شيء في السماوات والأرض.

والخلاصة: إن السورة كلها إيقاظ شديد للمشاعر والوجدان، وتحريك قوي للأحاسيس، وفتح نفّاذ للقلوب، لكي تبادر إلى الإقرار بالخالق وتوحيده، والإيمان بالبعث والجزاء. قال النبي ﷺ في كتاب أبي داود عن معقل ابن يسار: «اقرؤوا يس على موتاكم» .

القرآن والرسول والمرسل إليهم

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ
حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ
كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ﴾:

أدغم النون من (يس) في واو (والقرآن): ورش، وابن عامر، والكسائي، وخلف. وأظهرها الباقون.

﴿صِرَٰطٍ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

﴿تَنزِيلَ﴾:

قرئ:

١- (تنزيلَ) وهي قراءة ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تنزيلُ) وهي قراءة الباقين.

﴿سَدًّا﴾:

قرئ:

١- (سَدًّا) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (سُدًّا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ إما بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي هذه يس، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث، وقرئ بالنصب على معنى: اتل يس، وإما بالفتح كأين وكيف، وقرئ بالكسر مثل: جيرِ لإسكان الياء وكسر ما قبلها. ومنهم من أظهر النون، ومنهم من أدغمها في الواو، فمن أظهرها فلأن حروف الهجاء من حقها أن يوقف عليها، كالعدد، ولذلك لم تعرب، ومن أدغمها أجراها مجرى المتصل، والإظهار أقيس.

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في موضع رفع خبر (إن) و﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إما في موضع رفع خبر بعد خبر (إن) وإما في موضع نصب متعلق بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ منصوب على المصدر، مصدر (نزَّل) وهو مضاف إلى الفاعل، ويقرأ بالرفع على تقدير مبتدأ محذوف، تقديره: هو تنزيل، ويقرأ أيضاً بالجر على البدل من القرآن.

﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ﴿مَّآ﴾: إما نافية، وإما مصدرية في موضع نصب، تقديره: لتنذر قوماً إنذاراً مثل إنذارنا آباءهم، ممن كانوا في زمان إبراهيم وإسماعيل.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ هي السنن التي سنّوها، فيه محذوف تقديره: سنكتب ذكر ما قدموا وذكر آثارهم، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ ﴿وَكُلَّ﴾ منصوب بفعل مقدر دلَّ عليه ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي أحصينا كل شيء أحصيناه.

البلاغة:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ في كل منهما تأكيد بأكثر من مؤكد وهو (إن) واللام؛ لأن المخاطب منكر، وهذا التأكيد يسمى إنكارياً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ استعارة تمثيلية، شبه حال الكفار في امتناعهم عن الإيمان بمن غُلَّت يده إلى عنقه بالقيود، فصار مرفوع الرأس خافض البصر، لا يستطيع فعل شيء ولا الالتفات إلى غيره. وكذلك شبه حالهم بمن وجد بين سدّين لا يستطيع النفاذ والاهتداء لطريقه.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بينهما طباق.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿نَحْنُ نُحْيِ﴾ جناس ناقص لتغير الحروف.

المفردات اللغوية:

﴿يسٓ ۝١﴾ تقرأ: ياسين بمد الياء، وإظهار النون الساكنة، أو بإدغام نون السين في الواو التي بعدها، إلخ ما ذكر في الحاشية، والمراد من هذه الحروف المقطعة الهجائية كما سبق بيانه التنبيه، مثل ألا ويا، والإشارة إلى العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف تتركب منها لغتهم وكلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ حجة عليهم .﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ الواو: واو القسم، يقسم الله تعالى لمحمد ﷺ بالقرآن المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني، أو بذي الحكمة، على أن محمداً رسول من عند الله، لئلا يشك أحد في كونه مرسلاً .﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ أي الأنبياء المرسلين إلى

قومهم وغيرهم، والتأكيد بالقسم واللام للرد على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم: لست مرسلاً. ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي الطريق القويم الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج، بل هو الموصل إلى المطلوب، في العقيدة والشريعة، في التوحيد والاستقامة في الأمور.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ أي إن القرآن تنزيل منزل من العزيز الغالب في ملكه، الرحيم بخلقه. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ اللام متعلق بـ ﴿تَنزِيلَ﴾، والمعنى أرسلناك بهذا التنزيل لتنذر قوماً لم يُنْذَر آباؤهم الأقربون، في زمن الفترة، أو لتطاول مدة الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام. ﴿غَٰفِلُونَ﴾ أي إن القوم العرب غافلون عن الإيمان والرشد، وعن الشرائع والأحكام. ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ وجب الحكم بالعذاب على أكثر أهل مكة: وهم من مات على الكفر وأصرّ عليه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون بالقرآن.

﴿أَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ: وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب. ﴿فَهِىَ﴾ الأيدي مجموعة. ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن: وهي مجتمع اللَّحْيين. ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، غاضون أبصارهم في عدم التفاتهم إلى الحق. وهذا تمثيل، يراد به أنهم لا يذعنون للإيمان ولا يخفضون نفوسهم له. ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم، والمراد: منعناهم عن الإيمان بموانع هي استكبارهم وعتوهم وعنادهم عن قبول الحق والخضوع له. ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ غطينا أبصارهم. ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار سبيل الهدى، إنهم عموا عن البعث، وعن قبول الشرائع الإلهية. وهذا تمثيل أيضاً لسد طريق الإيمان عليهم؛ لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه. والعلم: مجرد معرفة مسبقة لا يمنع الإنسان عقلاً وواقعاً من الإيمان؛ لأنه غير معروف له.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾ أي إنذارك إياهم وعدمه سواء، فلا ينفعهم الإنذار، بسبب العتو والاستكبار. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ينفع إنذارك. ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي اتبع القرآن، وخاف عقاب الله في السر والعلن، وإن لم يره، والغيب: أي قبل معاينة أهواله. ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ هو الجنة.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ نبعثهم بعد الموت. ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ أي نكتب في اللوح المحفوظ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ أي ما أبقوه بعدهم من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت، كالعلم والكتاب والمسجد والمشفى والمدرسة، أو من السيئات كنشر البدع والمظالم والأضرار والضلالات بين الناس. ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي كل شيء من أعمال العباد وغيرها ضبطناه في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾: أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة، فيجهر بالقراءة حتى يتأذى به ناس من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا بهم عُمْي لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم. فنزلت: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ إلى قوله: ﴿أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

نزول الآية (٨):

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال:

قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً لأفعلن، فأنزل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصر.

نزول الآية (١٢):

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: أخرج الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة، فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فقال النبي ﷺ: «إن آثاركم تُكْتبُ، فلا تنتقلوا». وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله.

وأخرج عبد الرزاق عن أبي سعيد قال: شكت بنو سَلِمة إلى رسول الله ﷺ بُعْدَ منازلهم من المسجد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فقال النبي ﷺ: «عليكم منازلَكم فإنما تكتب آثارُكم».

التفسير والبيان:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي أُقسم بالقرآن ذي الحكمة البالغة، المحكم بنظمه ومعناه بأنك يا محمد لرسول من عند الله على منهج سليم، ودين قويم، وشرع مستقيم لا عوج فيه.

وفي هذا إشارة إلى أن القرآن هو المعجزة الباقية، وأن محمداً رسول الله ﷺ، صادق في نبوته، ومرسل برسالة دائمة من عند ربه.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ أي هذا القرآن والدين والصراط الذي جئت به تنزيل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٤٢/٥٢-٥٣].

وهذا دليل واضح على مكانة القرآن وأنه أجل نعمة من نعم الرحمن.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ أي أرسلناك أيها النبي لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول نذير من قبلك، ولم يأت آباءهم الأقربين من ينذرهم ويعرّفهم شرائع الله تعالى، فهم غافلون عن معرفة الحق والنور والشرائع التي تسعد البشر في الدارين.

لكنَّ ذكرهم وحدهم هنا للعناية بهم وتوجيه الخطاب لهم: لا ينفي كونه مرسلاً إلى الناس كافة، بدليل الآيات والأحاديث المتواترة المعروفة في عموم بعثته ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨/٧] وقوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان والنسائي عن جابر: «وكان النبي يُبْعَث إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناس عامةً» .

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ أي لقد وجب العذاب على أكثر أهل مكة، وهو ما سُجِّل عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبمحمد ﷺ، وهم الذين علم الله أنهم يموتون على الكفر، ويصرون عليه طوال حياتهم.

والمراد بالقول: الحكم والقضاء الأزلي، وهو سبق علم الله بنهاياتهم، لا بطريق الجبر والإلجاء، بل باختيارهم وإصرارهم على الكفر، وفي هذا تطمين للنبي ﷺ حتى لا يجزع ولا يأسف على عدم إيمانهم به.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لتصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى إيمانهم، فقال:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ أي إنا جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالقيود، تمنعهم من فعل شيء، فصاروا مرفوعي الرؤوس خافضي الأبصار. وهذا يعني أن الله جعلهم كالمغلولين

المقمحين (الرافعي رؤوسهم الغاضي أبصارهم) في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يوجهون أنظارهم نحوه، وهم أيضاً كالقائمين بين سدين، لا يبصرون أمامهم ولا خلفهم، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله، كما قال:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ أي تأكيداً لما سبق في تصوير حالتهم أنهم بتعاليهم عن النظر في آيات الله جعلوا كمن أحاط به سدان من الأمام والخلف، فمنعاه من النظر، فهو لا يبصر شيئاً، وهؤلاء لا ينتفعون بخير، ولا يهتدون إليه؛ لأنا غطينا أبصارهم عن الحق.

وهذا مثل صائب لأهل الجهالة والتخلف والبدائية الذين حجبوا مداركهم وأبصارهم عن التأمل في معطيات المدنية والتقدم والحضارة، وهو تمثيل رائع للسد الإلهي المعنوي بالسد الحاجز المادي الحسي.

ونتيجة لما سبق:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي إن إنذارك لهؤلاء المصرين على كفرهم وعدمه سواء، فلا ينفعهم الإنذار، ما داموا غير مستعدين لقبول الحق، والخضوع لنداء الله، والنظر في الدلائل الدالة على صدق رسالة النبي ﷺ، والتأمل في عجائب الكون المشاهدة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته.

أما نفع الإنذار، فهو كما ذكر تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ أي إنما ينفع إنذارك الذين آمنوا بالقرآن العظيم واتبعوا أحكامه وشرائعه، وخافوا عقاب الله قبل حدوثه ومعاينة أهواله، أو خشوا الله قبل رؤيته، فهؤلاء بشرهم بمغفرة لذنوبهم، ورضوان من الله، وأجر كريم

ونعيم مقيم هو الجنة. ونظير الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/١٢] .

ثم أكد الله تعالى حصول الجزاء للمؤمنين وغيرهم، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي إننا قادرون فعلاً على إحياء الموتى، وبعثهم أحياء من قبورهم، ونحن الذين نُدوّن لهم كل ما قدموه وأسلفوه من عمل صالح أو سيئ، وتركوا من أثر طيب أو خبيث، أي نكتب ونسجل أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها وخلفوها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن عمل على نشر الفضيلة جوزي بها، ومن عمد إلى نشر الرذيلة والسوء في الملاهي أو الكتب الخليعة يحاسب عليها.

وهذا كقوله ﷺ - فيما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البَجَلي-: «من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، كان له أجرها وأجر من عَمِل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» .

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم يُنْتَفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له، أو صدقةٍ جارية من بعده» .

ثم ذكر تعالى أن كتابة الآثار لا تقتصر على الناس، وإنما تتناول جميع الأشياء، فقال:

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي لقد ضبطنا وأحصينا كل شيء من أعمال العباد وغيرهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي سُجِّل فيه جميع ما يتعلق بالكائنات، كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى

وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٢٠/٥٢] وقال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٤/٥٢-٥٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة، وهو تنزيل من رب العالمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢ً - الرسول محمد ﷺ رسول من عند الله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام.

٣ً - رسالة النبي ﷺ إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة، فلم يبق بعدها عذر لمعتذر.

٤ً - إن رؤوس الكفر والطغيان والعناد من أهل مكة أو العرب استحقوا الخلود في نار جهنم والعذاب الدائم فيها؛ لأنهم أصروا على الكفر، وأعرضوا عن النظر في آيات الله، والتأمل في مشاهد الكون، وقد علم الله في علمه الأزلي بقاءهم على الكفر، لكنه أمر نبيه بدعوتهم إلى دينه؛ لأنهم لا يعلمون سابق علم الله فيهم، ولتعليمنا المنهج في دعوة الناس قاطبة إلى الإيمان بالله والقرآن ورسالة النبي ﷺ والبعث والحساب والجزاء.

٥ً - لا أمل بعد هذا في إنذارهم ولا نفع فيه بعد أن سدوا على أنفسهم منافذ الهداية ومدارك المعرفة، ولم تتفتح بصائرهم لرؤية الحق والنور الإلهي.

٦ً - إنما نفع الإنذار لمن استعد للنظر في منهج الحق، ثم آمن بالقرآن كتاباً من عند الله، وخشي عذاب الله وناره قبل المعاينة والحدوث، فهذا وأمثاله يغفر الله له ذنبه، ويدخله الجنة.

٧ً - البعث حق والإيمان به واجب، والله قادر عليه، وسيكون مستند الجزاء ما كتب من أعمال العباد، وما تركوه من آثار صالحة أو سيئة، كما أن الله أحصى كل شيء وضبطه من أمور الكائنات، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد دلَّ سبب نزول الآية على أن حسنات البعيدين عن المسجد مثل حسنات القريبين منه، وأنه إن تعذر عليهم الاقتراب من المسجد أو شقَّ عليهم، فلا يلزم القرب منه.

أنطاكية - قصة أصحاب القرية

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ
لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ
تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ
بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ
ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ
لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ
﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (ومالِيْ لا أعبد).

﴿إِنِّيٓ إِذًا﴾ :

وقرأ نافع، أبو عمرو (إنيَ إذاً).

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ﴾ :

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير (إنيَ آمنت).

الإعراب:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ﴿أَصْحَٰبَ﴾ : منصوب إما على البدل من قوله: ﴿مَّثَلًا﴾ أي واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، فالمثل الثاني بدل من الأول، وحذف المضاف، وإما لأنه مفعول ثانٍ لـ ﴿وَٱضْرِبْ﴾. و﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ : بدل اشتمال من أصحاب القرية.

و ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ بدل من إذ الأولى. و﴿إِذْ جَآءَهَا﴾: ظرف لقوله ﴿جَآءَهَا﴾.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ جواب الشرط محذوف، تقديره: أئن ذكرتم، تلقيتم التذكير والإنذار بالكفر والإنكار. و﴿أَئِن﴾ : همزة استفهام دخلت على إن الشرطية.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ : أكثر القراء فتحوا الياء من ﴿لِيَ﴾ إشعاراً بفتح الابتداء بـ ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ ليبتعدوا عن صورة الوقف على الياء؛ لأنهم لو سكنوا لكانت صورة السكون مثل صورة الوقف. أما في قوله: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٠] فالياء ساكنة.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ ما: إما بمعنى الذي، و﴿غَفَرَ لِي﴾ : صلته، والعائد

محذوف تقديره: الذي غفره لي ربي، وحذف تخفيفاً، وإما مصدرية، أي بغفران ربي لي، وإما استفهامية، وفيه معنى التعجب من مغفرة الله، تحقيراً لعمله وتعظيماً لمغفرة ربه، لكن في هذا الوجه ضعف؛ لأنه لو كانت استفهامية لزم حذف الألف منها، فتصير (بِمَ).

البلاغة:

﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ إطناب بتكرار الفعل.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهام للتوبيخ.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ مجاز بالحذف، أي لما أعلن إيمانه قتلوه، فقيل له: ادخل الجنة.

﴿أَرْسَلْنَآ﴾ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾ فيهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ أي: ومثّل لهم مثلاً، والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، والمثل الثاني بيان للأول. والمثل: الصفة والحال الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة. ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قال القرطبي: هذه القرية: هي أنطاكية في قول جميع المفسرين. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هم أصحاب عيسى، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدعوة إلى الله. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ في الرسالة. ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ قوّينا وأيدنا بثالث، وقرئ: فعَزَزْنا بالتخفيف: أي غلبنا وقهرنا.

﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي مشاركون لنا في البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ مما تدّعونه أنتم، ويدّعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا

كاذبون في ادعاء ما تدّعون من ذلك. ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ جارٍ مجرى القسم، وقد أكدوا الجواب بالقسم وباللام، رداً على زيادة إنكارهم.

﴿ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي التبليغ الواضح للرسالة بالأدلة الواضحة وهي معجزات عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص والمريض وإحياء الميت، وليس علينا غير ذلك. ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا بكم، وذلك لاستغرابهم ما ادّعوه، واستقباحهم له ونفورهم عنه. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾ تتركوا هذه الدعوة، وتعرضوا عن هذه المقالة، واللام لام القسم. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم، شديد.

﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي سبب شؤمكم معكم، وهو الكفر والتكذيب، فهو سبب الشؤم لا نحن. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: أئن وعظناكم وخوفناكم وذكرناكم بالله، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم، والمراد بالاستفهام: التوبيخ. ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحد في الشرك ومخالفة الحق.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب بن موسى النجار، كان قد آمن بالرسل أصحاب عيسى، ومنزله بأقصى البلد أي أبعد مواضعها، قال قتادة: «كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى» أي يشتد عدواً لما سمع بتكذيب القوم للرسل. ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ المعنى: أيُّ مانع يمنعني من عبادة الذي خلقني، وكذلك أنتم، ما لكم لا تعبدون الله الذي خلقكم؟! ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت، فيجازيكم بكفركم.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لن أتخذ من غير الله آلهة هي الأصنام، فأعبدها وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني. ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا تفيدني شيئاً من النفع، كائناً ما كان. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ لا يخلصوني من الضر الذي أرادني الرحمن به. ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي: إذا اتخذت من دونه آلهة. ﴿لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح، وهذا تعريض

بهم. ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ آمنت بالذي خلقكم، فاسمعوا إيماني، فرجموه فمات. وهذا تصريح بعد التعريض تشدداً في الحق.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ قيل له عند موته: ادخل الجنة، تكريماً له بدخولها بعد قتله، كما هي سنة الله في الشهداء. ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ تمنى أن يعلموا بحاله، ليعلموا حسن مآله، وحميد عاقبته، فيؤمنوا مثل إيمانه.

المناسبة:

بعد بيان حال مشركي العرب الذين أصروا على الكفر، ضرب الحق تعالى لهم مثلاً يشبه حالهم في الإفراط والغلو في الكفر وتكذيب الدعاة إلى الله، وهو حال أهل قرية أنطاكية شمال سورية على ساحل البحر المتوسط الذين كذبوا الرسل فدمرهم الله بصيحة واحدة، فإذا استمر المشركون على عنادهم واستكبارهم، كان إهلاكهم يسيراً كأهل هذه القرية، وتكون قصتهم مع رسل الله، كقصة قوم النبي ﷺ معه.

التفسير والبيان:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي واضرب مثلاً في الغلو والعناد والكفر يا محمد لقومك الذين كذبوك بأهل قرية أنطاكية، حين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل من أصحاب عيسى عليه السلام الحواريين فكذبوهم، كما كذبك قومك عناداً، وأصرّ الفريقان على التكذيب.

والقرية: أنطاكية في رأي جميع المفسرين، والمرسلون: أصحاب عيسى أرسلهم مقررين لشريعته، في رأي ابن عباس وكثير من المفسرين.

ثم بيّن عدد الرسل فقال:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي حين أرسلنا إليهم رسولين، أرسلهما عيسى عليه السلام بأمر الله تعالى، فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة، فأيدناهما وقويناهما برسول ثالث، فقالوا لأهل تلك القرية: إنا مرسلون إليكم من ربكم الذي خلقكم بأن تعبدوه وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة الأصنام.

وكان الرسولان الأولان يوحنا وبولُص، والرسول الثالث شمعون وقيل: إنه بولص.

فتمسكوا كغيرهم من الأمم بشبهة البشرية، كما حكى تعالى:

﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي قال أصحاب القرية للرسل الثلاثة: أنتم مثلنا بشر تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق، فمن أين لكم وجود مزية تختصون بها علينا، وتدّعون الرسالة؟ والله الرحمن لم ينزل إليكم رسالة ولا كتاباً مما تدّعون، ويدّعيه غيركم من الرسل وأتباعهم، وما أنتم فيما تدّعون الرسالة إلا كاذبون.

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ دليل على اعترافهم بوجود الله، لكنهم ينكرون الرسالة، ويعبدون الأصنام وسائل إلى الله تعالى.

وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦٤/٦] أي تعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٠].

فأجابهم الرسل:

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة

قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه، لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزُّنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار؟ كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٢].

ثم ذكر الرسلُ مهمتَهم:

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، ولا يجب علينا إلا تبليغ الرسالة بنحو واضح، فإذا استجبتم كانت لكم سعادة الدارين، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم.

فعند ذلك هددهم أهل القرية:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أي قال لهم أهل القرية: إنا تشاءمنا بكم، ولم نر خيراً في عيشنا على وجوهكم، فقد فرقتمونا وأوقعتم الخلاف فيما بيننا، ولئن لم تتركوا هذه الدعوة، وتعرضوا عن هذه المقالة، لنرجمنكم بالحجارة، وليصيبنكم منا عذاب مؤلم أو عقوبة شديدة. وقوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ بيان للرجم، يعني: ولا يكون الرجم رجماً قليلاً بحجر أو حجرين، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت، وهو عذاب أليم. ويرى بعضهم أن الواو بمعنى (أو) والمراد: إما أن نقتلكم أو نسجنكم ونعذبكم في السجون.

فأجابهم الرسل:

﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي قالت لهم رسلهم: شؤمكم مردود عليكم، وهو معكم ومنكم، فسبب الشؤم هو تكذيبكم وكفركم، لا نحن، أمن أجل تذكيركم وأمرنا إياكم بتوحيد الله

وإخلاص العبادة له، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم، وتوعدتمونا وهددتمونا؟ بل الحق أنكم قوم جاوزتم الحد في مخالفة الحق، وأسرفتم في الضلال، وتماديتم في الغي والعناد.

وهذا الموقف مشابه لموقف قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧/١٣١] ومماثل لموقف قوم صالح: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النمل: ٢٧/٤٧].

ثم أيدهم الله بنصير:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي وجاء رجل من أبعد أطراف المدينة يسرع المشي لما سمعَ بخبر الرسل، وهو حبيب النجار، فقال ناصحاً قومه: يا قوم، اتبعوا رسل الله الذين أتوكم لإنقاذكم من الضلال، وهم مخلصون لكم في دعوتهم، فلا يطلبون أجراً مالياً على إبلاغ الرسالة، وهم على منهج الحق والهداية فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

وأبان أنه يحب لهم ما يحب لنفسه:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾؟ أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني، وإليه المرجع والمآل يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي هذا ترغيب بعبادة الله وترهيب من عقابه، ثم أكد سلامة منهجه وتقريعهم على عبادة الأصنام، فقال تعالى:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ

شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾؟ هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، يراد به: لن أتخذ من دون الله آلهة، فأعبدها وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني وخلقني، فإنه إن أرادني الرحمن بسوء لم تنفعني شفاعة هذه الأصنام التي تعبدونها، ولا تخلصني من ورطة السوء، فإنها لا تملك من الأمر شيئاً؛ إذ إنها لا تملك دفع الضرر ولا منعه، ولا جلب النفع، ولا تنقذ أحداً مما هو فيه.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي إن اتخذت هذه الأصنام آلهة من دون الله، فإني في الحقيقة والواقع في خطأ واضح، وجهل فاضح، وانحراف عن الحق.

وهذا تعريض بهم، ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا شك فيه مخاطباً الرسل:

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أي إني صدقت بربكم الذي أرسلكم، فاشهدوا لي بذلك عنده.

روي عن ابن عباس وكعب ووهب رضي الله عنهم: أنه لما قال ذلك، وثبوا عليه وثبة رجل واحد، فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى مات رحمه الله.

وكان من حبّه لهدايتهم:

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي قال الله تكريماً له بعد قتله: ادخل الجنة، لاستشهادك في سبيل إعلان الحق، فدخلها وهو يرزق فيها، فلما عاين نعيمها قال: يا ليت قومي يعلمون بمآلي وحسن حالي وحميد عاقبتي، فيؤمنوا مثل إيماني، فيصيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم، وليتهم يعلمون بما أنعم الله عليَّ من مغفرة لذنوبي، وبما جعلني في زمرة المكرمين المقربين الشهداء الذين منحهم ربهم

الثواب الجزيل والفضل العميم. وهذا شأن المؤمن المخلص يحب الخير للناس جميعاً، قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشّاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لم يترك الله سبحانه في قرآنه سبيلاً لدعوة الناس إلى الإيمان الصحيح، سواء بالأدلة والبراهين، أو بإعمال الفكر والعقل، أو بالتأمل والمشاهدة، أو بضرب الأمثال، أو بذكر القصص للعظة والعبرة.

والمراد من بيان قصة أصحاب القرية: توضيح أن النبي ﷺ أمر بإنذار المشركين من قومه، حتى لا يحل بهم ما حلَّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل.

٢ - يكون الرسول عادةً من جنس المرسل إليهم، حتى لا يبادروا إلى الإعراض بحجة المغايرة والمخالفة، فتكون شبهة الكافرين ببشرية الرسل في غير محلها، وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس والاستعلاء والاستكبار فيما يبدو.

٣ - يؤكد الرسل عادة صدقهم بالمعجزات، وأما رسل عيسى فقد ذكروا للقوم معجزاته، وأقسموا بالله أنهم رسل الله الذين بعثهم عيسى بأمر ربه، وإن كذبوهم، لم يجدوا سبيلاً إلا التصريح بمهمتهم بالتحديد، وهي إبلاغ الرسالة، والإعلام الواضح في أن الله واحد لا شريك له.

٤ - لا يجد المرسل إليهم في العادة ذريعة بعد دحض حجتهم إلا ادِّعاء التشاؤم بالرسل. قال مقاتل في أصحاب القرية: حبس عنهم المطر ثلاث سنين، فقالوا: هذا بشؤمكم. ويقال: إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين.

٥ً - ثم إذا ضاق الأمر بهم يلجؤون عادة إلى التهديد والوعيد إما بالطرد والإبعاد من البلد، وإما بالقتل أو الرجم بالحجارة. قال الفراء في قوله: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل: لنشتمنكم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو إما القتل أي الرجم بالحجارة المتقدم، وإما التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب.

٦ً - إن الشؤم الحقيقي من أهل القرية وهو الشرك والكفر وتكذيب الرسل، وليس هو من شؤم المرسلين، ولا بسبب تذكيرهم ووعظهم، وإنما بسبب إسرافهم في الكفر، وتجاوزهم الحدّ، والمشرك يجاوز الحدّ.

٧ً - لا يعدم الحق في كل زمان أنصاراً له، وإن كانوا قلة، وكان أهل الباطل كثرة، فقد قيض الله مؤمناً من أهل القرية جاء يعدو مسرعاً لما سمع بخبر الرسل، وناقش قومه، ورغبهم وأرهبهم، ودعاهم إلى توحيد الله واتباع الرسل، وترك عبادة الأصنام، فإن الرسل على حق وهدى، لا يطلبون مالاً على تبليغ الرسالة، وهذا دليل إخلاصهم وعدم اتهامهم بمأرب دنيوي، والخالق هو الأحق بالعبادة، وهو الذي إليه المرجع والمآب، فيحاسب الخلائق على ما قدموا من خير أو شر.

أما الأصنام فلا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ولا تنقذ أحداً مما ألَمَّ به من البلاء، فمن عَبَدها بعدئذ فهو في خسران ظاهر.

٨ً - ثم صرح مؤمن القرية مخاطباً الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم، فليشهدوا له بالإيمان.

٩ً - لقد كان جزاؤه المرتقب من القوم بسبب تصلبه في الدين، وتشدده في إظهار الحق: القتل أو الموت الزؤام. وأما جزاؤه من الله فهو التكريم في جنان الخلد.

١٠ً - بالرغم من هذا الإيذاء والتعذيب أحبَّ هذا المؤمن، كشأن كل مؤمن، أن يبادر قومه إلى الإيمان بمثل ما آمن به، ليحظوا بما حظي به من النعيم والنجاة. قال ابن عباس: نصح قومه حيّاً وميتاً. وقال ابن أبي ليلى: سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصدِّيقون. وقد ذكره الزمخشري مرفوعاً عن رسول الله ﷺ.

١١ً - قال القرطبي: وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام[١].

تم الجزء الثاني والعشرين ولله الحمد

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٠

فهرس المجلد الحادي عشر

فهرس الجزء الحادي والعشرين

الموضوع — الصفحة

* * *

فهرس الجزء الثاني والعشرين

الموضوع	الصفحة

* * *